المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

شَواهدُ البَلاغِيين والنقاد من شِعرِ أبي تمامٍ في علمِ البيانِ حتى نهاية القرنِ الخامس

رسالة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير في اللُّغةِ العربية وآدابها تخصص
(البلاغة والنقد)

اعداد الطَّالب
سامي بن صالح يحيى الغامدي
الرَّقم الجامعي ٤٣٠٨٠١٤٣

إشراف الأستاذ الدّكتور
دخيل الله بن محمد الصحفي
أستاذُ البلاغةِ والنَّقدِ بجامعةِ أمِّ القرى

الفصل الأوَّل
١٤٣٤هـ / ١٤٣٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخَّصُ الرِّسَالَةِ

الحمدُ لله ربِ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبي بعده، أمَّا بعد.

فهذهِ الدِّراسةُ الَّتي عنوانها **"شواهدُ البلاغيين والنُّقاد من شعرِ أبي تمَّام في علمِ البيان حتَّى نهايةِ القرنِ الخامسِ"**، جاءت مرتبةً على أزمنَتِهم، فاحصةً لآرائِهِم ومذاهبِهِم تجاه شعر الطَّائي، واصفةً مواقفهم، وقضاياهم البلاغيةَ والنَّقديةَ المتَّصلة بالشَّواهِدِ، واخترتُ في ذلكَ **المنهجَ الاسْتقرائي التَّحليلِي**، وأقمتُ الدِّراسةَ على مقدِّمةٍ وتمهيدٍ وثلاثةِ فصولٍ وخاتمةٍ، ففي المقدِّمةِ تحدَّثتُ عن أهمِّيةِ الموضوعِ، ومشكلتِه، وأسبابِ اختيارِه، والدِّراساتِ السَّابقةِ، وخطَّتِه، وصعوباتِ الدِّراسة.

وجعلتُ **الفصلَ الأولَ** بعنوان: "شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"، وله أربعةُ مباحث، وفيه تعاطى الآمِدِيُّ وأبو هلال العسكري وابنُ رشيق القيرواني وعبدُ القَاهِر الجرجاني مسائلَ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ المقترنةَ بالشَّاهدِ.

والفصلَ الثَّاني بعنوان: "شواهد الاستِعَارة عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"، وله سبعةُ مباحث، وفيه تناولَ ابنُ المعتزِ والآمِدِيّ والقاضي الجرجاني وأبو هلال وابنُ رشيقٍ وابنُ سنان الخفاجي وعبدُ القَاهِر مسائلَ الاستعارةِ المتولِّدةَ من الشَّاهدِ، فبرزتْ الموازناتُ، وفضيلةُ تعدد تناول قضايا الاستعارة.

والفصلَ الثَّالث بعنوان: "شواهد الكناية عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"، وله ثلاثةُ مباحث، وكان أبو هلال وابنُ سنان وعبدُ القَاهِر مستدلين على مسائلِ الفصلِ بتلك الشَّواهد.

وفي **الخاتمةِ** تناولتُ أهمَّ النَّتائجِ التي توصَّلتْ إليها الدِّراسةُ؛ ومنها أنَّ المذهبَ البلاغي والنَّقدي عندهم في المسألةِ البيانيةِ مرتبطٌ بشعرِ أبي تمَّام، فتولَّدت الخصائصُ، والقضايا البيانية، والمسائلُ النَّقديةُ، والتحليلاتُ الفنية من رحمِ تلك الشَّواهد، وأصبحَ فضفاضًا بمسائلِ البيانِ، وغير ذلك من النَّتائجِ الأخرى والجزئيةِ، ثم وضعتُ ثبتًا للمصادِرِ والمراجِعِ، وفهرسًا لموضوعاتِ الدِّراسةِ.

Abstract

This study is entitled ***{The Citations of Critics and Rhetoric Writers from The Poetry of Abi Tamam in Rhetoric up to the end of Fifth Century}.*** The study is ordered according to their times, and studied their opinions and trends towards Al-Ta'ie poetry. Also, it describes their attitudes, rhetorical and critical issues, which are related to the citations. The study used the inductive analytical approach.

The study consists of an introduction, preface, three chapters and a conclusion. As for the introduction, it has the importance of the theme, its problem, reasons of its selection, the previous studies, the study plan and its difficulties. As for the first chapter, it is entitled with "Citations of simile and exemplification with critics and Rhetoric Writers from Abi Tamam Poetry". It has four searches; Al-Amadi, Abo Helal Al-Askari, Ibn Rasheeq Al-Qairawani, and Abdul Qahir Al-Jirjani. As for the second chapter, it is entitled with "Citations of metaphors with critics and Rhetoric Writers from Abi Tamam poetry". It has seven searches, in which Ibn Al-Mu'taz, Al-Amadi, Al-Qadi Al-Jerjani, Abo Helal, Ibn Rasheeq, Ibn Senan Al-Khafaji and Abdul Qahir delath with metaphors that resulted from citation. As for the third chapter, it is entitled "Citations of metonymy with critics and Rhetoric Writers from Abi Tamam poetry". It has three searches, in which Abo Helal, Ibn Sinan and Abdul Qahir concluded the themes of the chapter with these citations.

Finally, the conclusion has the most important results of the study, from which is that the rhetorical and critical trend is linked with the poetry of Abi Tamam. Therefore, rhetorical features and characteristics, critical issues and technical analyses have been generated from these citations. So, it is rich with the rhetorical issues. At the end, there is a list with resources, references and index to the study.

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والدي
الكريمين غفر الله لهما ولجميع المسلمين

(رب ارحمهما كما ربياني صغيراً)

شكرٌ وتقديرٌ

لجامعة أم القرى، ولكلية اللغة العربية وخاصة
الدراسات العليا ولعلمائها الأفذاذ وأساتذتها
المحترمين وللدكتور المقرر والمشرف على
هذه الدَّراسة ولأساتذتي المناقشين

فأنتم من بذرتم... فجزاكم الله عن الاسلام
والمسلمين خير الجزاء

المقدِّمة:

الحمد لله رب العالمين، الَّذي أنزل كتابه المحكَم المبين، والصَّلاة والسَّلام على أفضل العرب لهجة، وأصدقهم محجَّة، وعلى آله، وصحبه، ومَن سار على نهجهم إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعد.

فإنَّ شرف اللُّغة العربية يرتقي بخدمة كتابها المقدَّس؛وهو القرآن فصاحةً وبيانًا، فأضحت سيِّدة اللُّغات أجمعين، وبها ارتقى البيان العربي؛ ليكون أشبَه بالسِّحر، كما قال النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "إنَّ من البيانِ لسحرًا"[1]، فعلم البيان؛ الأوسط من فنون البلاغة؛ يُبحَث به كيفيات أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة، فمرةً يؤدِّيه بالتَّشبيه والتَّمثيل، ومرةً بالمجاز على اختلاف أنواعه: لغوي ومرسل أو حكمي، ومرةً يؤدِّيه بالكناية، وكل ذلك في وضوح الدِّلالة، وهذه الأجناس الثَّلاثة سترافق هذه الدِّراسة؛ لإبراز الجانب الجمالي، والصُّورة البيانية الحيَّة في شواهد الطَّائي.

وإلى جانب ذلك، فإنَّ من مهمَّات هذه الدِّراسة استشهاد البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام، صاحب الأسلوب الغريب، والذَّوق المتميِّز في استعاراته، والصَّنْعَة في معانيه، فقد تناولوا تلك الشَّواهِد الشِّعْرية بأفكارهم النَّقدية المختلفة، دلالةً على غرض بلاغي، وانفرد كل واحد بخصائص وأحكام، ومنهج نقدي في عصور متباينة، ممَّا يتيح إحداث علاقة تآخي ومشاكلة بين هذه القرون، والعقول المتعاقبة، للإفادة منهم، واستخلاص الرُّؤية الفكرية، والمذهب النَّقدي تجاه الشَّاهِد البياني، وتلمُّس الظَّواهر البيانية من تحليلاتهم البلاغية والنَّقدية، ممَّا يُحقِّقُ الأهداف المرجوَّة تفسيرًا وتقويمًا في هذا البحث.

---

(١) "صحيح البخاري"، محمد بن إسماعيل البخاري، (١٩٧٦/٥)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، النَّاشِر: دار ابن كثير، بيروت الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

أهمِّية الموضوع:

تعتبر الأبحاث والدِّراسات العِلْمِية المتخصِّصة من الأهمِّية بمكان، لما يُحقِّقُه الباحثون من إضافات مبتكرة، كاشفين عن مواطن الضَّعف، واصفين المسلك القويم، فتجعل الباحث أكثر تركيزًا، إذا أمعَن النَّظر، ودقَّق، وتبصَّر، وحلَّل، وكل ذلك لتخرج المعالجات العِلْمِية في صورة نتائج متوقَّعة مجملة ومفصَّلة.

لذلك لفت انتباهي أستاذي القدير العلاَّمة الدُّكْتُور/ دخيل الله بن محمد الصَّحفي إلى ظاهرة بارزة، هي: استشهاد البلاغيين والنُّقادمن شعر أبي تمَّام في علم البيان، وما تثيره تلك الظاهرة من قضايا متوقَّعة، سواءً كان ذلك في الدَّرس البلاغي أو النَّقدي، ومن تلك القضايا:

- التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر والاستِعَارة، وكلُّها تخرج من مشكاة المجاز، هذا ما قرَّره بعض البلاغيين والنُّقاد، واستكناه الصحة من ذلك له وجاهته.
- تجانُس الاستِعَارة في "أسْرَار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وأن هناك رابطًا بينهما، حسب ما تتطلَّب الشَّواهِد، وأن عبد القَاهِر له رأي خاص في شعر أبي تمَّام.
- الموازنات الشِّعْرية بين شعر الطَّائي وغيره منهجية متزامنة لجميع البلاغيين والنُّقاد.
- مواقف البلاغيين من شواهد أبي تمَّام تُحدِث إرباكًا وتوليدًا لقضايا شائكة؛ أكان ذلك في الدَّرس البلاغي أم في الدَّرس النَّقدي؟ وغيرها من القضايا.

حينها استعنت بالله العلَّيم، وتوجَّهت النيَّةُ، أن يكون موضوع رسالتي للماجستير هو:

"شواهدُ البلاغيين والنُّقاد من شعرِ أبي تمَّام في علمِ البيان حتى نهاية القرن الخامس".

وعلى هذا الأساس، قمت باستشارة مُشرفي الأستاذ الدُّكْتُور / دخيل الله الصحفي، الَّذي لم يألُ جهدًا في نصحي وإرشادي، فحثَّني ودفعني للخوض في مثل هذه الدِّراسة العميقة التي ستأخذ مني جهدًا ليس بالهيِّن، فجزاه الله عني كل خير، وأسبغ عليه ثوب الصحة والعافية.

فعِلم البيان، وفكر المتناولين لشواهد أبي تمَّام ستجهز على يد الباحث، لولا توفيق الله تعالى، فاسْتخرتُ ربي، وشمَّرتُ عن ساعدي الجد مستعينًا بالله تعالى، طالبًا منه العون والتوفيق والسَّداد، وأسأل الله تعالى أن تكون هذه الدِّراسة لبنةً في جدار الحركة البلاغية والنَّقدية، وفاتحة توفيق لحقيقةِ ما لقيمة شواهد أبي تمَّام عند البلاغيين والنُّقاد من منزلة وخصوصيِّة، فعليها أُسِّست المسائل، وبُنِيت القضايا في ظل تلك الشَّواهِد، كل ذلك بالتقاط معاقد فوائدها ومقاصد فرائدها.

مشكلة البحث:

صاغ الدَّارس هذا البحث للإجابة عن التَّساؤلات التَّالية:

- ما العَلَاقة بين المسائل المتشابهة؛ كالفرق بين التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر، وهل فرَّق البلاغيون والنُّقاد بينها؟
- هل هناك علاقة بين الظَّواهر البلاغية وشواهد أبي تمَّام الشِّعْرية ؟
- كيف حلَّلَّ وفسرَّ وعلَّلَّ بعضُ البلاغيين والنُّقاد، بأن التَّشبيه والاستِعَارة والتَّمثيل والمثل السَّائِر داخل في عموم المجاز، وهل كان لها ارتباط بالشواهد، نظرات ومقاربات فكرية تحتاج إلى نوع من الوقوف العِلْمِي؛ لسبر أغوار تلك القضايا المتداخلة؟
- هل رفْضُ بعض البلاغيين والنُّقاد كالآمِدِيّ مثلاً شعر أبي تمَّام في باب الاستِعَارة، استجابةً لما يتطلّبُه محيطهم الاجتماعي والثقافي والمعرفي، فنحى الشَّاهِد البلاغي طريق الشَّاهِد النحوي، الَّذي مناطه القياس على كلام العرب، فلا إبداع ولا جمال، أم أنَّ الأمر خلاف ذلك؟
- إذا كان عبد القَاهِر قد ألَّف "أسْرَار البلاغة"، ثم ألَّف "دلائل الإعجاز"، وكلُ كتابٍ في بابه المتعلِّق به من بيان ومعان، فلماذا شعَّث الاستِعَارة في الكتابيْن، وكأنَّ كل واحدة قسيمة للأخرى؟ وماذا عن الموازنة بين الكتابيْن في باب الاستِعَارة؟ وكيف يتمّ لملمة نظراته النَّقدية الفاحصة تجاه شعر الشاعر التي بثَّها في كتابيه؟

- كيف يتمُّ تصنيف انتقادات البلاغيين والنُّقاد حول الشَّواهِد وتوجيهها؟
- كيف تولَّدت القضايا بعضها من بعض في علم البيان من رحِم شواهد أبي تمَّام؟ وكيف تطوَّرت وتوحَّدت المصطلحات البلاغية والنَّقدية؟ وهل انسجمت شواهد أبي تمَّام مع نظريات البلاغيين ومسائلهم المتعلّقة بعلم البيان، أم كان الأمر خلاف ذلك؟
- هل هناك علاقة قوية بين المذاهب البلاغية والنَّقدية وشواهد أبي تمَّام الشِّعْرية؟ وكيف يتم تحليل وتفسير وتعليل تلك المذاهب،وفقًا لمرادهم من الشَّواهِد، كما هو الحال عند ابن المعتز والآمِدِيّ والصُّولي والقاضي الجرجاني وغيرهم؟ وماذا عن نقاط الاتفاق والاختلاف بينها؟
- هل اختيار شعر أبي تمَّام نموذجٌ لشاهد بلاغي هدفه زيادة إيضاح وبيان، أم أنَّ هناك عمقَ فكرٍ وخصوصيةً بُنيت عليها مسائل بلاغية عريضة؟
- هل الموازنات الشِّعْرية النَّقدية، متوقِّفة على شعر أبي تمَّام مع البُحْتَري فحسب، أم امتدت لتوازن بين شعره وشعر غير البُحْتَري؟
- ماذا عن المطارحات الفكْرية في مسألة التخيلية عند عبد القَاهِر، عندما استشهد بشعر أبي تمَّام، وقفات تستلزم من الدَّارس إمعان النَّظر؟
- هل ارتبطت الكناية بنوعيها بشاهد الطَّائي؟ وما الَّذي قدَّمه الشَّيخ عبد القَاهِر للأمَّة البلاغية في هذه المسألة؟

هذا ما سيتمُّ –بحول الله– عرضه ودراسته وتحليله في هذه الدِّراسة العميقة.

مادة الدِّراسة وطبيعة اختيارها:

هذه الدِّراسة تتمركز من النَّاحية النَّظرية المعرفية والإبداعية حول استشهاد البلاغيين بشعر هذا الشاعر؛ لإقامة قضايا بلاغية أثاروها، ويقف الباحث على استجلاء واستنباط وتحليل تلك المواقف البلاغية، فلكلٍ منهم رأي يتجلَّى من خلال مؤشِّرات قلمه، وهذا لا يكون إلاَّ باستخلاص الموقف المعلَّل، والرأي المفسرّ، وما في

تلك الرؤى من لطائف، وخصائص، ومزايا، تُدرك بالرَّوية والبصيرة، والاستنباط والاجتهاد، وعلى ذلك، ستكون هذه الدِّراسة –إن شاء الله– مركَّزة على عِدَّة أعلام من البلاغيين والنُّقاد، وهم:

- عبد الله ابن المعتز (ت:٢٩٦هـ) في كتابه "البديع".
- الحسن بن بشر الآمِدِيّ (ت:٣٧٠ هـ) في كتابه "الموازنة".
- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت:٣٩٢هـ) في كتابه "الوساطة".
- أبو هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ) في كتابه "الصناعتيْن".
- ابن رشيق القيرواني (ت:٤٦٣هـ) في كتابه "العمدة".
- ابن سنان الخفاجي (ت:٤٦٦هـ) في كتابه "سرّ الفصاحة".
- عبد القَاهِر الجرجاني(ت:٤٧١هـ) في كتابيْه "أسْرَار البلاغة"و"دلائل الإعجاز".

وجاءت هذه الدِّراسة مرتَّبة على أزمنتهم، فاحصة آراءهم ومذاهبهم تجاه استشْهاداتهم من شعر الطَّائي، واصفة مواقفهم، ومذاهبهم، وقضاياهم البلاغية والنَّقدية المتَّصلة بالشَّاهِد.

ثُمَّ؛ لقد ارتبطت هذه الدِّراسة قلبًا وقالبًا بعبد القَاهِر الجرجاني؛ الَّذي يُعتبر مفترَق طرق، وتحوُّلاً جذريًا لجميع البلاغيين والنُّقاد، فعبد القَاهِر الَّذي أسَّس القواعد كالجبال الرَّاسية، كان العُلماء قبله يفتقرون إلى تأصيله، وكذلك مَن جاء بعده، فهم عالَّةٌ عليه، ويغرفون من بحره، لذا كان لزامًا على الدَّارس أن يقرن هذه الدِّراسة به، فهو معقِد الأمل، وصمَّام الأمان لكل دراسة بلاغية، وأساسٌ يُتكؤُ على كلامه، حتى ظهرت مدرسة الشَّيخ محمود شاكر –رحمه الله– وسلسلة تلاميذه العظام؛ كالشَّيخ محمد محمد أبو موسى وطلابه، أضاءت للهادي الطَّريق، والتُمس منهم الذَّوق الَّذي عاش عبد القَاهِر ليؤسِّسه، فرجعت الأمَّة البلاغية إلى كتابيْ الشَّيخ لترتقي، وتصل إلى معرفة النَّظم، وهو الإعجاز، "...فهو، كما ترى، مرتقًى عويص الجانب، متشعِّب المذاهب، سالكُه سار على غَرَر، فمَن رام التوغُّل فيه بلا موهبةٍ أُوتيها، وبلا عدّة هيَّأها، وبلا ورع

يُكفكف من جرأته وتهوُّره، بلغ الغاية في الإساءة، وشمخ عليه الشِّعْر، ولن يأمن أن تزلَّ به قدَم إلى مهوى بعيد القرار"[١].

المنهج المقترح للبحث:

منهج هذه الدِّراسة لا يكون إلا المنهج الاستقرائي التَّحليلي، وذلك بـ:

- استقراء الشَّواهِد وتحديدها .
- تحليل طبيعة الاهتمام بها.

وهو المنهج الَّذي يعتمد الاستقراء أداة للبحث، وبالاستقراء يصل العُلماء الى القضايا العامة، وله مراحل هي:

أ – الملاحظة والتَّعريف.

ب– جمع الأمثلة والموازنة بينها.

ج– وضع النَّتائج وتدعيم الملاحظة بالقاعِدة[٢].

يقول الدُّكْتُور شوقي ضيف:" والاستقراء بحقٍّ عماد البحث الأدبي وقوامه"[٣]،وإذا تقرَّر ذلك، فإنه" لا يمكن لدارِسٍ أو ناقدٍ أن يُصدِر حكمًا على شاعر ما دون الرجوع إلى شِعْرِه كلِّه أو إلى معظمه،يفحصه ويدوِّن ملاحظاته الجزئية على كل بيت أو قصيدة ثم يصل إلى أحكام دقيقة"[٤]. والتَّحليل لغةً مأخوذ من حلَّ العقدة يَحُلُّها حلاًّ: فتحها ونقضها فانحَلَّت[٥]، والمقصود به هنا تحليل مراد البلاغيين والنُّقاد،

(١) "نمط صعب ونمط مخيف": ١٣٩، محمود شاكر، النَّاشِر : مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الأول ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.

(٢) ينظر:" أصول البحث العلمي ومناهجه"، لأحمد بدر، (ص:٣٣)، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة السابعة، ١٩٨٤م.

(٣) "البحث الأدبي"، شوقي ضيف، (ص:٣٨)، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٧٢م.

(٤) "النقد التطبيقي عند العرب في القرنين الرابع والخامس الهجريين"، (ص:٢٧٩–٢٨٠)، أحمد محمد نتُّوف، دار النوادر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

(٥) ينظر: "لسان العرب"، لابن منظور، مادة: (حلل)، (١٦٣/١١)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ٢٠٠٤م.

وسبر أغوار آثارهم، واستكشاف آرائهم في ظلال استشهادهم بالنصّ الشِّعْري للشاعر، القائم على تلك المسائل البلاغية والنَّقدية.

الأسباب التي دفعتني لهذه الدِّراسة:

أولاً: التعرُّف على حصيلة القضايا التي أُثيرت في باب التَّشبيه وباب الاستِعَارة وباب الكناية جرَّاء تلك الشَّواهِد المثيرة، والمناقشات، والموازنات، والرؤى التي تهزُّ العقول، وتبعث في النَّفس التَّطلُّع لما وراءها، خاصَّة إذا كان باعثها كبار البلاغيين والنُّقاد على مدى ثلاثة قرون متعاقبة.

ثانيًا: أنَّ علم البيان يحوي باب المجاز، الَّذي قال عنه السِّيوطي -رحمه الله-: " لو سقط المجاز من القرآن، سقط منه شطر الحسن"[(١)]، فالمجاز فيه حسن لا يدركه إلاَّ أصحاب الذائقة الرفيعة، والَّذين يتنفَّسون اللُّغة وما فيها من صور صالحة لكل الاحتمالات الواردة عليه، فالمثال قد يكون استِعَارة تصريحية بإجراء معيَّن، ويكون استِعَارة مكنية بإجراء آخر، في وضوح الدِّلالة.

ثالثًا: السَّير بالزَّمن مع كوكبة علماء البلاغة والنَّقد الأجلَّاء، عاشوا في أحقاب متغايرة، تتطوَّر مصطلحاتهم، وتضيق وتتَّسع أحيانًا؛ لإفادة غرض ما.

رابعًا: العناية بالعناصر الأساسية الموحَّدة (التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر)، يُمكن مزجها في قالب واحد من تلك القوالب، ففي أقلِّ أحوالها، تدلُّ جدلاً على اثنيْن منها.

خامسًا: البحث عن سرّ اضطراب الشُّرَّاح والبلاغيين والنُّقاد في الحكم على شعر أبي تمَّام، فبين مؤيّد ومُنكِر لشعره، فالمعاني تقوى عند بعضهم وتهبط عند الآخَر!، فالقضايا المحورية التي سجَّلها البلاغيون والنُّقاد تجاه شواهد أبي تمَّام في علم البيان هي ميناء الباحث، وعليها المعوَّل في إثارة المواقف والقضايا الشائكة، لأن" مذهب أبي تمَّام في الشِّعْر كان يقوم على كثير من الفنون البلاغية"[(٢)].

---

(١) "الإتقان في علوم القرآن جلال الدِّين السّيوطي"، (٣٦/٢)، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

(٢) "البلاغة المُفْترى عليها بين الأصالة والتبعية"، فضل حسن عباس، (ص:١٣٠)، دار النفائس، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

الدِّراسات السَّابقة:

الدِّراسات المتخصِّصة السَّابقة لهذا العنوان يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، هي:

- شواهد شعرية.
- علم البيان.
- أبو تمَّام وشعره وحماسته.

أولاً: الدِّراسات السَّابقة للشَّواهد الشِّعْرية كثيرة جدًّا، ولا يمكن حصرها، فهي تختلف باختلاف الدَّرس المعنيِّ بها، وقد تكون من شعر أبي تمَّام، ولكنَّها في غير الدَّرس البلاغي، فمن تلك:

- "الشَّواهِد الشِّعْرية حول الاستِعَارة في النَّقد الأدبي القديم إلى أواخر القرن الخامس الهجري": مقاربة سيميائية، لعبد الرحمن الغليوني، جامعة محمد الخامس، الرباط، ماجستير.
- "الشَّواهِد الشِّعْرية في كتاب دلائل الإعجاز للشيخ عبد القَاهِر الجرجاني"– توثيق وتحليل ونقد – نجاح أحمد الظهار جامعة أم القرى، دكتوراه، ١٤٠٨ هـ.
- "شواهد النَّحو في حماسة أبي تمَّام"، للباحث: محمود محمد علي أبو الروس، جامعة الأزهر – دكتوراه – المناقشة ١٩٧٣ م.
- وغيرها، فالشَّواهِد الشِّعْرية تدخل في دراسة أيِّ فن، في النَّحو والصَّرف والبلاغة أو التَّفسير....

ثانيًا: الدِّراسات السَّابقة في علم البيان؛ كالصَّحراء المترامية الأطراف كثرةً وكتابةً، وأحسب أنَّ المتأخِّرين، انشغلوا في تأليف العلوم الثَّلاثة،-علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع- حتى تجاوزت مئة مصنَّفٍ؛ كعبد الفتاح لاشين، وعبد العزيز عتيق، وفضل حسن عباس... وغيرهم.

ثالثًا: الدِّراسات السَّابقة لأبي تمَّام، تدور حول ثلاثة محاور:

شخصه وحماسته وديوانه أو شعره، أو مع بعضها البعض؛ أي (حماسة أبي تمَّام) أو في (شعر أبي تمَّام) وهي:

١- أبو تمَّام: دراسة فكر الشَّاعر أو شاعريته أو إضافة الدراسات إليه، وعلى ذلك فالدِّراسات التي تناولت شخص أبي تمَّام لا تتقاطع مع هذه الدِّراسة قربًا أو بعدًا؛ لأنَّني لا أدرس حياة أبي تمَّام، ولا مذهبه العقدي، ولا حياته الاجتماعية، والفكرية، والثقافية، وعلى كل حال؛ فمن تلك الدِّراسات:

- "عبقرية أبي تمَّام — "عبد العزيز سيد الأهل- دار العِلم للملايين — بيروت.
- "الشَّاعر أبو تمَّام- دراسة نفسية- -"محمد عطا- دار الفكر-بيروت.
- "أبو تمَّام ثقافته من خلال شعره-"ابتسام مرهون الصفار، كتاب الجماهير وزارة الإعلام العراقية — بغداد.
- "أبو تمَّام بين ناقديه قديمًا وحديثًا"— دراسة نقدية لمواقف الخصوم والأنصار — للدكتور عبد الله بن حمد محارب وغيرها....

٢- حماسته: وذلك بالشَّرح والتَّهذيب، أو إضافة الدِّراسات إليها، وهذه كذلك لا علاقة لها بدراستي قربًا أو بعدًا، فلا وصال للباحث بحماسة أبي تمَّام، ومن تلك الدِّراسات:

- "نظام الجملة في شعر الحماسة من حماسة أبي تمَّام"، للباحث: علي جمعة عثمان، ماجستير، أم القرى، ١٤٠٦ هـ ؛ وغيرها من الدراسات.

٣- ديوانه أو (شعره) : وذلك بالشَّرح والتَّهذيب، أو إضافة الدِّراسات إليه، وتناولت في معظمها الصُّورة الفنية في شعره، أو أُضيف إليه دراسة بلاغية أو نحوية، أو نقدية، وهذه الفلاة ينقطع فيها السَّائح، ومن تلك:

- "مراثي أبي تمَّام"- دراسة بلاغية نقدية-نايف بن رشدان المطيري (ماجستير) كلية اللُّغة العربية جامعة الإمام- قسم البلاغة والنَّقد ومنهج الأدب الإسلامي.
- "نحو مُعالجة جَديدة للصّورة الشِّعْرية أنماط الصُّورة في شعر أبي تمَّام"،د.فهد عكام.

- "وحشيات أبي تمَّام "– دراسة–: محمد كمال.
- "الفنُّ والصَّنْعَة في مذهب أبي تمَّام"–محمود الربداوي.
- "الإنسان والتَّاريخ في شعر أبي تمَّام "، أسعد أحمد علي، دار النعمان، بيروت.
- وغيرها من تلك البحوث التي لا تمتّ لدراستي بصلة.

ولم أغفل عن الدراسات النَّقدية، فدراسة الباحث معنيَّة بالجانب الآخر؛ أي النَّقدي– من ذلك:

- "الخصومات البلاغية والنَّقدية في صنعة أبي تمَّام"، للدكتور عبد الفتاح لاشين.
- "وجه الشِّعْر مآخذ النُّقاد على معاني أبي تمَّام"– دراسة نقدية – عبدالله بن صالح الوشمي (دكتوراه)، فهذه دراسة في معاني شعر أبي تمَّام.
- "القضايا النَّقدية في اختيارات أبى تمَّام": دراسة وموازنة/ عبد الفتاح علي عفيفي ؛ المنوفية: جامعة الأزهر –كلية اللُّغة العربية – قسم الأدب والنَّقد، ٢٠٠٠.– رسالة دكتوراه.
- "الحركة النَّقدية حول مذهب أبي تمَّام"–محمود الربداوي. وغيرها....

على أن بعض الدِّراسات لم يتسنَّ للباحث الاطِّلاع عليها؛ لعدم توفرها في المكتبات أو على محرِّكات البحث، والدَّارس لم يألُ جهدًا في البحث عنها، ولكن لم يتيسرّ له.

–وأمَّا دراسة "شواهد البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام في علم البيان حتى نهاية القرن الخامس"، فمن خلال سؤال الأساتذة والمخْتصِّين، وزيارة المكتبات الخاصَّة والعامَّة، لم أجد مَن تطرَّق لهذه الشَّواهِد بالدِّراسة. والحقُّ أنني لا أعرف دراسة سابقة لهذا الموضوع بهذا التَّحْدِيد، ولكن هناك بعض الدِّراسات التي تتَّصل به بسبب أو بآخر، وقد قدِّر

لي الاطلاع على بعضها،ولعلَّ من أقرب تلك الدِّراسات وألصقها بالبحث في بعض جزئياته:

- "الخصومات البلاغية والنَّقدية في صنعة أبي تمَّام" فقط، للدكتور عبد الفتاح لاشين، فتلك الدِّراسة تقترب من هذه في جوانب بسيطة، من ذكر الشَّواهِد التي عوَّل عليها الخصوم تحديدًا، وذكر التَّشبيه والاستِعَارة لا على أنها دراسة في عُمق علم البيان، بل جاءت عرضًا لأنها من جملة المآخذ على أبي تمَّام، وهي قاصرة عن تحقيق ما يطمح إليه الباحث في هذه الدِّراسة من التعمُّق البياني والنَّقدي خلف تلك القضايا، فهي تفترق عنها من عِدَّة أوجه:

الوجه الأوَّل: هذه الدِّراسة تتناول جميع شواهد البلاغيين والنُّقاد التي عليها خصومة ومناصروه، أمَّا دراسة الدُّكْتُور لاشين، فقد تناولت الأبيات الشِّعْرية التي قامت حولها الخصومة فقط، وعلى ذلك فدراسة الباحث أشمل وأكمل.

الوجه الثَّاني: منهج هذه الدِّراسة هو المنهج الاستقرائي التَّحليلي، أمَّا منهج دراسة الدُّكْتُور لاشين، فهو منهج التَّحليل والموازنة، مجتهدًا في التفسير والاستنتاج.

الوجه الثَّالث: هذه الدِّراسة تستوفي علم البيان وجميع قضاياه المثارة – عرضًا ودراسةً ورصدًا وإحصاءً وتحليلاً – والوقوف خلف غايات الاستشهاد وأهدافه، أمَّا دراسة الدُّكْتُور لاشين، فقد تعرَّضت للتَّشبِيه والاستِعَارة– دون الكناية– والبديع، وسرّقاته عرضًا موجزًا، دون ذكرٍ منه للقضايا التفصيلية ولا الغايات من الاستشهاد.

الوجه الرَّابع: هذه الدِّراسة تعتمد على علم البيان والغاية من الاستشهاد من شعر أبي تمَّام، وتعتمد على صنعة أبي تمَّام في بثّ روح الخصومة البلاغية والنَّقدية.

الوجه الخامس: هذه الدِّراسة مركّزة على عِدَّة أعلام بلاغيين ونقَّاد في مباحث محدَّدة، وتلك تستطرد القول وتذكر أعلامًا كُثُر، من بلاغيين ونقَّاد ولغويين وأدباء ونحويين.

وغيرها من الفروق كالمطالعات في تطوُّر المصطلحات، والفرق بين التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر عند البلاغيين والنُّقاد، والفرق بين التَّشبيه التَّمثيلي وغير التَّمثيلي وغيرها.

أهداف الدِّراسة:

أهداف الأبحاث البلاغية والنَّقدية بشكل عام تصبُّ في حوض واحد، ولكن الأهداف الخاصَّة تختلف وتتفاوت بتفاوُت الموضوعات والأبواب، أمَّا هذه الدِّراسة، فهي خاصَّة في"علم البيان"مستدلَّة بـ "شواهد البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"، فمن أهدافها:

- حصر القول في التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر؛للوقوف على ما بين هذه العناصر من الفروق الدقيقة في ظل هذه الشَّواهِد.
- المراجعات العِلْمِية، بالوقوف على بعض المسائل البلاغية والنَّقدية، وتطوُّر المصطلحات مع ما ترفده تلك الشَّواهِد.
- دراسة شواهد استِعَارة أبي تمَّام عند العُلماء،وإبانة مذهب عبد القَاهِر في طريقة الشَّاعر.
- تصنيف معالم الاستشهاد من شعر أبي تمَّام، وهي على أقسام:
  - بعض الشَّواهِد استفاض كلام البلاغيين والنُّقاد عنها حسنًا، وأجمعوا على تفرُّد أبي تمَّام بالمعاني، فاستحسنوها، ولم تستطع قاعِدَّة عمود الشِّعْر ردَّها، وهذه مندوحة مباركة.
  - ومنها ما أجمع العُلماء على قبحها، واستهجانها،بل وخرَّقوا أوراقهم لغثاثتها، وهذه محطَّة للباحثِ أن يقف ويناقش عن سبب هذا الردَّ، فالمجال هنا مستفيض.
  - ومنها ما كان محلّ نظر من البلاغيين والنُّقاد، فبعضهم استحسن شعره وبعضهم استهجنه، فالباحث سيجتهد للتَّرجيح بين أقوال العُلماء على حسب الحال التي عليها الشَّاهِد.

- ومنها ما تركه البلاغيون والنُّقاد دون التَّنويه إليه بشرحٍ أو حكمٍ،فحينها سيفتِّش الباحث مجتهدًا عن تلك الخصوصيات التي ينمُّ عنها ذلك الشَّاهِد لإبراز القضية البيانية.
- بعض البلاغيين والنُّقاد تفرَّد بشواهد معينة لأبي تمَّام، فالنَّظر فيها سيكون على حسب حال ذلك الموقف الَّذي اتخذه البلاغي إزاء ذلك الشَّاهِد.
- ذكر البلاغيون والنُّقاد شواهد قليلة من شعر أبي تمَّام في باب الكناية في هذه القرون، ومن هؤلاء البلاغيين: أبو هلال، وابن سنان، والشَّيخ عبد القَاهِر، وسيكون هذا الفصل أقصر الفصول لندرة الشَّواهِد.
- لا شواهد لابن المعتز والقاضي الجرجاني وابن سنان في باب التَّشبيه من شعر أبي تمَّام، وعلى هذا، فالدِّراسة لا تحتاج إفرادهم بمبحث خاص في التَّشبيه.
- لا شواهد للبلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام في المجاز المرسل، ليس إلى القرن الخامس فحسب، بل وحتى القرن السابع.
- ومع هذا كلِّه، فإن الدَّارس لن يغفل عن إنْعام النَّظر في بعض كتب البلاغيين والنُّقاد غير المعنيين بالدِّراسة، في إطار القرون المحدَّدة الَّذين احتوى تصنيفهم آراءً في علم البيان خاصَّة، ولن يغفل كذلك عن آراء غير البلاغيين؛ كالصُّولي مثلاً في أخبار أبي تمَّام وفي شرحه، وبعض النُّقاد الَّذين لم تُحدَّد لهم شواهد من أبي تمَّام في سياق علم البيان، حتى يخرج البحث –إن شاء الله– في صورة مستوفية مرضية.

خُطَّة الدِّراسة:

أقمت البحث على مقدِّمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

ففي المقدَّمة تحدَّثت عن أهمية الموضوع، ومشكلته، وأسباب اختياره، والدِّراسات السابقة، وخطَّتِه، وصعوبات الدِّراسة، وكيفية التَّغلُّب عليها.

أمَّا التَّمهيد، فأقمته على ضربيْن بإيجاز:

أولًا: أهمِّية الشَّاهِد الشِّعْري عند البلاغيين والنُّقاد.

تحدَّثت فيه عن بيان المعنى الدلالي لكلمة (شاهد) في اللُّغة والاصطلاح، ثم التفتُّ إلى الفرق بين الشَّاهِد البلاغي والشَّاهِد النحوي، ثم أبنْت عن الهدف الأغلب من الشَّاهِد الشِّعْري، ثم أشرتُ إلى قيمة الشَّواهِد الشِّعْرية عند البلاغيين والنُّقاد بإيجاز.

ثانيًا: قيمة شواهد أبي تمَّام التي دفعت البلاغيين والنُّقاد للاستشهاد بها.

فتحدَّثت عن ارتفاع المذهب البديعي عند أبي تمَّام واهتمَّامه به، ثم بيَّنت أن الاستِعَارة منهجيةٌ متزامنةٌ مع شاعريته، وأن قطعَ الشَّاهِد الشِّعْري البلاغي عن سياقه العاميُ حدِث وضوحًا من جهة وغموضًا من ناحية أُخرى، ثم أوجزتُ موقف البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام بانحصاره بين التَّذوق الذاتي والمقياس النَّقدي.

فأما الفصل الأوَّل، فعنوانه: "شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"، ووضعت له أربعة مباحث:

- المبحث الأول: " شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند الحسن بن بشر الآمِدِيّ".
  - المطلب الأوَّل: "تشبيه جود الجواد بالسَّحاب والغيث والأنواء".
  - المطلب الثَّاني: "تشبيه جود الجواد بالبحر".
  - المطلب الثَّالث: "تشبيه الأبطال بالسِّباع".
  - المطلب الرَّابع: "رؤية الآمِدِيّ الفكرية في موازنته وفي تشبيهات أبي تمَّام".
- المبحث الثَّاني: " شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند أبي هلال العسْكري".
  - المطلب الأوَّل: "شاهد على تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر".
  - المطلب الثَّاني: "شاهد على التَّشبيه البعيد وبروده".
  - المطلب الثَّالث: "رؤية أبي هلال الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام".
- المبحث الثَّالث: " شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند ابن رشيق القيرواني".
  - المطلب الأوَّل: "شواهد التَّشبيه والقضايا المتعلِّقة به".
  - المطلب الثَّاني: "رؤية ابن رشيق الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام".
- المبحث الرَّابع : " شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند عبد القَاهِر الجرجاني".

المطلب الأوَّل: "شاهدا تنزيل الوجود منزلة هي أدون من العدم".

المطلب الثَّاني: "شواهد التَّمثيل وأسباب تأثيره في النَّفس، والمعاني التي يجيء التَّمثيل في عقبها"، وهو على عِدَّة مسائل:

- أولًا: أسباب تأثير التَّمثيل في النَّفس.
- ثانيًا: وقوع التَّشبيه أو التَّمثيل الغريب واللَّطيف بين الطرفيْن المتباعديْن المتنافريْن.
- ثالثًا: مجيء التَّمثيل بأشياء عِدَّة من الشيء الواحد.
- رابعًا: أحقّ أصناف التَّعقيد بالذَّم ما يتعبك ثم لا يُجدي عليك.

المطلب الثَّالث: "فرق بين التَّشبيه والاستِعَارة، وما يجوز فيه إسقاط ذكر المشبَّه".

المطلب الرابع: "شواهد مسائل المعاني التخيلية":وهو على عِدَّة مسائل:

- أولا : شاهد القسم التخيُّلي وأنه مفتن المذاهب.
- ثانيًا: شواهد التخييل الشبيه بالحقيقة.
- ثالثًا :شاهد تأوُّل الصفة من غير علة يضعها الشاعر ويختلقها.
- رابعًا : شاهد حسن التَّعليل التخيُّلي الشَّبيه بالسِّحر.
- خامسًا : شاهد أنَّ للمعنى والفعل علَّة من علَّة أخرى.
- سادسًا : شاهد إفصاح التَّشبيه وادعاء الحقيقة في المجاز.

المطلب الخامس: "رؤية عبد القَاهِر الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام".

وأمَّا الفصل الثَّاني فعنوانه: **"شواهد الاستِعَارة عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"**، وأقمته على سبعة مباحث:

- المبحث الأوَّل : " شواهد الاستِعَارة عند عبد الله بن المعتز".

المطلب الأوَّل: "شواهد الاستِعَارة ".

المطلب الثَّاني: "رؤية ابن المعتز الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

- المبحث الثَّاني : " شواهد الاستِعَارة عند الحسن بن بشر الآمِدِيّ".

المطلب الأوَّل: "شواهد مرذول ألفاظ أبي تمَّام وقبيح استعاراته ورديئها وفاسدها"، وهو على عِدَّة مسائل:

- أولًا: شواهد أخادع الدَّهر.
- ثانيًا: شواهد أخرى مرذولة.
- ثالثًا: استِعَارة العرب وتمحيص الشَّواهِد الدَّهرية عند أبي تمَّام.
- رابعًا: شواهد استعارات الطَّائي البعيدة والفاسدة والقبيحة.

المطلب الثَّاني: "شواهد استعارات في غاية الحسن".

المطلب الثَّالث: "رؤية الآمِدِيّ الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

- المبحث الثَّالث: " شواهد الاستِعَارة عند القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني".

المطلب الأوَّل: "شواهد الاستِعَارة الحسنة".

المطلب الثَّاني: "شواهد الاستِعَارة التي تُصدئ القلب وتعميه".

المطلب الثَّالث: "الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة".

المطلب الرَّابع: "رؤية القاضي الجرجاني الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

- المبحث الرَّابع: " شواهد الاستِعَارة عند أبي هلال العسكري".

المطلب الأوَّل: "شواهد الاستِعَارة الحسنة والمصيبة".

المطلب الثَّاني: "شواهد الاستِعَارة الرديئة".

المطلب الثَّالث: "رؤية أبي هلال الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

- المبحث الخامس: " شواهد الاستِعَارة عند ابن رشيق القيرواني".

المطلب الأوَّل: "شاهد الاستِعَارة البعيدةالواضحة غير المتكلَّفة والمُعَقَّدة".

المطلب الثَّاني: "شواهد الاستِعَارة السَّيِّئة والبشعة".

المطلب الثَّالث: "شاهد الاستِعَارة المليحة البديعة".

المطلب الرَّابع: "شاهد الاستِعَارة القريبة المُتَمَكِّنَة".

المطلب الخامس: "شاهد المثل السَّائِر".

المطلب السَّادس: "رؤية ابن رشيق الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

- المبحث السَّادس: " شواهد الاستِعَارة عند ابن سنان الخفاجي".

المطلب الأول: "موازنة استِعَارة العين بين قول ابن نباتة وأبي تمَّام".

المطلب الثَّاني: "شاهد الاستِعَارة المختارة".

المطلب الثَّالث: "شواهدالاستعارات القبيحة والبعيدة"،وهو على عِدَّة مسائل:

- أولًا : شواهد استعارات أخادع الدَّهر .
- ثانيًا : شواهد أخرى لاستعارات قبيحة وبعيدة.
- ثالثًا : شواهد تشبيه مضمر الأداة أدخلها ابن سنان في باب الاستِعَارة

المطلب الرَّابع: "شاهد لا تسقني ماء الملام".

المطلب الخامس: "شواهد لألفاظ وُضِعت في غير موضعها ليس على وجه الاستِعَارة ولا الحقيقة" .

المطلب السَّادس: "رؤية ابن سنان الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

- المبحث السَّابع: " شواهد الاستِعَارة عند عبد القَاهِر الجرجاني".

المطلب الأوَّل: "الاستِعَارة في أسْرَار البلاغة ودلائل الإعجاز".

المطلب الثَّاني:" شاهد الاستِعَارة القريبة من الحقيقة".

المطلب الثَّالث: شاهد على مسألتيْن بلاغيتيْن:

- أولًا: أن إسقاط ذكر المشبَّه من شأن الاستِعَارة.
- ثانيًا: متى صلحت الاستِعَارة في شيء، فالمبالغة فيه أصلح.

المطلب الرَّابع:"شواهد المبالغة والاستِعَارة والاقتران بشعر النَّابغة".

المطلب الخامس: "شاهد ترشيح الاستِعَارة وتناسي التَّشبيه".

المطلب السَّادس: "شاهدان على أن حُسن الاستِعَارة يكمن في نظمها".

المطلب السَّابع: "رؤية عبد القَاهِر الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

وأمَّا الفصل الثَّالث فعنوانه:**"شواهد الكناية عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"**، وضعت له ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: "شاهد المماثلة المعيبة عند العسكري".
- المبحث الثَّاني: "شواهد التَّمثيل عند ابن سنان".
- المبحث الثَّالث: "شاهد الكناية عن نسبة عند عبد القَاهِر".

- **وفي الخاتمة** تناولت فيها أهم النَّتائج التي توصَّلتْ إليها الدِّراسة.
- **ثم وضعت ثبتًا للمصادر والمراجع، ثم فهرسًا لموضوعات الدِّراسة.**

وعليه، فإنَّ الباحث لم يتعرَّض للمشكلات الَّتي واجهته منذ نعومة أنامل هذا البحث حتى استوى على سُوقه؛ لعدم خفائها على مَن اتَّصل بالبحوث العِلْمِية، وما يواجهه الباحثون من عقبات أتاح الله انفراجها بعد شدَّتِها؛ لأنَّ في ذكرها انفلاتًا عن المقصود الأعظم من هذه الدِّراسة، واتِّصالًا خارجيًا يعيق القارئ عنها.

ومن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله)، فإنه يسعدني في هذا المقام العِلْمِي أن أشكر جامعة أم القرى وعمادة الدراسات العليا، وكلية اللغة العربية وخاصة قسم الدراسات العليا العربية، وأن أشكر بإخلاص صاحب الفضل عليَّ -بعد الله عز وجل-، مشرف هذه الأطروحة فضيلة الشيخ الأستاذ الدُّكْتُور: دخيل الله بن محمد الصَّحفي، الَّذي أسدى إلي النَّصح والتَّوجيه والمتابعة، ووقف معي جنبًا بجنب، ولم يتخلَّ عن وصالي بالبحث العِلْمِي من أول ورقة، حتى انتهى على هذه الهيئة في بذل وعطاء وفكر عميق، فجزاه الله عنَّي كل خير، وهذا ليس بغريب عليه، فجلّ من أشرف عليهم أساتذة جامعيين، تمَّ له ما أراد من بحوثهم ورضي، وأسأل الله أن يُتمَّ له في هذه الدِّراسة ما يريد، وأن يُسبغ عليه ثوب الصِّحة والعافية، إنَّه على ذلك قدير.

وأنْ أشكر أساتذتي الكرام في هذه المناقشة؛ الأستاذ الدَّكتور/ محمد علي الصعيدي

، والدَّكتور/ فوزي محمد غانم، لبذلهم الأوقات الثَّمينة، كي يسدوا إلي النَّصيحة والتَّوجيه والإرشاد، كما لا أنسى أنْ أشكر والديَّ الحبيبيْن الذين بذلوا لي كل شيء، ، وأختي أم مازن شفاها الله وأسدل عليها ثوب الصحة والعافية، وأساتذتي في الدِّراسة المَنْهَجِية، وأساتذة الجامعات، ، وزملائي، الَّذين بذلوا لي كلَّ علمٍ ودراية، وقدَّموا لي طريق المعرفة بالكلمة، والعون، والدعاء، فجزاهم الله عنَّي كلَّ خير.

وأخيرًا لست بجُذَيْلها المحكّك ولا عُذيْقها المرجّب،بل ألتمس وأرجو من الله الهدى، وأسأله العِلمَ النَّافعَ والعملَ الصالحَ، فيا أيَّها القارئ هذه بضاعتي المزجاة أقدَّمها بين يديْك، فإن وجدتَ فيها صحةً وسلامةً وتوفيقًا، فمن الله وحده، وإن وجدتَ خطأً وسهوًا وقصورًا –وهو الحاصل- فمن نفسي والشَّيطان، وجُدْ عليَّ بالنَّصح والعفو والصَّفح، وأستغفر الله العظيم من كل خطأ وذنب وأ؛توب إليه، والله الهادي والموفِّق إلى سواء السَّبيل.

التَّمْـهِيد

أولًا:

"أهمَّيــةُ الشَّــاهد الشَّــعري عِنــدَ البَلاغيين والنُّقاد"

ثانيًا:

"قيمــةُ شَــواهدِ أبــي تمَّــام الَّتــي دَفَعـــتْ البَلاغيـــين والنُّقـــاد للاسْتِشْهَادِ بها"

أولًا: أهمية الشَّاهِد الشِّعْري عند البلاغيين والنُّقاد

لا غرو أنَّ للشَّاهدِ الشِّعْري أهمِّيتُه البَالغة في الدَّرسِ البلاغي والنَّقدي، فالشَّاهِدُ الشِّعْري عندَ البلاغيين والنُّقاد يخدُم فكرتَهم، ويؤسِّسُ مسائِلَهم في الأجْنَاسِ البلاغية، فعبدُ القَاهِرِ مثلًا يسْتَشْهِدُ بتلك الشَّواهِدِ لخدمة فكرة "النَّظم"، وقبل الولوج في عمقِ الشَّواهِدِ الشِّعْريةِ، واستكناه القيمة الفاعلة فيها، يتفرَّعُ من هذا المحورِ عِدَّةُ قضايا مشتركة لا بدَّ من سبرِها، والغوصِ في مكنونِها.

ولعلَّ من المناسبِ في هذهِ الدِّراسةِ أنْ يفصَّلَ الباحثُ المغزى من عُنوانها؛ لأنَّ البحوثَ والدِّراساتِ العِلْمِية لا بدَّ فيها من تفريعِ المسائلِ، وإقامةِ القضايا والبراهين، وشرْحِ العِللِ، وإبانةِ الفروق، كلُ ذلك في معرضِ التَّفنيدِ والتَّدليلِ، لعناوينها الَّتي قد تُشكِل على بعض الدَّارسين.

ولا شكَّ أنَّ دِلالة كلمة شاهد لا تختلفُ من جهةِ اللُّغة؛ إذْ يقومُ على الجذرِ (ش هـ د)، – الشين والهاء والدَّال أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ، لا يخرُج شيءٌ من فروعه، من ذلك الشَّهادة وهي الخبرُ القاطعُ، يجمع الأصولَ من الحضورِ، والعِلمِ، والإعلامِ، يُقال شَهدَ يشهدُ شهادةً، والمشهدُ: محضرُ النَّاسِ.

قال الله تعالى:{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... الآية} [آل عمران: ١٨]، قال أَبو عبيدة: معنى (شَهِدَ الله): قضى الله أَنَّه لا إله إلا هو، وحقيقته: عَلِمَ اللهُ، وبَيَّنَ اللهُ؛ لأَنَّ الشَّاهِد هو العالم الَّذي يبيِّن ما علمه، ويقال شَهِد له بكذا شَهادةً؛ أي أدَّى ما عنده من الشَّهادة(١).

(١) يُنظر: مادة "شهد"،"القاموس المحيط"، للفيروز آبادي، (ص:٣٦٠،٣٥٩)،مراجعة محمد الاسكندراني ، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، د.ط ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م. وينظر: "لسان العرب"، جمال الدين ابن منظور: (٢٣٩/٢)، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤هـ، و" الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية " إسماعيل الجوهري، (٤٩٤/٢)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت–لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ. و"تاج العروس"محمد مرتضى الزبيدي،(٣٩١/٢)،دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.

وأعجبني ما كتبتُه الدُّكْتُورة نجاح الظهار في تعريفها الاصطلاحي للشَّاهد، فقالتْ:" هو كل ما يسْتَشْهِدُ به البلاغيون من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال نثرية، أو شِعرية، لتوضيح، وبيان قاعِدة بلاغية"(١).

ارتبط مفهوم الشَّاهِد البلاغي بالشَّاهِد النَّحْوي؛ لأنَّ البَلاغيين في تأسيسَ العلَّوم درجة لاحقة بالنِّسبة للنُّحاة، فالإحاطةُ بالتَّراكيبِ الجزئيةِ بين المفرداتِ، والنَّظرُ في الصِّحةِ والفسادِ، كلُ هذا من مهمَّات النَّحْوي والبلاغي أيضًا، فالشَّاهِدُ النَّحْوي سبقَ الشَّاهِدَ البلاغي، وعلى ذلك، فاهتمَّامُ النُّحاةِ بشَواهدهمِ كانَ أساسُه الاهتمَّام باللُّغة العربية، فأهلُ البَصْرةِ مثلًا يُقعِّدون القَواعدَ بناءً على ما وَصلَهم ومَا ثبتَ عِنْدَهم مِنْ تلك الشَّواهِد الَّتي لا يَعدِلون عنها، وأهلُ الكوفةِ يُكثِرون من القَواعدِ ولو كان لشَاهدٍ واحد، وهكذا أصحابُ المدارسِ النَّحْوية، لكنَّهم يتَّفقون في آخر المطافِ على أنَّ فترةَ الاحتجاجِ تَنْتَهي بزمنٍ محدَّدٍ، وهي مئة وخمسين سنة بعد البعثة[٢]، وعلى هذا الأساس لا يتأتَّى لشاعرٍ بعدَ ذلك أنْ يُسْتَشْهِد بقوله، إلاَّ من اسْتُثْنِي مِن شِعره؛ كرؤبة بن العَجَّاج وغيره، ممَّن تمسَّك بالباديةِ ولم يدخلْ الحاضرة، وعلى هذا فالشَّاهِد النَّحْوي حركتُه قصيرةٌ جدًا، وضوابطُه محددة، فهل نَهضَ الشَّاهِدُ البلاغِي على هذا الأساس؟

إنَّ الشَّاهِد البلاغي عندما قام في بداية نموه اتَّكأ على الشَّاهِد النَّحْوي؛ أعني قاعِدَّة الشَّاهِد النَّحْوي، لا من حيث الزَّمن، بل من حيث الصِّحة، الموافقة لسُنن العرب في الاحتذاء بأشعارها، ولم يكن الخيار بادئ ذي بدء أنْ يخرج عن تلك السُنن، لكنَّ سرّعان ما تقشَّعت شمسُ البلاغيين، فأدخلوا في الشَّواهِد شعر مَن خالط العجم، بل قام البديع –كما سمَّاه ابن المعتز– على أكتاف المولَّدين، الَّذين تأبى القاعِدة

(١) "الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز"، نجاح أحمد الظهار، (٥١/١)، مؤسسة فؤاد بعينو، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

(٢) يُنظر:"الاقتراح في علم أصول النحو" جلال الدين السيوطي، (ص:٣٨)، تحقيق: أحمد صبحي فرات، (الطبعة بدون)، مطبعة كلية الآداب، استطنبول، ١٣٩٥هـ=١٩٧٥م.

النَّحْوية الأخذ عنهم، قال ابن رشيق: "قال أبو الفتح عثمان بن جنِّي: المولّدون يُسْتَشْهد بهم في المعاني كما يُسْتَشْهد بالقُدَّماء في الألفاظ، والَّذي ذكره أبو الفتح صحيحٌ بيِّن؛ لأنَّ المعاني إنَّما اتَّسعت لاتِّساع النَّاس في الدُّنيا..."(١).

ثم ما لبث أنْ فُتِح المجال على مصراعيْه، فاستُشهِد بشعر بلاغيين مُتأخِّرين ليسوا من فحول الشُّعْراء؛ كأبي هلال العسكري في القرن الرابع مثلًا وغيره، فالسُّؤال يبقى محيِّرًا: ما الخصائص الَّتي تجعل الشَّاهِد البلاغي يستمر في جميع الأزْمِنة، ويلبسُ ثيابًا تختلف من بيئة إلى بيئة؟

إنَّ المتأمِّلَ في التراثِ البلاغي، يجدُ أنَّ البلاغيين والنُّقاد جعلوا من الشَّواهِد قوالبَ متحرِّكةٍ، تخضعُ لمجريات القاعِدَّةِ البلاغيةِ، فالهدفُ عندهم أولًا صحة القاعِدَّة أو المسألة، وصحة الغرض البلاغي، وبعد ذلك يُخضِعون تلك الشَّواهِد الشِّعْرية مع البناء الجِذري للقاعِدَّة، فيتفاعلان مع بعضهما البعض، ويختلط المزيج بالمزيج، فيخرج المثال تِلوَ المثال، وهذه العملية أشبَه ما تكون بالتفاعُلِ الكيميائي، الَّذي يُكوِّنُ بين تلك الجوانب حالاتٍ من الإلفِ والمزاوجةِ.

وعلى هذا الأساس ضُرِبَ برزخٌ بين الشَّاهِدِ البلاغي والشَّاهِد النَّحْوي، وأضْرِبُ على ذلك مثالًا يقربُ هذا التَّصوُّر، من ذلك ما استحسنه ابنُ الأعرابي من شِعْرِ أبي تمَّام، حيث قال:

وعاذل عذلته في عذله ... فظن أني جاهل من جهله

فأمر بكتابته أولاً، ثمَّ أمر بتخريقه لمَّا علم أنَّ أبا تمَّام قائله، وهذا الأصْمَعِي لما أنشده إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

(١) "العُمْدَةُ في صناعة الشعر ونقده"، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، (١٩٢/١)، حقَّقه: النبوي عبد الواحد شعلان، النَّاشِر: مكتبة الخانجي القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

هـــل إلى نظـــرةٍ إليـــك ســـبيلٌ فَيُـرْوي الصَّـدِى ويُشْـفَي الغليـل؟
إنَّ مـا قـلَّ منـك يكثُـر عنـدي وكثـــيرٌ ممَّـــن تحـــبُّ القليـــل

فقال الأصمعي: لمن تُنشدني؟ فقال: لبعض الأعراب، فقال: هذا والله هو الديباجُ الخسرّواني، قال: أَنَّهما لليلتهما، فقال: لا جرَم والله إنَّ أثر الصَّنْعَة والتَّكلُّف بينٌ عليهما [1].

قال ابن رشيق:" وسُئل –أي الأصمعي– عن المولَّدين، فقال: ما كان من حَسَن فقد سُبِقوا إليه، وما كان من قبيح، فهو من عندهم"[2].

وكان منطلق علماء اللُّغة والنَّحْو –ومنهم ابن الأعرابي والأصمعي– في هذا كله: هو حفظُ المقاييس الَّتي وُضِعت لحفظ اللُّغة العَربية، ويُعذرانِ في ذلك أشدَّ الإعذار، فغايتهم واضحة، ولم يكونوا متعصِّبين، بل ضرورة مُعايشة تلك المرحلةِ الراهنةِ أمرٌ لا بدَّ منه، فتبدَّلتْ الأجناسُ، ودخلَ العربي والأَعْجَمِّي في الإسلام، ممَّا طرأ في تلك الحياة وما يختلجها من خُصُوصِيات وأبعاد لا يمكن لأحدٍ أن يتجاهلها.

فالتَّركيز على الفصل بين الشَّاهِد البلاغي والشَّاهِد النَّحْوي أمرٌ لا مَنَاصَ مِنْه ألبتَّة، والشَّاهِد البلاغي –الَّذي هو محطة الباحث في هذه الدِّراسة– يرتبط بعِدَّة وظائف من أميزها "كشف الجوانب الفنية والأبعاد الدلالية للتَّركيب الجميل، ومن هنا كان لا بدَّ أن نتكونَ النَّظرةُ إلى الشَّاهِد غير موحَّدة، بل متجدِّدة معك لدراسة، متميِّزة معك لتحليل، وهذا بخلاف الشَّاهِد النَّحْوي والصَّرْفي الَّذي يُورَد لقضية محدَّدة وقاعِدَّة معينة"[3]، وبعد هذه يتسنَّى للقارئ أن يُنعِم النَّظر في هذهِ الوظائف، لتتجلَّى له بوضوح وتأمُّل.

(١) يُنظر:"الموازنة"، لأبي القاسم الآمِدي، (٨/١)، دار المعارف المصرية، تحقيق: السيد أحمد الصقر، الطَّبعة الرَّابعة، دت.

(٢) " العمدة"، (٢٦/١).

(٣) "مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها–منهج التعامل مع الشَّاهِد البلاغي"، عويض بن حمود العطوي، (ج:٤٩٨/١٨،ع:٣٠)،جمادى الأولى١٤٢٥هـ.

وبعد هذا كلِّه، كان من أهداف الشَّاهِد البلاغي -في كتب جميع البلاغيين والنُّقاد- الارتباط بينه وبين القاعِدَّة والمسألة البلاغية، ليحدث علاقة بين التصوُّر والمثَال؛ ليرسِّخَ في الذِّهن أهمَّية حفظ تلك الشَّواهِد وفهمها واسْتِيعابها؛ لتقدَّم لقارئها صُورًا عديدة من اسْتِجْلَاء كلامِ البلاغيين القدماء، وفَهْمِه وإِدْراكه، فالبلاغيون يسْتَشْهِدُون حسب ما تُمليه قرائحهم، بل قد تتَّحد الشَّواهِد من كتاب بلاغي إلى كتاب بلاغي آخر، بينهم قرون متباعِدَة، لا يَربط بينهم نسب، يكون سبب هذا الاتِّفاق؛ الارتباط بين الشَّاهِد والمسألة المرتبطة به.

فشواهد البلاغيين من شعر أبي تمَّام مثلًا ارْتَبطت بقواعد ومسائل بلاغية، بل وقضايا وظواهر لا يمكن مجاوزتها إلاَّ بفهمها والوقوف عليها، ففي علمِ البيان، بلغتْ شواهدَ البلاغيين والنُّقاد من شعرِ أبي تمَّام حتى نهاية القرن الخامس أكثرَ من مئة وخمسين شاهدًا، وفي أغلبها تتحدَّثُ وتَتَناول قضايا بيانية بحتة، يتعلَّقُ الشَّاهِدُ بتشبيهٍ مفردٍ أو مركبٍ، أو بترشيحِ استِعَارةٍ، أو كنايةٍ عن نسبةٍ، وغيرها. وسيأتي تفصيلُ هذا الكلام -إنْ شاء الله- في بطونِ الفصولِ القادمةِ.

وجديرٌ بالذكر أنَّ مُعظمَ الشَّواهِدِ البلاغيةِ من شعرِ أبي تمَّام الَّتي ذكرهَا علماء البلاغة والنَّقد، كانتْ ترتبطُ بقاعِدَّة بلاغية، سواء أكانتْ في مسائل المعاني، أو البيان، أو البديع. ومحطّ دراستي في هذا البحثِ هو شواهدُ من شعر أبي تمَّام في البيان، في التَّشبيه والاستِعَارة والكناية، ولا ينْسَى الدَّارسُ أبدًا أنَّ " عمود البلاغة مركوز على شعر هؤلاء العباسيين الثَّلاثة: أبي تمَّام والبُحْتَري والمتنبِّي،أمَّا الجَاهليون والإسْلَاميون، فقلَّما استشهد البلاغيون بشعرهم"(١)، وعلى هذا تحدَّدت الشَّواهِد مع مسائلِ علم البيان، فخرجتْ هذهِ الدِّراسةُ.

(١) "مجلة الفكر العربي- الشَّاهِد الشعري في البلاغة العربية – نموذج المتنبي-"، مصطفى الجوزو، (ع:٤٦، ص:٦٩) ،عام١٩٨٧م.

ثانيًا: قيمة شواهد أبي تمَّام الَّتي دفعت البلاغيين والنُّقاد للاستشهاد بها

لمَّا كان شِعرُ المولَّدين -الَّذين اعتنوا بألوان البديعِ- ذا صيتٍ وافر، كان لأبي تمَّام مِنْهُ النَّصيب الأكبر، فالمذهبُ البديعي لم يك وقتَ بُزوغه يعرفهُ النَّاسُ، إلاَّ ما كانَ مِن ابنِ المعتز -رحمه الله- عندما كشفَ أسْرَار المولَّدين الَّذين ينْهَجون في أشعارِهم وأبياتِهم هذه السُنن، بل ويُكثِرون مِنه، حتى استجَاده النَّاس منهم، فجاءَ ليصحِّحَ هذا المفهوم الَّذي انتهجه الكثيرُ مِن طبقة ذلكَ العصرِ، فراحَ يُفنِّدُ أشْعَارهم، ويمحِّصُ أقوالَهم، فأخرج للأمَّةِ كتابيْن جليليْن هما: "البديع"، و"طبقات الشُّعْراء المحدثين".

واعتنى ابنُ المعتزِ بـ"البديع" أشدَّ الاعتناء، واعتبر إرهاصًا للتَّأليف البَلاغي، وجعل مقدِّمته الَّتي شرح فيها الأبْعَاد الَّتي أراد أنْ يرْسمها ليبيِّنَ أنَّ الشُّعْراء المحْدَثين لم يأتوا بجديد في أشعارهم؛ وذلك لأنَّهم اعتنوا بالبديعِ وكثُر في أشعارِهم، حتى بالغوا فيه، والمتأمِّلُ في شعرِ القدماءِ، يجدُ ذلك واضحًا جليًا، فقال -رحمه الله- في مقدِّمة كتابه: "قد قدَّمنا في أبواب كتابِنا هذا بعض ما وجدنا في القرآنِ، واللُّغةِ، وأحاديثِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكلامِ الصحابة، والأعراب،وغيرهم، وأشعارِ المتقدَّمين،من الكلامِ الَّذي سمَّاهُ المحدثون البديع؛ ليعلم أنَّ بشارًا، ومُسلمًا، وأبا نواس، ومَن تقيّلهم، وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفنّ،ولكنَّه كثر في أشعارهم،فعُرِف في زمانهم، حتى سُمِّي بهذا الاسم،فأعرب عنه ودلّ عليه، ثم إنَّ حبيب بن أوس الطَّائي من بعدهم شُغِفَ به،حتى غلب عليه وتفرَّغ فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض،وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"(١).

فالتَّصوُّر الأوَّلي لشعر أبي تمَّام يهدف إلى إغراقِهِ في البديعِ، والبديعُ عندَ ابنَ المعتز ليس الَّذي عند المتأخِّرين من علماءِ البلاغة، بل هو الاستِعَارة، والتَّجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلامِ على ما تقدَّم، والمذهب الكلامي.

(١) "البديع"، لأبي العباس عبد الله بن المعتز، (ص:١)، شرح وعلق عليه: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٦هـ=١٩٤٥م.

والقصدُ من إيرادِ هذا الكلامِ أنَّ ابنَ المعتز ذكر أنَّ أبا تمَّام قد أغرق في الاستِعَارة والمطابقة والتَّجنيس وغيرها، وأسْرَف في ذلك، وقد سبق الشُّعْراء المتقدِّمون أبا تمَّامٍ وغيره بشعرٍ امتلأَ بالاستِعَارة والمطابقة والتَّشبيه، لكنَّهم لم يُسرفوا، ولم يَتَكلَّفوا في ذلك، بل كان الطَّبعُ في شعرِهِم المحرِّكَ الأول، والقدَّماءُ أقربُ إلى السليقةِ من غيرِهِم، "وقد كان يقعُ ذلك في خلال قصائدها، ويتّفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمُّد وقصْد؛ فلما أفْضى الشِّعْرُ الى المحْدَثين، ورأوْا مواقعَ تلك الأبياتِ من الغرابةِ والحسنِ، وتميّزَها عن أخواتها في الرشاقةِ واللطفِ، تكلَّفوا الاحتذاء عليها فسمّوْه البَديع؛ فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومُفرِّط"(١).

وعلى ذلك راحَ ابنُ المعتزِ وغيرُه من البلاغيين يسْتَشْهِدُون بشعرِ أبي تمَّام لقضاياهم البلاغية شواهدَ كثيرة، فاستحسنوا بعضها، واستقبحوا بعضها الآخر، وصنَّفوه في قائمةِ المكثرينَ من ألوانِ البديعِ، والمتمسِّكين بالكُلفةِ الَّتي تتنافى مع الطبعِ، وهذا الغالبُ من أمرهم، ويجدُ الباحثُ طائفةً من المناصِرين له، يؤيِّدونَ شِعْرَه ويعذرونه، ويقدَّمونَ الحِجَجِ والبراهينِ على شاعريَّتِه، وهذا الكلامُ يسوقُ إلى موقفِ البلاغيين من شعرِ الشاعرِ، ولا يكون هذا إلاَّ مِنْ الملامسَةِ الحقيقيةِ لشعرِهِ في معرضِ الاستشهاد، ويكون محصولُ ذلكَ بطون هذه الفصولِ الَّتي سطَّرها الباحثُ؛ بغيةَ الحصولِ على الموقفِ الحقيقي من وراءِ ذلك الاستشهاد، ليتمَّ الوقوفُ على تلكَ الظَّواهر البلاغية الَّتي مخضتها شواهد أبي تمَّام، وكشفتْ قناعَ البيانيَّةِ في شعرِهِ.

وعلى هذا الأساس زخرتْ المصنَّفاتُ في القرنِ الرابعِ بالتَّحْدِيد بمواقفَ أصحابِها النَّقدي من شعر أبي تمَّام وصنعته -كما سيأتي ذلك في المباحث والمطالب-، ولا ريبَ أنَّ شعر أبي تمَّام شغلَ النُّقادَ القدامى والمحدثين، ولا زالتْ البحوثُ

(١) "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، (ص:٣٩)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ=٢٠٠٦م.

والدراساتُ الحديثةُ تُجلِّي تلكَ المواقفِ وبالضرورةِ موقفهم من استعاراتِ أبي تمَّام، فهي حسنةٌ من جانبٍ ورديئةٌ من جانبٍ آخر. وسيكشف الباحثُ مواقفَ النُّقادِ القدامى باستعراض أزْمِنَتِهِم واستجلاءِ نقدهِم وربطِ البيتِ بما ذكروه وتفنيدِ ذلك، وسيُعوِّلُ غالبًا بالذكر والتَّفسير والأخذ والرَّد في شواهد الاستِعَارة الَّتي أثارتْ جَدَلًا حادًا بين البلاغيين والنُّقاد والشُّرَّاح.

وأمَّا الشَّواهِد الَّتي لم تُثِر جدلًا، ومرَّ عليها النُّقادُ مرورَ الكرام، فسيذكرها ويتجاوزها الدَّارسُ لما بعدها، ويمكن أنْ يَكْتَفي بإظهارِ الجودةِ والرداءةِ بالتَّحليلِ الفِنِّي الموجز. وفي فصل الاستِعَارة مسائل بلاغية نقدية تتعلَّقُ باسْتِعَاراتِ أبي تمَّام؛ من شروط الاستِعَارة الحسنة وأسباب رداءة استعاراته ودافع أبي تمَّام من تلك الاستِعَارة، والعلل والأسباب في تفضيلِ شِعْرِ البُحْتَري على شعرِ أبي تمَّام بلاغيًا، وغيرها من المسائل المتعلِّقة باستشهادات البلاغيين والنُّقاد في علم البيان.

وعلى كل حالٍ، ارتبطتْ الاستِعَارةُ بشعرِ أبي تمَّام، حتى غدتْ عادةً لا تنفكُّ عنه، فسارَ على هذا النَّهجِ، وأصبحتْ العَلَاقةُ بينهما علاقةً متزاوَجةِ ومؤتلفة، فالتلاعُب الفني في الاستِعَارةِيُحدِثُ جمالًا يبهرُ العقولَ؛ لأنَّ الاستِعَارة مرتبطةٌ بالمعَنى الَّذي يرفع من شأنها، وليس باللَّفظ من حروف وصفة. قال عبد القَاهِر الجرجاني: "ومن طريف أمرِهم أنَّك ترى كافتهم لا ينكرون أنَّ اللَّفظ المستعار إذا كان فصيحًا، كانتْ فصاحته تلك من أجل استعارته ومن أجل لطف وغرابة كانا فيها. وتراهم مع ذلك لا يشكُّون في أنَّ الاستِعَارة لا تحدث في حروف اللَّفظ صفة، ولا تغيِّر أجراسها عمَّا تكون عليه، إذا لم يكن مستعارًا، وكان متروكًا على حقيقته، وأن التَّأثير من الاستِعَارة إنَّما يكون في المعنى"[(١)].

(١) "دلائل الإعجاز"، عبد القَاهِر الجرجاني، (ص:٤٠٩)، قرأه وعلَّق عليه: محمود شاكر، النَّاشِر: مكتبة الخانجي القاهرة، الطَّبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م.

فالاستِعَارةُ خُلُقٌ تخلَّقَ به أبو تمَّام، الَّذي ركَّزَ شعرُه على الاهتمَّام بالمعاني، فبدا جليًا جمالية ذلك عندما يُسهِمُ في استِعَارةِ البعيدِ؛ ليحدثَ لقارئة نوعًا من التَّفْتِيش والعمق في المعاني، على أنَّه خرجَ في بعضِ الأحيانِ إلى نوعٍ من السرّفِ في التَّعقيد المذموم -كما سيأتي عن عبد القَاهِر-.

ومن ارتباط الكلامِ باستعاراتِ أبي تمَّام، وموقفِ العُلماءِ منها، وما فيها من خصوصيات ومسائلَ، نطالِع ما جاء به الشَّريفُ المرتضى، حين يقدِّم بعضَ خصائص ومزايا استعاراتِ أبي تمَّام، وذلك عندما ساق بيتًا لأبي تمَّام:

زارني شخصه بطلعة ضيم عمَّرت مجلسي من العواد [1]

فقال الشَّريف المرتضى: " ورأيت الآمِدِيّ يطعن على قوله:

..... عمَّرت مجلسي من العواد

ويقول لا حقيقة لهذا المعنى، لأنَّا ما رأينا ولا سمعنا أحدًا جاءه عواده يعودونه من الشيب...، وهذا من الآمِدِيّ قِلة نقد للشِّعر، وضعف بصيرة بدقيق معانيه، الَّتي يغوص عليها حذَّاق الشُّعْراء... وهذا من أبي تمَّام كلام في نهاية البلاغة والحسن"[2]، وقد تعقَّب الأستاذ القدير الدُّكْتُور دخيل الله الصَّحفي موقف الشَّريف المرتضي تجاهَ الآمِدِيّ، وبيَّن أنَّ الشَّريفَ المرتضي تكلَّف في تفسير ذلك، فقال:" لم يرضَ الشريف المرتضي بنقد الآمِدِيّ، بل عدَّه سقطة منه ووهلة، ما كان ينبغي أنْ ينحدرَ إليها، وعلى العكس عدَّ الشَّريف المرتضي هذا المعنى لأبي تمَّام من جيّد معانيه ومحكمها

(١) "ديوان"، أبي تمَّام، بشرح الخطيب التَّبْريزي، (٣٥٩/١)، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ومطلع القصيدة:

سعدت غربة النوى بسعاد فهي طوع الإتهام والإنجاد

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد هو البيت الحادي عشر قالها أبو تمَّام يمدح أحمد بن أبي دؤاد.

(٢) "أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد"، للشريف المرتضى: (٦١٣/١ - ٦١٤)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٣٨٧هـ.

ودقيقها الَّتي لا يظفر بها إلاَّ حذاق الشِّعْراء وفحولهم، وتكَّلف له وجهًا من التفسير بعيدًا جدًا"[1]، والمعنى المتكلّف الَّذي ذهب إليه المرتضي أنه يشبَّه زيارتهم لأبي تمَّام زيارة تألم على شبابه، وقد ذمَّ الدُّكْتُورُ دخيل الله هذا التَّشبيه وعدَّه غريبًا متكلفًا بعيدًا، واستشعر" في كلام الشَّريف المرتضي عند ذكره للآمِدِيّ أنَّ همَّه الأكبرُ الَّذي يكون معنيًا هو تخطئة الآمِدِيّ، وتراه يبعد في التأويلُ كما هنا"[2]، وهذا النَّقدُ في صفحات مشرقة للشيخ الدُّكْتُور دخيل الله، تعقَّب فيها موقف الشَّريف من الآمِدِيّ في موازنته.

وعلى كل حالٍ، ارتبطَ الدَّرسُ البلاغي النَّقدي بشواهد شعرية عديدة، اجتثَّت من بطون دواوين الشُّعْراء؛ لتكون شاهدًا لظاهرة بلاغية أو مسألة نقدية، وتكون مؤشِّرًا لأنموذجٍ يحتذي به الشُّعْراء، ولما كان النِّظامُ الفصيحُ واللُّغةُ البيانيةُ المحركَ الأساسي في تمييزِ شعرٍ عن شعرٍ، كانتْ الشَّواهِدُ الشِّعْريةُ تتضامنُ مع الظَّواهرِ البلاغيةِ والقضايا النَّقدية، في تحريك التفاعُل الَّذي يبرزُ تلك الخصوصيات وهذه المزايا، فخرجتْ تلكَ المؤلّفاتِ البلاغية والنَّقدية.

ولكن ثمَّةَ أسلوب انتهجهُ بعضُ البلاغيين في اقتطاعِ الشَّاهِدِ البلاغي عن سياقِه، وتحكيمه على القاعِدَّةِ البلاغيةِ أو الظاهرةِ المراد التدليل لها، فلمَّا قُطع الشَّاهِدُ عن سياقِه العام، غدا لحمًا مقطَّعًا بعد أن كان جسدًا متكاملًا، تَجْمعُ بينها خصائص ومزايا، فأثَّر القطعُ في البيتِ، حتى غدا طعمًا غير سائغٍ في بعضها، ومن هذا المنطلق، فإن قطع بعض شواهد أبي تمَّام عن سياقِاها قد وجَّه تهمًا إلى أبي تمَّام لم يجنها؛ لأنَّ فهم سِياق بعض أبياته يدلُّ على عظيمِ شعره، وقد اطَّلعت على بعض الدِّراسات النَّقدية الحديثة، ووجدتها تُنادي بهذا، فمثلًا قول أبي تمَّام:

(١) "موقف الشريف المرتضي من الآمدي في كتابه الموازنة "، دخيل الله بن محمد الصَّحفي، (ص:٦٢)، مكتبة الفرقان، مكة المكرمة، د.ط، ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م.

(٢) المرجع السَّابق، (ص:٦٤).

فَضَـــرَبْتَ الشـــتَاءِ فِي أخدَعَيْـــهِ ضـــرْبَةً غَادَرَتْـــهُ عَـــوْدًا رَكُوبَـــا [1]

فهنا ليست استِعَارة رديئة، وخاصَّة عند التَّأمُّل في سياقات النَّصّ كاملًا، حيث قال:

لَقَـدِ انصَـعْتَ والشـتَاءُ لَـهُ وَجْـ ـــهٌ يـراهُ الكُمـاةُ جهمًـا قَطُوبـا

طَاعِنًـا مَنْحَـرَ الشَّـمَالِ مُتِيحًـا لِـــبلاَدِ العَـــدُو مَوْتًـــا جَنُوبَـــا

فِي لَيَـالٍ تَكَـادُ تُبْقِـي بِخَـد الشَّمْـ ـــسِ مـنْ ريحهـا البليـلِ شُـحوبا

ســـبراتٍ إذا الحـــروبُ أُبيحـــتْ هَـاجَ صِـنَّبْرُهَا فَكَانَـتْ حُروبَـا

فَضَـــرَبْتَ الشـــتَاءِ فِي أخدَعَيْـــهِ ضـــرْبَةً غَادَرَتْـــهُ عَـــوْدًا رَكُوبَـــا[2]

وأحسبُ أنَّ لجوءَ أبي تمَّام إلى لفظة (الأخدع) لتحقيق استِعارته سببًا يتَّصلُ بالتوافُقِ مع المعجمِ الدِلالي لألفاظِ المقطعِ الشِّعْري حوله، فالاستِعَارة هنا نتيجة طبيعية لحشدِ الصفاتِ الحيَّة الَّتي تحفُّ البيتَ، وهي: الوجه، والمنحر، والأخدع والقلوب[3].

فيتبيَّن أنَّ العاملَ الرئيس وراء غموضِ بعضِ شعرِ أبي تمَّام يرجعُ إلى قطع أبياته عن الجسدِ العام للأبيات، ممَّا يُحدِث فجوة بين السَّبب والمثال، فمن العسيرِ أنْ يُحاكَم الشاعرُ بأبياتٍ تمّ اجتزاؤها من نَسقها الإجمالي، ولعلَّ هذا الاحتمال يُخفِّف مِنْ وطأة البلاغيين والنُّقاد تجاه شعر الشَّاعر، واللُّغة النَّفسية الَّتي كان يُيَمِمُ أبو تمَّام بها لها الأثر في صقلِ شخصيتِه الغريبة.

ولما طغى الحسُّ الطَّائي على كثيرٍ من الكتبِ البلاغيةِ، غدا مؤشرًا يرفعُ من قيمةِ الشَّاعر وشعره المتميِّز، ويدلُّ لزامًا على قيمتِها وعلوّ كعبهَا، فقد استوعبتْ أغلبَ أبوابِ البلاغة تقريبًا، وعلى حدِّ الخصوص "علم البيان" الَّذي هو محلُّ الدِّراسة، ويجد الـدَّارس أن الشَّـاعر اسْـتوعب في ديوانـه جميـع الأغـراضِ الشِّـعْرية، ونـوَّه بـذلك حـازم

(١) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/١٦٦).

(٢) المصدر السَّابق، (١/١٦٥-١٦٦)

(٣) يُنظر: "وجه الشعر قراءة في مآخذ النُّقاد على معاني أبي تمَّام"، لعبد الله بن صالح الوشمي، (ص:٢٤٥- ٢٤٦)، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

القَرطَاجنِّي فقال: "منهم مَن يتوفَّر قسطه من جميع ذلك كأبي تمَّام"[1]، وهذه بشارةُ نجاحٍ، وتفوقُ الشَّاعر وتميُّزُ قوالبِه الشِّعْرية.

والنَّقدُ التَّأثُّري أو النَّقدُ القائم على المقاييس النَّقدية المعلَّلة اتَّسع في الشِّعْرِ بشكلٍ عام، وخاصَّةً في نقدِ شعرِ أبي تمَّام والمتنبِّي، فالنَّقد القائم على الذَّوق "أقوال تلقائية لا أثر فيها للدَّرس والبحث، يغلب عليها الارتجال"[2]، ولا يمكن أن نُغفل الذائقة الشعرية فهي من أهم المقاييس الشعرية، وصفات النَّاقِد الموضوعي وغير الموضوعيّ يبيِّنها صاحب "الأغاني" عند حديثه عن أبي تمَّام، فقال: "وفي عصرنا هذا من يتَعَصَّبُ له فيُفرِّط، حتى يفضِّله على كلّ سالف وخالف، وأقوامٌ يتعّمدونَ الرديء من شعره، فينشرون ويطوون محاسنه، ويستعملون القِحَةَ والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم: أنَّهم لم يبلغوا علمَ هذا وتمييزه إلاَّ بأدب فاضل، وعلم ثاقب. وهذا ممَّا يتكسّب به كثير من أهل هذا الدَّهر، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب النَّاس وطلب معايبهم سببًا للترفّع وطلبًا للرياسة. وليست إساءة من أساء في القليل، وأحسن في الكثير، مسقطة إحسانه؛ ولو كثرت إساءَته أيضًا ثم أحسن، لم يُقَل له عند الاحسان: أسأتَ، ولا عند الصواب: أخطأت؛ والتوسّط في كل شيء أجمل، والحقّ أحقّ أن يُتَّبَع"[3]،

ثمَّ؛ إنَّ الشَّواهِد تتغيَّر بتغيُّر المناسبةِ وتبدُّل الظَّاهرة البلاغية، فالبلاغيون والنُّقاد أصحابُ هذه العملية القرائية لألفاظ ومعاني شعره، فلا يُستغرب" ظاهرة تعدُّدية المعنى في شعر أبي تمَّام، وهو أحد روَّاد الحركة التجديدية في العصر العباسي، وكلُ جديد لا بدَّ أنْ يكونَ غامضًا في أول عهد النَّاس به"[4]. والباحث بصدد الوقوف على أسْرَار

(١) "منهاج البلغاء وسرّاج الأدباء"، لأبي الحسن حازم القرطاجني، (ص:٢١٩)، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

(٢) "أبو تمَّام بين ناقديه"، لعبد الله محارب، (ص:١١١)، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

(٣) "الأغاني"، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، (٣٨٣/١٦)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

(٤) "الإبداع والفكر في شعر الطَّائيين"، لوحيد كبابة، (ص:١١٩)، جامعة حلب، سوريا –

المباحثِ البيانية عند البلاغيين والنُّقاد؛ لاستجلاءِ الغايةِ من استشهادهم، والوقوفِ على تلك الخصوصياتِ الَّتي مبعثُها شاهد أبي تمَّام الطَّائي؛ لأنَّه "حرَّك قضية الشِّعْر، ومازال يُحرِّكها حتَّى الآن، وأنَّ فضله لا يقف عند الشِّعْر فقط، ولكنْ يتعدَّاه كذلك إلى النَّقد وإلى حركة التَّاليف"(١).

ومهما يكن من أمرٍ، يتَّضح أنَّ البلاغيين والنُّقاد لم يعبثوا بالشَّواهِد الشِّعْرية وخاصَّةً شعر أبي تمَّام؛ لأنَّ لكلٍّ منهم طريقة لمعالجة مسائِله والاستشهاد بها، فالشَّيخُ عبد القَاهِر مثلًا كان له مشروعٌ فكري يؤرِّقه ويشغله، فاستشهاده يعطي المتأمِّلَ وضوحَ الرُّؤية، ويجعل قارئ الدَّلائل والأسْرَارِ يمضي على نورٍ من ربه، باطِّراد عناصرِ ومسائل المعاني والبيان، فالكتابان بينهما لُحمة واضحة العيان، وسِيقتْ شواهدُ أبي تمَّام فيهما لأغراضٍ بلاغيةٍ بحتة، ومسائل بيانية عميقة، رُبِطت بعضها ببعض، ولذا كان عبدُ القَاهِر لا يلتفت لبعض الأشياءِ الَّتي لا تهمُّه كثيرًا، كالفرق بين الفصاحة والبلاغة والبراعة، فهو لا يلتفتُ إلاَّ لما يراه مُلْبِسًا، وفيه إشكال يوضِّحه ويجلِّيه، وستأتي هذه المسائل مع تلك الشَّواهِد لتحكي قصةِ امتزاج القضية والمذهب البلاغي بشاهد أبي تمَّام... .فإلى الدِّراسة.

حلب-، طبعة ١٤٢١هـ.

(١) "أبو تمَّام وقضية التَّجديد في الشعر"، عبده بدوي، (ص:١٧٣)، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، د.ط، ١٩٨٥م.

الفصل الأوَّل

" شـــواهد التَّشـــبيه والتَّمثيـــل عنـــد البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام "

- المبحـــث الأوَّل: " شـــواهد التَّشـــبيه والتَّمثيل عند الحسن بن بشر الآمِدِيّ "
- المبحـــث الثَّـــاني: " شـــواهد التَّشـــبيه والتَّمثيل عند أبي هلال العسكري "
- المبحـــث الثَّالـــث:" شـــواهد التَّشـــبيه والتَّمثيل عند ابن رشيق القيرواني "
- المبحـــث الرِّابـــع: " شـــواهد التَّشـــبيه والتَّمثيل عند عبد القَاهِر الجرجاني "

لم يفرِّق اللغويون بين "التَّشبيه" و"التَّمثيل" و"المثل"، فالشَّبَه والشَّبِيهُ المِثْلُ، وأَشبَّه الشيءُ الشيءَ ماثله، وأَشبهتُ فلانًا وشابَهْتُه واشْتَبَه عَلَيَّ، وتَشابَه الشيئانِ أَشبَه كلُّ واحدٍ صاحِبَه، وشبَّه إذا ساوى بين شيء وشيء، والتَّشبيه التَّمثيل[1]، وتبعهم في ذلك المذهب بعضُ البلاغيين والنُّقاد؛ كالزَّمخشري وابنُ الأثير. وتعجَّب ابنُ الأثير من العُلماءِ الَّذين فرَّقوا بينهما –أي بين التَّشبيه والتَّمثيل– وعقدوا لكل منهما بابًا، مع أنَّهما شيء واحد، فقد ذكر أنَّه "لا فرق بينهما في أصل الوضع اللغوي"[2].

ويعتبرُ أول مَن فرَّق بينهما، وظهرَ ذلك جليًا في كُتبه، الشَّيخ عبد القَاهِر الجرجاني –رحمه الله–، فقد عكف على ذلك في "أسْرَار البلاغة"، وبدأ بتحديد التَّمثيل الَّذي لا تشبيه فيه، والحقيقة أنَّه توسَّع في الحديث عن التَّشبيه، وتعمَّق في التَّشبيه التَّمثيلي، فقال: "اعلم أن الشَّيئيْن إذا شبَّه أحدهما بالآخر، كان ذلك على ضربيْن:

أحدهما: أنْ يكون من جهة أمرٍ بيِّن لا يحتاج إلى تأول. والآخر: أنْ يكون الشبَّه محصَّلًا بضرب من التأوُّل"[3].

وساق الدَّارس هذا الكلام ابتداءً؛ لأنَّ عبد القَاهِر سيخصُّ التَّمثيل بشيءٍ يفترق به عن التَّشبيه، وسيدلي بشاهد من شعرِ أبي تمَّام؛ يدلُّ فيه أنَّ التَّمثيلَ أخصُّ من التَّشبيهِ في التَّأثير على النَّفس، ثمَّ ما لبث أنْ ظهر ذلك الفرقُ في اصطلاحِ البلاغيين والنُّقادِ.

وهنا مسألة أخرى؛ أنَّ بعضَ البلاغيين والنُّقاد المتقدَّمين؛ كالآمِدِيّ والعسكري وابن سنان؛ يجعلون التَّشبيهَ المضمر الأداة أحيانًا استِعَارةً، ووصفهم ابنُ الأثيرِ بأنَّهم

(١) يُنظر: "لسان العرب"، (١٧/٨)، مادة: (شبه).

(٢) "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ابن الأثير، (٣٧٣/١)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، طبعة ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، عبد القَاهِر الجرجاني، (ص:٩٠)، محمود شاكر، مكتبة المدني، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

يخلطونَ في ذلك، وعرضَ العلَّوي في "الطراز" هذه المسألة، وأظنُّه ينقلُ عن ابنِ الأثير، والشَّواهِدُ من شعرِ أبي تمَّام دالةٌ على ذلك، فابنُ سنانٍ يسْتَشْهِدُ للاستِعَارة بشواهد فيها تشبيه مضمر الأداة، وكذلك فعلَ الآمِدِيّ والعسكري، غيرَ أنَّ الآمِدِيّ لم يغالِ كصاحبيْه، وخصَّصتُ الفصلَ الثَّاني لكشف هذه القضيةِ البلاغيةِ عند ابنِ سنانٍ، ودراسةِ أسبابِها وعِللها ودواعي القولِ بها.

ومن المسائلِ الَّتي تتعلَّق بهذا البحث، وأصبحت مثارَ جدلٍ ونقاشٍ حتَّى عند بعض المتأخِّرين، مسألةٌ طرقَها ابنُ رشيقٍ؛ هي أنَّ التَّشبيه والتَّمثيل والاستِعَارة والكناية تخرج من مشكاة المجاز، وهذا الرأي تبنَّاه ابنُ رشيق في كتابه "العمدة"، ورجَّحه الدُّكْتُور أحمد مطلوب، وهو قولٌ يُعارضُ قولَ جمهورِ البلاغيين والنُّقاد، وسيأتي المبحثُ الثَّالثُ ليبيِّنَ هذهِ المسألةُ، ويذكر موقفَ ابنُ رشيق، وعلاقة الشواهد به.

وهنا نقطةٌ يجبُ أن تُدرَكَ قبل الشروعِ في المباحث؛ أنَّ أولَّ مَن عَدَّ المماثلة مخالفَة للتَّشبِيه والتَّمثيل هو قدامة بن جعفر، وهي عنده من نعوتِ ائتلافِ اللَّفظِ والمعنى، وكلُ مَنْ جاءً بعدهُ من البلاغيين والنُّقاد غير عبد القَاهِر يصفُها بما وصفَ قدامة، ومَن يتصفحُ "الصناعتيْن" مثلًا، وغيرها من كتب المتقدِّمين، يجدُ أنَّ أبا هلالٍ العسكري، وابن رشيق، وابن سنان، يجدون فرقًا بين التَّمثيل والمماثلة،وسيأتي الحديث عنها في موضعها.

والمماثلةُ عندعبد القَاهِرِ استِعَارةٌ تمثيلية، ووجد فرقًا بينهاوبين التَّشبيه والتَّمثيل، ولعلَّ الدَّارس يعرضها بتوسُّعٍ في الفصولِ والمباحثِ القادمةِ عندِ الحديثِ عن شواهدِ عبد القَاهِر من شعر أبي تمَّام.

المبحث الأوَّل

" شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند الحسن بن بشر الآمِدِيّ "

- **المطلب الأوّل:"تشبيه جود الجواد بالسَّحاب والغيث والأنواء".**
- **المطلب الثَّاني: "تشبيه جود الجواد بالبحر".**
- **المطلب الثَّالث: "تشبيه الأبطال بالسِّباع".**
- **المطلب الرَّابع: "رؤية الآمِدِيّ الفكرية في موازنته وفي تشبيهات أبي تمَّام".**

اصطفى الباحث ثَّلاثة أبواب للتَّشبِيه، بحسب نظرة الآمِدِيّ لفصول أخلصها للتَّشبِيه فقط، وأمَّا ما تداخلت فيه الفنون الأخرى وكان طغيانها على التَّشبيه واضحًا، فقد تركها الباحثُ؛ لأنَّ فيها مشقَّة عظيمة في تمحيص ذلك؛ ولأنَّ شعر أبي تمَّام لا يخلو من التَّشبيه في أغلبه،والآمِدِيّ يُداخل بين الفنون البلاغية والقضايا النَّقدية الَّتي لا تمتّ بصلة بعلم البيان؛ كالسرّقات والقافية مثلًا، فلو تقرَّر وصف كل شاهِد متداخل الفنون، لخرج هذا البحث أضعافَ أضعافِ هذه الصفحات. فالدَّارس اصطفى هذه الأبواب الثَّلاثة وفيها من الشَّواهِد الكافية لتوصيف موقف الآمِدِيّ النَّقدي من تشبيهات أبي تمَّام، وهذا هو منهج الدَّارس حتَّى في فصل الاستِعَارة، فإذا تداخلت الفنون البلاغية مع القضايا النَّقدية الخارجة عن خط علم البيان وطغت عليها، أصبحت النَّظرة للشواهد من قبيل الرُّؤية الفرعية لا الأصلية، فعندئذ يتركها الباحث ويستخلص النَّظرة الفرعية ما أمكن ذلك للآمدي ويوظِّفها لصالح الشَّواهِد الأصلية المعتبَرة والمذكورة في هذه الدِّراسة من تشبيه واستِعَارة.

وعلى غرارِ ما بيَّن الدَّارس في هذه العجالة السرّيعة عن منهج تفسير أحكام الآمِدِيّ النَّقدية إزاء تشبيهات أبي تمَّام، يتدفَّق في سبيل تلك الغاية المنشودة، بالتَّحليل الفني واستخراج مواطن التَّشبيه في تلك الشَّواهِد، وإبرازها في صورة بيانية، تقترب من تصوُّر الآمِدِيّ، وتمتزج مواقفه النَّقدية مع ذلك التَّحليل للشَّواهد.

المطلب الأوَّل: "تشبيه جود الجواد بالسَّحاب والغيث والأنواء"

لا عجب إذا كان هذا المطلب قد حوى جملةً كثيرة من شواهد الآمِدِيّ لشعر أبي تمَّام، علَّق على بعضها، وترك بعضها؛ يحسبه الدَّارس أنه وكل الأمر إلى القارئ، الَّذي وصفه الآمِدِيّ في أول كتاب "الموازنة"، فقال:"ثم احكم أنت حينئذٍ [إن شئت] على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علمًا بالجيّد والرديء"(١). والآمِدِيّ هو النَّاقِد البصير بجيّد الشِّعْر ورديئة، ولا يسع المتأمِّل لهذه الشَّواهِد إلا أن يُسْلِّمَ لها عِنان قلم الآمِدِيّ، ليرى الخلفية الفكرية النَّقدية الَّتي تستجلي مكونات الجودة والرداءة في هذه الشَّواهِد، وعندها يحسن بالدَّارس التَّفْتِيش وراء تلك الجودة والرداءة، وإظهار

(١) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، بصري المنشأ، أخذ العلم عن الأخفش والزَّجاج وابن دريد وابن السرّاج، وإليه انتهت رواية الشعر والأخبار بالبصرة، وكان كثير الشعر، جيد الصَّنْعَة، مشتهرًا بالتشبيهات النادرة، وكان ناقدًا فذًا، عليمًا بجيد الشعر ورديئه. ويعتبر "الموازنة" من أشهر كتبه النقدية، والآمدي يرى نفسه الناقد البصير الذي اجتمعت له آلات النقد الضرورية.. ينظر: "تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري "، للدكتور إحسان عباس، (ص: ١٤٣)، دار الشروق، الطبعة العربية الأولى الإصدار الثالث٢٠٠١م.بتصرف.
وكان لكتابه الموازنة أنصار وخصوم، وياقوت الحموي ينقل بعض تلك الآراء، فقال في معجمه: " وقد عيب عليه في مواضع منه، ونسب إليه الميل مع البحتري فيما ورد، والتعصب على أبي تمَّام فيما ذكره، وفريق من الناس وافق الآمدي في حكمه على كلا الرجلين، وفريق خالفه...– حتى قال:– إن أبا القاسم جدَّ واجتهد في طمس محاسن أبي تمَّام وتزيين مرذول البحتري...". ينظر: "معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، ياقوت الحموي، (٨٧/٣ – ٨٨)، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
ووصف ابن النديم الآمدي بتعاطيه مذهب الجاحظ في كتاباته، فقال: "مليح التصنيف، جيد التَّاليف، يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب.يُنظر: "الفهرست"، لا بن النديم أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، (١٧٢/٣)، تحقيق: رضا تجدَّد ابن علي المازندراني، دار المسيرة، طهران، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.وينظر:"الموازنة"، (٦/١).

القضية البلاغية والنَّقدية لكل شاهد حسب معطيات الفكر الآمِدِيّ، للدَّرس البلاغي والنَّقدي، والشَّواهِد كالتَّالي:

- **الشَّاهِد الأوَّل[1]، قال أبو تمَّام:**

مَواهِـبُ جُـدْنَ الأَرْضَ حـتَّى كأَنَّمـا أخـذْنَ بـآدَابِ السَّـحابِ الهَوَاطِـلِ[2]

شبَّه الشَّاعر عطايا الممدوح الكثيرة، ومواهب جوده، الَّتي يفيض بها للعفاة والمعوزين وذوي الحاجات، وتسير للجميع فتعطيهم؛ فقيرهم وغنيهم، فتغنيهم وتخصبهم، بآداب ومكرمات وأخلاق وشيم السَّحاب المواطر، الَّتي تنشر الخير والعطايا دون أن تستثني الأرض المجدبة المحتاجة فقط، بل لجميع الأرض، تطرح بركاتها على سهلها وجبلها، ووديانها وساحلها، فتخُصبها بعد عوز وفقر وحاجة.

قال الآمِدِيّ –رحمه الله– :"وهذا حسن جدًا"[3] فقط، لم يزِد على تلك العبارة، فما وجه الحسن والقبح في تصوُّر الآمِدِيّ؟ وكيف يبني أحكامه تجاه شعر أبي تمَّام في باب التَّشبيه؟،فقوله: هذا حسن جيّد... والبيت الأول أجود... ألطف معنى... ، وغيرها من الأحكام الموجزة أحيانًا، والمُطنِبة أحيانا أُخَر؟ فمن الممكن تفسير وجهة نظر الآمِدِيّ في أحكامه تجاه تشبيهات أبي تمَّام بحسب القرائن والمعطيات الَّتي تناولها الآمِدِيّ؛ فجعل فصلًا في تشبيه جود الجواد بالسحاب والغيث والأنواء، وفصلًا في تشبيه الجواد بالبحر، وفصلًا في تشبيه الأبطال بالسِّباع، والوقوف على بعض تحليلاته عقب الشَّواهِد أو قبلها، تجعل الحركة النَّقدية عنده تتفاعل،

---

(١) "الموازنة"، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، (١٦٧/٣)، دراسة وتحقيق: عبد الله حمد محارب، النَّاشِر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٨٠/٣)، ومطلع القصيدة:

غـدا المُلْـكُ معمـوَر الحـرَا والمنـازِلِ مُنَـوِّرَ وحْـفِ الـرَّوْضِ عَـذْبَ المَناهِـلِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد هو البيت الخامس قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم والأفشين.

(٣) "الموازنة" (١٦٧/٣).

والمقارنة بينه وبين شعر البُحْتَري في نفس الفصول، كل ذلك ممَّا يعزِّز فهم الدَّارس في حكمه على الشَّاهِد، وفي بعض الأحوال يترك الآمِدِيّ الشَّاهِد دون تحليل أو إصدار حكم، ممَّا يجعل الباحث يستخلص وينقِّب ويستخرج المواقف السابقة واللاحقة للآمدي في فصول التَّشبيه؛ ليخرج بالتَّصوُّر الموافق لحيثيات المواقف النَّقدية، ويقوم بالربط بين تلك التفسيرات ومواطن الشَّواهِد، وبين كلامه في أول الفصل وآخره؛ لأن الآمِدِيّ يُصدر حكمًا نهائيًا في آخر فصول التَّشبيه، يُبيِّن فيها موازنته بين شعر الطَّائيين.

وعلى كل حال فإن سر الحسن هنا هو أن أبا تمام نقل المواهب والهبات والعطايا إلى حيز الأحياء القادرين المتصرفين، فراحت تلك المواهب والعطايا تتنقل بين المعوزين، كما نقل المشبه به (السحاب) إلى حيز العاقلين أصحاب الأخلاق والآداب، فراح السحاب يتوجه بمائه صوب كل أرض مُقحلة.

الشَّاهِد الثَّاني[1]، قال أبو تمَّام:

نَشَـــأَتْ مِـــنْ يَمِينـــه نفَحَـــاتٌ مـــا عليهـــا ألاَّ تكـــونَ غُيُومَـــا[2]

شبَّه الطَّائي العطايا والنفحات الَّتي تخرج من (يمين) الممدوح، بالغيوم الَّتي فيها الغيث، والوابل الصيب، الَّذي ينفع الله بها البلاد والعباد، فتخرج الثَّمرات كأحلى ما تكون، وتلبس الأرض زخرفها وزينتها، فهو إذن غيث عميم النَّفع، لا كالمطر القليل، الَّذي لا ينبت إلاَّ الشيح والجنبة والقيصوم، وهي من البقول الَّتي يبقى أصله في الشتاء ويبيد فرعه، فعطايا الممدوح ليست كالغيوث الَّتي تُنبِت العشب فقط، بل هي مختلفة عنها.

---

(١) المصدر السَّابق، (١٦٧/٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٢٢٥/٣). ومطلع القصيدة:

إنَّ عهـــداً لـــو تعلمـــان ذميمـــا أنْـــأَنْ تَنَامَـــا عَـــنْ لَيْلَتِـــى أو تُنِيمَـــا

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي الثاني هو البيت الخامس عشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وقد قدم من مكة.

وبعد أن ذكر الآمِدِيّ الشَّاهِد الثَّاني،قال:"والبيت الأول أجود"[1]، ويقصد في قوله:

مواهــب جــدن الأرض حــتى كأنمــا أخــذن بــآداب الســحاب الهواطــل[2]

وهذه الصُّورة تتَّضح بالتحام الشَّاهِد الثَّاني بالبيتيْن الَّذي قبله والبيت الَّذي يليه، حتى تكتمل الصُّورة البيانية، ويكون السياق رافدًا للمعاني، حيث قال أبو تمَّام:

فسَـــقَى طيِّئًـــا وكلبًـــا وَدُودَا نَ وقيْســـا ووائـــلًا وتميمًـــا
لَـنْ يَنـالَ العلَّـى خُصُوصًـا مِـنَ الفِتْـ ـيَان مَــنْ لم يَكُــنْ نَــدَاهُ عُمُومًــا
نَشَـــأَتْ مِـــنْ يَمِينـــه نفَحَـــاتٌ مـــا عليهـــا ألاَّ تكـــونَ غُيُومَـــا
ألبسَـــت نَجْـــدًا الصَّـــنائعَ لا شيـــ ـــحًا ولا جَنْبـــةً ولا قيصـــومًا
كَرُمَـــتْ رَاحَتَـــاهُ في أَزَمَـــاتٍ كـانَ صَـوْبُ الغَمَـامِ فيهـا لَئيمـا[3]

واتَّضح من الأبيات السابقة، أن نجدًا تسكنها قبائل معروفة هي طيء-قبيلة الشاعر- ، وكلب، ودوان، وقيس، ووائل، وتميم، فمواهب وعطايا هذا الممدوح ألبست نجدًا؛ أي: أفاض على قبائل نجد الخير وصنائع المعروف، ولم يكن فعله هذا كالغيوث اللاتي تُظهِر النبات؛ مثل الشيح والجنبة والقيصوم، وعبَّر عن فعل هذه العطايا بقوله: (سقى) وهي استِعَارة بالغيث الَّذي شبَّه الممدوح به.

(١) "الموازنة" (١٦٧/٣).
(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٠/٣).
(٣) "الشيح": نبات كئيب الرائحة، "الجنبة": ما كان في نبته بين البقل والشجر، وهو ما يبقى أصله في الشتاء ويبيد فرعه، وقيل هو كل نبت يورق في الصيف من غير مطر، "والقيصوم": نبات طيب الرائحة يُتداوى به، يُنظر: "ديوان"، أبي تمَّام، (١٦٧/٣).

الشَّاهِد الثَّالث[1]، **وقال:**

كرمـــــت راحتـــــاه في أزمـــــات كـــان صـــوب الغمـــام لئيمًـــا[2]

هـذا الشـاهد اسـتعارة وليس تشـبيه، وجعلـه الآمـدي تشـبيهًا، فـ (راحتـاه)؛ أي يمـين الممـدوح وشمالـه الَّـتي تنفـق، وكـأنَّ البيـت السـابق يصـفه في أول الكـرم، ولـذلك قـال: (نشأت)، وفي هذ البيت يصفه في وسط وآخر الكرم والعطايا فقال:(كرمت) ، وهذا يـدلُّ علـى أنَّ الممـدوح زاد في العطـاء في زمـن قلـة الغيـث والمطـر لحاجـة النَّـاس وسـدّ عـوزهم، ولـذلك وصـفَ أبـو تمَّـام المطـر أنَّـه: (لئـيم) **وهـذه اسـتِعَارة**. واللُّـؤم: بالضـم والهمزة ضـد الكـرم، وتقـديم الجـار والمجـرور في قـول الشَّـاعر: (كـان فيهـا) علـى (صـوب الغمام)، دليل عناية وأهمية من الشَّـاعر للتركيز على مسألة الظروف القاسية، والمحيطة بـالمجتمع في ذلـك الوقـت، وتلـك الأزمـات الَّـتي تحتـاج مـن يسـعى في تغيـير حالهـا، فـ (صوب الغمام) لوحده وبعينه تـأخُّر وتلئُّم وتنكُّر للنَّاس وليس غيره، وهذه إشارة من الشَّاعر أن غير الممدوح لئيم في صفاته، فأراد أن يبرز ممدوحه وغيره في معرض المفارق الحسية والمعنوية. وفي ظنِّ الباحث أنَّ هذا الَّذي أراده أبو تمَّام، فاكتفى بالتَّلميح دون التَّصريح، وهـذا مـن معـين الموازنـة بـين الشَّـاهِديْن، فالحلـل الحسـنة الَّـتي لا تنفـكّ مـن شاعرية أبي تمَّام هي تلك الصُّور البديعية الَّتي يدبِّجها في أبياته، مثل قوله: (كرمت) و

---

(١) "الموازنة"، (١٦٨/٣).

قدَّم الدارس الشَّاهِد الثالث على الثاني في ترتيب الديوان؛ لأنه من نفس القصيدة، لا على ترتيب الآمدي، ، فأراد الدارس أن لا ينفكَّ السياق؛لأنه يخدم المعنى، ومع ذلك، فقد وصفه الآمدي بأنه مثل الذي قبله؛ أي: غاية في الحسن والصحة، وسيأتي الحديث عنه – إن شاء الله – في الشَّاهِد السادس.

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٢٥/٣)، ومطلع القصيدة:

إنَّ عهـــداً لـــو تعلمـــان ذميمـــا أَنْـــأَنْ تَنَامَـــا عَـــنْ لَيْلَتِـــى أو تُنِيمَـــا

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي الثالث هو البيت السابع عشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وقد قدم من مكة، وفي الديوان شرح التَّبْريزي: "صوب الغمام فيها ".

(لئيمًا) وهنا طباق يحرِّك النفوس للمفاضلة، عندها فقط قال الآمِدِيّ:"وقال في مثله"، وهو يقصد في مثل البيت الَّذي قبله[1]، وهذا غاية الحسن والصحة.

الشَّاهِد الرَّابع[2]، وقال أبو تمَّام:

جَـرَى حـاتمٌ في حَلْبـةٍ مِنْـه لَـوْ جَـرَى بِهَـا القَطْـرُ شَـأْوًا قِيْـلَ أيُّهمـا القَطْـرُ؟[3]

شبَّه الشَّاعر الممدوح[4] في سرعة عطاياه ونواله وكرمه وذلك في قوله: (حَلْبةٍ) وهي الجماعة من الخيل تُرسل في الرِّهان، شبَّهه بالقطر؛ وهو السحاب والمطر الَّذي لا يسبقه شيء، ولكنَّ الشَّاعر جعل الممدوح والقطر في الميدان بمثابة الصِنويْن المتكافئيْن، وتقديم الجار والمجرور في قوله: (بِهَا القَطْرُ) يدلّ على عنايته بالظروف ووقت السباق ومن سيربح في الجولة، ولم يهتم بالقطر فأخَّره، وفي آخر عجز البيت كأنَّ سائلًا يسأل فترك الإجابة فقال: (أيُّهما القَطْرُ؟)، ومعنى ذلك أنه اشتبهت على النَّاس المصادر بين جود حاتم وجود القطر، فكأنَّ الشَّاعر يقرِن جود حاتم بالسَّحاب من جميع الجهات. أمَّا الآمِدِيّ فبعد أنْ أورد الشَّاهِد، قال: "فهذا تشبيهٌ بالسحاب"[5]، وهذا حقّ.

الشَّاهِد الخامس[6]، وقال أبو تمَّام:

في قُلِّـه كُثْـرُ السِّـماك وإنْ غَـدَا هَطِـلًا وعَفْـوُ يَدَيْـهِ جُهْـدُ المِـرْزِمِ "[7]

---

(١) على ترتيب الآمدي في الموازنة، يُنظر: "الموازنة"، (١٦٨/٣).

(٢) "الموازنة"، (١٦٧/٣).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٥٧٤/٤)، ومطلع القصيدة:

تَصَـدَّتْ وَحَبْـلُ البَـيْنِ مُسْتَحْصِـدٌ شَـزْرُ وقَـدْ سَـهَّلَ التَّوْدِيـعُ مـا وَعَّـرَ الهَجْـرُ

بَكَتْـهُ بمـا أَبْكَتْـهُ أيَّـامَ صَـدْرُها خليءٌ وما يخلو لهُ من هوًى صدْرُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع والعشرون، قالها أبو تمَّام يفخر بقومه عند انصرافه من مصر.

(٤) حاتم بن عبد الله الطَّائي المشهور.

(٥) "الموازنة"،(١٦٧/٣).

(٦) المصدر السَّابق، (١٦٧/٣).

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٥٢/٣)، ومطلع القصيدة:

شبَّه قِلة عطاء الممدوح وعفوه وسماحة يديْه، وبذله بكثرة عطاء السِّماك، وغاية ما يغدقه المِرْزم، وهما أي: (السِّماك) و (المِرْزم)، قال الآمِدِيّ:" السِّماك سِماكان: الأعزل والرامح، وهما كوكبان من نجوم بُرج الأسد، ونوء الأسد من أغزر الأنواء، والمرْزم أحد كوكبي ذراعيْ الأسد"(١)، وعلى أيّ حال، فهما نجمان يُنسَب إليهما كثرة المطر، فالصُّورة البيانية هنا مقلوبة، فلا يمكن أن يُتصوَّر أن أحدًا من النَّاس، وإنْ بلغ ما بلغ في الكرم والعطاء، لنْ يصل إلى درجة من درجات عطاء السَّحاب الفيَّاض، في السُّرّعة والانتشار والعموم والبركة والاتِّساع وغيرها؛ لأنَّه عطاء من الله، وعطاء الله غير محدود، فكأنَّ الشَّاعر يريد أن يقلب التَّشبيه بأن يجعل جود السَّحاب كجود الممدوح، وهذا الَّذي مال إليه الآمِدِيّ، فقبل أن يورِد الشَّاهِد قال:" وأكثر ما جاء عنه –أي عن أبي تمَّام– تفضيل جود الجواد على السَّحاب، فمن ذلك قوله..."، وذكر الشَّاهِد.

وعلى كل حال، فالممدوح بلغ في قلب الشَّاعر منزلة لا تعدلها منزلة، ومن جانب آخر، يريد أبو تمَّام إبراز الممدوح بأنَّ نواله بلغ كل صقع، وانتشر خيره في البلاد، واتَّسع بِرُّه على العباد، وهذه المبالغة لا يمكن أن يوافقها أحد؛ لأن هذه عادة الشُّعْراء في الإسرّاف في المدح المبالَغ فيه، فأضفى على الممدوح صفات السَّحاب، الَّتي عند الشاعر هو أعلى منها، فالمبالغة تبرز عند قوله: (في قُلِّه)؛ أي أنَّ هذا ليس كل ما عند الممدوح، بل هو القليل، الَّذي يخرج عفوًا دون تقصُّد له، وهو أول ما

نثـــرتْ فريـــدَ مـــدامعٍ لـــمْ يـــنُظمِ والـــدَّمْعُ يَحْمِـــلُ بَعْـــضَ ثِقْـــل المُغْـــرَمِ
وَصَـلَتْ دُمُوعًـا بـالنَّجيعِ فخَـدُّها فـي مثـل حاشـيةِ الـرِّداءِ المُعْلَـمِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع عشر، قالها أبو تمَّام يمدح ابن شبانة أبا الحسين بن الهيثم.

(١) "الموازنة"، (١٦٨/٣).

يستهلّ به للعطاء، فما عسى أبو تمَّام إذا تقصَّد الممدوح بالمكرمات والهبات أن يشبِّه بماذا؟

ووازن الآمِدِيّ بين قول أبي تمَّام هذا وقول ابن هرمة، فقال: "وقال ابن هرمة:

جـــوادٌ تُبـــاري المـــرزمينِ شمألُـــه وتحْقِـــرُ أنـــواءَ الربيـــع يمينُهـــا

قول أبي تمَّام أبلغ، وهذا أحسن لفظًا وأبرع"(١).

ووازن الآمِدِيّ كذلك بين قول أبي تمَّام هذا وقول البُحْتَري، فقال:"وقد فضَّل البُحْـتَري جـود الجـواد علـى السَّـحاب والغيـث، وتصـرَّف في ذلـك وافـتن افتنانـا عجيبًا...وقال:

عفـوٌ مـن الجـود لم تكـذب مَخيلتُـهُ يُقصِّـرُ القطْـرُ عنـه وهـو مُجتهـدُ

فقوله: يُقصِّرُ القطْرُ عنه وهو مُجتهدُ مثل قول أبي تمَّام:

في قُلِّـــه كُثْـــرُ السِّـــماك وإنْ غَـــدَا هَطِـــلًا وعَفْـــوُ يَدَيْـــهِ جُهْـــدُ المِـــرْزِم

وبيت أبي تمَّام هذا أجود"(٢)، ممَّا يدلّ على شأن هذا الشَّاهِد ورفعة قيمته، فبيت أبي تمَّام هذا أجود وأبلغ.

- **الشَّاهِد السَّادس(٣)، وقال أبو تمَّام:**

غَيْـثٌ حَـوَى كَـرَمَ الطَّبـائع دَهـرَهُ والغيـــثُ يَكْـــرُمُ مَـــرَّةً ويَلُـــومُ(٤)

(١) المصدر السَّابق، (١٦٨/٣).
(٢) المصدر السَّابق، (١٧٢/٣).
(٣) المصدر نفسه، (١٦٨/٣).
(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٩١/٣)،ومطلع القصيدة:

أسْـــقَى طُلُـــولَهُمُ أَجَـــشُّ هَـــزيمُ وغـــدتْ علـــيهمْ نضـــرةٌ ونعـــيمُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة، قال التَّبْريزي: " عادة العرب إذا خفّفوا الهمزة في مثل " يلؤم " أن يُلقوا الحركة على اللام، ويحذفوا الهمزة، فيقولوا " يلم " وفي " يسأم " يَسَمُ ، وفي " يَنئم " يَنم، وبعضهم يقول يَلُوم ويَسَام وينيم الليث، وذلك رديء، قليل في كلامهم

شبَّه الممدوح بالغيث، فقال: غيث ، أي هو غيث، كريم الأخلاق والطبائع على امتداد الدَّهر، لا ينفكّ عنه العطاء، ولا تتبدَّل تلك الشِّيم، وعلى كلٍّ؛ اعترض الشَّاعر بجملة، وهي قوله: (والغيثُ يَكْرُمُ مَرَّةً ويَلُومُ)، فذكر أنَّ الغيث غير مستقر الحال، فمرةً يجود، ومرةً يلؤم، بعكس الممدوح الَّذي ينول بكفيْ يديْه للبذل في كل زمن، على أنَّ بعض الأكفّ عقيم، لا يولَد منها الخير، وهذا حاصل ما قاله في البيتيْن اللذيْن قبل الشَّاهِد، وهما قوله:

لله كـــــفُّ محمـــــدٍ وَوِلادُهـــــا للبـــذل إذ بعـــض الأكُـــفِّ عقـــيمُ

متفَجِّـــــرٌ نادمتُـــــه فكـــــأنَّني للـــــنَّجم أو للمِـــــرْزمينِ نـــــديمُ

فعندما قال: (متفجرٌ) شبَّهه بالبركان ثائرًا بالعطايا المخبئة في بواطنه ومدافنه على طول الزمان، فهو يقذفها للنَّاس، فشبَّه العطايا الخارجة من الأرض بالعطايا الخارجة من السَّماء، وهو يبيِّن في الأبيات شدة علوِّ مكان هذا الممدوح، وبلوغه عزة المكان، فقال: (نادمته فكأنني للنَّجم أو للمِرْزمينِ نديمُ) أسمر مع نجم، والنَّجم عال ومضيء، أو أسهر مع المرزميْن؛ وهما النَّجمان ينسب لهما المطر، فالأبيات الَّتي قبل الشَّاهِد تشبيه ظاهر وصريح، فشبَّهه بالبركان وشبَّهه بالنَّجم أو بالمرزميْن.

وهذا البيت له وقعه عند الآمِدِيّ، فسيتبيَّن في آخر فصل تشبيه جود الجواد بالسَّحاب والغيث والأنواء علوّ كعب هذا البيت عنده ومكانته؛ لأن الآمِدِيّ وصفه هنا بأنه الغاية في الحسن والصحة، فقال:"وهذا غاية في الحسن والصِّحة"[1]، فما الحسن عنده وما الصحة؟ ويكون الجواب عن هذا في آخر المطلب.

" انتهى كلامه، "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٢٩١).

(١) "الموازنة"، (٣/١٦٨).

- **الشَّاهِد السَّابع** [١]، **وقال أبو تمَّام:**

ولا أرى ديمـــةً أنفـــى لنائبـــةٍ[٢] منْـهُ علـى أنّ ذكـرًا طـارَ للـدِّيم[٣]

شبَّه الشَّاعر الدِّيمة بالممدوح الَّتي تُخصب الأرض وتنفي النَّائبة، وهي المخمصة والمجاعة والمسغبة، فالشَّاعر أراد أن يقول أنَّه أمحى وأنفى للجوع من الدِّيمة؛ وهي السَّحابة الدَّائمة المطر، فهنا التَّشبيه مقلوب، بتفضيل جود الجواد على الدِّيمة والسَّحاب، والقول فيها كالقول في الشَّاهِد الماضي أنَّ الممدوح مهما بلغ في اتِّساع برِّه وإحسانه للنَّاس، لن يصل إلى إحسان الله المتمثِّل في الدِّيمة الَّتي خيرها وبرّها وبركتها على كل شيء، فينتفع بها كل الخلائق، فالدِّيم في ذهن النَّاس تحمل شهرة السَّخاء، ومصبّ النَّعماء، وهو مع ذلك أسخى منها، وهذا غير معقول، وإنَّما هي مبالغة الكرم، والبيت الَّذي قبل الشَّاهِد تشبيه مقلوب كذلك، فحين قال:

فمـا الربيـعُ علـى أُنـسِ الـبلاد بـه أشـدَّ خُضـرَةَ عُـود مِنْـهُ في القُحَـمِ

فقد شبَّه الربيع به، بل هو أشد سخاءً منه، وعلَّل ذلك؛ فمن حالته في الأيام القاحلة، والسنين الشدائد، فهو أعطى وأجود خُضرة من الربيع نفسه في تلك الأيام الشداد.

التَّشبيه كما هو معلوم هنا عند الشاهد إلحاق الأصل وهو (الماء والبرق: أي المطر) بفرع وهو (الكريم)، ولكن الصُّورة هنا مقلوبة، فقد ألحق الفرع بأصل، وعلى هذا يكون الشَّاهِد من قبيل التَّشبيه المقلوب.

---

(١) المصدر السَّابق، (١٦٨/٣).

(٢) ورواية الديوان شرح التَّبْريزي: "أمحى لمسغبةٍ".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨٧/٣)، ومطلع القصيدة:

سـلمْ علـى الرَّبْـعِ مِـنْ سـلْمَى بـذِي سَـلَمِ عليـــهِ وســـمٌ مـــن الأيَّـــامِ والقِـــدَمِ

مـــا دامَ عـــيشٌ لبســـناهُ بســـاكنهِ لَـدْنًا ولـو أنَّ عيشًـا دامَ لـمْ يـدُمِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح مالك ن طوْق التَّغلبي.

فهذا عمل التَّشبيهات المقلوبة، فهي تقلِّب الحقائق، وتجعل عنصر الغرابة يضفي على الصُّورة البيانية، فيعطيها شكلًا آخر، ومع ذلك كلِّه لم يعلِّق الآمِدِيّ على هذا الشَّاهِد.

- **الشَّاهِد الثَّامن**[1]، **وقال:**

لَـهُ كَـرَمٌ لَـوْ كـانَ في المـاءِ لم يَغِـضْ وفي البَـرْقِ مـا شـامَ امـرؤٌ بَـرْقَ خُلَّـبِ[2]

شبَّه كرم الممدوح الَّذي لا ينقطع ولا ينفد عن النَّاس ولا يغيض بأنه لو كان كرمه في الماء لم يغِض ولم ينتقص، ولم ينضب فيضه، ولو حلَّ كرمه في البرق الخُلَّب – وهو البرق الَّذي لا يمطر– لدرَّ البرق بالمطر العميم، فشبَّه الفرع وهو الممدوح بالماء والبرق، وهما أصل الفيض والخير، ولكن لهما صفات معينة، فالماء يغيض أحيانًا ويفيض أحيانًا، والبرق منه ما يمطر ومنه الَّذي لا يمطر، لكن الممدوح عند الطَّائي كرمه لا يقف عند حدّ، بل هو المعين المتدفِّق في كل أحواله، فليس له وقت يغيض فيه، وهذه مبالغة من الشاعر للممدوح.

- **الشَّاهِد التَّاسع** [3]، **وقال:**

إنْ غَـاضَ مـاءُ المـزْنِ فِضْـت وإنْ قَسَـت كَبِـدُ الزَّمـانِ علـيَّ كنـتَ رَؤُوفَـا[4]

---

(١) "الموازنة"، (١٦٨/٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٥٢/١)، ومطلع القصيدة:

تَقِـي جَمَحـاتي لسـتُ طـوْعَ مُـؤنِّبي ولـيس جَنِيبـي، إنْ عَـذَلْتِ، بِمُصْـحِبي

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع عشر، قالها أبو تمَّام يمدح عياش بن لهيعة الحضرمي..

(٣) "الموازنة"،(١٦٩/٣).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٨٣/٢)، ومطلع القصيدة:

أطلالهـمْ سَـلَبَتْ دُمَاهـا الهِيفَـا واسـتبدلتْ وحْشًـا بهـنَّ عُكُوفـا

يـا مَنْـزِلًا أعْطَـى الْحَـوَادِثَ لامطْلَفـي عِـدَّة ولا تَسْـويفَا

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن يوسف، ويُعرِّض بإنسان ولىَ الثغور مكانه، وكان ناسكًا، فهُزم.

شبَّه فيضان جوده بفيضان ماء السَّحاب، على أنَّ ماء المُزن يغور وينقطع أحيانًا، ولكنَّ فيض كرم الممدوح ونواله دائم العطاء، وقوله: (كبد السماء) استِعَارة مكنية تخيلية، فجعل قسوة الحياة وما فيها من ضنك وتعب وشدة، وأنَّ لها كبدًا ككبد الإنسان تقسو أحيانًا، وجعل الشَّاعر القسوة مركَّزة عليه فقط، فهي خاصَّة في حقه عامة في النَّاس، ثم جعل الممدوح لا يقسو على النَّاس، بل عطاياه وهباته على مدار الملوان، فهو الرؤوف العطوف على الطَّائيين، وعلى كل حال، فقد فضَّل جود الجواد على السحاب، وهذا الَّذي عناه الآمِدِيّ.

- **الشَّاهِد العاشر** [1]، **وقال:**

يفِيضُ سَماحةً والمُزْنُ مُكْدٍ ويقطع والحُسَامُ العَضْبُ نَابِ[2]

هنا استعارة ، فالممدوح يفيض سماحةً، وهذه من خصائص السَّحاب، ومع تلك الإفاضة، فالمزن أي السَّحاب (مكد)؛ أي لا مطر فيه، ويلحظ المتأمِّل في قوله (تفيض) و (سماحة) وما فيهما من المعاني الَّتي تُشعرك بالعطاء اللامحدود، والكرم غير المتكلِّف، فهنا فضَّل جود الجواد على السحاب، وبين هذا وذاك، فقد عقد الآمِدِيّ موازنة بين قول أبي تمَّام هذا، وأبياتًا للبحتري في هذا المعنى فقال:" وهذا شرط في غاية الجودة والقوة، ولكن قول أبي تمَّام:

يفِيضُ سَماحةً والمُزْنُ مُكْدٍ ويقطع والحُسَامُ العَضْبُ نَابِ

... ألطف معنى"[1].

---

(١) "الموازنة"، (١٦٩/٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٨٤/١)،ومطلع القصيدة:

سَلاَمُ اللَّهِ عِدَّة رَمْلِ خَبْتٍ على ابنِ الهيثمِ الملكِ اللُّبابُ

ذكرتُكِ ذِكرةً جَذَبَتْ ضُلوعي إليكِ كأنَّها ذِكرى تَصَابِي

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة من أهل مرو، ويهجو أبا صالح ابن يزداد ويُعرض به، وكتب بها إليه.

فشبَّه البُحْتَري أنَّ الدُنيا وما فيها لا ينقص، إذا كان الممدوح؛ وهو الفتح بن خاقان والقطر على قيد الحياة، فالممدوح بفيض بالعطايا والقطر بالمطر والخير، فخير من الأرض وخير من السَّماء فلا انقطاع للدُّنيا، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس، وشبَّه في الثَّاني تسابق جود الممدوح بتسابق جود الغيث، لكنَّهما جاءا معًا سواءٌ بسواء، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس، وهذا غاية في المدح بالكرم وهي مبالغة للاتِّساع وشمول المعنى، ثم شبَّه في البيت الثَّالث الممدوح بالغيث، ولكنَّه ليس كأيِّ غيث، بل المحمول بالودق، وشبَّهه كذلك بالبحر وليس أيّ بحر، بل عباب وهو "معظمه وكثرته وعلوّ موجه"[٢]، ووصف الآمِدِيّ بيت البُحْتَري الثَّالث بأنَّ فيه شرطًا، فهو في غاية الجودة في المعنى والقوة في اللَّفظ، وهذا أمر واضح، فقد جعل الممدوح شروطًا لتشبيهه بالغيث والبحر، وأنه لا يختار له إلاَّ المدح العالي، أمَّا ذكره شاهد أبي تمَّام، فاللَّطافة معنى العطاء الَّذي ينقطع معه كل شيء، حتى المزن المكد لا مطر فيه ينقطع فيضه.

- **الشَّاهِد الحادي عشر [٣]، وقال:**

إذَا وَعَـــدَ اهْلَّـــتْ يَـــدَاهُ فأهْـــدَتَا لـــك الـنُّجْحَ مَحْمُـولًا علـى كاهِـلِ الوَعْـدِ

دَلُوحَـــانِ تَفْتَـــرُّ المكـــارِمُ عَنْهُمـــا كمَـا الغيـث مُفْتَـرٌ عـن البَـرْقِ والرَّعْـدِ[٤]

---

(١) "الموازنة" ، (١٧٠/٣).

(٢) يُنظر :"لسان العرب"، لابن منظور، (٦/١٠)، طبعة جديدة محقَّقة، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة ٢٠٠٤م ، بتصرف.

(٣) "الموازنة"، (١٦٩/٣).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١١٣/٢-١١٤)، ومطلع القصيدة:

شَـــهدْتُ لقـــد أقـــوتْ مَغَـــانيكُمُ بَعْـــدِى ومَحَّـــتْ كمـــا محَّـــتْ وَشَـــائعُ مِـــنْ بُـــرْد

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والتاسع عشر، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة من أهل مرو، ويهجو أبا صالح ابن يزداد ويُعرض به، وكتب بها إليه.

في قول: (انهلت يداه) استعارة وليست تشبيه، والدلوح: هي السَّحابة المثقلة بالماء، فأراد أنَّ يديْه مثقلتان بالنجح والوعد بالخير، المتقدَّم ذكرهما في البيت الَّذي قبله، وهذه اليد المثقلة بالخير العميم تظهر المكارم عنها، كمثل الغيث الَّذي يبدو ويظهر عن البرق والرَّعد، فأقام راحتيْ الممدوح مقام البرق والرَّعد، فالغيث ينكشف ويبدو ويظهر بلمعان البرق وصوت الرَّعد، في هذه الحالة يكون الغيث غزيرًا، وراحتي الممدوح ينكشف عنهما ذلك الخير والوعد بالعطاء والكرم، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس.

وفي ذلك قال الآمِدِيّ:" قوله: (دلوحان) من السحاب الدوالح؛ وهي المثقلة بالماء، تفتر بالمكارم عنهما: تبدو وتظهر، "كما الغيث مُفتر عن البرق والرعد"أقام راحتيْه مقام البرق والرعد، وأنَّ الغيث يفتر عنهما"[1].وأمَّا وصف دلوحان، فهي استِعَارة عن اليديْن، وقد جعل الآمِدِيّ هذا الشَّاهِد مقلوبًا، وتعليله في ذلك أن (مفتر) والافترار بمعنى الكشف، فالدُّلوحان ينكشفان عن المكارم وينفتحان عن الغيث، فاليدان إذا انفتحتا وانكشفتا عن المكارم، فإنَّ المكارم أيضًا قد انكشفت وكذلك البرق والرَّعد، وأظنُّ أنَّ الآمِدِيّ عندما أطلق القلب في الشَّاهِد، يقصد تحوُّله من هيئة إلى هيئة، لا التَّشبيه المقلوب عند علماء البلاغة من عكس الطرفيْن بإلحاق الأصل بالفرع، ولم يقصد التقارب في الشبَّه أو المبالغة ولا إلحاق كامل بناقص، فالآمِدِيّ قصد من المقلوب ما قلب عن حالته الَّتي هو فيها وانتقل إلى هيئة أخرى، حينها قال:" هذا على ظاهر لفظ أبي تمَّام وهو عندي من المقلوب؛ لأنَّ حقيقة الافترار الانكشاف، ومنه قولهم: فررت الدابة؛ أي كشفتُ جحفلته لأنظر إلى سِنِّه، وقد فرَّ فلان عن ذكاء، وفرَّ عن عقل؛ أي كشف، فوجه الكلام: دلوحان يفتران عن المكارم؛ أي ينكشفان وينفتحان عن الغيث، وهو عندي من المقلوب الحسن السائغ

(١) "الموازنة"، (١٦٩/٣).

الجائز مثله للمتأخِّرين؛ لأن اليديْن إذا انفتحتا وانكشفتا عن المكارم، فإن المكارم أيضًا قد انكشفت، وكذلك البرق والرعد إذا انفتحا وانكشفا عن الغيث، فإنَّ الغيث قد انكشف واتَّضح"[1].

فالآمِدِيّ ناقد فذّ، يستحضر الشَّواهِد أمام عينيْه، يقلِّبها كيف شاء، ولقد خرج من باب تشبيه جود الجواد بالغيث والمطر والأنواء، بأنَّ أبا تمَّام له بيتان رجَّحتا بالكفة إلى الاعتدال في التفضيل بينه وبين البُحْتَري، فلولا ما فيهما من معانٍ عميقة واستِعَارة لطيفة حسنة وصحيحة المعنى، لفضَّل عليه البُحْتَري، فالبُحْتَري لا يتعمَّق في المعاني، كما هو الحال عند أبي تمَّام، بل تشبيهاته واضحة قريبة الربط بين المشبَّهيْن، وليس فيها غلوّ مفرط، فبهذيْن الشَّاهِديْن لأبي تمَّام –الشَّاهِد الثَّالث والسادس– على أن الشَّاهِد السادس استِعَارة حذف منها المشبَّه، اتَّضحت الموازنة، وظل صوت الآمِدِيّ يلوح بقوله:" فأقول الآن في الموازنة بينهما: إنه لولا قول أبي تمَّام:

والغيـــثُ يَكْـــرُمُ مَـــرَّةً ويَلُـــومُ
وقوله: كانَ فيها صَوْبُ الغَمَامِ لَئيما [2]

لفضَّلت البُحْتَري عليه، ولكني أجعلهما متكافئيْن "[3].

(١) المصدر السَّابق، (١٧٠/٣).
(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٢٥/٣).
(٣) "الموازنة"، (١٧٥/٣).

المطلب الثَّاني: "تشبيه جود الجواد بالبحر"

ذكر الآمِدِيّ شواهد لأبي تمَّام والبُحْتَري في هذا المطلب، ثم قام بالموازنة بينهما، وفق معطياته وقواعده النَّقدية المعتبرة، غير أنَّه لم يقدِّم هنا تعليله النَّقدي تجاه الشَّواهِد، بل كانت منه إشارات ذاتية، لا تحمل في بصماتها الوقوف المستغرق، فحلَّل الباحث استلهامًا من فيض هذا الإمام، وعلى حذو ما يريد، وفق العمل النَّقدي القديم، حتى تتكوَّن الفكرة المرجوَّة مع الرُّؤية وقوة البرهان والحجة، والشَّواهِد على النَّحو التَّالي:

الشَّاهِد الثَّاني عشر[1]، قال أبو تمَّام:

هو البَحْرُ [2] من أيِّ النواحي أتَيتَه فلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُه[3]

شبَّه الشَّاعر الممدوح بالبحر الَّذي يعطي الهبات من جميع أنحائه، وفي كل ظروفه، ثم إنَّ أبا تمَّام أسقط عليه بعض صفات البحر، فقال: (لجَّته)؛ أي عباب الماء ومعظمه، وأنَّه لا يدرَك قعره ولا طرفاه، وهو يقصد الممدوح بذلك لما يبذله من العطايا والهبات والمكرُمات فلا يُدرَك طرف خزينته، ممَّا لا تدرَك لعِظمها وغور قعر إحصائها، وتباعُد أطرافها في كل مكان شرقًا وغربًا، وهذه اللجَّة يُقصَد بها المعروف، والاحسان بكل شيء، وبكل ما تعارف النَّاس على نفعه، وما تطلَّعت النُّفوس والقلوب إليه، ثم

(١) المصدر السَّابق، (١٧٦/٣).

(٢) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "هو اليم".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٩/٣) ، ومطلع القصيدة:

أجَلْ أيُّها الرِّبعُ الذي خفَّ آهِلُهْ لَقَدْ أَدرَكَتْ فيكَ النَّوَى ما تُحاوِلُه

وقَفْتُ وأحشَائي مَنَازلُ للأَسَى بهِ، وَهْوَ قَفْرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنازِلُهْ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله.

وصفه بصفة البحر الثَّانية وهي(والجود ساحله)؛ لأنَّ مَن أراد أن يعرف جود البحر، فليقترب من ساحله؛ لتناله تلك الأمواج، وهي أمواج الممدوح بالتَّرحيب والهبات، وقوله: هو البحر فقط، تشبيه بليغ ومحسوس بمحسوس.

فالشَّاعر ألبس الممدوح كرمًا بالبعد، ثم عرَّج على القرب، فإذا كان قعر كرمه مع امتداد أطرافه تعظم عطاياه، فكيف بأمواج جوده القريبة؟، ثم قصد من ذلك أنَّ هباته وكرمه لا يقدر عليها كثيرًا من الكرماء؛ لأنَّ في ذلك ركوبًا للأهوال والمصاعب، وفيه تحمُّل الأمور العظيمة، وهذا لا يُحسِنه إلاَّ من تعوَّدت سخيمته على الولوج فيه، فبلغ كرمه المعمورة، وغمر بجوده المشرق والمغرب، فكيف بالسَّاحل القريب من النَّاس الَّذين حوله، ويتردَّدون على إيوانه، فهذه العطايا مِمَّا يتَكافَأُفيها البشر ويحسنها كل أحد، فكأنَّ الشَّاعر وصف الممدوح بما يقدر عليه النَّاس، وبما لا يقدروا عليه، فهو بهذه الأوصاف فوقهم على كل الأحوال، وتقديمه للجَّة والدخول في الأعماق، وتحمُّل الأمور العظيمة، دليل على إسكات المستمع الَّذي يريد مقاطعة أبي تمَّام، فلو بدأ بالَّذي يقدر عليه كلّ أحدٍ، لقِيل: الممدوح فوق ما تصف يا أبا تمَّام، ولكنَّه شاعر ذكي، قد تعرَّض لمثل هذا الموقف من قبل، فاستفاد منه، وهو من الشُّعْراء الَّذين يحضر لمجلس مدحه عند الخليفة أكابر العُلماء والوزراء والشِّعْراء وغيرهم من الطبقات الرفيعة، من المحبِّين له والمغرِضين، فبتلك القلائد أخرس الحاقدين عليه، وانبثق بهذا المدح الَّذي لا يصل إليه أحد، ثم قال الآمِدِيّ بعد ذكره شاهد أبي تمَّام:" وهو معنى في غاية الجودة والصِّحة، وإنَّما حداه على قول مسلم:

هو البحرُ يغشى سرّة الأرض فيضُهُ وتُدرك أطراف البلاد سواحله

وغيَّر معناه"(١).

أي أنه استفاد من قول مسلم (هو البحر) وهو تشبيه محسوس بمحسوس، وكذلك أنَّ فيض أطرافه وسواحله تُدرَك بالمشاهدة والمعاينة؛ لما في ذلك من إكرام

(١) "الموازنة"، (١٧٦/٣).

النَّاس، وذكر الآمِدِيّ أنَّ أبا تمَّام أخذ بيت مسلم وغيَّر معناه، وهذه المسألة تُبحَث في باب السرّقات، لا علاقة لها بالتَّشبيه، غير أنَّ العُلماء القدامى يسيرون في خطِّ التَّكامل العِلْمِي الَّذي يصبّ في قالب واحد.

– الشَّاهِد الثَّالث عشر [1]**، وقال:**

يَمِـــينُ مُحَمَّـــدٍ بَحْـــرٌ خِضَـــمٌ طَمـوحُ الْمَـوج مَجْنـونُ العُبَـابِ(٢)

شبَّه يمين جود الممدوح بالبحر العظيم، الَّذي هاج واضطرب فارتفع موجه، ومن المعلوم أن ذكره لـ(اليمين) دليل عطاء وبرّ، فاليمين لا تُطلَق إلاَّ على بذل المعروف ونشر الخير والعطاء المتفاقم، فهو يقرن عطاءه بهذا البحر المتلاطم الأمواج، ومن صفات هذا البحر أنه (طموح الموج)؛ أي مرتفعه، ثم قال: (مجنون العباب)؛ أي تكاثف وارتفع. قال الصولي في شرحه: "تقول العرب: جُنَّ النبات إذا تكاثف وحسن...، وكذلك يقولون في كل شيء حسن مفرط، فأراد أن العباب – وهو أرفع مواضع الماء – متزايد. (شبَّه) جود هذا الممدوح به"[3]، فالعباب أرفع مواضع الماء المتزايد، وعلى كل حال، فإنّ تشبيهه بذلك يدلُّ على كرم الممدوح اللامتناهي، فقد ارتفع بنفسه وارتفع بكرمه، فمنحه مرتفعة متكثِّفة، زادت حسنًا وبهاء، ومهما يكن من أمر، فهذا الشَّاهِد لم يبيِّن الآمِدِيّ رأيه فيه، ولم يعلِّق عليه.

---

(١) المصدر السَّابق، (١٧٦/٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٨٣/١)، ومطلع القصيدة:

سَـــلاَمُ اللَّـــهِ عِـــدَّة رَمْـــلِ خَبْـــتٍ علـــى ابـــنِ الهيـــثمِ الملـــكِ اللبـــابُ

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة من أهل مرو، ويهجو أبا صالح ابن يزداد ويُعرض به، وكتب بها إليه.

(٣) "شرح الصُّولي لديوان أبي تمَّام"، (٣٣١/١)، تحقيق: خلف رشيد نعمان، طبعتها وزارة الإعلام العراقية،الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

الشَّاهِد الرابع عشر [1]، **وقال:**

بَحْـرٌ يَطِـمُّ علـى العُفـاةِ فـإنْ تَهِـجْ رِيــحُ السُّــؤَالِ بِمَوْجِــهِ يَغْلَوْلِــبِ
والشَّـوْلُ مـا حُلِبَـتْ تَـدَفَّقَ رِسْـلُها وتَجِــفُّ دِرَّتُهَــا إذَا لَمْ تُحْلَــبِ[2]

شبَّه الممدوح بالبحر، ووصفه بأنه يزيد كرمًا وعطاءً، ويفيض جودًا وسخاءً على العفاة، وفي قوله (على العفاة) يفيد بأنَّهم المخصوصون بذلك العطاء، وهم الأضياف وطُلَّاب المعروف، والَّذين يطلبون ما عند الممدوح من غير مسألة لتعفُّفهم، ويردُّهم الحياء في ذلك، فالممدوح يغرقهم بالمكرمات، فكيف إذا هاجت ريح السُّؤَال، أي طالبي الحاجات المتقصِّدين لها ابتداءً ويُلحُّون في ذلك، وهنا شرط (إن تهج) وجوابه: (يغلولب)، فإن الممدوح يغلبهم بإعطائهم فوق ما طلبوا، وأكثر من حاجتهم، فالشَّرط لم يطُل مكثه، بل جاء الجواب سرّيعًا، وهذا يدلُّ على زمن الطَّلب وسرّعة إجابة السَّائلين؛ لأنَّ البحر مهما تطلب قعره للحصول على الجواهر والكنوز، ومهما تصيد لحومه الطرية باختلاف أنوعها، يغلبك في كل هذا، ولن تخرج بشيء مهما استقصيت في طلب ذلك، وكذلك هذا الممدوح.

ثم قال (والشَّوْلُ) مفردها شائلة، وهي النِّياق الَّتي يكثر حليبها، وتدرّ إنْ أحدٌ حلبها، وإنْ لم تُحلَب، يجفُّ الضرع، وهذه استِعَارة عن الممدوح الَّذي يزيد عطاءه مهما طلبه النَّاس، بل يدرُّ درَّ هذه الشَّول، فكأنه يحثُّ النَّاس إلى مسارعة طلبه، وأن لا تقف الوفود إلا على بابه، فهو منقذ الحياة، ونجاة الملهوفين، ومطلب القاصدين، فالشَّاعر لا يعذر من طلب الممدوح في وقت إقبال زيادة برّه وعطائه، بأنَّ يطلبه في

(١) "الموازنة"، (١٧٦/٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٠٤/١– ١٠٥)، ومطلع القصيدة:

أحسِــنْ بأيَّــامِ العقيــقِ وأطيــبِ والعَــيْشِ فــي أَظْلَالِهِــنَّ المُعْجِــبِ
وَمصــيفِهِنَّ المُسْــتَظِل بظِلِــهِ سـرّبُ المَهَـا ورَبـيعِهنَّ الصَّـيبِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع والثامن والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح عمر بن طوق بن مالك بن طوق التغلبي..

وقت إدبار النَّاس عنه أو قلة عطائه، وهذه لفتة عجيبة من الشاعر بأنَّ لكل مقام مقالًا، ولكل وقت ظروفه الخاصَّة به، فكأنه يقول لهم: اطلبوا منه أشدَّ ما تكونون في وقت الإقبال، واكتفوا بما يعطيكم في وقت الإدبار.

ثم في قوله (بحر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)؛ أي هو بحر؛ لأن التقدير يجعله تشبيهًا، وعلى كلٍ فالتَّشابه بين التَّشبيه المحذوف الأداة والاستِعَارة لم يفرق بينهما بعد، فهما في ذلك الوقت –بواكير الدَّرس البلاغي والنَّقدي–، وترك المشبَّه وكلمة التَّشبيه من مراتب التَّشبيه في القوة، كقولك: (أسد في الشُّجاعة) أي زيد[1]، أو كهذا الشَّاهِد، فهو تشبيه محسوس متروك بمحسوس بيِّن، وأغلب استشهادات الآمِدِيّ من شعر أبي تمَّام على هذا النَحو، وهو ترك المشبَّه وكلمة التَّشبيه، وقد يقع التَّشابه بين التَّشبيه والاستِعَارة، وستأتي شواهد تدل على ذلك.

وفي ذلك قال الآمِدِيّ بعد عرضه للشاهد:" أراد أنَّ هذا الممدوح يجود ويوسِّع، فإذا سُئِل، أعطى وأكثر وزاد، وذكر (الشَّول) ليست هذه حالها، وأن ألبانها تتدفَّق إذا حُلبت، وتنقطع إذا لم تُحلَب، ففضَّل جوده على لبن الشَّول، وإنما كان ينبغي أن يُفضِّل جوده على الغيث، كما قال:

والغيـــثُ يَكْـــرُمُ مَـــرَّةً ويَلُـــومُ

أو على البحر، حسب ما يأتي في هذا الباب، ولكنَّه ذكر الشَّول؛ لأن ألبانها غياث العرب وغِناها ومُعوَّلها، ولهذا ما قال في المواعيد:

وتُنْـتَجُ مِثْلَمَـا نـتِجَ العِشَـارُ

وإنما أخذ قوله:

وتَجِـــفُّ دِرَّتُهَـــا إذَا لَمْ تُحْلَـــبِ

من قول بشار:

(١) ينظر: "الإيضاح في علوم البلاغة"، للخطيب القزويني، (١٢٩/٤)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، الطَّبعة الثالثة.

والـدر يقطعـه جفـاء الحالـب

وهذا كله جيّد بالغ.

ولم يمرّ بي له تفضيل جود الجواد على البحر"[1].

فاعتراض الآمِدِيّ على تشبيهه بالشَّول؛ لأنها تتدفَّق عند حلبها، وتنقطع إذا لم تُحلب، واعتذر بأنَّ اللَّبن عند العرب هو غياثهم، وذكر بأنَّ الأولى تشبيه جوده بالبحر، كما هو الحال في شواهد هذا المطلب، أو تشبيه جود الجواد بالغيث، كما هو الحال في المطلب السَّابق، وهذا رأى الآمِدِيّ، لا يتعلَّق به حكمٌ بحسن أو قبح.

- **الشَّاهِد الخامس عشر [2]، وقال:**

تِحـــنُّ عِداتُـــهُ إثْـــرَ التَّقاضِـــي وتُنْتَجُ مِثْلَمَا نتِجَ العِشَارُ[3]

شبَّه حنين مال الممدوح إلى الوفاء بما وعد بالنَّاقة الَّتي تحن إلى وليدها، وقوله:(تنتج) من نتجت البهيمة إذا ولدت، وقوله: (العشار) مفردها عشراء وهي النَّاقة أتى على حملها عشرة أشهر، وهذه غاية الكمال وبلوغ نصاب الحمل، فالنَّاقة تلد ولدًا غير مخدج ولا ناقص، بل في غاية القوّة والنَّشاط، وهذا الممدوح إذا وفَّى بما وعد فكأنه يلد ولدًا كاملًا، يريد بذلًا وافيًا متكاملًا، لا عيب فيه ولا نقص، فشبَّه الممدوح بها في هذه الحالة بتمَّام وكمال عطائه، وكرمه الَّذي لا يشوبه النَّقص والغور، بل هو في غاية التمَّام، فالحنين بالوعد مقلقٌ مفزعٌ وتسكن تلك النَّفس -الَّتي التزمت تلك العطايا- من اضطرام نارها إثر الإنجاز بما عاهد ووعد.، ولهذا ما قال في المواعيد، أي مواعيد

(١) "الموازنة"، (١٧٧/٣).

(٢) المصدر السَّابق، (١٧٧/٣).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (١٥٨/٢)، وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العشرون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة. ومطلع القصيدة:

نَـــوَارٌ فـــي صـــواحِبها نَـــوارُ كمـــا فاجَاكِســـرّبٌ أو صِـــوَارُ

إنجاز الجود والكرم والعطايا، وهذا تشبيه معقول (مواعيده) بمحسوس (بالناقة الشراء).وبيَّن الآمِدِيّ أن أبا تمَّام أخذ قوله: (وتَجِفُّ دِرَّتُها إذَا لَمْ تُحْلَبِ) من قول بشار:

والدرُّ يقطعه جفاء الحالب[1]

ثم قال الآمِدِيّ عن البيتيْن:" وهذا كله جيّد بالغ "[2].وهذا القول نقد ذاتي لم يُشمّ فيه الموضوعية، الَّتي عوَّد الآمِدِيّ قارئه عليها، على أن شاهد أبي تمَّام أفضل في المعنى؛ لاستخدامه الفعل المضارع (تجفّ) الَّذي يدلّ على الحدوث والاستمرار، أمَّا شاهد بشار، فقد استخدم الاسم (جفاء) لوقوعه مرة واحدة، وعلى كل حال فالمعنى المقصود منهما هو الحرمان بعد الانتفاع مع وقوع السبب.

وجاء الآمِدِيّ بعد ذلك بعبارة عن شواهد أبي تمَّام في هذا التَّشبيه، فقال:" ولم يمرّ بي له تفضيل جود الجواد على البحر"[3]، وهي عبارة موهِمة توحي بارتفاع شأن التَّشبيه عند الآمِدِيّ، إذا جاء بدلالة المبالغة وتفضيل جود الجواد على البحر، وعلى ذلك يورِد شواهد على هذا يفضِّل الآمِدِيّ البُحْتَري عليه على عكس المطلب السَّابق فقد تكافئا في الرتبة، وهنا رجحت كفة شعر البُحْتَري؛ للمبالغة في تشبيهاته في تفضيل جود الجواد على البحر الَّتي يقدَّمها الآمِدِيّ على كل تشبيه، فقال:" ولكن البُحْتَري يقول في المعتز:

ملك تدين له الملوك وتقتدي لجج البحار بسيبه المتدفق

... ولا خفاء بفضل البُحْتَري في هذا الباب على أبي تمَّام"[4].

---

(١) "ديوان"، بشار بن برد، (١٩٢/١)، درا صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م. وصدره:

وإذا جفوت قطعت عنك منافعي .....

(٢) "الموازنة"، (١٧٧/٣).

(٣) المصدر السَّابق، (١٧٨/٣).

(٤) المصدر السَّابق، (١٨٠,١٧٨/٣)

المطلب الثَّالث: " تشبيه الأبطال بالسِّباع "

شواهد تشبيه الأبطال بالسِّباع من شعر أبي تمَّام قليلة جدًا، فلم ينقدها الآمِدِيّ بشيء، بل كان يفسِّر معاني الأبيات فقط، واستشهد للبحتري بشاهد واحد، ولم تكن هناك موازنة بينهما على غرار المطلبيْن السابقيْن، والشَّواهِد على النِّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد السَّادس عشر [1]، قال أبو تمَّام:**

آســـادُ مَـــوْتٍ مُخْـــدِراتٌ مَاَلَهَـــا إلا الصَّـــوارمَ والقَنَـــا آجَـــامُ[2]

شبَّه الشَّاعر هؤلاء الفوارس الأبطال بالأُسُود، والتَّقدير (هم آساد)، و(هم) مبتدأ محذوف، و(آساد) خبر، وهو تشبيه محسوس بمحسوس، تُرك فيه المشبَّه وأداة التشبَّه، وهذه الأسود –الأبطال– (آساد موت)؛ أي تقتحم المعارك باستماتة دون خوف أو رعب، وهي مع ذلك مقيمة في خِدرها، (فمُخْدَرات): هي أجمة الأسد، وموطن عرينها، بين الأشجار الملتفة ، وهذه هي معاقل الافتراس، كما أنَّ الأجمَّة هي مواطن غلبة وعزة هؤلاء الفوارس والأبطال في تلك الصَّوارم والقنا، وهي السُّيوف القواطع والرِّماح، وهذه صورة مستعارة مكنَّى بها عن أبطال ألبسوا ملابس السِّباع.

- **الشَّاهِد السَّابع عشر [3]، وقال:**

أُسْـدُ العَـرين إذا مـا الـرَّوعُ صَـبَّحها أو صَـبَّحَتْهُ ولكـن غابُهـا الأَسَـلُ[4]

---

(١) المصدر السَّابق، (٣/٣٢٢).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/١٥٦)، ومطلع القصيدة:

دِمَـــنٌ أَلـــمَّ بهـــا فَقَـــالَ سَـــلامُ كَـــمْ حَـــلَّ عُقْـــدَةَ صَـــبْرِهِ الإِلْمَـــامُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح المأمون.

(٣) "الموازنة"، (٣/٣٢٢).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٣/١٨)، ومطلع القصيدة:

فَحْـواكَ عَـيْنٌ علـى نَجْـوَاكَ يامَـذِلُ حَتَّـــامَ لاَيَنْقَضِّـــى قَوْلُـــكَ الخَطِـــلُ !؟

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع والثلاثون، قالها أبو تمَّام

شبَّه الشَّاعر مناقب آل البيت والعبَّاسيين خاصَّة بأنَّهم أُسد العرين، والتَّقدير (في العرين)، وهو تشبيه محسوس بمحسوس ترك المشبَّه وأداة التَّشبيه، وهذه الأسود مع ذلك كلِّه متوثِّبة، فإن صبَّحت فريسها غلبت، وإن صُبِّحت قهرت، ووصف هؤلاء الأبطال بأنَّها في الروع وهو القتال تغير ويُغار عليها، وهذه حال الحروب فيومٌ لك ويومٌ عليك، والأيام دولٌ -كما هو مُتعارَف-، وغاب هؤلاء الشُّجعان الأسل وهي الرِّماح، فالرِّماح لها دور فعَّال في ردِّ الهجوم، فهي تُنكي في العدو أيما نكال، والرِّماح غاب ومأوى آمن للأبطال، فبها وبالصَّوارم والخيول تكون عِدَّة الجيش مكتملة، ويكون الظَّفر والنِّكاية بالأعداء على أشدِّه، ولكنَّه خصَّص هنا الأسل وهي الرماح؛ لأنَّ الَّذي صبَّحه العدو يكون غالبًا في مأمنه، ولا يمكن ردّ ذلك العدوان بأشدّ من الرماح الَّتي تُقذَف من بعيد، فتصيب العدو في مقتل، دون أنْ يصاب أحد من المعتدى عليهم بأذى، ولذلك كانت الرِّماح كالحصن المنيع الَّذي يرد الهجوم في حالة الدَّفع، وكالغابة الَّتي يناور الآساد فيها خصومهم، فشبَّه هذه بهذه. وقد ذكر الآمِدِيّ هذا البيت عقب بيت البُحْتَري، ولم يوازن بينهما، بل قال:"وقال البُحْتَري:

حَشدتْ حولها سباعُ الموالي والعوالي غابٌ لتلك السِّباعِ

وقال أبو تمَّام في مثل ذلك،... كأنَّه أراد إذا أُغير عليها أو أغارت هي"[1].

فذكر بيت أبي تمَّام هذا –الشَّاهِد– وشرح معناه بإيجاز، وكأنَّه لم يجد فرقًا بين البيتيْن.

- **الشَّاهِد الثَّامن عشر**[2]، **وقال:**

يا يَوْم أَرْشَقَ كنْتَ رِشْقَ منيَّةٍ لِلخُرَّميَّة صائِبُ الآجالِ

أسرّى بنو الإسلام فيه وأدْلجوا بقُلُوب أُسْدٍ في صُدُورِ رجَالِ[3]

يمدح المعتصم بالله..

(١) "الموازنة"، (٣/٣٢٢).

(٢) المصدر السَّابق، (٣/٣٢٣).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/١٣٥)، ومطلع القصيدة:

شبَّه الشَّاعر قلوب هؤلاء الشُّجعان والأبطال بقلوب الأُسد -كواسرّ السباع-، بجامع القوة والبأس والشِّدة في مقارعة الخصوم، تشبيه محسوس بمحسوس، وهذه القلوب أشدُّ ما تكون، فلا رحمة تدفعها، ولا فرار ينجو منها، بل الحيلولة كلّها دون غرضها، والامتناع من المقاومة غير المتكافئة، فالأُسد قوية القلوب، يهابها كل شيء، مهما اجتمع عليها، ممَّا جعل العرب تشبَّه الرجل الشُّجاع وقوي البأس بالأسد بجامع القوة والنُّفوذ، وعلى ذلك فموطن التَّشبيه في البيت الثَّاني. أمَّا البيت الأول، ففيه تهيئة وتذكير بيوم أرشق، وهو في جبال موقان جرت فيه موقعة مع بابك الخرمي -الَّذي صُلب فيما بعد-.

ثم قال الآمِدِيّ عقب الشَّاهِد:" (أسرّى) من السرّى وهو الإدلاج باللَّيل، و (السيَّرُ) أيضًا باللَّيل، وإنما أراد: "الإدلاج" بالتشديد..."[1]، فـ(أسرّى بنو الإسلام) والإسرّاء يكون في الليل، ثم قال (وأدلجوا) والإدلاج يكون في اللَّيل أيضًا، والاقتران بين الإسرّاء والإدلاج في الظلمة فيه حثٌّ على السير الحثيث السرّيع غير المنقطع بالوقوف والاستراحة والنوم، بل المضي، حيث الهدف المنشود والغاية المرتقبة، فهم يسيرون ليلًا ونهارًا على الدوام والتَّواصل؛ للإغارة عليهم في عقر دارهم، ولكسر فلول العدو، الَّذي جاءه فرسان وأبطال قلوبهم قلوب الأسود.

آلـــتْ أُمُـــورُ الشـــرْكِ شَـــرَّ مـــآلِ وأَقَـــرَّ بَعْـــدَ تَخَمُّـــطٍ وصِـــيَالِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والعشرون والرابع والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله، ويذكر فتْح الخُرّميّة.

(١) "الموازنة"، (٣/٣٢٣).ثم ذكر المحقِّق عقب كلام الآمدي في الحاشية: هنا خَرم يستمر إلى نهاية "باب تشبيه الأبطال بالسباع" وبداية "باب وصف السيوف"، وتتداخل في المخطوطة الجملة الأخيرة مع جملة أخرى في التعليق على أبيات في وصف السيف".

المطلب الرَّابع:

"رؤية الآمِدِيّ الفكرية في موازنته وفي تشبيهات أبي تمَّام"

من المهمّ حقًّا قبل الولوج في الرُّؤية الفكرية العميقة للآمِدِيّ حول تشبيهات أبي تمَّام، أن توصف الفكرة العامة الَّتي قام عليها كتاب الموازنة؛ ليتسنَّى للدَّارس معرفة حيثيات فكر هذا العالم النَّاقِد بجيّد الشِّعْر ورديئِه، وسبر تلك الأحكام الَّتي أصدرها.

وموضوع الكتاب هو الموازنة بين أبي تمَّام و البُحْتَري، المنتسبين إلى قبيلة طيء، حاول الآمِدِيّ أنْ يكون منُصفًا في موازنته؛ إذ قال في مقدَّمة كتابه: "فأمَّا أنا فلست أفصِح بتفضيل أحدهما على الآخر، و لكنَّني أوازن بين قصيدتيْن من شعرهما، إذا اتَّفقتا في الوزن والقافيةوإعراب القافية، وبين معنى و معنى "[(١)].

ثم جعل الحكم للقارئ، لكنْ بشرط، هو أنْ يكون من أهل الدراية بالشِّعْر، ويعرف الجيّد من الرديء، وكأنَّه يشير إلى عدم اهتمامه للمخالفين له،فقال:" ثم احكم أنت حينئذٍ على جملة ما لكل واحد منهما، إذا أحطتَ علمًا بالجيّد والرديء"[(٢)]. والنقاط الَّتي تناولها الآمِدِيّ هي:أخطاء أبي تمَّام والبُحْتَري وعيوبهما، ومحاسن أبي تمَّام والبُحْتَري، والموازنة التفصيلية بين الشاعريْن بتتبُّع معانيهمامعنى معنى[(٣)].

وبالنَّظر لشواهد أبي تمَّام في المطالب الثَّلاثة السابقة ورؤية الآمِدِيّ النَّقدية، فقد كان ذا ذوق أدبي رفيع، ولا أعني به الذَّوق الغُفل غير مستند لدراية بالشِّعْر، بل هو الذَّوق الَّذي كوَّنته الدُربة وطول التَّمرُّس في النُّصوص الأدبية، فـ" العديد من الأبيات

(١) "الموازنة"، (٦/١).

(٢) المصدر السَّابق، (٦/١).

(٣) يُنظر:"النَّقد المنهجي عند العرب"، محمد مندور، (ص:١١٣)، نهضة مصر للنشر و التوزيع، سنة ٢٠٠٣م.

الَّتي يُعالجها الآمِدِيّ بذوقٍ راقٍ، إلاَّ أنَّه يفتقد تمَّاما إلى أيّ تعليل"[1]،فقام بالتَّمييز في المطلب الأول، في تشبيه جود الجواد بالسحاب والغيث والأنواء بين شاعرية أبي تمَّام والبُحْتَري، ويذكر بعض شواهد أبي تمَّام حتى تجلَّت لديه الأحكام النَّقدية، فقام يذكر بعضها بأنَّها أبلغ، وبعضها يصفها بأنها غاية في الحسنِ والصحةِ، وهذا في الجانبِ الأوحد. أمَّا إذا اتَّصلت المعاني ببعضها، يكون الذَّوق الأدبي للآمِدِيّ الأصيل القائم على القدرةِ على التَّعليل والإيضاح، ولا "يمكن تعليلها لتعلُّقها بالذَّوق الخاص والاستحسان الذاتي"[2]. فيذكر شاهدًا للبحتري بأنَّه شرط في غاية الجودة والقوة، وقول أبي تمَّام ألطف معنى، فالآمِدِيّ لا ينظر إلى الثوب الخارجي في النَّصّ الشِّعْري فقط، بل هدفه الأسمى الغوص في الغرض والجوهر، فنتجت تلك التَّصريحات النَّقدية. ثم يذهب إلى شاهد آخر، فيرى أنَّ بيت أبي تمَّام أجود، فتراه ينعت كل شاهد على حِدة، ومرةً يجمعهما، فيوازن بينهما، فهو بين هذا وذاك، ثمَّ شرع في "الموازنة التفصيلية الَّتي بناها على أساس فني خالص، استنادًا إلى المفاهيم النَّقدية الَّتي كانت سائدة، فالتقط المعاني الجزئية الَّتي دار حولها الشُّعْراء في معالجتهم للأغراض الشِّعْرية المختلفة، وصار يوازن بين كل منهما في معنى خاص جزئي، واستمرّ في هذا الأسلوب إلى أن انتهى من الموازنة"[3].

ومن مذهبه أنَّ التَّشبيه كلمَّا فضَّل الشَّاعر جود الممدوح على الغيث والأنواء والبحر والسِّباع، كلمَّا كان التَّشبيه أقوى، فالمبالغة في التَّشبيه هي من مرامي ما يبتغيه الآمِدِيّ في نقده المحكم، وليس يعني التَّشبيه المقلوب، فالمبالغة تعني ارتفاع الوصف للشَّيء مع إلحاق الفرع بالأصل، أمَّا المقلوب، فهو إلحاق أصل بفرع، وحينئذٍ فقد

(١) "الذوق الأدبي وتطوره عند النُّقاد العرب"، نجوى صابر، (ص:١٤٦)، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

(٢) "أبو تمَّام بين ناقديه"، (ص: ٢٥٤).

(٣) المرجع السَّابق، (ص:٢٥٤-٢٥٥).

وصف الآمِدِيّ بعض التَّشبيهات بالمقلوبة في شاهد أبي تمَّام الحادي عشر؛ وهي مبالغة في التَّشبيه والانتقال من حال إلى حال، ومن صنعة إلى صنعة، على أنَّه في المطلب الثَّاني جاءبتشبيه جود الجواد بالبحر ولم يفضِّل جود الممدوح على البحر، وعابه على ذلك الآمِدِيّ، فقال:" وإنما كان ينبغي أن يُفضِّل جوده على الغيث كما قال:

والغيـــثُ يَكْـــرُمُ مَـــرَّةً ويَلُـــومُ

أو على البحر، حسب ما يأتي في هذا الباب – حتى قال:- ولم يمرّ بي له تفضيل جود الجواد على البحر "[1]، حتى فضَّل البُحْتَري عليه في هذا الباب من أجل هذا المذهب.

وفي آخر موازنته في المطلب الأول -الَّذي كان هو الأكثر مراسًا ودربة ونقدًا- قال: "فأقول الآن في الموازنة بينهما: إنه لولا قول أبي تمَّام:

والغيـــثُ يَكْـــرُمُ مَـــرَّةً ويَلُـــومُ

وقوله:

كـــانَ فيهـــا صَـــوْبُ الغَمَـــامِ لَغيمـــا

لفضلت البُحْتَري عليه، ولكني أجعلهما متكافئيْن"[2].

وصف ابنُ الأثير الآمِدِيَّ وغيره من البلاغيين بالخلط في الفرق بين التَّشبيه المضمر الأداة والاستِعَارة، فأُدخلت الشَّواهِد بعضها مع بعض، غير أن الآمِدِيّ أقل من غيره خلطًا في ذلك، كما يقول، لثبوت قدَّمه، وحكايته للشعر،وتمييز جيّده من رديئة، ومع ذلك وقع منه ذلك الوهم، وقد اعتذر له ابن الأثير، فقال:" ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي -رحمه الله تعالى- قد خلط الاستِعَارة بالتَّشبيه المضمر الأداة، ولم يفرِّق بينهما، وتأسَّى في ذلك بغيره من علماء البيان؛ كأبي هلال

(١) "الموازنة"، (١٧٧/٣، ١٧٨).

(٢) المصدر السَّابق، (١٧٥/٣).

العسكري والغانمي وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمِدِيّ، على أنَّ أبا القاسم بن بشر الآمِدِيّ كان أثبت القوم قدَّما في فن الفصاحة والبلاغة، وكتابه المسمَّى بـ "الموازنة" بين شعر الطَّائيَيْن يشهد له بذلك، وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستِعَارة والتَّشبيه المضمر الأداة؟"[1]. وهذا واضح في الشَّاهِد: (٦، ١٤، ١٦، ١٧)؛ حيث جعل الشَّاهِد تشبيه، ومدحه وأثنى عليه، وهو استِعَارة تصريحية، حُذِف منها المشبَّه وهو (الممدوح). وفي الفصل الثَّاني، سيُفصِّل مبحث ابن سنان القول في الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة.

وفي المطلب الثَّاني، يظهر الاحتذاء من أبي تمَّام، والأخذ من تشبيهات الآخرين في الألفاظ والمعاني، فاحتذى قول مسلم في معنى الاتِّساع والارتفاع والقرب والبعد، وأخذ من بشار الألفاظ، فوصف هذا كلّه جيّد بالغ، غير أنَّه فضَّل البُحْتَري عليه في نهاية المطاف، على أنَّ تشبيهات أبي تمَّام في جميع شواهده قد حصل على المشبَّه والمشبَّه به اشتراك وتشابه في غالب الصِّفات والمعاني غير تلك الشَّواهِد المقلوبة والمبالغ فيها عند الآمِدِيّ، "فالتَّشبيه يوقع الائتلاف بين الطرفيْن، ولا يوقع الاتِّحاد..."[2].

أمَّا في المطلب الأخير، فكان حظُّه من النَّقد قليل جدًا حتى من عنصر الموازنة والآراء، وإنَّما كانت السمة الواضحة عليه شرح بعض الشَّواهِد، وقد بيَّنت ذلك في المطلب الثَّالث.

وتشبيهات أبي تمَّام في المطلبيْن الأوليْن تشبيهات معقولة بمحسوسة؛ أي أنَّ المشبَّه والمشبَّه به مختلفان لوجوه شبَّه عقلية (الكثرة، العطاء، الواسع...)، جود الممدوح بالغيث والسَّحاب والأنواء والبحر، فالجود والكرم والسَّخاء كيفيات نفسية تجري مجرى

(١) "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ابن الأثير (٣٦٩/١)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

(٢) "الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمَّام"، عبد الفتاح لاشين، (ص:٩٧) النَّاشِر: دار المعارف، القاهرة.

الغرائز والأخلاق والشيم[1]، ولذلك قال الدُّكْتُور فضل عباس:" ولما كان وجه الشبَّه في المشبَّه به أقوى منه في المشبَّه، ولما كان المحسوس أكثر تأثيرًا في النَّفس، كانت أكثر التَّشبيهات من هذا القبيل؛ أي تشبيه المعقول بالمحسوس"[2].

أمَّا المطلب الثَّالث، فيتحدَّث عن تشبيهات أبي تمَّام، لمشبَّه ومشبَّه به محسوسيْن ووجه شبَّه عقلي، كالشُّجاعة والبسالة والقوة.

وفي نهاية هذه الرُّؤية، أُذكِّرُ أنَّ الآمِدِيّ قد نقل النَّقد من الذَّوق الذاتي الَّذي تنقصه الدُّربة وتعوزه الأدلَّة إلى الذَّوق القائم على الدُّربة ،كـ (هذا جيّد بالغ) (وهذا عندي حسن)، ويفتقر قليلًا إلى التَّعليل الَّذي وصل إليه عبد القَاهِر الجرجاني، فقال عن الشِّعْر:"كان ميدان القوم إذا تجارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان. ثم بحث عن العلَّل الَّتي بها كان التبايُن في الفضل، وزاد بعض الشِّعْر على بعض"[3]. فالتَّعليل في مفاضلة شعر على شعر، أو تبيين الحكم عليه بالجودة والرداءة ما جاء إلاَّ عند عبد القَاهِر، فالأحكام يجب أن تعلَّل، ولذلك يقود محمود السَّمرة النَّاقِد إلى رفض أيِّ قول دون برهان ودليل، أما التَّسليم بحكم الذَّوق غير المعلَّل، فيقود إلى الاختلاف والاتهام بسوء الاستنباط وفساد الذَّوق ما لم يصل غير النَّاقِد إلى مثل ما وصل إليه[4].

ويخرج الباحث من هذه المطالب الثَّلاثة برؤية الأحكام الجزئية لكل شاهد تقريبًا على أنَّ الآمِدِيّ ترك الحكم العام للقارئ، وذلك عند حديثه في أول الكتاب،

---

(١) يُنظر:"الإيضاح"، (٣٨/٤)، بتصرُّف.

(٢) "البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع"، فضل حسن عباس، (ص:٢٧)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة التاسعة، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م.

(٣) "دلائل الإعجاز"،عبد القَاهِر الجرجاني، (ص:٩)، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، النَّاشِر: مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

(٤) "القاضي الجرجاني"، محمود السمرة، (ص:١٥٧)، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م، بتصرف.

وعلى ذلك فاز البُحْتَري بأغلبية النِّقاط، فقد تكافأَ مع أبي تمَّام في المطلب الأول، وثقَّل ميزانه على أبي تمَّام في المطلب الثَّاني، وتركها في المطلب الثَّالث، على أنَّ تشبيهات أبي تمَّام وصفها الآمِدِيّ في مجملها بالجيّدة الحسنة الصحيحة البالغة الجودة، واعترف بذلك، ولكنَّه مال إلى مقياس عمود الشِّعْر الَّتي بيَّنها المرزوقي، فقال:" أنَّهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللَّفظ واستقامته، والإصابة في الوصف – ومن اجتماع هذه الأسباب الثَّلاثة كثُرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات — والمقاربة في التَّشبيه، والتحام أجزاء النَّظم والتئامها على تخيُّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللَّفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشِّعْر"(١)، فطبَّقها عمليًا على شعر البُحْتَري، "فحرم نفسه تذوّق الكثير من العناصر المتألِّقة في شعر أبي تمَّام والذي كان أكثر تعبيرًا عن ذوق العصر الحضاري في القرن الثَّالث الهجري من شعر البُحْتَري"(٢)، ويرى الأستاذ محمد علي أبو حمدة أن "الآمدي كان يُحسن تذوق شعر أبي تمِّام مما وافق مقاييس عمود الشعر، ولكنَّه حرم نفسه تذوق جيد شعره مما تفلَّت من هذه المقاييس وكان أحرى به لو نظر إلى عمود الشعر من خلال روائع أبي تمَّام"(٣)، ومع ذلك كلِّه فقد فضَّل الآمِدِيّ ممَّا يخص باب التَّشبيه المقاربة في الوصف ووضوح وجه الشَّبه على غيره.

ولا أنسى أنَّ الآمِدِيّ في المطلب الأول كان لديه روح الاحتراس العِلْمِي وتحرِّي العدل والإنصاف، وفي عدله يقول الأستاذ أحمد أمين:"ولكنَّ الحقَّ أنَّ الآمِدِيّ هذا كان إذا عرض لنقدِ أبي تمَّام أو البُحْتَري في عيب من عيوبهما، أو ميزة من

(١) "شرح ديوان الحماسة"، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، (٩/١)، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التَّاليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ=١٩٦٧م.

(٢) "النَّقد الأدبي حول أبي تمَّام والبحتري في القرن الرابع الهجري"، محمد علي أبو حمدة، (ص:٩٢)، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٩م.

(٣) المرجع السَّابق، (ص: ٩٢).

مميزاتهما كان عادلًا"[1]، ويضيف الأستاذ على ذلك، فيقول:"هذا إلى حسن تعبير ومعرفة بالنَّفس الانسانية واطلاع واسع على كلام مَن سبقه، وذوق حسَّاس يذوق به الجيّد من الرديء، وعفَّة في النَّقد حتى لا يكاد يجرح أحدًا منهما، بل لو استطاع أن يمجِّدهما جميعًا لفعل، كما يظهر عليه أنه رجل متديِّن يرى الحكم على أحدهما كحكم القاضي في نزاع على مسألة هامة، يقدِّر مسئولية الحكم، يخشى الله ويرجوه"[2].

وفي ظنِّ الباحث أنَّ الآمِدِيّ لم يول المطلب الثَّالث اهتمَّاما كبيرًا، وهذه مسألة تبيَّن رجحانها عند تناول المطلب بالتَّحليل والتَّشريح.

وممَّا يتبيَّن في هذه الرُّؤية النَّقدية والفكرية أنَّ الآمِدِيّ رسم خطة مقاييس عمود الشِّعْر، مع ميله لخصائص الشِّعْر الجاهلي والاسلامي، فجاءت الكفَّة تخدم البُحْتَري، فما المانع أن يقف الآمِدِيّ على المطلب الثَّالث، مع وفرة تشبيهات أبي تمَّام؟ ولا يفضِّله على البُحْتَري على ما في الشَّواهِد من عنصر المبالغة في التَّشبيه، فقد ترك في شاهديْن ذكر المشبَّه وأداة التَّشبيه، فارتفعت قوة تشبيه بحسب مراتبها في القوة والضَّعف والمبالغة، باعتبار ذكر أركانها كلها أو بعضها، فصار هذا الركن الرابع كالثَّالث في قوة التَّشبيه، كما ذكرها الخطيب[3].

وهذا (درايدن) أحد النُّقاد الغربيين يؤكِّد ضرورة تلمُّس المآخذ على أيّ مؤلِّف في عصر مضى، يقول:" إذا شئنا أنَّ نحكم على مؤلِّف حكمًا عادلًا صحيحًا، فعلينا أن ننقل أنفسنا إلى عصره، ونتفحّص نواقص معاصريه ووسائله الَّتي استخدمها لِيَفيَ

(١) "النقد الأدبي"، أحمد بن أمين، (ص:٤٤٦)، لجنة التَّاليف والنشر والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م.

(٢) المرجع السَّابق، (ص:٤٤٧).

(٣) "الإيضاح"، (١٢٩/٤) ، بتصرُّف.

تلك النواقص. فما هو سهل في عصر يكون صعبًا في آخره"[1]، وهذه حقيقة يجب مراعاتها، وأنْ تُتلقَّى على هيئتها.

وعلى كل حال، فقد أفاض الباحث في هذه الرُّؤية باستجلاء ما يمكن الوقوف عليه، وترك أمورًا كثيرة، تتحدَّث عن الخصوم والمؤيدين لكثرة البحث في هذا المجال، وإنَّما كان يعنيني الوقوف على رؤيته في هذه مطالب التَّشبيه الثَّلاثة، والموازنة عامة، وذلك بإيجاز، وأستغفر الله من التَّقصير والخلل.

(١) يُنظر: "مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق"، ديفيد ديتشس، (ص:٣٨٢)، ترجمة: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.

المبحث الثَّاني
" شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند أبي هِلال العسكري"

- **المطلب الأوَّل:"شاهد على تشبيه ما يُرى العيان بما ينال بالفكر".**
- **المطلب الثَّاني:"شاهد على التَّشبيه البعيد وبروده".**
- **المطلب الثَّالث:"رؤية أبي هلال الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام".**

المطلب الأوَّل: " شاهد على تشبيه ما يُرى العيان بما ينال بالفكر"

يقفُ الدَّارس في هذا المبحث على ميراث أحدِ العُلماء الأفذاذ؛ هو أبو هلال العسكري[1]، الذي بلغ شأوًا في الأدب والشِّعْر واللُّغة والبلاغة والنَّقد، ومن كُتبِه المتميِّزة كتاب "الصناعتين –الكتابة والشِّعْر–"، وسيكون التَّركيز في هذا المبحث منصبًا على شواهد أبي هلال من شعر أبي تمَّام في باب التَّشبيه والتَّمثيل في هذا السِّفر، ولم أتعرض لكتابه "ديوان المعاني"، لأنَّ الدِّراسة ستطول أكثر من ذلك، وفي "الصناعتين" تقعيدًا أدق منه، وفي الفصل الثَّاني على شواهد الاستعارة من شعر أبي تمَّام في باب الاستِعَارة، والَّتي استنفذ المؤلِّف فيها طاقته الكبرى في ضرب الأمثلة، فقد أثبت أبياتًا لأبي تمَّام في باب الاستِعَارة وبالغ فيها، حتَّى إنَّه ليُعدّ من البلاغيين المكثِرين في ذلك، وسيأتي الحديث –إن شاء الله تعالى– عن ذلك في موطنه.

---

[1] هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، أبو هلال اللغوي العسكري أيضًا، ومن عجيب الأمر أن هناك عسكري آخر بنفس اسمه واسم أبيه، ولعل ياقوت الحموي يقص قصته المشهورة حيث قال:"وطال تَطوافي، وكثر تسْآلي عن العسْكريَّيْن، أبي أحمد وأبي هلال، فلم ألق من يخبرني عنهما بجلية خبر، حتى وردت دمشق..."، وفرق بينهما ياقوت فقال:"إذا قيل الحسن بن عبد الله العسكري الأديب، فهو أبو هلال"، يُنظر :"معجم الأدباء"، (٥٤٨/٢). وأبو أحمد الذي يذكره ياقوت: هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، أستاذ أبي هلال وكلاهما عسكري.
وقال جمال الدين القفطي فيه:"وهو الفاضل الكامل، صاحب التّصانيف الأدبيّة، كنيته أشهر من اسمه، صحب أبا أحمد العسْكريّ، و أخذ عنه فأكثر، و أخذ عن غيره، و كان تاجرا، و تنقّل في التّجارة إلى بلاد متعدّدة، فيأخذ عن فضلائها، و يعود بمتاجره إلى عسكر مكرم بلده، و لم يشغله ذلك عن التصنيف و إثبات الفوائد، و كانت له نفس طاهرة زكيّة، و تصانيفه في غاية الجودة..."، يُنظر :"إنباه الرواة على أنباه النحاة"، جمال الدين القفطى، (٧٩/٣) ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦م، وقال الخطيب البغدادي وهو يصف أبا هلال بغزارة العلم:"وله عندي كتاب"الفروق في اللغة"، وكتاب"ديوانالمعاني"وهما دالان على غزارة علمه...". وفاته: كانت وفاته سنة ٣٩٥هـ. يُنظر: "تاريخ بغداد"، للخطيب البغدادي، (٢٢٩/١)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م.

وقد عرض أبو هلال في هذا المطلب شاهدًا واحدًا لأبي تمَّام، واستشهد به على تشبيه ما يُرى بالعيان بما يُنال بالفكر، أي تشبيه حالة حسِّية بحالة عقلية، والشَّاهِد:

الشَّاهِد التَّاسع عشر [1]، قال أبو تمَّام:

وكنـــتُ أَعَـــزُّ عِـــزًّا مِـــنْ قَنُـــوعٍ يعوِّضـــه صَـــفُوحٌ مِـــنْ مَلـــولِ

فصِـــرتُ أَذلّ مِـــنْ مَعـــنىً دقيـــقٍ بـــه فقـــرٌ إلى فَهـــمٍ [2]جليـــلِ[3]

شبَّه الشَّاعر نفسه الَّتي خرجت ونزعت من أمرٍ إلى آخر، كالَّذي يأخذ بالصَّفح ويبدِّله عن الجهل، أو (ملول) كما في هذه الرِّواية، ووجه الشبَّه الانتقال من حال سيئة إلى حال جيّدة، فالمشبَّه تُبصره الأعين، أمَّا المشبَّه به فليس أمرًا محسوسًا بل معقولًا، وينال بالفكر، فالمعاني مثل الصَّفح والجهل والعِلم وغيرها ليست من المحسوسات، بل إدراكها بالعقل، إذن شبَّه محسوسًا بمعقول، وهذه أحد أنواع التَّشبيه، مع أنَّ المشتهر عند البلاغيين العكس، وهو تشبيه معقول بمحسوس؛ كتشبيه العِلم بالنور، والجهل بالظَّلام وغيرها، واستشهد العسكري بهذا البيت، فقال:"وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يُرى بالعيان بما يُنال بالفكر، وهو ردئ، وإن كان بعض النَّاس يستحسنه لما فيه من اللَّطافة والدِقَّة، وهو مثل قول الشَّاعر:

وكنـــتُ أَعَـــزُّ عِـــزًّا مِـــنْ قَنُـــوعٍ يعوِّضـــه صَـــفُوحٌ مِـــنْ مَلـــولِ

فصِـــرتُ أَذلّ مِـــنْ مَعـــنىً دقيـــقٍ بـــه فقـــرٌ إلى فَهـــمٍ جليـــلِ

---

(١) "الصناعتين –الكتابة والشعر–"لأبي هلال العسكري، (ص:٢١٦،٢١٥)، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(٢) ورواية الديوان عند التَّبْريزي:"تعوِّضه صَفُوحٌ عنْ جهولِ"،"إلى ذِهْن جَليلِ".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤/٤١٧، ٤١٨)، ومطلع القصيدة:

كـــأنني لـــم أُبتُكُمـــا دخيلـــي ولـــم تريـــا ولـــوعي مـــن ذُهـــولي

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العشرون والحادي والعشرون، قالها أبو تمَّام يهجو عيّاش بن لهيعة.

فأخرج ما تقع عليه الحاسّة إلى ما لا تقع عليه، وما يُعرف بالعيان إلى ما يُعرف بالفكر، ومثله كثيرٌ في أشعارهم..."[١].

وقد اختلف علماء البلاغة في هذا النَّوع من التَّشبيه، فالَّذين أنكروا هذا النَّوع علَّتهم في ذلك أنَّ المشبَّه به يجب أنْ يكون أظهر من المشبَّه، قال الشَّيخ عبدُ المتعال الصعيدي:" ومن العُلماء مَن ينُكر تشبيه المحسوس بالمعقول؛ لأنَّ المشبَّه به يجب أنْ يكون أظهر من المشبَّه، وقد حمل ما جاء منه على المبالغة؛ فيكون من التَّشبيه المقلوب، ومن العُلماء مَن يستحسنه؛ لما فيه من اللَّطافة والرِّقة، فلا يكون عنده دائمًا من التَّشبيه المقلوب... والمقرَّر في ذلك أنَّ التَّشبيه كلَّما كان أدخل في باب المعنويات، كان أكمل"[٢]، فعبد المتعال كأنَّه يميل إلى القول باستحسان هذا الضرب من التَّشبيه وبكماله، وعدَّ ابن الأثير تشبيه صورة بمعنى أي (تشبيه محسوس بمعقول) من ألطف أقسام التَّشبيه؛ لأنَّه نقل صورة إلى غير صورة، واستشهد بقول أبي تمَّام في ذلك[٣].

ويرى أبو الحسن الرُّماني أنَّ هذا التَّشبيه قبيح؛ لأنه يُخرِج الأوضح إلى الأغمض، فقال عنه ابن رشيق[٤]:" واعلم أنَّ التَّشبيه على ضربيْن تشبيه حسن، وتشبيه قبيح، فالتَّشبيه

(١) "الصناعتين"،(ص:٢١٤– ٢١٦).

(٢) "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"، عبد المتعال الصعيدي، (ص: ٣٩٢)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: السابعة عشر ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

(٣) يُنظر :"المثل السائر"، (٣٨١/١)، بتصرف.

(٤) هذا القول ليس بنصِّه في "النكت" فإمَّا أن يكون ابن رشيق يروي قول الرُّماني بالمعنى، أو أن تكون عنده نسخة غير التي بين أيدينا، أو أنه ينقل من كتب أُخرى للرُّماني، يُنظر "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، الرماني، الخطابي، الجرجاني، (ص:٨٠– ٨١) حققه وعلَّق عليه: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.

(٤) يُنظر: حاشية"العمدة"، (٤٦٩/١)، حيث سجَّل المحقِّق كل ذلك.

الحسن هو الَّذي يُخرِج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانًا، والتَّشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك"[(١)].

والخلاف بيِّنٌ في هذه المسألة بين علماء البلاغة والنَّقد، فـ" اختلف العُلماء في قبول تشبيه المحسوس بالمعقول؛ لأنَّه خلاف الأصل المعروف من أنَّ وجه الشبَّه يكون في المشبَّه به أقوى وأتمّ من المشبَّه، فيرى جمهور البلاغيين عدم قبوله وما ورد منه يكون من قبيل التَّشبيه للمبالغة"[(٢)]، أي يُقدِّر المعقول محسوسًا، ويُجعل كالأصل لذلك المحسوس مبالغة، وهذه الَّتي بيَّنها سعد الدِّين التَّفْتَازاني عندما عرض لهذه القضية البلاغية الشائكة قال:" إنَّ تشبيه المحسوس بالمعقول غير جائز؛ لأنَّ العلُّوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها، ولذلك قِيل: مَن فقد حسًّا، فقد فَقَدَ علمًا؛ يعني العِلم المستفاد من ذلك الحسّ، وإن كان المحسوس أصلًا للمعقول، فتشبيهه به يكون جعلًا للفرع أصلًا والأصل فرعًا، وهو غير جائز؛ فلذلك لو حاول محاوِل المبالغة في وصف الشَّمس بالظُّهور والمسك بالطيّب، فقال: الشَّمس كالحجَّة في الظُّهور، والمسك كخلق فلان في الطيِّب، كان سخيفًا من القول، وأمَّا ما جاء في الأشعار من تشبيه المحسوس بالمعقول، فوجهه أنْ يُقدَّر المعقول محسوسًا، ويُجعَل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة، فيصحّ التَّشبيه حينئذٍ"[(٣)]. وكلامه فيه وجاهة، وأعتقد أنَّه صواب.

وينقل بهاء الدِّين السُبكي آراء بعض العُلماء في هذه المسألة، مبينًا العلَّة في ذلك، قال:" لا يجوز عند بعضهم تشبيه المحسوس بالمعقول، وبه جزم الزنَّجاني في معيار

---

(١) "لباب البيان"، محمد حسن شرشر، (ص:٧٥)، دار الطباعة المحمدية بدرب الأتراك بالأزهر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م.

(٢) "المطول شرح تلخيص المفتاح"، سعد الدِّين التَّفْتَازاني، (ص:٥٢٠-٥٢١)، صححه وعلق عليه أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

النَّظر والإمام فخر الدِّين؛ إذ المشبَّه به يجب أنْ يكون أظهر من المشبَّه، ولكون المعقول فرع المحسوس؛ لأنَّه مستفاد منه، وحيث جاء في الأشعار، يؤوَّل على أنَّه جعل المعقول محسوسًا على سبيل المبالغة، وهذا يستدرجُك إلى أنْ تجعل جميع هذا النَّوع من باب قلب التَّشبيه"(١)، فجعل هذا النَّوع من باب التَّشبيه المقلوب.

وجاء السيوطي برأي غريب بعض الشيء، فقال:" هذا التَّشبيه لم يقع في القرآن، بل منعه الإمام أصلًا؛ لأنَّ العقل مستفاد من الحسّ، فالمحسوس أصل المعقول، وتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعًا والفرع أصلًا وهو غير جائز"(٢). وأستغرب هذا القول الجازم من السيوطي، حيث نفى وجوده من القرآن، فكيف يقول في قوله تعالى{إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}[البقرة:٢٧٥]؟، فقد جعل المشركون الفرع أصلاً والعكس.

وخرج ابنُ يعقوب برأي وسط، فقد أجاز بعض صور هذا التَّشبيه عن طريق التوهُّم والقياس فبهذا ليس من داعي القول بعكس التَّشبيه، بل هو الظَّاهر والواضح، وذلك عندما عرض بسؤال سائل، فقال:" ولقائلٍ أن يقول: لا شكَّ أنَّ الإدراك العقلي مستند للإدراك الحسي في غالب الأمر، ولكن لا يلزم من ذلك كون المحسوس أقوى أبدًا في وجه الشبَّه، وأشهر به، وإنما يكون كذلك حيث يكون الوجه أصله الحسي، ونحن نجوِّز أن يكون أصله العقلي، فيكون العقلي به أشهر وأظهر، فتشبيه العطر بالخلق مثلًا في استطابة النَّفس يكون من عكس التَّشبيه كما قِيل؛ لأن استطابة النَّفس للمشموم المحسوس أقرب من استطابة المعقول؛ وإنما نثبت له الاستطابة من طريق التوهُّم والقياس على الحسن، وإنما تشبيهه به في الشرف عند المعقول وفي

(١) "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، بهاء الدين أبي حامد أحمد السُبكي، (١٦٥/٣– ١٦٦)، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ =٢٠٠١م.

(٢) "الإتقان في علوم القرآن"، جلال الن السيوطي، (٤٢/٢)، طبعة مصطفى الحلبي وأولاده، الطبعة الثالثة، ١٩٥١م.

الارتفاع والتلذُّذ الروحاني، فالخلق به أظهر، وعلى هذا، فلا حاجة إلى جعل تشبيه الحسي بالعقلي من عكس التَّشبيه دائمًا، وهو ظاهر"[(١)].

وبعد هذه الآراء، يذهب الباحثُ إلى ما قاله الشَّيخ فضل عباس:"كون المشبَّه حسّيًا والمشبَّه به عقليًا...، فلقد وقف منها بعض العُلماء موقف الرفض والإنكار مدَّعيًا أن ذلك لا يتماشى مع البداهة والفطرة والمنطق، ونظنُّ أنَّ هذا الرأي غير سديد؛ إذ ورود هذا الضرب بالكلام البليغ يكفي لردِّ هذا القول ونقضه"[(٢)]، وبهذا يكون الرأي في شاهد أبي تمَّام تشبيه المحسوس بمعقول في إخراج الظاهر إلى الخافي والمكشوف إلى المستور، وفي ظني أنَّ هذا النَّوع من التَّشبيه يلحق بالتَّشبيه المقلوب؛ لأنَّ التَّشبيه عادة ينوب أحد الموصوفيْن مناب الآخر، ويلبس لبسه لا من كل الجهات، على سبيل المبالغة.

والتَّشبيه لا يؤتَى به إلا للتَّقريب بين الصُّورتين، لا أنْ تبتعدُ الصُّورتان، فيُتعمَّق في التَّفْكِير لإخراج المشبَّه به في صورة أقلَّ من المشبَّه، فإذا كانتْ الشَّمس رمزًا للوضاءة مشبَّهًا به على الاطلاق، يُجعل مشبَّها والوضاءة الَّتي شيء من صفات الشمس جُعلت مشبَّها به، فأعتقد أنَّ هذا من قبيل التَّشبيه المقلوب، الَّذي ألحق الأصل بالفرع، فالشَّمس أصل وأُلحقت وشُبَّهت بالفرع وهي الوضاءة، وهذا التَّشبيه فيه قلب. ومهما يكن من أمر، فقد اشترط العُلماء شروطًا للتَّشبِيه المقلوب المقبول، أنَّه إذا لم يكن هناك تفاوُت كبير بين المشبَّه والمشبَّه به من حيث وجه الشبَّه، فيعكسان على سبيل التَّخيُّل والمبالغة، وأمَّا إذا كان هناك تفاوت كبير في وجه الشبَّه بين المشبَّه والمشبَّه به، فإنْ عُكست هذه التَّشبيهات فإنما يكون على سبيل التخيُّل والادعاء لا على سبيل الحقيقة والواقع.

---

(١) "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح"، ابن يعقوب المغربي، (٩٩/٢)، تحقيق: خليل إبراهيم خليل المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

(٢) "البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع"، (ص:٣٤).

وفي ذلك"تنبيه ما كان من أمثلة عكس التَّمثيل مقصودًا في أصله إلحاق النَّاقص بالكامل والمبالغة ثم عكس لإيهام أنَّ النَّاقص في الوصف فاق الكامل فيه يعدُّه المتأخرون من قبيل (التَّشبيه المقلوب)، الَّذي تعود فائدته على المشبَّه به، مثل: العسل كألفاظه، ربَّ ليلٍ كأنها أملى فيك، هواء مثل تشاكي الأحباب، أهديت عطرًا مثل طيب ثنائه. وما ليس كذلك ممَّا يظهر أن الغرض منه بيان حال المشبَّه لم يعدُّوه من المقلوب، وجعله صاحب"الإيضاح" من (المطرد) وجعل وجه الشبَّه فيه مخيَّلًا في المشبَّه به. ورأى الشَّيخ: أن كل تمثيل يكون الوجه فيه لازم صفة المشبَّه به، إذا جعل فيه الفرع أصلًا، والأصل فرعًا كان (معكوسًا)"[1].

(١) "دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القَاهِر في التشبيه والتمثيل –التقديم والتأخير–"، عبد الهادي العدل، (ص:٢٢٠)، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، ١٣٦٩هـ=١٩٤٩م، ويُنظر:"المطول"، (ص:٥٢٢).

المطلب الثَّاني: " شاهد على التَّشبيه البعيد وبرودة"

في هذا المطلب أبان أبو هلال عن قبح التَّشبيه وعيوبه؛ كإخراج الظاهر إلى الخافي، والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغر، فسمَّاها بالتَّشبيهات المعيبة، وكذلك التَّشبيه الكريه المتكلَّف والبعيد والبارد والمتنافر، وفي كل ذلك يقدَّم بين يديْ قارئه شواهد لشعر مبتذَل ومعيب عنده، دقَّق العسكري النَّظر فيه، وتبصَّره بصائب الفكر، فهو صانع الصناعتيْن، والخبير بتحكيك معدن الشِّعْر، فخرج بتلك الرؤى النَّقدية، وهو لا يبالي أنَّ حكمه عليها موضوعًا للنَّقد، وفيه مجال للنَّظر، فيتلمَّس من حواش نقده الأقوال الأُخر، فيسارع باستدراكها، فهو عارف بموارد الكلام ومصادره، واستشهد ببيت لأبي تمَّام عدَّه من التَّشبيه البعيد والبارد، والشَّاهِد على النحو التَّالي:

- **الشَّاهِد العشرون** [1]**،قال أبو تمَّام:**

كـأَنَّني حِـيْنَ جَـرَّدتُ الرَّجـاءَ لَـهُ عَضـبًا صـببتُ بـه مـاءً علـى الـزَّمن[2]

شبَّه الشَّاعر انبعاث رجائه ووضعه في يد الممدوح بالسَّيف الَّذي يصبُّه كصبِّ الماء على الزَّمن، هذا على حسب الشاهد عند العسكري، ولكن البيت في الدِّيوان شبَّه الشَّاعر انبعاث رجائه ووضعه في يد الممدوح بـ(العضب) وهو السَّيف القاطع، وفي رواية قال:(أخذت) ليستعين به على مدلهمات الزَّمن، فالرَّجاء في الممدوح كالسَّند والمعين له على الزَّمن وملماته، ووجه الشبَّه الثِّقة وعدم الخوف.

---

(١) "الصِّناعتين"، (ص:٢٣٠).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٣٩/٣)، ومطلع القصيدة:

كـأَنَّني يـوم جَـرَّدتُ الرَّجـاءَ لَـهُ عَضـبًا أخـذت بـه سـيفًا علـى الـزمنِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في أبي الحسن عليَّ بن مُرّ.

وصف العسكري هذا الشَّاهِد بالبرود، وهذا النَّوع من التَّشبيه في الشاهد تشبيه معقول بمحسوس، وهو غاية في الحسن، والعُلماء يُشيدون به ويرفعونه على عكسه، ويرون أنَّه من أجود التَّشبيه وأبلغه؛ لأنَّه تشبيه ما لا تقع عليه الحاسة (معقول) إلى ما يقع عليه (محسوس)، وهي أحد أنواع أجود التَّشبيه الَّتي ذكرها الرُّماني وتابعه في ذللك العسكري، عندها قال أبو هلال:" والتَّشبيه يقبح إذا كان خلاف ما وصفناه في أول الباب، من إخراج الظاهر إلى الخافي، والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغير...وقال أبو تمَّام:

كأنني حين جردت الرجاء له عضبًا صببت به ماءً على الزَّمن

ولا يكاد يُرى تشبيه أبرد من هذا"[1].

فما الَّذي جعل هذا الشَّاهِد تشبيهًا بعيدًا باردًا؟ ليس من اليقين أن يُجاب عن هذا السؤال، ولكنَّ الظنّ يقول إنَه ربما ارتفعت ثقة الطَّائي في أبي الحسن علي بن مُرّ، حتى جعل رجاءه عنده بمثابة القوَّة والثَّقة الَّتي لا ينازعها الرَّيب، فحاصل ما يتمنَّى الشَّاعر من الممدوح هي تلك العطايا والهبات، فوضع رجاءه عنده بقوَّة اليقين، ولعلَّ أبا تمَّام قد خبرَ منزلته عندَ الممدوحِ، أو توقَّع وغلبَ على ظنِّه أنَّه لن يردَّه، فراح يرخي له في الرجاء، ويضعه مكان القوَّة طلبًا لما عنده.

فالعسكري لم يعجبه هذا التَّشبيه؛ لأنَّه وضَعَ الأمرَ في غير محلِّه، واستعمل الوصف على غير ما جرت به عادة العرب، فالقوَّة تُشبَّه بالسيف، وليس بالرجاء يشبَّه به. ولعلَّ الدَّارس يؤيِّد أبا هلال في بُعد التَّشبيه وبروده؛ لأن التَّشبيه من مزاياه أنه يزيد المعنى وضوحًا، ويُكسِبه تأكيدًا، كما وصفه أبو هلال، لكن التَّشبيه هنا معقَّدٌ، وأكسب المعنى غموضًا، فضْلًا عنْ أنْ يكون تأكيدًا لمعنى واضح. هذا حديث عن شاهد أبي تمَّام، فكيف يقبح التَّشبيه وما عيوبه؟

(١) "الصناعتين"، (ص:٢٣٠).

قبح التَّشبيه وعيبه عند أبي هلال العسكري، عندما وصف الطريقة المسلوكة في التَّشبيه، والنَّهج القاصد في التَّمثيل عند القدَّماء والمحدثين في أول الباب، ذكر أنَّ القبح عنده في الخروج عن تلك الطريقة وذلك المسلك، فما هي إذن تلك الطريقة لكي تُعرف على بُغية العسكري؟

ساق أبو هلال في أول الباب أربعة أوجه لأجود التَّشبيه وأبلغه، وأول مَن ذكرها الرُّماني في رسالته[1]-سبق ذكرها-، لكنَّ طريقته المسلوكة الَّتي بصددها للخروج من مأزق تحليل برود وبُعد هذا الشَّاهِد، هي أنَّ التَّشبيه والتَّمثيل الصحيحيْن عند العسكري يكون في تشبيه المحسوس بالمحسوس؛ لأنَّ التَّشبيه في هذه الحالة يزيد المعنى وضوحًا، وأيضًا يُكسِبه تأكيدًا. وأمَّا النَّهج القاصد في التَّمثيل، فلعلَّه يقصد به المثل السَّائِر والتَّشبيه التَّمثيلي حيث مثَّل للتَّشبِيه أولًا، كتشبيه الجواد بالبحر، ثم مثَّل للمثل السَّائِر كمثل حاتم في السَّخاء وغيرها وعلى العكس، وبعد كل تلك الشُّروط للتَّشبِيه الحسن، وضع ثمرات ما يؤول به ذلك التَّشبيه، من زيادة وضوح المعنى، وإكسابه صفة التَّأكيد، ولعلَّ العسكري من أنصار المعاني، وبهذه الطريقة يُخرج التَّشبيهات الَّتي لا ترتكز على شروط الحسن الَّتي بيَّنها، فالبعيد والمتنافر غير واضح المعنى، بل يزيده تعقيدًا لا تأكيدًا، كما هو الحال في شاهد أبي تمَّام.

واستنبط الدَّارس هذا كله من كلامه -رحمه الله-، فقد قال في أول باب التَّشبيه:" وأمَّا الطريقة المسلوكة في التَّشبيه، والنَّهج القاصد في التَّمثيل عند القدَّماء والمحدثين،فتشبيه الجواد بالبحر والمطر، والشُّجاع بالأسد...وشُهِر قومٌ بخصالٍ محمودة، فصاروا فيها أعلامًا فجروا مجرى ما قدَّمناه؛كالسموأل في الوفاء، وحاتم في

(١) ينظر:"ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، (ص:٨١).

السَّخاء...وشُهِر آخرون بأضداد هذه الخصال، فشبَّه بهم في حال الذم؛ كباقل في العيّ،...والتَّشبيه يزيد المعنى وضوحًا ويكسِبه تأكيدًا"[1].

والَّذي يَهمُّ الدَّارس في المقام الأول أن أبا هلال كشفَ قناعَ بيتِ أبي تمَّام، وساقه في معرض التَّشبيه البعيد والبارد، فقال" ومن بعيد التَّشبيه... وقال أبو تمَّام:

كأنني حين جردت الرجاءَ له عضبًا صببت به ماءً على الزَّمن

ولا يكاد يُرى تشبيهٌ أبردَ من هذا..."[2].

ويكفى في قبول تشبيه المعقول بالمحسوس ما قاله صاحب اللباب:"كثر هذا اللون في كتاب الله –تعالى–، وفي حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وفي شعر الشِّعْراء المجيّدين، لإبراز المعاني في صورة محسوسة، حتى تتمكَّن في النَّفس فضل تمكُّن"[3]، والله أعلم.

(١) "الصناعتين"، (ص:٢١٦).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:٢٣٠).

المطلب الثَّالث: " رؤية أبي هلال الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام"

وصف أبو هلال شاهدَ أبي تمَّام في المطلب الأول أنَّه ردئ؛ لأنَّه تشبيه محسوس بمعقول، وقد بيّن آنفًا آراء العُلماء في هذا النَّوع من التَّشبيه، فالمشبَّه معقول فيغمض على المحسوس الواضح أنَّ يشبَّه بما لا يدرَك إلاَّ بالعقل؛ كقولك: (شمس كالوضاءة ونور كالعِلم)، ومن العُلماء من استحسنه، وجعله لطيفًا ظريفًا دقيق المسلك، وكذلك لم يغفل عن هذا الرَّأي أبو هلال، فقد وضَّحه بعد قوله رديء، فقال:"وإنْ كان بعض النَّاس يستحسنه لما فيه من اللَّطافة والدِقَّة"[1].

وعلى كل حال، فتشبيه المحسوس بمعقول هو إخراج الظاهر إلى الخافي والمكشوف إلى المستور. وفي ظنّ الباحث أنَّ هذا التَّشبيه يلحق بالتَّشبيه المقلوب؛ لأنَّ التَّشبيه عادة ينوب أحد الموصوفيْن مناب الآخر، ويلبس لبسه لا من كل الجهات، والتَّشبيه لا يؤتَى به إلا للتَّقريب بين الصُّورتين، لا أن تبتعد الصُّورتان، فيُتعمَّق في التَّفْكِير لإخراج المشبَّه به في صورة أقلّ من المشبَّه، وشرط العُلماء للتَّشبِيه المقلوب المقبول، ورأي الشَّيخ عبد الهادي العدل[2]. ويذكر أبو هلال أنَّ هذا التَّشبيه كثير في أشعار العرب، ومع ذلك فلم يسْتَشْهِد من الشِّعْر إلاَّ بشاهديْن فقط.

أمَّا المطلب الثَّاني، فالتَّشبيه فيه هو الطريقة المسلوكة عند القدَّماء والمحدثين، وهو عكس التَّشبيه في المطلب الأول، وهو الَّذي أكثر منه القرآن الكريم والحديث الشريف، والشِّعْراء والخطباء، وهو المتعارَف عليه من إخراج الخافي إلى الظاهر والمستور إلى المكشوف؛ كقولك: (العِلم النور، والجهل كالظلام وغيرها)، ممَّا يكون المشبَّه عقليًا والمشبَّه به محسوسًا، قال محمد شرشر:" كثُر هذا اللون من التَّشبيه في كتاب الله – تعالى- وفي حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفي شعر الشِّعْراء المجيّدين

(١) "الصِّناعتين"، (ص:٢١٥).

(٢) يُنظر: (ص:٨٠-٨١) من هذا البحث.

لإبراز المعالي في صور محسوسة، حتى تتمكَّن في النَّفس فضل تمكُّن"[1]، ومع ذلك كله، جعل أبو هلال هذا الشَّاهِد في هذا المطلب من التَّشبيه البارد والبعيد لعلَّة بعد معنى الرجاء من السَّيف، فالرجاء للتَّملُّق والتَّودُّد، والسَّيف للقطع والحزم، فابتعد الطرفان عن بعضهما؛ لبُعد اشتراك طرفيْن في الوصفيْن، وقد يعدّ هذا النَّوع تجوُّزًا من التَّشبيه الغريب؛ وهو ما لا ينتقل فيه من المشبَّه إلى المشبَّه به إلاَّ بعد تلبُّث وتذكُّر، وفكر للنَّفس في الصُّور الَّتي تعرضها؛ لأنَّ وجه الشبَّه في المشبَّه به ممَّا لا ينزع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم بديهة النَّظر إلى المشبَّه على عكس التَّشبيه القريب الَّذي يسرّع وجه الشبَّه في حضوره إلى الخاطر عند أول النَّظر إلى المشبَّه، وهذه أغلب أحوال شواهد أبي تمَّام في التَّشبيه، أنَّها تنزع إلى الغرابة ودِقَّة الفكر والبحث وراء المعنى المعقد، وسيأتي الحديث عن ذلك في مبحث عبد القَاهِر الَّذي جلَّى الأمر، وكشف المعنى واستشهد بشواهد لأبي تمَّام على هذا الأمر في قوة نقدية مصاحبة.

ومع هذا كلِّه، فلم يقدَّم العسكري رؤية مختلفة، ولم يكن له مشروع فكري أشغله وأرَّقه، وأراد من خلاله أن يدلِّل عليه، أو يردَّ على خصومه كمسألة "النَّظم" مثلًا عن عبد القَاهِر، ولم يكن كالجاحظ الَّذي كان له حظوة ثقافية متدفِّقة، ولم يكن كالقاضي الجرجاني في "الوساطة" الَّذي كان له مشروع فكري، ولكنَّه أقلّ من غيره، فالعسكري كان ناقلًا للمعرفة، وكان له ذوق أدبي وحسن ترتيب للأبواب الَّتي ينقلها، فقد بنى الفصول بعضها على بعض، وأقام بين الموضوعات لُحمة، فمكانته العِلْمِية محفوظة، ويعتبر وسيطًا جيّدًا بين قَرْنِه والَّذي بعده.

(١) "لباب البيان"، (ص:٧١).

ولذلك يقول الدُّكْتُور إبراهيم سلامة:" إنَّ أبا هلال رجل منهجي، يجري في تأليفه على خطة، وإذا رسم خطة، التزمها، فكل المظاهر الأدبية خاضعة لمقاييس وقواعد، أو يجب أن تخضع لها"(١).

ويذكر الدُّكْتُور فضل حسن عباس رأيه في أبي هلال، فقال:" والحقُّ أنَّ أبا هلال كان ذا سعة واطِّلاع على ما كتبه مَن قبله، فتخيَّر لكتابه كثيرًا من هذه الأقوال والآراء، ممَّا يجعله مرجعًا لعشَّاق المباحث البلاغية والأدبية"(٢)، وقال الشَّيخ أبو موسى –حفظه الله– في نقل أبي هلال عن غيره:" أخذ أبو هلال تعريف التَّشبيه وأقسامه على الحدِّ الَّذي ذكرناه – أي من الرُّماني–، ويكاد يكون بلفظه، وأمثلته في الصناعتيْن"(٣).

ويستدرك الدُّكْتُور فضل حسن عباس على أحد المؤلفين، الَّذين لا يرعون حقًّا في التَّاليف البلاغي، بل حدُّهم في التَّصْنيف النَّقل والتَّدليس، فوقف الدُّكْتُور فضل له بالمرصاد، في سياق الحديث عن أبي هلال ومنهجه في باب التَّشبيه، فقال:" ومهما يكن من أمرٍ، فإن تقسيمات الرُّماني للتَّشبِيه بقيت ردحًا من الزَّمن أساسًا يُعوِّلُ عليه من بعده، وهذا أبو هلال العسكري ينهج النَّهج نفسه، حتى إنَّ بعض الكاتبين – سامحهم الله– نقل كلام العسكري في الصناعتيْن –وهو نفسه كلام الرُّماني– وبين الرجليْن ما يزيد على قرن ولم يُشِر الرُّماني– وهو الأسبق– من قريب أو بعيد..."(٤)، والله أعلم.

(١) "بلاغة أرسطو بين العرب واليونان"، إبراهيم سلامة مخيمر، (ص: ٢٨٥)، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٢م.

(٢) "البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية"، فضل حسن عباس، (ص: ١٢٨)، دار النفائس، عمان، ط: الأولى، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

(٣) "البلاغة فنونها وأفنانها"، (ص:٤٧).

والنَّاظر في سيرورة البلاغيين قبل عبد القَاهِر يرى أنَّهم استفادوا من الرُّماني وقدامة، بل يتراءى لبعضهم أن ينقل بابًا بأكمله عن الرُّماني كما فعل العسكري، فلما جاء عبد القَاهِر، قلب على الرُّماني ظهر المِجن، وأقام المشاريع الفكرية الَّتي مات عليها الأوائل، وبنى القاعِدَّة الصحيحة على أسُسُ ومبادئ، لا يجوز لأيِّ متأمِّل أن يحيد عنها؛ لأن عبد القَاهِر كان يخاطب العقل، ويبعث الروح في الوجدان لتتكلَّم الحواس، وتتذوَّق النفوس رياحين الوحيَيْن، دون تأويل أو تحريف، ويهيج عبق تلك الأشعار، فعاش للنظم، ومات ليحيى النَّظم.

فأبو هلال حلقة وصل، ووسيط بارع بين الرُّماني وابن رشيق وعلماء القرن الخامس، فنرى أنه ليس هناك اختلاف كبير بين ما يذكره وما يذكره المتقدَّمون أو المتأخِّرون؛ لأن أبا هلال أديب، ويغلب عليه الذَّوق الفني أحيانًا أكثر من الرُّؤية العِلْمِية، كما سنراها عند ابن رشيق، فهو ليس في الشِّعْر كابن رشيق أو ابن الأثير؛ لأنَّ ابنَ رشيق له رؤية فنية مستقلة، بعكس أبي هلال الَّذي لم يكن له رؤية فنية مستقلة.

المبحث الثَّالث
" شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند ابن رشيق القيرواني "

- **المطلـــب الأوّل: "شـــواهد التَّشـــبيه والقضايا المتعلِّقة به".**
- **المطلـب الثَّـاني: "رؤيـة ابـن رشـيق الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام".**

أشادَ المؤرِّخون بابن رشيق[1]، وذلك من جهتيْن؛ من جهة شخصه وعلمه، ومن جهة مؤلفاته، خاصَّةً كتاب "العمدة"، الَّذي بصدده هذه الدَّارسة، وحوى أبوابًا في صميم البلاغة والنَّقد، وتستلهم هذه الدِّراسة أبواب علم البيان، خاصَّة التَّشبيه في هذا الفصل، والاستِعَارة في الفصل الثَّاني، وترصد استشهادات ابن رشيق لشعر الطَّائي لبناء قضايا بلاغية ونقدية.

(١) هو أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني؛ أحد الأفاضل البلغاء، له التصانيف المليحة منها: كتاب "العُمْدَةُ في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه"، و"الأنموذج" والرسائل الفائقة والنظم الجيد، وديوانه، فقد كان شاعرًا مفوهًا. يُنظر: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لأبي العباس أحمد ابن خلكان، (٨٥/٢)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م ، بتصرُّف.

وقال عنه ابن بسام: "بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلًا، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمئة، وكان أبو علي ربوةً لا يبلغها الماء، وغاية لا ينالها الشد والإرخاء، محله من العلم، محل الصواب من الحكم، واقتداره على النثر والنظم، اقتدار الوتر على السهم، إن نظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلل العلم وكبر، أو نقد سعى الطبع الصقيل وحفد".. يُنظر: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، لابن بسام، (٣٧٩/٤)،تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

ووصفه ياقوت الحموي فقال: "كان شاعرًا أديبًا، نحويًا لغويًا حاذقًا عروضيًا، كثير التصنيف، حسن التَّاليف،...، ومات بالقيروان سنة ست وخمسين وأربع مئة".يُنظر: "معجم الأدباء"، (٣٣٧/١)، بتصرف.

وقال عنه ابن العماد: "أحد الأفاضل البلغاء له التصانيف الحسنة منها كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وعيوبه و كتاب الأنموذج والرسائل الفائقة والنظم الجيد... رحل إلى القيروان واشتهر بها...ومات سنة ثلاث وستين وأربعمئة وهو الأصح". يُنظر : "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، لابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، (٢٩٧/٣)،تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، النَّاشِر:دار بن كثير، دمشق، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

وقد عَدَّ ابن رشيق التَّشبيه والمثل والكناية والتَّمثيل والاستِعَارة ومحاسن الكلام داخلة تحت المجاز، وهذه مسألة عظيمة جدًا، وذلك عندما عرض لباب المجاز، وبيَّن أنَّه أبلغ من الحقيقة، قال: "فصار التَّشبيه والاستِعَارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز"(١)، وموضع نقاش هذه المسألة ستطرح في مطلب الرُّؤية الفكرية.

والتَّمثيل هنا ليس الوجه الآخر من التَّشبيه، كما عند اللُّغويين، فابن رشيق لا يفرق أصلًا بين التَّشبيه والتَّمثيل، بل التَّمثيل هنا أراد به المماثلة عند بعضهم كأبي هلال العسكري وهي عنده كناية، وعند عبد القَاهِر استِعَارة تمثيلية، وهو أنْ تمثل شيئًا بشيء فيه إشارة منه.

ثم ذكر المثل فأردفه في آخر باب التَّمثيل، فعدَّه جزءًا منه لا يتجزأ، ثم جعله بابًا مستقلًا، ووضعه في تلك الحال لأهميته، وصدَّره بشاهد لأبي تمَّام، ثم ذكر بعده مباشرة باب التَّشبيه، وكان أكثر عمقًا، فحدَّ التَّشبيه، وذكر فائدته، وأنواعه من حيث الحُسن والقبح، وما يراه من أفضله، وبيان سبيله وأصله، والمتأمل يرى أنَّ ابنَ رشيق لم يخرج من هذا الباب حتى استوفاه حقه من التَّحْدِيدات، والشَّواهِد والتَّفْريعات، فاستشهد بشواهد كثيرة، وعرض لبعض القضايا البلاغية، وأبدى فيها رأيه، وستأتي تلك التفصيلات في المطلب الثَّاني.

وبهذا لم ير الباحث ممَّن سبق ابن رشيق قد جاراه على هذا الوصف، وستأتي الشَّواهِد لتُفصح عن تلك القضايا البلاغية والنَّقدية الَّتي استشهد بها ابن رشيق من شعر أبي تمَّام، غير أنَّ باب التَّمثيل الَّذي يَقصد به المماثلة، لم يسْتَشْهِد به من شعر أبي تمَّام فاستبعد من هذه الدِّراسة لعدم وجود الشَّاهِد. والدَّارس أمام عالم بليغ أديب مبدع، وناقد بصير، وستأتي المطالب القادمة لتتحدَّث عن الآليات الَّتي شقَّها ابن رشيق وحده؛ لِتُنبئ عن مكنون علمه، وحيازة سبقه في تحليل وتفنيد شعر أبي تمَّام.

---

(١) "العُمْدَةُ"، (٤٣٠/١).

المطلب الأول: " شواهد التَّشبيه والقضايا المتعلّقة به "

في هذا المطلب يحاول الباحث تبيين شواهد أبي تمَّام في باب التَّشبيه عند ابن رشيق، وسيتم توضيح اختلاف صور التَّشبيه مع تنوُّع قضاياه، وعلى ماذا استشهد ابن رشيق مع توصيف مراده منها، كل ذلك بتحليل تلك الأمور والتَّفْتِيش عن خبايا البيان ولمِّ شمل الباب، بربط أجزائه، وإيجاز أفكاره دون إخلال بالمراد، والشَّواهِد كالتَّالي:

- **الشَّاهِد الحادي والعشرون** [1]، **قال أبو تمَّام:**

وأحسَنُ مِن نَوْرٍ يُفَتِّحهُ النَّدى[2] بَيَاضُ العَطايا في سَوادِ المطَالِبِ[3]

شبَّه الشَّاعر فضْل الممدوح وما يهبه للنَّاس من العطايا والكرم المبذول الَّذي ظاهره البياض، على سواد تلك المطالب وما فيها من ذلِّ المسألة، حتى كأنَّه اسودَّت وجوههم جرَّاء المطالب، شبَّه ذلك كله بـ (النَّوْر)؛ وهو الزهر الأبيض الجميل الذَّابل، الَّذي يفتِّحه ويفكّ أسرّه البرَاق (النَّدى): هو البلل والمطر من طل يسقط بالليل، ويُقال إنَّه من أشدّ ما ينعش الزُّهور والورود والأشجار، وفي رواية (الصَّبا) وهي:" تلك الرِّيح الطيّبة النَسْنَاسة المباركة، وهي ريح معروفة تقابل الدَّبور الَّتي تُزعِج السحاب وتشخِّصه في الهواء ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه، ثم تأتي الصَّبا، فتستقبله، فتوزِّع بعضه على بعض، حتى يصير كِسفًا واحداَ، والصّبا مهبُّها المستوي من مطلع الشَّمس، إذا استوى اللَّيل والنَّهار، وهي تستقبل البيت وتحنُّ له"[4]، وكلتا الروايتيْن يصحّ الجمع

(١) المصدر السَّابق، (٤٧١/١).

(٢) والبيت في ديوان التَّبْريزي:" تُفتِّحهُ الصَّبا".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٠٥/١)، ومطلع القصيدة:

على مِثْلِها مِن أَرْبُعٍ ومَلاعِبِ أُذِيلَتْ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّواكِبِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا دُلف العِجْلي.

(٤) يُنظر: "لسان العرب"، (١٩٩/٨)، مادة:(صبا)، بتصرُّف.

بينهما، فما أصاب ذلك الزَّهر من مطر وبلل ففتَّحه، وما أصابه من ريح –اللقاح– طيبة ففتَّحته، فالصُّورة المشتركة هي إنالة الملهوف المستغيث الَّذي فَدحته الخطوب مع ذلِّ السُّؤال الَّذي يكون عليه الطَّالب للحاجة، فتُنار تلك الظلمات، ويحيل سواده ضياءً، ويأسه سرورًا، وبأسه غنىً بالعطايا والهبات والمكرمات، فينقشع سوادُ اليأسِ ببياضِ الأملِ، وكأنَّ كرم الممدوح كالشَّمس والنَّهار الَّذي يبدِّد الظلم، ويُطارده في كل مكان، ليحيله إلى نورٍ وبهاءٍ وضياءٍ، وبين قوله (بياض) و(سواد) طباق، وبين (النَّدى أو الصَّبا) و (النَّور)، أحاديث الَّليل من انتعاش والالتقاء بعد الفراق، خاصَّة إذا كان وقت السَّحر، ويرى المرء (النَّور) وثمرته الملتفة على بعضها الَّتي تشبَّه اليديْن في اجتماعهما للدُّعاء، فتراه تنفرج عند قبول الدُّعاء، وكأنَّه أتاها الفرج، فتأتي تلك الصَّبا لتبهجها، وذلك النَّدى لينعشها، وبين (مطالب) من جهة السَّائل، و(عطايا) من جهة الممدوح، أحدثت نوعًا من الرَّونق الجميل في سرعة تلك العطايا؛ ولذلك قدَّمها على المطالب؛ ليبين أنَّه يُعطي حتى لو لم يطلب، وهذه غاية الكرم، ولا ينسى أحدٌ أنَّ أبا تمَّام رائدُالصَّنْعَةِ البديعية، فالصُّورة البيانية هنا معكوسة، فقدَّم الشَّاعر المشبَّه به وهو (النَّور وما يحدثه النَّدى أو الصَّبا)، وأخَّر المشبَّه وهو (عطايا كرم الممدوح البيضاء وما تحدثه للطالبين لها على ما فيهم من السواد لذلّ السَّؤال)، فكأنَّه قال: (بياض عطايا الممدوح لسواد المطالبين أحسن من الَّذي يحدثه النَّدى أو الصَّبا للنَّور). ولا شكَّ أنَّ الممدوح بلَّل حناجر المتعطِّشين إلى كرمه بذلك النَّدى وهو الكرم، كما يبلِّل النَّدى أو ما تصنعه الصَّبا من تحريك الأغصان لِّلقاح، فجعل المشبَّه وهو الفرع في قوة الأصل وهو المشبَّه به، ووجه الشبَّه الانتعاش بالحياة بعد الذبول وخشية الموت، على غاية وبلاغة التَّشبيه التَّمثيلي، فوجه الشبَّه أمر غير بيَّن بنفسه، بل يحتاج إلى تأوُّل وصرف عن الظَّاهر، والتَّشبيه التَّمثيلي وجه الشبَّه فيه عقلي محض سواء كان مفردًا أم مركبًا، وهذا على رأي شيخ البلاغيين عبد القَاهِر فقد قال –رحمه الله– :" ثمَّ إنَّ هذا الشبَّه

العقلي ربما انتُزِع من شيء واحد، كما مضى من انتزاع الشبَّه للفظ من حلاوة العسل = وربما انتُزِع من عِدَّة أمور، يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبَّه،فيكون سبيله سبيل الشيئيْن، يمزج أحدهما بالآخر،حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد"(١).

استشهد به ابن رشيق على أنَّ معرفة النَّفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسَّة، واستشهد بذلك من القرآن الكريم، ثم استشهد من الشِّعْر الفصيح بقول امرئ القيس، ثم بقول أبي تمَّام هذا، حيث قال:" معرفة النَّفس والمعقول أعظم من إدراك الحاسَّة، لا سيَّما قد جاء مثل هذا القرآن، وفي الشِّعْر الفصيح: قال الله –عزَّ وجلَّ–: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين}[الصافات:٦٥]، وقال امرؤ القيس:

أيَقْتُلُـــني وَالمِشْـــرَفِيُّ مُضَـــاجِعِي ومســـنونةٌ زرقٌ كأنيـــابِ أغْـــوالِ

فشبَّه نصال النَّبل بأنياب الأغوال؛ لما في النَّفس منها، وعلى هذا التأويل. قال أبو تمَّام وفيه عكس:

وأحسَـنُ مِـن نَـوْرٍ يُفَتِّحـهُ النَّـدى بَيَـاضُ العَطايـا في سَـوادِ المطَالِـبِ"(٢)

وقصد ابن رشيق على هذا التَّأويل؛ أي أنَّ التَّشبيه ومعرفة المعقول والنَّفس أعظم من إدراك الحاسَّة، فالمعقول إذا شبَّه بالمحسوس، كان أفضل ما يكون، ووصف الشَّاهِد أنَّ فيه عكسًا؛ أي أنَّ الصُّورة فيها تقديم (صورة المشبَّه به)، وتأخير (صورة المشبَّه).

وقد قال عبد القَاهِر عن التَّشبيه المركَّب، وهذا الشَّاهِد من قبيله:"وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتَّشبيه الَّذي هو الأولى بأن يُسمَّى تمثيلاً لبعده عن

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:١٠١).

(٢) "العُمْدَةُ"، (١/٤٧٠، ٤٧١).

التَّشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلاَّ من جملة من الكلام او جملتيْن أو أكثر"[١].

وقد اختلف العُلماء في المراد بالتَّشبيه التَّمثيلي، ولهم فيه صولات وجولات ومذاهب وآراء، فـ " السَّكَّاكي يرى أن تشبيه التَّمثيل ما كان وجه الشبَّه فيه وصفًا غير حقيقي؛ بمعنى أن يكون مركبًا عقليًا"[٢]. وأمَّا رأي الخطيب وجمهور المتأخِّرين، فيرون " أن التَّشبيه التَّمثيلي ما كان وجه الشبَّه فيه وصفًا منتزعًا من متعدِّد أمريْن أو أمور؛ بمعنى أن يكون وجه الشبَّه مركبًا سواء أكان حسيًا أو عقليًا "[٣]. وعلى هذا تتَّسع الدَّائرة، فتدخل أمثلة وجه الشبَّه في التَّشبيه التَّمثيلي المركَّب حسيًا أو عقليًا.

- **الشَّاهِد الثَّاني والعشرون** [٤]، **وقال:**

وثنايَـــــاكِ إنَّهَـــــا إغـــــرِيضُ وَلآلٍ تُـــومٌ وبـــرْقٌ وَمِـــيضٌ[٥]

شبَّه الشَّاعر ثناياها بثلاثة أوصاف، بـ (الإغريض) وهو: البرد أو الطلع، أو كلّ شيء أبيض طري، وشبَّهها كذلك بـ (اللَّآلئ توم) جمع لؤلؤ، والتُّوم أصلها (تؤم)، ولكنَّها خُفِّفت؛ وهي: اللؤلؤة العظيمة البيضاء، ثم شبَّه الثنايا بـ (بالبرق الوميض) وهو: البرق الَّذي يلمع لمعًا خاطفًا وخفيًا وصافي اللون.، وهذا يسمى تشبيه الجمع، ومن العجيب أنَّ من صفات البرق الوميض أنه يومض إيماضة ضعيفة ثم يختفى ثم يومض، ومثل هذا التَّشبيه قول ساعِدَة بن جؤية الهذلي:

---

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٠٨).

(٢) "لباب البيان"، (ص:١٢٤).

(٣) المرجع السَّابق، (ص:١٢٦).

(٤) "العُمْدَةُ "، (٤٧٧/١).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٨٧/٢)، والشَّاهِد البلاغي هنا هو مطلع قصيدته التي يمدح عيّاشًا ويعاتبه، وهي من البحر الخفيف، وبعده يقول:

وأَقَـــــاحٍ مُنَـــــوَّرٌ فـــــي بِطـــــاحٍ هَـــزَّهُ فـــي الصَّـــبَاحِ رَوْضٌ أريـــضٌ

وارتكـاضِ الكَـرَى بِعينيـكِ فـي النَّـوْ مِ فُنُونًـا ومـا لِعَيْنـي غُمُـوضُ

تضـــحك عـــن غُـــرِّ الثنايـــا ناصـــع مثـل وميض البرق لمّا عـن ومـض[1]

وكـأنَّ الموصـوفة حـين تضـحك وتـبرز أسـنانها في فـتح وإغـلاق بسـرعة بالغـة، كالبرق اللَّامع الخفي الَّذي يظهر ويختفي بسرّعة عجيبة، فهو لا يدعك تتمتَّع برؤيته، كالموصوفة لا تدع مَن ينظر إلى أسنانها أن يتمتَّع بها، وهذا تشبيه تمثيلي رائع.

وعلى كل حال، ففي هذا المطلع العجيب بدأ بذكر المحبوبة وتغزَّل بها، فشبَّه ثناياها بثلاثة أوصاف، فمرةً بالبرد أو الطلع، ومرةً باللآلئ العظيمة البيضاء، ومرةً بالبرق الَّذي يلمع لمعًا خاطفًا وخفيًا، ويكون فيه صفاء اللَّون، والجمع بين هذه الأوصاف في وقت واحد ممكن لا يقود إلى التَّمحُّلِ، ففي حال كلامها شبَّهها بالبرد، وحين سكوتها وانفلات الشفتيْن إلى الأسفل والأعلى في وقت الذهول والسرّحان والاستماع لحديث الطرف الآخر –المحبوب–، باللآلئ المكنونة الَّتي يصبو منالها ولكنَّها في حرز وثيق، لا تظهر إلاَّ من نقَّب عنها، فإذا أراد المحبوب إبراز تلك الثَّنايا ليراها، ويرى اللؤلؤ المكنون، أضحكها فتظهر كلمعان البرق الخفي مع إغلاق الفم وانفراجه في سرّعة ذلك، تشبَّه البرق الوميض.

واستشهد ابن رشيق بهذا الشَّاهِد على التَّشبيه بثلاثة أشياء حقيقية، وأنَّ حكم (أو) تدلّ على زيادة التَّشبيه، بعكس (الواو) الَّتي تدلّ على التَّشبيه، وعلى ذلك ساق ابن رشيق شاهدًا للبحتري، جاء فيه بـ (أو) الَّتي تدلُّ على زيادة تشبيه، ثم جاء برواية أُخرى بـ (أو)، ثم جاء بشاهد أبي تمَّام هذا ليدلُّ على أنَّ (الواو) تدلّ على التَّشبيه بإيجاب وتحقيق، واستدلَّ كذلك به على مجيئه بغير كاف التَّشبيه ولا بأخواتها، واستدلّ بأنَّه جاء على الإيجاب والتحقيق، قال ابن رشيق:" وربما شبَّهوا بثلاثة أشياء كما قال البُحْتَري:

كأنمـــا يبســـم عـــن لؤلـــؤٍ مـــنظم، أو بـــردٍ، أو أقـــاح

(١) يُنظر: "لسان العرب"، (٢٨٦/١٥)، بتصرُّف.

فقول الشاعر: (أو) زيادة تشبيه، وإنْ لم يصحّ من جميع المشبَّه بها، إلاّ شيء واحد من جهة الحكم في "أو". ومن النَّاس من يرويه:

كأنَّمـــا يبســـم عـــن لؤلـــؤٍ أو فضـــة، أو بـــردٍ، أو أقـــاح

وهي زعموا رواية أكثر أهل الأنَّدلس والمغرب؛ فيكون حينئذٍ الثَّغر مشبَّها بأربعة أشياء، وقد تقدَّم أبو تمَّام، فقال:

وثنايَـــاكِ إنَّهـــا إغـــرِيضُ وَلآلٍ تُـــومٌ وبـــرْقٌ وَمِـــيضٌ

فشبَّهها بثلاثة أشياء حقيقة؛ لأن حكم الواو غير حكم "أو" لا سيَّما وقد أتى التَّشبيه بغير كاف ولا شيء من أخوتها، فجاء كأنَّه إيجاب وتحقيق"[1].

فالبحتري شبه أسنان صاحبته بأحد ثلاثة أشياء، فراء يرى أسنانها كاللؤلؤ المنتظم، وآخر يرى أسنانها كحبات البرد، وثالث يررها كأوراق الأقحوان أو الورد، أما أبو تمام فقد صهر أوصافه الثلاثة في بوتقة واحدة لتشكل مشبهًا به واحدًا، فأسنان صاحبته هي البرد واللؤلؤ والبرق في آن واحد، فالواو لمطلق الجمع، فبيت البحتري يدل على زيادة التشبيه، أما بيت أبي تمام فيدل على الإيجاب والتحقيق، غير أن الباحث يختلف مع ابن رشيق في تفضيله بيت البحتري، والعكس في التفضيل أحظى.

وممَّا لا شك فيه أنَّ كل مَن أتى بعد الرُّماني، فهو عالة عليه؛ لأنَّ قول ابن رشيق: (وتحقيق)، هي كلمة مستخلصة من كلام الرُّماني، حيث قسَّم الرُّماني التَّشبيه إلى أقسام، إلى حسن وقبيح، وقال في موضع آخر ينقسم إلى تقدير وتحقيق، فجاءت -تحقيق- هذه القسمة هنا، فابن رشيق نقلها عن الرُّماني، ولكنْ ما الَّذي يقصده الرُّماني بالتقدير والتحقيق؟، لم أجد هذا في "النُّكت"، فوجدت أنَّ ابنَ رشيق نقل عن الرُّماني من كتاب آخر، فهو الَّذي اطَّلع على قوله ونقله إلى مَن جاء بعده، وعلى كلٍّ؛ فابنُ رشيق نقل عن الرُّماني أنَّ الَّذي يأتي على التَّقدير هو التَّشبيه من وجه دون وجه، والَّذي يأتي على التحقيق -وهو موضع استشهاده بالشَّاهِد- هو التَّشبيه على

(١) "العُمْدَةُ"، (١/٤٧٦، ٤٧٧).

الإطلاق، كتشبيه الشَّيء بمثله إذا كان مثله على السَّواء، وقد قال ابن رشيق:" وقال في موضع آخر[1]: التَّشبيه على ضربيْن والأصل واحد: فأحدهما التَّقدير، والآخر التَّحقيق؛ فالَّذي يأتي على التَّقدير التَّشبيه من وجه واحد دون وجه، والَّذي يأتي على التَّحقيق التَّشبيه على الإطلاق، وهو التَّشبيه بالنَّفس، مثل تشبيه الغراب بالغراب..."[2].

فعلى ذلك أصبح تشبيه أبي تمَّام للثَّنايا بثلاثة أشياء هي على التَّحقيق، وهي على مثلهم على السَّواء، فلا فرق إذن بين ثنايا المحبوبة والبرد، ولا فرق بينها وبين اللُّؤلؤ، ولا فرق بينها وبين وميض البرق، وهذا التَّشبيه يسمَّى تشبيه الجمع مشبَّهات متعدِّدة لمشبَّه واحد، قال الخطيب:" وإنَّ تعدّد طرفه الثَّاني أعني المشبَّه به دون الأول، سُمِّي تشبيه الجمع"[3]، والتَّحليل للبيت يكشف ذلك التَّرابُط في الأوصاف على الإيجاب والتَّحقيق.

- **الشَّاهِد الثَّالث والعشرون [4]، وقال:**

لئنْ جَحَدْتُكَ معروفًا مننتَ به إِني لَفي اللُّؤْمِ أحْظى مِنْكَ في الكَرَمِ [5]

---

(١) يقصد الرُّماني، لأنه ينقل عنه كثيرًا خاصة في هذا الباب ومن كُتب أخرى غير النكت، فالرُّماني جعل التشبيه من أبواب البلاغة الثمانية، وكل من أتى بعده فهم عيال عليه، يقتطفون من ثماره، حتى جاء الشيخ عبد القَاهِر، فقُلبت الكفة لصالحه ، والمحزن حقًا هو فقدان تلك الكتب القيمة، فكيف لو وصلتنا، فالحمد الله على كل حال.

(٢) "العُمْدَةُ"، (١/٤٧٠).

(٣) "الإيضاح"، (٤/٨٩).

(٤) "العُمْدَةُ"، (١/٤٨٤).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٢١٨)، ومطلع القصيدة:

أبا سَعيدٍ وما وَصْفي بِمُتَّهَمٍ على الثَّناءِ ولا شُكْري بمُخْتَرَمِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الذي يلي المطلع، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف.

وأسند ابن رشيق هذا الشَّاهِد لابن المهدي يعتذر فيه للمأمون، ورجعت لديوان أبي تمَّام فوجدت البيت ولكنه بألفاظ تختلف شيئًا بسيطًا(٥)، والذي يرجحه الدارس أن البيت لأبي

شبَّه التصاق صفة اللُّؤم به حال إنكاره وجحوده وعدم اعترافه بإحسان الممدوح، بالتصاق صفة الكرم في الممدوح حال مِنَّته ونعمته وبذله، وهذا تشبيه مركب بمركب، وحال وما فيها من الأوصاف، بحال أُخرى وما فيها، والتَّشبيه منه ما لا يصحُّ فصل الأجزاء عن بعضها بما يقابلها من الطَّرف الآخر، ومنها ما يصحُّ، ولكنَّ هذا البيت لا يصحُّ فصل الأجزاء؛ لأنه لا يُقال: الجحود مقابل المنة، واللُّؤم مقابل الكرم، ولكنَّها حال من التصاق صفة بشخص بالتصاق صفة بشخص آخر، ووجه الشبَّه مدى قوة التَّجاذب الحاصل بين الصِّفة من جهة وصاحبها من جهة أُخرى، وهذا الَّذي أراده أبو تمَّام –والله أعلم–، فهو تشبيه وقع بين ضدَّيْن مختلفيْن، وفي ذلك قال الخطيب القزويني –عليه رحمة الله– :"واعلم أنَّ الشبَّه قد ينتزع من نفس التَّضاد؛لاشتراك الضدَّيْن فيه،ثم ينزل منزلة التَّناسب بوساطة تمليح؛أو تهكُّم؛فيقال للجبان: ما أشبَّهه بالأسد،وللبخيل هو حاتم"[1]، وعقَّب الصَّعيدي –عليه رحمة الله– على الخطيب، ورأى بأنَّ الأحسن تنزيل التَّضاد منزلة التَّناسب أولًا؛ ثم ينتزع وجه الشبَّه من التَّضاد بعد هذا التَّنزيل؛ أي عكس كلام الخطيب، والدَّارس يوافق الصعيدي في ذلك، فالجمع بين المتضاديْن لعلَّة المناسبة أولًا، ثم ينتزع وجه الشبَّه من نفس التَّضاد، ، ثم قال:" كان الأحسن تقديم هذا على ما قبله؛ لأنَّ الَّذي يحصل أولًا تنزيل التَّضاد منزلة التَّناسب؛ ثم يُنتزع الشبَّه منه بعد هذا التنزيل، والمراد بالتضاد مطلق المقابلة "[2]. وعلى هذا، فشاهد أبي تمَّام يُنزَّلُ منزلة المتضاديْن لعلَّة المناسبة أولًا، ثم ينتزع وجه الشبَّه من نفس التَّضاد؛ بواسطة التَّمليح، فأبو تمَّام في مشهدٍ مدح وليس

لأبي تمَّام.

(١) "الإيضاح"، (١٣٠/٤).

(٢) "بغية الإيضاح"، (ص:٤٥٣).

ذمّ، فإيراده القبيح في صورة شيءٍ مليح هي الَّتي أضفت عل الصُّورة الملاحة والاستظراف، وهذه عادة إمام الصَّنْعَة.

وقد استشهد ابن رشيق به على أنَّ التَّشبيه يقع بين الضدَّيْن والمختلفيْن، وعلى ذلك قد يكون الغالب في هذا التَّشبيه بين الضدّيْن تمثيلي متعدِّد، ويكون التَّشبيه بين المختلفيْن تمثيلي مركَّب، ولعلَّ ابن رشيق أراد ذلك –والله أعلم–، ويُحيل في ذلك كلِّه للرُّماني، فقد ذكر الرُّماني أنَّ هذا التَّشبيه لا يُقال إلا بتقييد وتفسير، ويقصد من ذلك أنَّه إمَّا تشبيه تمثيلي من أجزاء متعدِّدة ومثَّل له بالعسل في الحلاوة، والصّبر في المرارة، وإمَّا تمثيلي مركَّب، لا يمكن الفصل بين أجزائها، وكأنَّه يميل إلى أنَّ شاهد أبي تمَّام من المتعدِّد، والدَّارس يرى خلاف ذلك؛ لأنَّه تشبيه صورة بصورة، ولا يمكن الفصل بينهما، حتى لو سُلِّم جدلًا الفصل بين الأجزاء، فإن الصُّورة في المركب أحظى بالقبول منها في المتعدِّد في هذا المقام، فإن المقام إذا اقتضى التعدد كان المتعدد أولى بالقبول، وعلى كل حال فبعد أنْ ذكر ابن رشيق شاهد أبي تمَّام وشاهد أبي نواس، وصف كل ذلك الضرب من التَّشبيه في هذيْن الشَّاهِديْن، فقال ابن رشيق:"وقد يقع التَّشبيه بين الضدَّيْن والمختلفيْن: كقولك:"العسل في حلاوته كالصبر في مرارته، أو كالخل في حموضته"، قال أبو الحسن الرُّماني: وهذا الضرب من التَّشبيه لا يُقال إلاَّ بتقييد وتفسير، ومن هذا النوع الَّذي ذكره الرُّماني قول ابن المهدي[1]للمأمون يعتذر:

لئنْ جَحَدْتُكَ معروفًا مننتَ به إني لَفي اللُّؤْمِ أحْظى مِنْكَ في الكَرَمِ

وكذلك قول أبي نواس:

أصبح الحسن منك يا أحسن الأمـ ـة يحكي سماجة ابن حبيش

يريد أن هذا غاية كما أن ذلك غاية"[2].

(١) سبق الحديث بأنَّ هذا البيت لأبي تمَّام، (ص:٩٨).

(٢) "العُمْدَةُ "، (٤٨٣/١، ٤٨٤).

- **الشَّاهِد الرَّابع والعشرون** [1]، **وقال**:

ومَسَـــافَةٍ كَمَسَـــافَةِ الهَجْـــرِ ارْتَقَـــى في صَـدْرِ بـاقي الحُـبِّ والبُرَحَـاءِ[2]

شبَّه الطَّائي بُعد الطريق والمسافة النَّائية والبعيدة الَّتي اجتازها لمقابلة الممدوح، ببُعد حبيب مهجور، وإن قرب حبيبه منه؛ والحب باقي في صدره، فالصُّورتان مسافة طويلة، والحالتان والطَريقتان فيهما من التَّعب والضِّيق والشِّدة، وبلوغ أقصى الغاية في ذلك، ووجه الشبَّه غاية الطَّمع في الوصول مع استصحاب الشِّدة والضِّيق، وهذا قدر خارج عن المعتاد، وهذا شاهد على أنَّ التَّشبيه والتَّمثيل يقع مرة بالصُّورة والصِّفة ومرة بالحالة والطريقة، ويخرج عن التَّسوية إلى القدر الخارج عن حدِّ الاعتدال، والخروج عن المتعارف.

وعلى هذه الصِّفة استشهد به ابن رشيق في تأييده للقاضي الجرجاني، عندما جعل التَّشبيه والتَّمثيل يقع مرة بالصُّورة والصِّفة، وأخرى بالحالة والطَّريقة، فشاهد أبي تمَّام لا يدلُّ على التَّسوية بين المسافتين في القدْرِ والزمانِ والصُّورةِ؛ أي الحال الأولى من حالات التَّشبيه والتَّمثيل الَّتي ذكرها القاضي، بل يدلُّ على إطالة المسافة في الهجر على القدر الخارج عن حدّ الاعتدال، والخروج عن المتعارف، فقول (مسافة الهجر) يزيد على ما يُعرف في أمثاله، وعلى ماجرت به العادة في أضرابه، كما يقول القاضي[3]. ولقد أثنى ابن رشيق على صاحب الوساطة، عندما نقد شاهديْن من الشِّعْر، جعل ابن رشيق شاهد أبي تمَّام يحذو في الطريقة والصُّورة والحالة، وهي قول أبي الطيّب وقول محمد بن عبد الملك الزَّيات، وفي هذه المسائل يقول ابن رشيق:" قال الجرجاني: التَّشبيه

(١) المصدر نفسه، (٤٨٥/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٣/١)، ومطلع القصيدة:

قَـــدْكَ انَّئِـــبْ أَرْبَيْـــتَ فـــي الغُلَـــوَاءِ كَـــمْ تَعْـــذِلُونَ وَأَنْـــتُمُ سُـــجَرَائِي؟!

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن عشر ، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن حسَّان الضبي وكان مدح بهذه القصيدة يحيى بن ثابت.

(٣) "الوساطة"، (ص:٣٩٠)، بتصرُّف.

والتَّمثيل يقع مرة بالصُّورة والصفة، وأخرى بالحالة والطريقة. اعتذر بذلك عن قول أبي الطيّب:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب

أنَّه إنما أراد وقوفًا خارجًا عن المتعارَف، وأنشد:

رب نيل أمد من نفس العا شق طولًا قطعته بانتحاب

فهذا –والله– هو النَّقد العجيب؛الَّذي غفل النَّاس عنه، بل عموا وصموا...، ومثله قول أبي تمَّام:

ومَسَافَةٍ كَمَسَافَةِ الهَجْرِ ارْتَقَى في صَدْرِ باقي الحُبِّ والبُرَحَاءِ"[1].

لم يصف ابن رشيق نقد القاضي إلاَّ بعد أن اطَّلع على ما كتبه، وعلى ذلك لا بدَّ من إحضار نصَّ القاضي بأجمعه حتَّى يتمّ تصوُّر إعجاب ابن رشق بكلامه، قال القاضي:" وقوله:

بَليتُ بِلى الأطلالِ إنْ لم أقِفْ بها وقوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُرْبِ خاتَمُهْ

قالوا: أراد التَّناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره؛ وكم عسى هذا الشَّحيح بالغًا ما بلغ من الشُحّ، وواقعًا حيثُ وقعَ من البُخل أنْ يقف على طلب خاتمه، والخاتَم أيضًا ليس ممَّا يَخْفى في التُرْب إذا طُلِب، ولا يعسرّ وجوده إذا فتّش. وقد ذهب المحتجّون عنه في الاعتذار له مذاهبَ لا أرضى أكثرها، وأقرَبُ ما يُقال في الإنصاف ما أقوله –إن شاء الله تعالى–: أقول إنَّ التَّشبيه والتَّمثيل قد يقع تارةً بالصُّورة والصِّفة، وأخرى بالحال والطَّريقة؛ فإذا قال الشاعر وهو يريدُ إطالة وقوفه: إني أقف وقوفَ شحيحٍ ضاع خاتَمه، لم يُرِد التَّسوية بين الوقوفيْن في القَدْر والزمان والصُّورة، وإنما يريد لأقفَنّ وقوفًا زائدًا على القدْر المعتاد خارجًا عن حدّ الاعتدال، كما أنّ وقوفَ الشحيحِ

(١) "العُمْدَةُ"، (٤٨٤/١، ٤٨٥)،ويُنظر: "الوساطة"، (ص:٣٩٠). ويُنظر:"ديوان"، أبي تمَّام،(٣٩٠/٤)، وروايته:"بسطتْ إليَّ"، .

يزيدُ على ما يُعرَف في أمثاله، وعلى ما جرت به العادةُ في أضرابه، وإنما هو كقول الشِّعْر:

رُبّ ليـلٍ أمـدّ مـن نفَـسِ العـا شِـقِ طـولًا قطعْتُـه بانتِحـابِ

ونحن نعلم أنّ العاشق بالغًا ما بلغَ لا يمتدّ نفسُه امتِداد أقصر أجزاءِ الليل، وأنَّ السَّاعة الواحدة من ساعاته لا تنقضي إلاَّ عن أنفاسٍ لا تُحصى؛ كائنةً ما كانت في امتدادها وطولها، وإنَّما مرادُ الشاعر أنَّ الَّليل زائدٌ في الطُّول على مقادير الَّليالي كزيادة نفَسِ العاشق على الأنَّفاس؛ فهذا وجهٌ لا أرى به بأسًا في تصحيح المعنى، وإن كنتُ لا أرى أن يؤخَذ الشَّاعر بهذه الدَّقائق الفلسفية ما لم يأخذْ نفسَه بها، ويتكلّف التعمُّلَ لها، فيؤخَذ حينئذٍ بحكمه، ويُطالَب بما جنى على نفسه"[1]. وقد ذكر القاضي هذا كلَّه في سياق مؤاخذة العُلماء على أبي الطيّب، فقام بالردِّ والاعتذار، وهذه بيَّنها ابن رشيق بقوله: واعتذر بذلك، فهذا النَّقد العجيب هو الَّذي أثنى عليه ابن رشيق، وبالغ في وصفه بأنَّ النَّاس غفلوا عنه، بل عمو وصموا.

وعندما وافق ابن رشيق القاضي في هذا النَّقد الموضوعي، وافقه في أمرٍ آخر؛ هو أنَّ القاضي لا يفرِّق بين التَّشبيه والتَّمثيل على حدِّ الُّلغويين، فعطف التَّمثيل على التَّشبيه، وجعل لهم فعلًا مفردًا ؛(يقع)، كأنَّ وقوعهما في لحظة واحدة، يدلّ على التَّرادف لا التضاد في المعنى، فليس المراد هنا التَّمثيل عند ابن رشيق الَّذي ذكره آنفًا بمعنى المماثلة عند غيرهم، كالكناية مثلًا عند العسكري، أو الاستِعَارة التَّمثيلية عند الشَّيخ عبد القَاهِر. ووافق ابن رشيق القاضي في مسألة التَّرادف في المعنى، فكلٌ بمعنى الآخر، ولم يفصِّل بين التَّشبيه والتَّمثيل إلاَّ أنَّ الشَّيخ عبد القَاهِر جعل التَّشبيه: تشبيهًا غير تمثيلي، والتَّمثيل: تشبيه تمثيليًا، وهذه مسألة قد طُرِقت سابقًا ،لكنَّ الوقوف عليها هنا لها شأنٌ آخر في تأييد ابن رشيق للقاضي في هذه القضية البيانية، وابن رشيق قامة

(١) "الوساطة "، (ص:٣٩٠).

في النَّقد بالحجة والبرهان، ولا يضرُّه مخالفة القاضي فقد خالفه في أشياء غيرها، لكنَّه سلطان العِلم الَّذي يجعل الموضوعية قانون الصحة.

- **الشَّاهِد الخامس والعشرون** [1]، **وقال:**

بَســـطَتْ إليـــك[2] بَنَانـــةً أُســـروعا تَصِـفُ الفِـرَاقَ ومُقْلَـةً يُنْبُوعـا[3]

شَّه الشَّاعر بنانة المحبوبة المخضوبة بالحنَّاء في قوله (البنانة) واحدة البنان؛ وهي الأصابع، بـ(الأسرّوع): واحد الأساريع، وهي دود أحمر يكون في الرَّمل، فكأنَّه يقول هذا أحسن البنان بياضًا وطولًا واستواءً، ولِينًا ودِقَّة، وحمرة الرأس، ويُشبه أطراف أصابع النِّساء بالأسرّوع، وهذه لحظات الفراق بين الحبيب ومحبوته، وما يكون فيها من جيشان النَّفس، وانسكاب العبرات، وهذا تشبيه مُحدَث يحاكي القديم، وقد رغب عنه الشُّعْراء استبشاعًا له.

واستشهد به ابن رشيق على أنَّ القدَّماء أتت بتشبيهات رغب المولّدون إلاَّ القليل عن مثلها استبشاعًا لها، وإن كانت بديعة في ذاتها، واستشهد بقول امرئ القيس:

وتعطـو بـرخص غـير شـثن كأنـه أسـاريع ظـبي أو مسـاويك إسـحل

ثم سرّد أبياتًا كثيرة في ذات المعنى، غير أنَه لـمَّا ذكر شاهد أبي تمَّام قال فيه:"...وقرب هذا عنده وهو مدح، من قول حسان في الهجاء:

وأمـــــك ســـــوداء نوبيـــــة كـــــأن أناملهـــــا الحنظـــــب

إذ كانا جميعًا من خشاش الأرض"[1].

---

(١) "العُمْدَةُ "، (٤٩١/١).

(٢) والبيت في ديوان التَّبْريزي:"بسطتْ إليَّ".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٠/٤)،والشَّاهِد البلاغي هنا هو مطلع قصيدته التي يُعرِّض بإسحاق بن إبراهيم المُصعبي، وهي من البحر الكامل، وبعده يقول:

كـــادَتْ لِعرْفـــانِ النَّـــوى أَلفاظُهـــا مـــنْ رقـــةِ الشَّـــكوى تكـــونُ دُموعـــا

بـــل صـــوتُ عاذلـــةٍ عرانـــي عَـذْلٌ لعمركَ لـوْ عَـذَلْتَ سَمِيعا

قول ابن رشيق: وقرب هذا عنده وهو مدح؛ أي أنَّ أبا تمَّام قرُب بتشبيه الأصابع المخضوبة بالأسرّوع وهي الدُّودة، من تشبيه حسان، فتشبيه حسان أناملها بالحُنْظُبُ وهو ضرب من الخنافس فيه طول[٢]، فالدودة المخضوبة في بيت أبي تمَّام والخنفساء الطويلة في بيت حسان كل تلك تخرج من خشاش الأرض، فقرب التَّشبيه، ولم يرغب أبو تمَّام في مجاراة الأقدمين، على عكس ابن المعتز الَّذي يشبَّه البنان بأغصان الفضَّة، فمجاراة التَّشبيهات القديمة والجاهلية، منها ما هو حسنٌ صواب مؤثِّر وخلاَّب، يأسرّ الفؤاد من أول سماع له، وهذه الَّتي يحاكونها كما فعل بشار، وهناك تشبيهات لم يرغب المولّدون في تقليدها ولا مجاراتها، ولا يرغبون فيها أصلًا؛ لطبيعة الأوائل الَّتي تعتريها الجلافة والخشونة، وما عليه طبيعة المولّدين من الحضارةفي القصور والمنتديات، والحدائق، فالنَّفس الشَّاعرية تتغيَّر وتتبدَّل على مرّ السنين، فمثَّل هذه الأسروعة كالذُّباب في أبيات عنترة وغيرها كثير، لكن في المقابل يتبيَّن أن أبا تمَّام حاكى امرأَ القيس، وجاراه في تشبيهه البنان بالأسرّوع، ولم يستبشع ذلك.

(١) "العُمْدَةُ"، (١/٤٩٠-٤٩٢).

(٢) "لسان العرب"،(٤/٢٤٨).

المطلب الثَّاني: "رؤية ابن رشيق الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام"

لا شكَّ أنَّ باب التَّشبيه في (العمدة) قدَّم ابن رشيق له هذه الأمثلة البيانية في صور متّفقة مختلفة، وهنا محور الحديث عن الجانب الفكري لديه وعن منهجه في تناول التَّشبيه، فتلك العقلية الفذَّة لابن رشيق في صورة القرن الخامس الهجري مع عدم اكتمال البنية البلاغية والنَّقدية تجعل التأليف يسير في ثبات، ثمَّ لا أنسى أنَّ عقلية الرُّماني وقدامة رحلة مع كل جيل، ومن جانب آخر فقد فاجأ ابن رشيق العُلماء بآراء استفرد بها، ولم يقل بها أحد قبله، ولا يزال العُلماء بين مؤيِّد لها ومخالف، وسيأتي الحديث عنها.

وقبل كلِّ شيء، فقد بوَّب ابن رشيق في كتاب العمدة بابًا سماه: باب التَّشبيه، فحدَّ التَّشبيه، وذكر فائدته، وأنواعه من حيث الحُسن والقبح، وما يراه من أفضله، وبيان سبيله وأصله، من حيث كونه بالكاف أو كأنَّ وأمثالهما، وحال كونه مفردًا أو متعدِّدًا، وكذلك بدون أداة التَّشبيه، والتَّشبيهات العُقم الَّتي لم يسبق إليها أحد –لا أعني الشَّواهِد ولكن الحدّ بذاته– وعلى من يقرأ هذا الباب، أنْ يجلَّ قدره ويرفع مكانته، فقد أراح مَن بعده.

وقد استفاد ابن رشيق من قدامة والرُّماني والقاضي الجرجاني، وما سبق من الشَّواهِد والمطالب كافٍ عن ذكر آرائهم واقتفاء آثارهم، وهذا الاهتمَّام منه لباب التَّشبيه، ليس غريبًا منه، فهو قاعِدَّة علم البيان، وكل محاسن الكلام عنده تقوم عليه، فهو إذًا ركيزة لا يتأتَّى إلاَّ بهذا التَّفصيل العجيب، يردفه ببيان وتحليل للشَّواهد، بسجيةٍ أدبيةٍ رائعةٍ.

ومن غريب الأمر أنَّ ابنَ رشيق أدخل التَّشبيه في المجاز، حيث قال في باب المجاز:" فصار التَّشبيه والاستِعَارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز"(١)، وقال مرةً أخرى:" وأمَّا كون التَّشبيه داخلًا تحت المجاز؛ فلأن المتشابهيْن في أكثر الأشياء إنَّما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح، لا على الحقيقة"(٢).

وتبع ابنُ الأثيرابنَ رشيقٍ في ذلك، فرجَّح دخول التَّشبيه في المجاز، فجعل التَّشبيه أحد أقسام المجاز، وعلى هذا قال:" إنَّ المجاز ينقسم إلى توسُّع في الكلام وتشبيه واستِعَارة ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثَّلاثة، فأيّها وجد كان مجازا"(٣)، وممَّن يؤيِّد مذهبه من المعاصرين الدكتور أحمد مطلوب الَّذي عدَّ التَّشبيه من المجاز، فقال:"والحقّ أنَّ التَّشبيه مجاز؛ لأنَّه يعتمد على عقد الصِّلة بين الشيئيْن، أو أشياء لا يمكن أنْ تفسرّ على الحقيقة، ولو فسرّت كذلك لأصبح كذبًا، وهو الفن الكثير الاستعمال في كلام العرب، ويبدو أن عدم الانتقال فيه من كمعنى إلى آخر -كما في الاستِعَارة- دعاهم إلى إخراجه من المجاز الَّذي هو استعمال الكلمة في غير ما وُضِعت له أو إسناد أمر إلى آخر على سبيل التوسُّع"(٤).

ومسألة التَّشابه بين المشبَّه والمشبَّه به بالتَّقارب على المسامحة والاصطلاح وقصده التَّمازج في الصِّفة المشتركة، فالطَّرفان مقتسمان الصِّفة والبنية اللَّفظية لأداء المعنى النَّاتج عنهما، فبذلك يتقاربان على المسامحة والتَّأويل في وجه الشبَّه، فالعَلَاقة بينهما علاقة مترادفة غير منفكَّة، بل إن قاسمها المشترك التَّفاعُل والتَّمازُج وانصهار الطَّرفان بعضهما في روح بعض، وعلى ذلك "أدخل ابن رشيق التَّشبيه في المجاز

(١) العمدة، (٤٣٠/١).
(٢) المصدر السَّابق، (٤٣٠،٤٣١/١).
(٣) "المثل السائر"، (٣٤٣/١).
(٤) "معجم المصطلحات البلاغية"، أحمد مطلوب، (١٦٦/٢- ١٧٢)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.

لابتنائهما على المسامحة والتَّقارب في طبيعة العَلاقة المسوّغة في المجاز أو العَلاقة بين طرفيْ التَّشبيه الَّتي ساغ بموجبها إلحاق الفرع بالأصل أو النَّاقص بالتام"[1].

والَّذي يذهب إليه الدَّارس في هذه المسألة هو رأي جمهور البلاغيين والنُّقاد من "أن التَّشبيه لا يكون على وجه الاستِعَارة التَّحقيقية ولا الاستِعَارة بالكناية ولا التَّجريد"[2]، فالتَّشبيه ينزع إلى المبالغة في الوصف على الحقيقة، وليس فيه –كما يُقال– كذب وإخراج عن الحقيقة، فهو خارج عن المجاز، كما استقر الأمر عند المتقدَّمين؛ كعبد القَاهِر، فالتَّشبيه لا يستعمل كلمة في غير ما وُضِعت له على أصل اللُّغة.

وفي المطلب الأوّل استشهد ابن رشيق من شعر أبي تمَّام على مسائل التَّشبيه، وفي المطلب كفاية عن كل إعادة، فأبو تمَّام كالقاضي الَّذي يضع الأشياء في محلِّها، ولقد أكثر ابن رشيق في الثَّناء عليه وأطال، وتكفي أن تكون رؤيته في تشبيهات أبي تمَّام أنه يضع اللَّفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه، جاء ذلك في سياق حديثه عن شعر أبي تمَّام وأبي الطيّب، فأوضح رؤيته بشكل عام، فقال: "وقال بعض مَن نظر في شعر أبي تمَّام،وأبي الطيّب: إنَّما حبيب كالقاضي العدل، يضع اللَّفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه، بعد طول النَّظر،والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع: يتحرَّى في كلامه، ويتحرَّج؛ خوفًا على دينه"[3]، فهذه رؤيته الخالصة الموجزة.

وأمَّا التَّمثيل، فإنَّ ابنَ رشيق يعدُّه من قبيل الاستِعَارة، قال ابن رشيق: "ومن ضروب الاستِعَارة "التَّمثيل" وهو المماثلة عند بعضهم، وذلك أنْ تمثّل شيئًا بشيء فيه إشارة منه، نحو قول امرئ القيس، وهو أول مَن ابتكره، ولم يأتِ أملح منه:

(١) "البحث البلاغي والنقدي عند ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة"، محمد سليمان الصيقل (ص:١٤٥)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٥ هـ=٢٠٠٤م.

(٢) "الإيضاح"، (١٦/٤).

(٣) "العُمْدَةُ"، (٢١٥/١).

ومـــا ذرفـــت عينـــاك إلا لتضـــربي بســـهميك في أعشـــار قلـــب مُقتَّـــل

... فتمَّت له جهات الاستِعَارة والتَّمثيل ...ومعنى التَّمثيل اختصار قولك: مثل كذا وكذا"[1]، وهذا الحدّ للتَّمثيل الَّذي ذكره ابن رشيق عند علماء البلاغة المتأخِّرين -كالقزويني- يُطلق على الاستِعَارة التَّمثيلية أو المجاز المركب، وهو:" تشبيه إحدى صورتيْن منتَّزعتيْن من أمريْن أو أمور بالأخرى"[2]، بأن يكون وجه الشبَّه منتزعًا من مجموع الصُّورتين، وبعضهم يعني بالمماثلة الكناية كأبي هلال العسكري.

وتعريف قدامة للتَّمثيل-الكناية- يقترب من تعريف التَّمثيل—الاستِعَارة التَّمثيلية- عند ابن رشيق، فقال:" ومن نعوت ائتلاف اللَّفظ والمعنى: التَّمثيل وهو: أن يريد الشَّاعر إشارة إلى معنى، فيضع كلامًا يدلّ على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر، والكلام مُنبئان عمَّا أراد أن يشير إليه"[3]. وهذا يدلّ بالضرورة على أنَّ ابنَ رشيق استفاد من قدامة؛ لتوافقه معه في حدّ التَّمثيل، بل ونقل بعض الشَّواهِد منه، مع أنَّ قدامة لم يُدخِل التَّمثيل في الاستِعَارة كما فعل ابن رشيق،- وسيقف الباحث وراء تلك الحيثيات مع ابن رشيق وقدامة في الفصل الثَّالث -فصل الكناية-، ومع هذا كله لم يسْتَشْهِدُ ابن رشيق للتمثيل أو للماثلة من شعر أبي تمَّام، فاكتفى بذكر شواهد أخرى.

والمتأمِّل لمنهج ابن رشيق في التَّاليف البلاغي يجد أنَّه لم يكن مُتَعَصِّبًا لرأي ما؛ لأنَّ التعصُّب يُقصي الموضوعية، والتَّعصُّب يؤدِّي إلى التَّدليس، وهو أمينٌ،وواضحٌ في نسبة الآراء، وإذا قال، قال: عبد الكريم فهو -النَّهشلي-، يقصد أستاذه، وينقل عنه كثيرًا، ويختلف معه، بخلاف أبي هلال العسكري الَّذي لا ينسب الآراء إلى أصحابها،

(١) المصدر السابق، (١/٤٥٠-٤٥١).

(٢) "الإيضاح"، (٤/١٠٧).

(٢) "نقد الشعر"، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، (ص:١٥٨)، تحقيق: كمال مصطفى، النَّاشِر: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م.

ومن منهجه –رحمه الله– الإيجاز، فيوجِز العبارة، ويضغط على الألفاظ دون تكلُّف، فتخرج مختصرة قد أدَّت غرضها؛ لأنَّه يُراعي مقتضى الحال، خاصَّة في باب التَّشبيه الَّذي أولاه عنايته.

وأجده كثيرًا ينقل آراءً لغيره، فهو ينقل بأمانة علمية، فإنَّ ناسبه ذلك الرأي، غالى في مدحه، ولم يرَ غيره، وإنْ رأى فيه قصورًا، سدَّده برأيه السديد، فمن أولئك العُلماء الذين نقل عنهم: ابن المعتز، وقدامة، وابن قُتيبة، والرُّماني، والقاضي الجرجاني،والآمِدِيّ، والعسكري، وغيرهم. والمتأمِّل لمستدركات ابن رشيق وتعليقاته على مَن سبقه خاصَّة في بعض الشَّواهِد، يشهد له بطول الباع، ودِقَّة النَّظر، وملحوظاته العِلْمِية دقيقة المسلك، فهو معاصر لابن سنان الخفاجي وعبد القَاهِر.

ومن منهجه القويم في العمدة أنَّه لا يخرج من باب في البلاغة إلى باب آخر حتى يستكمله بكل ما فيه، فلا يحشد أثناءه ممَّا ليس منه إلاَّ قليلًا، ومن منهجه أنه يذكر الاعتراضات الَّتي قد تُقال بجرأة ووضوح في تسلسلٌ منطقيٌ، وهو ذا قدرة عالية على الأخذ والردّ، ويسرّد الشَّواهِد الكثيرة ويوازن بينها، ومن تلك الشَّواهِد: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشِّعْر والنثر، وهذا يدلّ بالضرورة على سعة علمه، وقوة قريحته، ففضله واضح على من بعده.

ومن منهجه أنَّه يعتمد على فهم قارئه في الاستنباط، والقدرة على سلّ الفكرة، فبعض الأحيان يسرّد الشَّواهِد دون تحليل لها، ثمَّ إنَّ ابن رشيق يقبل من الشِّعْراء ما لم يقبله غيره من النُّقاد، لأنَّه شاعر، فيبدأ بالقدَّماء، حتى يصل إلى المحدثين، هذا منهجه بإيجاز.

والمتأمِّل في باب التَّشبيه يرى أنَّ ابنَ رشيق لم يخرج من هذا الباب حتى استوفاه حقه من التَّحْدِيدات، والشَّواهِد والتَّفْريعات، وبهذا التفصيل العجيب لم يرَ الباحث ممَّن سبق ابن رشيق قد جاراه على هذا الوصف، فحقًا قد ردَّ كل شكلٍ إلى شكله.

المبحث الرَّابع
" شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند عبد القَاهِر الجرجاني "

- **المطلب الأوّل: "شاهدا تنزيل الوجود منزلة هي أدون من العدم".**
- **المطلب الثَّاني: "شواهد التَّمثيل وأسباب تأثيره في النَّفس، والمعاني الَّتي يجيء التَّمثيل في عقبها":**
  - أولًا : أسباب تأثير التَّمثيل في النَّفس.
  - ثانيًا : وقوع التَّشبيه أو التَّمثيل الغريب واللَّطيف بين الطَّرفين المتباعدين المتنافرين.
  - ثالثًا : مجيء التَّمثيل بأشياء عِدَّة من الشَّيء الواحد.
  - رابعًا : أحق أصناف التَّعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يُجدي عليك.
- **المطلب الثَّالث: "فرق بين التَّشبيه والاستِعَارة، وما يجوز فيه إسقاط ذكر المشبَّه".**
- **المطلب الرَّابع: "شواهد مسائل المعاني التَّخيلية"**
  - أولا : شاهد القسم التَّخيلي وأنَّه مفتن المذاهب.
  - ثانيًا: شواهد التَّخييل الشَّبيه بالحقيقة.
  - ثالثًا :شاهد تأُول الصِّفة من غير علَّة يضعها الشَّاعر ويختلقها.
  - رابعًا : شاهد حسن التَّعليل التَّخيلي الشَّبيه بالسِّحر.
  - خامسًا :شاهد أنَّ للمعنى والفعل علَّة من علَّة أخرى.
  - سادسًا : شاهد إفصاح التَّشبيه وادِّعاء الحقيقة في المجاز.

المطلب الأوَّل: " شاهدا تنزيل الوجود منزلة هي أدون من العدم "

استشهد عبد القَاهِر في هذا المطلب على تنزيل الوجود منزلة هي أدون من العدم، ومدار الاستشهاد في عرضه وتحليله بالنَّظر لموقعه من القضيَّة البيانية الَّتي سيتم سبر أغوارها وكشف مناط الاستشهاد منها، وبالنَّظر هنا، وجدت الشَّواهِد تدلّ على تشبيه محسوس بمعقول، والشَّاهِدان جاءا في سياق حديث عبد القَاهِر عن مثال (الأصل الثَّالث: وهو أخذ الشَّبه من المعقول للمعقول)، ثم بيَّن أنَّ أول ذلك وأعمّه تشبيه الوجود وهو المحسوس من الشيء مرةً بالعدم؛ وهو العقلي، ومرةً تشبيه العدم بالوجود؛ أي العكس، والشَّاهِدان هما:

الشَّاهِد السَّادس والعشرون [1]، قال أبو تمَّام:

وأنتَ أنزرُ مِنْ لا شيءَ في العَدَدِ[2]

هنا تشبيه محذوف الأداة ووجه الشَّبه، فالمشبَّه في قوله (أنت)، والمشبَّه به (أنزر من لا شيء في العدد)؛ أي أقلّ وأتفه ليس من أي شيء فحسب؛ ولم يشبِّهه بالعدم فقط؛ إنما شبَّهه بالأقلّ من العدم المحض، فالدَّرجة الَّتي منحها له أبو تمَّام لا يُدرِكها العقل، وليس لها وجود حسي خارجي، بل العقلي المحض، فهنا شبَّه محسوس (أنت)، بمعقول (أقل من العدم)، فكأنَّ أبا تمَّام ألغى وجوده تمَّاما من المجتمع الَّذي يعيش فيه.

---

(١) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٧٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٥١/٤)، وصدر البيت:

أَفِـــيَّ تَـــنظِمُ قَـــوْلَ الـــزُّورِ والفَنَـــدِ

والشَّاهِد البلاغي هنا هو مطلع قصيدته التي قيلت في عُتبه، وقيل في محمد بن يزيد، وهي من البحر البسيط باب الهجاء، وبعده يقول:

أشَـرَجْتَ قَلْبَـكَ مِـنْ بُغْضِـي علـى حُـرَقٍ أَضـرُّ مِـنْ حُرُقـاتِ الهَجْـرِ فـي الجَسَـدِ

أَنحَفْتَ جِسْمَكَ حتَّى لو هَمَمْتُ بأَن ألهُو بصفعكَ يومًا لم تجدْكَ يَدِي !

وفي عجز البيت الثَّالث لا وجود لجوهره وحقيقته، فقذف به إلى الخيال، والَّذي لا يُرى ولا وجود له، فأصبح المعنى: (أنت وأقل من العدم سواء)، والعدم درجة في الغموض والاضمحلال، والأقل منه درجة أقل منه، وقد طلب الطَّائي له منزلة، فأوغل وأسرّف في ذلك، وهذا حاصل استشهاد عبد القَاهِر به.وهذا يذكِّر بأبيات الرَّاعي النُّميري، عندما هجا ابن الرِّقاع العاملي، فقال:

لو كنت من أحد يهجى هجوتكم يا ابن الرقاع، ولكن لست من أحدِ[1]

فقوله: (لست من أحدٍ)جعله والعدم سواء، وهي مبالغة، لكنَّها أيسر من قول أبي تمَّام (لا شيء في العدد). وبالموازنة يكون بيت الطَّائي أوجع من بيت الرَّاعي؛ لأنَّه استخدم (أفعل) التَّفضيل فأنزله درجة دون منزلة العدم، بينما الرَّاعي وضعه في منزلة العدم نفسه، وهذا الَّذي فعله الرَّاعي،فأراد المبالغة في حطّ الشيء والوضع منه وخروجه عن أن يُعتدّ به وهو متمكِّن في العادات، كما قال عبد القَاهِر، بعكس أبي تمَّام الَّذي أسرّف وتهوَّس.

وقد استشهد الشَّيخ عبد القَاهِر به على تنزيل الوجود منزلة هي أدون من منزلة العدم، فقال:" إنَّ تنزيل الوجود منزلة العدم؛إذا أُرِيد المبالغة في حطّ الشيء والوضع منه، وخروجه عن أن يُعتدّ به؛ كقولهم هو والعدم سواء،معروفٌ متمكِّن في العادات، وربما دعاهم الإيغال وحب السرّف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه؛حتى يقعوا في ضرب من التهوُّس كقول أبي تمَّام:

وأنتَ أنزرُ مِنْ لا شيءَ في العَدَدِ"[2]

وقصيدة الشَّاهِد من عيون شعر الطَّائي في باب الهجاء، إلاَّ أنَّ أبا تمَّام لم يكن يسلك فيها سبيل المتفحِّشين ولا المصرِّحين، بل التَّلميح عنده يُغني، فهو يهجو محمدًا

(١) "طبقات فحول الشعراء"، محمد بن سلام الجُمحي، (٥٠٣/٢)، شرح محمود شاكر، طبعة دار المدني بجدة.

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٧٦).

بن يزيد، وردّ عليه مقالة الكذب والزُّور الَّتي كانت مسلَّطة منه على الشَّاعر، فردَّ عليه أبو تمَّام بهذه الأبيات،والشَّاهِد مطلع القصيدة، وصدَّرها بتعجُّب الشَّاعر من المهجو وسخريته منه، وأنَّه لم يختر أحدًا يرميه بمقالة الفند والنِّفاق إلاَّ أبا تمَّام!!، فكأنَّ الشَّاعر وحاله يقول: لم تجد من الشُّعْراء تقول فيه كيت وكيت إلاَّ أنا، وهذا حاصل استفهامه التَّكذيبي الإنكاري في قوله (أنِّيَ تنظم؟؟)، والنَّظم: يدلّ على أنَّه إمَّا شعر أو نثر، ولذلك صدَّره بالجار والمجرور للدلالة على أنَّ أبا تمَّام هو المقصود وحده بذلك البهتان وليس غيره، ولينظر المتأمِّل ما في الأبيات من السُخرية والتَّهكُّم بصاحب القالة، ممَّا يجعل الإنسان يمسك فمه من شدة الضحك، فجاء إلى حتفه بنفسه، ويداك أوكتا وفوك نفخ، وفي مقولة الصولي:"كان أبو تمَّام لا يجيب هاجيًا له؛ لأنه لا يراه نظيرًا ولا يشتغل به"[(١)]، شيءٌ من المبالغة.

- **الشَّاهِد السَّابع والعشرون[(٢)]،وقال أيضًا:**

هَــب مَــنْ لــه شــيءٌ يُريــدُ حِجَابَــه ما بَــالُ لا شــيءٍ عليــه حِجَــابُ[(٣)]

شبَّه الشَّاعر المهجو بأنَّه (لا شيء)، وحذف أداة الشَّبه ووجه الشَّبه، وهذا تشبيه محسوس بمعقول، المشبَّه (المهجو) محسوس، والمشبَّه به (لا شيء) معقول، فشبَّهه بالعدمية، والشَّاهِد السابق شبَّهه بأقلَّ من العدمية، ففي هذا الشَّاهِد، يذكِّر بقول الرَّاعي النُّميري، بأنَّه أراد المبالغة في الحطّ من قدره والوضع منه، وخروجه عن أنْ يُعتدَّ به، وهو متمكِّن في العادات كما قال عبد القَاهِر، وعلى ذلك فالبيت ليس كما

(١) "أخبار أبي تمَّام"، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، (ص:٢٤١)، تحقيق:محمد عبده عزام، الناشر: دار الآفاق ببيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

(٢) يُنظر: "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٧٦).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٣١١/٤)، ومطلع القصيدة:

فــاضَ اللِّئــامُ وغاضَــتِ الأحسَــابُ واجتُثَّــــــــتِ العَلْيــــــــاءُ والآدابُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يهجو موسى بن إبراهيم الرَّافقي.

استشهد به عبد القَاهِر، وأنَّه يدلّ على إنزاله منزلة هي أدون من العدم، وفيه إيغال وسرف وتهوُّس، بل جعله هنا والعدم سواء، وهو ضرب من المبالغة، فقال -رحمه الله- :"...إنَّ تنزيل الوجود منزلة العدم؛إذا أُرِيد المبالغة في حطّ الشيء والوضع منه، وخروجه عن أنْ يعتدَّ به،كقولهم هو والعدم سواء،معروفٌ متمكِّن في العادات..."(١)، فمعنى الشَّاهِد أنَّ الشَّيء الموجود يحتاج إلى حجاب له ذلك كيفما شاء، ولكنَّ الغرابة من شيء لا موجود ولا حاصل يحتاج فوق ذلك إلى حجاب، فهذا الَّذي يستنكره النَّاس، ويُتعجَّب من فعله، فهو لا شيء، فكيف يُحجَب؟، والأبيات الَّتي تلي الشَّاهِد ترفده في معنى العدمية، فالصَّحراء عليها بوَّاب، والمطر بدون سحاب، والسَّراب يجيء بأفنية البيوت، وهذا كله يُعضِّد معنى الشَّاهِد، بأنَّ العدم عليه حجاب.

وهِجاءُ أبي تمَّام ينبؤُ عن فحولة الشَّاعر على النَّظم في الهجاء، واقتداره عليه، مع رصف المعاني بالتَّلميح دون التَّصريح، وهذا الهجاء مع حركة البحر الكامل الَّذي يلعب دورًا مهمًا في سهولة التغني بالقصيدة، وحركة حرف الرويّ مع حرفها الباء يضفي خصائص تُضاف إلى الغرض، والألفاظ المتطابقة البديعية في قوله (فاض وغاض)كل ذلك يجعل إدراك المعنى ممكِنًا وحاصلًا دون إغراق وإتعاب الفكر، فالشَّاعر استخدم التَّعريض بالمهجو، ممَّا ينبأُ عن الأدب الجمّ الَّذي يعلو أخلاق هذا الشَّاعر الخنذيذ.

وبعد صفحات من (الأسْرَار)، يفترض عبد القَاهِر سائلًا يسأله حول اتِّصال تنزيل الوجود منزلة العدم بالتَّشبيه، وقد استغرق السَّؤال صفحة كاملة بكل حمولاته وأجزائه، وهذه عادة الشَّيخ في طرح التَّساؤلات العِلْمِية والاستدراكات على كلامه؛ حتَّى يُفهم عنه مراده، وقد تناول السَّائل القصد من التَّشبيه في إثبات المعاني وأنَّه معدوم، فلا يثبت له فيه شبهًا في شيء، وحاصل الأمر نفي وجوده، وكذلك وصف

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٧٦).

الرَّجل بأنَّه (معدوم) أو أنَّه (ليس بشيء)، و(ليس بشيء)، و(أنَّه باق لك موجود) لمال يفنى ويثمر الذِّكر الحسن لصاحبه، وغيرها من الأوصاف ليست تشبيهًا، فقال الشَّيخ:" إنْ قال قائل إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود، ليس من حديث التَّشبيه في شيء؛ لأن التَّشبيه أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكمًا من أحكامه؛ كإثباتك للرجل شجاعة الأسد وللحجة حكم النور... لم يكن ذلك تشبيهًا"(١).

فأجاب عبد القَاهِر بثاقب الفكر وإنعام نظر بأنَّ حاصل ذلك الأمر وجوده في الظَّاهر فـ (موجود كالمعدوم) هذا تشبيه، و(شيء كلا شيء) و(وجود شبيه بالعدم) وهذا تشبيه أيضًا، فقال –رحمه الله–:"فالجواب أنَّ الأمر كما ذكرت، ولكن تتبَّعت فيما وضعته ظاهر الحال، ونظرت إلى قولهم موجود كالمعدوم وشيء كلا شيء ووجود شبيه بالعدم"(٢).

ثمَّ تناول السُّؤال بوجه آخر، وأعرض عن الإجابة الَّتي قد يتضايق منها السَّائل؛ لعدم إعماله الظَّاهر، فقدَّم له إجابة أخرى، وهي؛ أنْ يسير على التَّرتيب الَّذي حدَّده الشَّيخ، وهذا عمق الفِكر والتَّدرُّج في بناء الفكرة الثَّانية من الأولى والثَّالثة من الثانية؛ كارتباط الخرز في العقد، والترتيب الَّذي وضعه الشَّيخ في إعطاء معقول اسم معقول آخر يجيء على طريقيْن:

الأولى: تنزيل الوجود منزلة العدم؛ كجعل الموت عبارة عن الجهل.

الثَّانية: أنَّ أحد المعنييْن له شبَّه بالآخر؛ كتشبيه السؤال بالموت(٣).

(١) المصدر السَّابق، (ص:٨٧).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٨٨).
(٣) يُنظر : المصدر السَّابق، (ص:٨٨)، بتصرف.

ثم أشار الشَّيخ بعد هذه الحجَّة في تحقيق القول في اتِّصال التَّشبيه بهذه المسألة وعمق تناوله لها، وهذا "من قبيل المتعارف في كل لسان"[1]، فلم يقدِّم من المعاني والألفاظ ما دقَّ وغمض ولطف وأغرب، وما يغوص في طلبه لفكرته، ويجعل ذلك كلّه أساسًا لوضع قواعد القياس وتمهيدًا للَّبنات البلاغية، وهذا يدلّ بالضَّرورة الاتجَّاه الفكري عند عبد القَاهِر، وتأكيد فكرة التَّدرُّج في الصُّعود، وفهم الفكرة الأولى يهيِّئ لقبول الثَّانية والثَّالثة قبل الرَّابعة، حتى يصل إلى أعلى مقامات بغية البيان؛ وهو الإعجاز.

(١) المصدر نفسه، (ص:٨٨).

المطلب الثَّاني: "شواهد التَّمثيل وأسباب تأثيره في النَّفس، والمعاني الَّتي يجيء التَّمثيل في عقبها "

أولًا: أسباب تأثير التَّمثيل في النَّفس

وضع عبد القَاهِر فصلًا لتأثير التَّشبيه التَّمثيلي، إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت المعاني في معرض التَّشبيه التَّمثيلي، أو نقلت المعاني عن صورها الأصلية إلى صورته، فإنَّ التَّشبيه التَّمثيلي يُكسِب تلك المعاني البهاء والحلاوة، وحرَّك النَّفوس، فأحبتها وطلبت قربه والزُّلفى لديه، فالتَّشبيه التَّمثيلي يُلهِب المشاعر، ويكسو المعاني ألبسةً تختلف باختلاف موضوعات الشِّعْر؛ من مدح وذم واعتذار وغيرها، وله مع كل فنٍّ شكل يتشبَّث به ولا يرغب عنه، وعبد القَاهِر يجعل هذا ممَّا اتَّفق عليه العقلاء، وفي ذلك يقول :" واعلم أنَّ ممَّا اتَّفق العقلاء عليه، أنَّ"التَّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقِلت عن صورها الأصلية إلى صورته،كساهاأبهة، وكسبها منقبة،ورفع من أقدارها،وشبَّ من نارها،وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها،واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا،وقسرّ الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا.فإن كان مدحًا... وإنْ كان ذمًا...وإنْ كان حِجاجًا، كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر، وإنْ كان افتخارًا... وإنْ كان اعتذارًا..."[1]. وبعد ذلك عرَّف المراد من قوله بذكر شواهد عليه حتَّى بلغ هذا الشَّاهِد، فمجَّده وعدَّه من الحِجاج الَّذي برهانه أسطع، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وجعل هذا التَّشبيه تشبيهًا تمثيلًا، وقد أصبح فيما بعد شاهدًا (للتَّشبِيه الضِّمني)، وعلى كل حال، فقد يقع هذا الشَّاهِد موقع الحِجاج أو موقع الحكمة[2].

(١) المصدر السابق، (ص:١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر :"دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:٧٩).

- **الشَّاهِد الثَّامن والعشرون[1]، قال أبو تمَّام:**

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـــــرَ فَضِيْلَـــــةٍ طُوِيَـــتْ أَتَـــاحَ لَهَـــا لسَـــانَ حَسُـــود

لَـوْلَا اشـتعَالُ النَّـارِ فيمـا جَـاوَرَتْ مـا كـانَ يُعْـرَفُ طيـفُ[2] عَـرْفِ العُـود[3]

هذا النَّوع من التَّشبيه تُحذَف منه الأداة ووجه الشَّبه ويُكتفَى فيه بالتَّلميح لا بالتصريح، وهو من ضروب التَّشبيه الَّذي يسمِّيه البلاغيون المتأخِّرون: التَّشبيه الضِّمني ،ولا بدَّ أن يأتي عقب تمَّام المعنى الَّذي يقصده المتكلِّم، حتَّى يكون دليلًا له وبرهانًا عليه، فقال أبو تمَّام:

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـــــرَ فَضِيْلَـــــةٍ طُوِيَـــتْ أَتَـــاحَ لَهَـــا لسَـــانَ حَسُـــود

فـالمعنى الَّـذي قصـده الشَّـاعر وأراده بـان، وظهـر، وتمّ، واكتمـل علـى أحسـن القول وأتمّ المعنى، وهي مسألة دعائية تحتاج إلى دليل وحجة وبرهان؛ ليثبت الكلام في النَّفس وتقبله العقول، فالحجَّة على مَن ادَّعى، واليمين على مَن أنكر، فأبو تمَّام ادَّعى أنَّ الحسود من أسباب نشر الخير والفضيلة والبر؛ الَّتي نسيها النَّاس وتركوها ولم يبالوا بها، ولم يترك الشَّاعر أحدًايتأمَّل هذا البيت طويلًا حتَّى أردف بيتًا سُبِق إلى الأفهام قبل الآذان فألهبها، وأخرس الألسن عن الكلام وأقفلها، واحتارت الأذهان فألجمها، فإذا بالقلوب تنقاد دون أن تملك من أمرها شيئًا، حينها قال أبو تمَّام:

لَـوْلَا اشـتعَالُ النَّـارِ فيمـا جَـاوَرَتْ مـا كـانَ يُعْـرَفُ طيـفُ عَـرْفِ العُـود

فهنا يزول من العقل ما علّق بها من شكّ وريبة، واقتلع بمحجَّته جذر كل شبهة، فأصبح الشَّاعر مؤيّدًا على تلك الدَّعوى، وهي أنَّ الحاسد سبب من أسباب

---

(١) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١١٨).

(٢) ورواية الديوان عند التَّبْريزي:"طيبُ".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٧/١)، ومطلع القصيدة:

أرَأَيْـــتَ أيّ سَـــوَالف وخُـــدُودِ عَنَّـــتْ لَنَـــا بَـــيْنَ اللِّـــوَى فَـــزَرُودِ!

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والأربعون والسابع والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، ويستشفع بخالد بن يزيد.

نشر الفضيلة والبرّ بإعماله للحسد والوشاية في كل مكان، وخاصَّة أهل الفضل والإحسان. وهذا المعنى موجود في الحياة اليومية، ولكنَّ أبا تمَّام قد عرفه واستعمله في أبهى حلة وأجمل صورة، فالنَّار الَّتي هي مصدر الشرِّ والشرر والضرر، ومصدر كل البلاء والحرق، تأكل الأخضر واليابس ولا تُبقي منه شيئًا، وفي الجانب الآخر وبين تلك الأشجار والأوراق أعواد تُحرَق ولكن دخانها عطر زكي، وطعم جني، فهي أعواد زكية، لولا تلك النَّار الَّتي أخذت بزمام أمرها؛وأشعلت المكان بكيدها، لم يخرج من خلالها تلك الرَّوائح الجميلة، فكذلك صاحب الخير والعالم،وصاحب الخلق الجميل، ومَن يحبه النَّاس،تجد الحُسَّاد لا يتركوه، بل يوشون به،ويُعملون لدسّ كل ماهو ضرر عليه،والنَّتيجة هي نشر تلك السِّيرة العطرة، وتلك الأخلاق الكريمة، فلم تك تُعرف تلك الصِّفات وتلك الشِّيم وهذه الشَّمائل لولا الخصوم، وكما قال عبد القَاهِر:"وعطّرك بعرف عوده"[1]، فالتَّشبيه هنا يؤثِّر في النَّفس، ويأتي في صورة جميلة، وملمح لطيف، ويلمع صوته ليبذ الأصوات، ويُسكِّن النَّفوس، ويلهب المشاعر، وقد أظهر مكنون الحسن والزِّينة، فالتَّشبيه أتى بديعًا رائع الملامح بأوصاف مكتملة، ووجه الشَّبه: ظهور الفضيلة بأمرٍ شديد الضَّرر، فالمشبَّه أو الممثَّل هو حال الفضيلة، يتعرَّض لها الحسود بالنَّقيصة، فيذاع أمرها، والمشبَّه به أو الممثّل به هو حال العود، تشتعل فيه النَّار، فتكون سببًا في انتشار طيبه وظهور رائحته، فوجه الشبه المنتزَع بين الطرفيْن مجيء الخير من حيث يتوقَّع الضَّرر. ولقد أحسن الشَّاعر الصَّنْعَة فأحكمها، واستخدم جملة الشَّرط الَّتي تدلُّ على فكرة الإبهام وزمن المستقبل؟ إذ إنَّ الشرط ينبغي أن يكون عامًا في المستقبل، ولا معنى لذلك في الماضي الَّذي يكتسب تحديده من حدوثه قبل وقت التَّكلُّم، وعلى ذلك، فإنَّ الكلام بالصِّياغة النَّحوية تتكوَّن من فعل الشَّرط (أراد)، وجوابه (طويت)، فاكتملت العبارة بالفصل والجواب، وأخذت الجملة زُخرفها وازَّيَّنت.

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١١٩،١١٨).

ومن أحسن مَن تكلَّم عن هذا الشَّاهِد القاضي الجرجاني، فقد قال:"صدق والله وأحسن! كم من فضيلة لولم تستَتِرْهاالمحاسد، لم تبرحْ في الصدور كامنة، ومنقبةٍ لولم تُزْعِجْها المنافسة، لبقيت على حالها ساكنة! لكنَّها برزتْ، فتناولتْها ألسنُ الحسَّد تجلوها، وهي تظنّ أنها تمحوها، وتشهَرُها وهي تحاول أن تستُرَها؛ حتى عثَر بها مَن يعرف حقَّها، واهتدى إليها مَنْ هو أولى بها،فظهرت على لسانه في أحسن معرِض، واكتست من فضله أزينَ ملبس؛ فعادت بعد الخمول ناهة، وبعد الذبول ناضرة، وتمكَّنت من برِّ والدها، فنوّهت بذكره، وقدَرت على قضاء حقِّ صاحبها، فرفعت من قَدْره"(١).

فصل عبد القَاهِر بين البيتيْن، وجعل يستفهم استفهامات تقريرية، يؤكد فيها التصاق المعنى الأول بالثَّاني، وأنَّ البيت الثَّاني له فضل التَّمثيل والتَّصوير على البيت الأوّل، ولولاه لم يستكمل فضله في النَّفس ونبله، واستحق التَّقديم كلَّه إلاَّ بالبيت الأخير، قال عبد القَاهِر:"وهكذا فتأمَّل بيت أبي تمَّام:

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْـــــرَ فَضِيْلَـــــةٍ طُوِيَــتْ أَتَــاحَ لَهَــا لسَــانَ حَسُــود

مقطوعًا عن البيت الَّذي يليه،والتَّمثيل الَّذي يؤدِّيه،واستقصَّ في تعرُّف قيمته على وضوح معناه،وحسن مزيته، ثم أتبعه إياه:

لَــوْلَا اشــتعَالُ النَّــارِ فيمــا جَــاوَرَتْ مــا كــانَ يُعْــرَفُ طيــفُ عَــرْفِ العُــود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطّرك بعرف عوده، وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعوده،واستكمل فضله في النَّفس ونبله، واستحق التقديم كله إلاَّ بالبيت الأخير وما فيه من التَّمثيل

(١) "الوساطة"، (ص:١١).

والتصوير"[1]، وما مضى من التَّحليل، يخرج من مشكاة حديث الشَّيخ عن هذا الشَّاهِد.

- **الشَّاهِد التَّاسع والعشرون[2]، وقال أبو تمَّام:**

مـــا الحُـــبُّ إلا للحَبِيْـــبِ الأَوَّلِ[3]

استشهد به الشَّيخ عبد القَاهِر على أسباب تأثير التَّمثيل في النَّفس، فبعد أنْ أخبر عن صِيغ التَّمثيل، وحال المعنى معه، جاء ليبيِّن العلَّة والسَّبب، ولِمَ كان للتَّمثيل هذا التَّأثير؟ومن أظهر تلك العلل؛ أنَّ أنس النَّفوس لا يكون إلاَّ أن تخرجها من خفي إلى جلي، ومن مصرَّح إلى مكني، وتنقلها من العقل إلى الاحساس، وقصد هنا بالأنس وما يوجبه تقدَّم الإلف كما قِيل، وهو ضرب آخر من الأنس، من جهة الاستحكام والقوة[4].

لما انتهى عبد القَاهِر من أمثلة تأثير التَّمثيل، إذا جاء في أعقاب المعاني، جاء ليذكر الأسباب والعلَّل، لِمَ كان للتمثيل هذا التَّأثير؟ وما الَّذي أوجبه واقتضاه؟ وأظهر تلك الأسباب والعلَّل وأولها وآكدها أنَّ في التَّمثيل انتقال النَّفس من المعقول إلى المحسوس، وأنَّه يخرجها من خفي إلى جلي، وهذا يحدث لها أُنسًا؛ لأنَّ الحسِّيات أقوى من المعنويات، والمعقولات وأسبق حصولًا وإدراكًا في النَّفس، ولذلك أراد إبراهيم – عليه السَّلام– أن يخرج من علم اليقين إلى عين اليقين، فقال تعالى على لسانه:{وَإِذْ

---

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١١٨،١١٩).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٢٢).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٥٣/٤)، وصدر البيت:

نقــلْ فــؤادكَ حيــثُ شــئتَ مــن الهــوى

ومطلع القصيدة:

البَـــيْنُ جَرَّعنـــي نَقِيـــعَ الحَنْظَـــلِ والبَـــيْنُ أَثكلَنـــي وإنْ لـــم أَثكَـــلِ

وهي من البحر الكامل باب الغزل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث.

(٤) يُنظر: "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٢١،١٢٢)، بتصرُّف.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى... الآية}[البقرة:٢٦٠]، وموسى -عليه السلام- قال الله على لسانه: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ... الآية}[الأعراف:١٤٣]، وهذان النَّبيان الكريمان سادة الدَّنيا، ومنارات اليقين، وقدوتا العالمين بعد رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، أرادوا الحسِّيات مع ما عندهم من العقليات اليقينية، فأرادوا العِلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطَّبع، وعلى حدّ الضَّرورة على ما لديهم من علم مستقى من جهة النَّظر والفكر في القُّوة والاستحكام، حتى قال عبد القَاهِر: "فأمَّا القول في العلَّة والسَّبب، لم كان للتَّمثيل هذا التَّأثير؟وبيان جهته ومأتاه،وما الَّذي أوجبه واقتضاه،فغيرها.وإذا بحثنا عن ذلك،لوجدنا له أسبابًا وعللاً، كل منها يقتضي أن يفخّم المعنى بالتَّمثيل،وينبل ويشرف ويكمل. فأول ذلك وأظهره،أن أنس النُّفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلى،وتأتيها بصريح بعد مكنى،وأن تردّها في الشيء تعلِّمها إيَّاه إلى شيء آخر هي بشأنه اعلم،وثقتها به في المعرفة أحكم = نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس،وعمَّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العِلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضّل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام،وبلوغ الثقة فيه غاية التمَّام،كما قالوا: (ليس الخبر كالمعاينة)،(ولا الظن كاليقين)"[1]، ولهذا يوجِب له أُنسًا بالمعنى، وثقة به واطمئنانًا إليه، وسرّ ذلك أمران: أحدهما أنَّ العِلم الحسي والضروري أقوى من العقلي وأشدُّ استحكامًا، فإذا جئت بالمثل عقب المعنى أو أبرزت المعنى في معرضه، أنِست إليه النَّفس، وقبلته مطمئنةً، إذ أرجعتها إلى ما هي به أعلم وثقتها به أحكم.

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٢١).

ثانيهما: أن العِلم الحسي أسبق حصولًا للنفس من العقلي، وهو وسيلة إليه وطريق له، فهو آلَف له[1]، وقد استشهد به عبد القَاهِر من شعر أبي تمَّام فقال:" فلهذا يحصل بهذا العِلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة، وضرب آخر من الأنس، وهو ما يوجبه تقدَّم الألف، كما قِيل:

ما الحُبُّ إلا للحَبِيْبِ الأَوَّلِ "[2]

ثم بيَّن الشَّيخ مراده من هذا كلِّه بأنّ بين العِلْمِين رحمًا وذمة وصحة وحرمة، وضرب مثلًا ختم به الحديث عن هذا الشَّاهِد، فقال –رحمه الله–:" ومعلوم أنَّ العِلم الأوّل أتى النَّفس أولاً من طريق الحواس والطِّباع،ثم من / جهة النظر والرويَّة، فهو إذن أمسُّ بها رحمًا،وأقوى لديها ذممًا،وأقدَّم لها صحبة،وآكد عندها حرمة = وإذ نقلتها في الشيء بمثله عنالمدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حدّ الضرورة، فأنت كمن يتوسَّل إليها للغريب بالحميم،وللجديد الصحبة بالحبيب القديم، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر = إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثّل ثم مثّله = كمَن يخبر عن شيء من وراء حجاب،ثم يكشف عنه الحجاب ويقول: (ها هو ذا فأبصره، تجده على ما وصفت)"[3]، ليُنظر في هذه الزّاوية بالتَّحْدِيد، فلا يُرى إلاَّ شاهد أبي تمَّام فقط، وهذا يدلّ على معين اعتناء البلاغيين بشعره، وحاجتهم إلى شعره؛ للاستشهاد به في أمسِّ النِّقاط للتَّدليل على القواعد والتَّفْريعات الشَّارحة للمراد، و " لقد حصر الحب في الحبيب الأول، وتلك دعوى تحتاج إلى بيِّنة وأمر عقلي يحتاج إلى إيضاح، وقد وضَّحه بذلك الأمر المشاهَد الحسِّي المركوز في الطِّباع، وهو حب الفتى لمنزله الأوّل الَّذي نشأ فيه وترعرع"[4].

(١) يُنظر :"دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:٨٢)، بتصرُّف.

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٢٢).

(٣) المصدر السَّابق، (ص:١٢٢).

(٤) "دراسات بلاغية"، بسيوني عبد الفتاح فيود، (ص:٢١٤)، مؤسسة المختار للنشر

- **الشَّاهِد الثلاثون** [1]، **وقول أبي تمَّام:**

وطــولُ مُقــامِ المــرءِ في الحــيِّ مُخْلِــقُ لِدِيباجتَيْــــهِ فــــاغْتَرِبْ تَتَجــــدَّدِ

فــإني رأيْــتُ الشَّــمسَ زيــدتْ محَبَّــةً إلى النَّـاس أَنْ ليْسَـتْ علـيهمْ بِسـرّمَدِ[2]

شبَّه الشَاعر إطالة المرء المكوث في مكان واحد وإقامته على قوم تكرَّر زيارته لهم، ممَّا يجعله بالٍ عندهم عليهم؛ كالثوب الَّذي ذهبت ديباجته وزينته على كثرة لُبسه والنَّظر فيه، واستخدامه في كل وقت، ممَّا يُذهِب عنه رونقه وبهجته. وذكر التَّبْريزي – رحمه الله– عن أهل اللُّغة، أنَّ الديباجتان هما الخدَّان، ولكنَّهما جريا مجرى الثوبيْن أو البرديْن، والجمع من الثياب والواحد على معنى مخلق البرديْن، فالمعنى مخلق الثياب وأراد الديباجتيْن، وما يظهر من أمره؛ لأن ما يلبس الانسان يدلّ على باطنه[3]. ووجه الشَّبه في هذا التَّشبيه المضْمر الأداة المحذوف وجه الشَّبه منه منتزع من مجموع البيتيْن، فهو مختلف عن التَّشبيه الظَّاهر الصريح، ولذلك يسمِّيه علماء البيان (التَّشبيه الضمني)، فوجه الشَّبه هنا إطالة المكوث مقلقة وكثرة التَّجديد مفرحة، فالتَّنقُّل يبعث الفضل ويثمر الشَّوق من وقت إلى آخر، فقدَّم أبو تمَّام هنا رأيًا خاصًا به؛ وهو أنَّ المرء إذا طال لبثه في الحي والمكان الَّذي اعتاده، فإنَّ ذلك مذهب لاحترامه وهيبته وقيمته،والَّتي عبَّر عنها (بالديباجة)، حيث ألبسها هذه الاستِعَارة، وهي في الأصل وصف للثَّوب الجميل وقصد صفحة الوجه، فأراد الشَّاعر من هذا الإنسان الَّذي تعاهد المكان كثيرًا أن يرحل ويغادر المحلّ؛ ليعود بعد فترة من الزَّمن،ليشتاق إليه الأهل

والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٦م.

(١) يُنظر: "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٢٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٣/٢)، ومطلع القصيدة:

ســرّتْ تَسْــتجيرُ الــدمْعَ خَــوْفَ نَــوَى غَــدِ وعَــــادَ قَتَــــادًا عِنْــــدَها كُــــلُّ مَرْقَــــدِ

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع والثامن، قالها يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطَّائي.

(٣) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٣/٢)، بتصرُّف.

والأحباب، فإذا هو يبرز عليهم ويتوسَّط مكأنَّهم، فالنَّفوس حينئذٍ تسعد، ويشوبها السَّعادة والفرحة، وتبتهج العينان، وتسترسل في البكاء وتستسلم للعبرة لتذرف، وهذا المعنى قد لا يؤيِّده بعض النَّاس، إذا أُلقي على عواهنه، وما هي إلاَّهنيهة، وإذا بأبي تمَّام يُلقي بقذائف من عيون الحكم في البيت الثَّاني؛ ليلهب الأسماع، فقال:

فـإني رأيْـتُ الشَّـمسَ زيـدتْ مَحَبَّـةً إلى النَّـاس أَنْ ليْسَـتْ علـيهمْ بِسـرّمَدِ

فـأتى بالبرهـان النَّاصـع والقـول السَّـاطع، لا يشـوبه شـيء ولا يـردُّه إلاَّ عيـيّ، فالشَّمس تكون مقلقة محزنة مُئيسة، مادامت على الدَّوام، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سرّمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَتُبْصِرُون} [القصص:٧٢]، فبحقٍّ سيكون الأمر شديد على النَّفوس، فبرهان أبي تمَّام الَّذي أودعه في البيت الثَّانيأسكتَ الخصوم، بل وكمَّم الأفواه عن النُّطق، فدلَّل على قولـه الأول بالشَّـمس الَّـتي تـذهب وتعـود، فالنَّـاس يودِّعـون الشَّـمس في مغيبهـا وهـم غِضاب؛ لأنَّهم يريدون اللَّيل لتسكن أرواحهم وتهدأ نفوسهم، وما هو إلاَّ وقت السَّحر وقبيـل الفجـروإذا بـالنُّفوس متعطِّشـة لشـمس النَّهـار الَّـتي تـأتي ليستعد النَّـاس للنَّشـاط، فكـذلك الحبيـب الَّـذي يغـادر المكـان ثم يعـود إليـه، فالعـدو والخصـم قبـل الصـديق قـد اشتاق إليه، وهذه طبيعة النَّاس الَّتي جُبلوا عليها، فهذا تشبيه حذف منه الأداة ووجه الشَّبه، فأتى على أبهى صورة وأجمل الكلام والعبارة.

ومن زاوية أخرى، استشهد الخطيب القزويني بهذا البيت في معرض كلامه عن تأثير التَّشبيه، قال:" وإنَّ تعقيب المعاني –لا سيَّما ثمَّ التَّمثيل فيه– يضاعف قواها في تحريك النَّفوس إلى المقصود بها..."[1]،والمتأمِّل يجد المقاربة الشَّديدة ببيِّن كلام عبد القَاهِر وكلامه وقد ساق نفس الشَّواهِد، ممَّا يدلَّ على تأثُّرهم بعلم الشَّيخ.

(١) "الإيضاح"، (٢١/٤).

وعلى كل حال، فقد استشهد الشَّيخ عبد القَاهِر بهذا الشَّاهِد في سياق حديثه عن المعاني الَّتي يجيء التَّمثيل في عقبها، وهي على ضربيْن، ثم يبيّن فائدة التَّمثيل منهما، فإمّا غريب بديع نادر يمكن أنْ يخالف فيه، أو غير غريب ولا نادر، فالأوّل: فائدة التَّمثيل فيه وسبب الأنس به: أنَّه أفاد صحة المعنى ونفى الرَّيب والشَّك عنه، وأمن صاحبه من الكذب، أمَّا الثَّاني: فإنَّ التَّمثيل فيه ليس كالأوّل في الفائدة، بل يفيد أمرًا آخر وهو أنَّ الوصف والمعنى يحتاج إلى بيان المقدار فيه وكشف حدَّه ومبلغه من في القوة والضَّعف، فالأمور العقلية والمعنوية إذا مثّلت بالمحسوسات، تبيَّنت أحوالها وحقيقتها، وإذا لم تمثّل، تغيَّرت مقاديرها وتفاوتت، وعلى ذلك قال عبد القَاهِر:" وإذا ثبت أنَّ المعاني الممثَّلة تكون على هذيْن الضربيْن،فإنَّ فائدة (التَّمثيل) وسبب الأنس في الضرب الأوّل بيِّن لائح؛ لأنَّه يفيد فيه الصِّحة وينفي الرَّيب والشَّكّ، ويؤمِّن صاحبه من تكذيب المخالف،وتهجُّم المنكر،وتهكم المعترض، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه، حتى يُرَى ويُبصَّر، ويعلَم كونه على ما أثبتته الصِّفة عليه = موازنة ظاهرة صحيحة.

وأمَّا الضرب الثَّاني: فإن (التَّمثيل) وإنْ كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة، فهو يفيد أمرًا آخر يجرى مجراه، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجَّة على صحة وجوده في نفسه،وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله،فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه،ووضع قياس من غيره يكشف عن حدِّه ومبلغه في القوة والضَّعف والزيادة والنقصان"[1].

ثم التفت الشَّيخ إلى هذا الجواب وجعله نوع من التَّسامح والَّذي ينتقل من الخبر إلى العيان سببه زوال الرَّيب والشَّكّ، ولكنَّ عند التَّحقيق تكون المشاهدة مؤثّرة في النَّفس، وإنْ لم يكن هناك شكّ أو ريب ولا بيان مقدار، فإبراهيم –عليه السلام–

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٢٤–١٢٥).

طلب من ربه عين اليقين، على ما لديه من علم اليقين ليزيد إيمانه، وهو هنا غير شاكٍ ولا مرتاب، ولا يريد أن يرى مقدار ربه تعالى، بل الأمر على غير ذلك، هو أن عين اليقين تقود الأثر الإيماني وترفعه إلى درجات القرب لما يحدث في خلده من أثر. والشَّيخ يذكر أنَّ فائدة التَّمثيل لا تنحصر في زوال شكّ وبيان مقدار، بل فوائد التَّمثيل بالأمور المشاهدة كثيرة جدًا، فمن ذلك هذا الشَّاهِد الَّذي أحدث هذا التَّجديد للنَّفوس، قال عبد القَاهِر:"فأمَّا إذا رجعنا إلى التَّحقيق:فإنَّا نعلم أن المشاهدة تؤثِّر في النفوس مع العِلم بصدق الخبر،كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– في قوله:{قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...}[البقرة:٢٦٠]، والشَّواهِد في ذلك كثيرة،والأمر فيه ظاهر، ولولا أن الأمر كذلك،لَمَا كان لنحو قول أبي تمَّام:

وطـولُ مُقـامِ المـرءِ في الحـيِّ مُخْلِـقٌ لِدِيباجتَيْـهِ فـاغْتَرِبْ تَتَجـدَّدِ

فـإني رأيْـتُ الشَّـمسَ زيـدتْ مَحَبَّـةً إلى النَّـاس أَنْ ليْسَـتْ علـيهمْ بِسـرّمَدِ

معنى، وذلك أن هذا التجدُّد لا معنى له؛ إذ كانت الرُّؤية لا تفيد أنسًا من حيث هي رؤية،وكان الأنس لنفيها الشكّ والريب،أو لوقوع العِلم بأمر زائد، لم يُعلَم من قبل"[1].

ثانيًا: وقوع التَّشبيه أو التَّمثيل الغريب واللطيف بين الطرفين المتباعدين المتنافرين .

ممَّا سبق من أسباب تأثير التَّمثيل، والَّذي ذكر سابقًا، هو أنَّ التَّمثيل إذا نقل النَّفس من المعقول إلى المحسوس لوجه شبه عقلي ضرورة، يوجِب لها أُنسا بالمعنى وثقة واطمئنانًا إليه، واستشهد بشعر أبي تمَّام على تفريعات ذلك السَّبب. أمَّا السَّبب الثَّاني في تأثير التَّمثيل فيكمن في الجمع بين طرفيْن متباعديْن متنافريْن مختلفيْن، يؤلِّف بينهما،

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٢٦).

فكلَّما كان التَّنافر والتَّباعد والاختلاف بين الطرفيْن أشدّ، خرج التَّشبيه من رحمهم إلى النَّفوس أعجب وأطرب، وحصل به موضع الاستحسان، وفي هذا الشَّأن قال عبد القَاهِر: "وهكذا إذا استقريت التَّشبيهات،وجدتَ التباعد بين الشيئيْن، كلما كان أشدّ، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب،وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان،ومكان الاستظراف، والمثير للدفين من الارتياح، والمتألِّف للنافر من المسرّة،والمؤلِّف لأطراف البهجة =أنك ترى بها الشيئيْن مثليْن متباينيْن،ومؤتلفيْن مختلفيْن وترى الصُّورة الواحدة في السماء والأرض،وفي خلقة الإنسان وخلال الروض،وهكذا،طرائف تنثال عليك، إذا فصلت هذه الجملة،وتتَّبعت هذه اللمحة "[1].

وهذه نقطة أودُّ ذكرها؛ وهي أنَّه جعل السبب الأوّل في تأثير التَّمثيل أنْ يكون وجه الشَّبه عقليًا، أمَّا في الثَّاني فإنَّ عبد القَاهِر أدخل التَّشبيه الصَّريح غير التَّمثيلي، فالأمران المختلفان محسوسان يكون وجه الشَّبه حسيًا، فبدأ به الشَّيخ[2]، ثم ثنَّى بالتَّمثيل عند حديثه عن شاهديْ أبي تمَّام وسيأتي، وقد جعل التَّمثيل أخصَّ شيء في تصوير وجه الشَّبه بين الطرفيْن المختلفيْن؛ لأنَّه إمام هذه الصَّنْعَة والبادئ لها والهادي إليها، فيقول الشَّيخ في ذلك:"وإذا ثبت هذا الأصل،وهو أن تصوير الشَّبه بين المختلفيْن في الجنس،ممَّا يحرِّك قوى الاستحسان، ويثير الكامن من الاستظراف،فإنَّ(التَّمثيل)أخصّ شيء بهذا الشَّأن،وأسبق جار في هذا الرهان،وهذا الصَّنيع صناعته الَّتي هو الإمام فيها، والبادئ لها والهادي إلى كيفيتها، وأمره في ذلك أنَّك إذا قصدت ذكر ظرائفه،وعدّ محاسنه في هذا المعنى، والبدع الَّتي يخترعها بحذقه،والتَّاليفات الَّتي يصل إليها برفقه،ازدحمت عليك، وغمرت جانبيك،فلم تدرِ أيُّها

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٠).

(٢) يُنظر :"دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:٩٢-٩٣)، بتصرُّف.

تذكر،ولا عن أيِّها تعبِّر"[1]. فمن تلك الظرائف والمحاسن والبدع الَّتي يخترعها التَّمثيل بحذقه، والتَّاليفات الَّتي تزدحم وتغمر جانب اللَّفظ والمعنى أمورًا منها: أنَّه يريك التئام الأضداد بعضها ببعض، حتى تخرج في طبقة واحدة، ولا يكون ذلك إلاَّ بأمريْن ذكرهما عبد القَاهِر، وهما:

أولًا: أن يكون المشبَّه والمشبَّه به متضاديْن عين التَّضاد، فتأتي الحياة والموت، والماء والنَّار مجموعيْن، كمحمد ماء إذ فرح،ونار إذا غضب، قال عبد القَاهِر: "ويريك التئام عين الأضداد،فيأتيك بالحياة والموت مجموعيْن،والماء والنَّار مجتمعيْن"[2].

ثانيًا: أن يكون المشبَّه به متِّصفًا بصفة معينة، ثم نشبَّه بضد تلك الصفة، وهذا التَّشبيه أو التَّمثيل الَّذي استشهد به عبد القَاهِر من شعر أبي تمَّام، فقد جعل الشيء أسود وأبيض في حال أي من جهة ومن جهة أخرى، حينها قال عبد القَاهِر: "ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى نارًا...ويجعل الشيء أسود أبيض في حال؛ كنحو"[3]هذيْن الشَّاهِديْن:

- **الشَّاهِد الحادي والثلاثون [4]، وقال أبو تمَّام:**

لَهُ مَنْظَرٌ في العَيْنِ أبيضُ ناصعٌ ولكنَّه في القلبِ أسودُ أسفعُ[5]

هذا الشَّاهِد يحكي ظهور الشَّيب في صورته الوسطى، فصدَّره بالجار والمجرور؛ ليخصّ الشيب بالخطاب دون سواه، فوصفه في منظره الخارجي بـ(البياض)، ومنظره

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٣١).
(٢) المصدر السَّابق، (ص:١٣٢).
(٣) المصدر نفسه، (ص:١٣٢).
(٤) يُنظر:المصدر نفسه، (ص:١٣٢).
(٥) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٣٢٤/٢)، ومطلع القصيدة:

أما إنَّه لَوْلا الخَلِيطُ المُودَّعُ ورَبْعٌ عَفا مِنْه مَصِيفٌ ومَرْبَعُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع عشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمدالثَّغري.

الداخلي؛ أي في القلب بـ(السَّواد)، وذلك السَّواد هو اليأس، ونذير الهرم؛ وهو الموت، والتَّشبيه التَّمثيلي هنا أحدث تشبيه صورة بتشبيه صورة أخرى، وأجزاء البيت لا يمكن فصم عُراها ولا جزء من أجزائها؛ لأنها عبارة عن لُحمة واحدة، فاشتَّد ارتباط الأول بالثَّاني، فشبَّه الشَّاعر صورة الشَّيب الخارجية، وركَّز على مسألة اللون؛ لأنَّها أكثر ما يذهب إليه العقل، بتصوُّر الهرم واللحظات النِّهائية من الحياة وبالكبر، فالبياض صوره بسواد، ولكن السَّواد هذا نتيجة معاناة وتعب، وهو ما يوجبه من الكراهية والسّخط وعدم الرِّضا به، فانقلب البياض الخارجي إلى سواد داخلي، ولذلك وصف عبد القَاهِر التَّشبيه التَّمثيلي بعمل السِّحر، ويريك الحياة في الجماد، ويجعل الشيء أسود أبيض في حال؛ أي وهما معًا مقترنيْن مع بعضهما البعض، وفي حالة واحدة هو أبيض أسود، ووجه الشَّبه اقتران السَّواد بالبياض في آن واحد، فلا فصل بينهما.

ومهما يكن من أمر، فعبد القَاهِر جعل التَّشبيه التَّمثيلي وما يُحدثه في المعاني ممثَّلة في شخصية أناس، وهذا واضح في قول الطَّائي: (له منظر)، وأنه بسببه يلتئم الضدان، وقوله: (التئام)، كأنَّها جراح في جسم واحد؛ تحتاج كل قطعة منها إلى اتِّحاد واجتماع بعد فُرقة، فالتئام يدلّ على شدة التَّرابط والتَّماسك بين هذه المعاني، وعبد القَاهِر الَّذي يراوح في كلامه دائمًا بين الألفاظ تارةً والمعاني تارة أخرى، يجده المتأمِّل يركِّز في هذه الفقرة بالذات على المعاني، فالتَّضاد بشكل عام بين الألفاظ والمعاني، ولكن الالتئام هنا يكون بين المعاني فقط، فهو أبيض أسود في نفس الوقت، وهذا واضح لا يحتاج إلى تفسير، ويتحدَّث الشَّيخ في الشَّاهِد عن ما يصنعه التَّشبيه التَّمثيلي بالمعاني، فقد يقلب الحقائق من اليمين إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، وقد يكون الشيء أبيض، ولكنَّه أسود في نفس اللَّحظة، كما هو حال الشَّاهِد، ولذلك خصَّ الشَّيخ التَّشبيه التَّمثيلي بعناية فائقة، عن غيره، وراح يتتبع مواقع حسنه، وخصائصه جوده، ويفرِّق بينه وبين التَّشبيه غير التَّمثيلي تارةً، ويفرِّق بينه وبين

الاستِعَارة تارةً أخرى، والنَّصف الأول من الأسْرَار في الحديث عن التَّشبيه التَّمثيلي، وهذا يدلُّ بالضَّرورة على العناية ومزيد تركيز الشَّيخ به.

- **الشَّاهِد الثَّاني والثلاثون** [1]، **وقال:**

غـــرَّةٌ بُهمـــةٌ أَلا إنَّمـــا كنْـــ ـــتُ أَغَـرًّا أَيَّـامَ كنـتُ بهيمَـا[2]

وهذا الشَّاهِد كسابقه في اتِّحاد المعنيين مع اختلافهما، فـ(الغرة) هي البياض في جبين الخيل، والبهمة هي (السواد)، فشبَّه الغرة بالبُهمة على معنى التَّضاد، فكيف ذلك؟ شبَّه بياض الشيب بأنه بهمة؛ أي سوادٌ تشاؤمًا، والشَّاهِد السَّابق يحكي معاناة الشَّاعر مع الشَّيب، وكأنَّ له صورتان؛ الأولى: بياض وهو الظاهر، والثَّانية: سواد وهو في قلب الشَّاعر وذهنه لما يشعره بالضَّعف، فهو النذير الَّذي يبشِّر بقدوم الموت، وهذا ما لا يريده الشاعر، وقد يريد أنْ يتفاءل بأنَّه لا يزال فتيًا شابًا يافعًا مع وجود هذا الشَّيب الَّذي لا يؤثِّر على نفسيته فيحبطها، ولعلَّ هذا المعنى الَّذي أراده عبد القَاهِر وأراده الشَّاعر، وهو وجيه من جهة تماسك الأبيات، فالبيت الَّذي بعده يخدم المعنى وهي حقيقة التَّضاد، قال:

دِقَّـــة في الحيـــاة تُـــدعى جـــلالًا مثلمـــا سُمِّـــي اللـــديغ ســـليمًا

ليت من علا مفرقه الشَّيب أن يسمع هذا البيت، إذًا لطار فرحًا، فالعرب تسمِّي اللَّديغ سليمًا تفاؤلًا بشفائه، والصَّحراء مفازة تفاؤلًا بالنَّجاة، والشَّاعر أضاف معنىً جديدًا وهي أن هذه الدِقَّة الصغيرة (الشَّيب) جعل اسمها (جلالًا)؛ أي تُوجِب احترام مَن علت مفرقه وفوده، فلله ما أفتن هذا المعنى الَّذي يهديك إليه الشَّيخ عبد القَاهِر ويصفه بالسِّحر؛ أي وربي إنه سحر!، فصورة الشَّيب قُلِبت إلى سواد ونشاط

(١) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٣٢).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢٢٣/٣)، ومطلع القصيدة:

إنَّ عهـــدًا لَـــوْ تَعلَمَـــانِ ذَمِيمَـــا أَنْ تَنَامَـــا عَـــنْ لَيْلَتِـــي أو تُنِيمَـــا

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وقد قدم من مكة.

وحيوية وفتوة؛ لأنَّ الشَّاعر عندما أنهى صدر بيت الشَّاهِد بعجزه وصف حالة فتوّته، عندما كان (بهيمًا)، لم يظهر هذا الجلال في شعره.

والبيتيان اللَّذان قبل الشَّاهِد يصفان الشَّيب، وأنَّه كالشَّعلة بياضًا واقعًا بين مفارق الرأس، وهذه الشَّعلة ولَّدت للشَّاعر همومًا، اجتثَّها في بيت الشَّاهِد وما بعده بالتَّسليم بأنها بهمة في الأساس، وأنَّ كل ذلك وقار وجلال، وليس كبرًا وضعفًا، فألَّف بين المتباينيْن والمتضاديْن، وجعل بينهما رحمًا لا ينفك عراهما عن بعضهما، كيف ذلك؟ إنه السِّحر الحلال، واستشهد به الشَّيخ على ما استشهد به في الشَّاهِد السابق، إلاَّ أنه زاد فقال:" ويجعل—أي التَّمثيل– الشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضدِّه، كما قال:

غـــرَّةٌ بُهمـــةٌ أَلا إنَّمـــا كنْـــ ـــتُ أَغَـرًّا أَيَّـامَ كنـتُ بهيمَـا"[1]

ثالثًا: مجيء التَّمثيل بأشياء عِدَّة من الشيء الواحد

ومن طرائف التَّمثيل وبدائعه وعجائبه الَّتي لا تنقضي أنَّه يولِّد معاني كثيرة ويخرجها من رحم واحد، فالمشبَّه متغيِّر متعدِّد، والمشبَّه به شيء واحد، وذكر عبد القَاهِر مشبَّهيْن بهما هما (الزند) و (القمر)، فيشبَّه بهما أشياء كثيرة، فالقمر يعطيك وتستخرج منه ومن أحوال نقصانه وكماله أمورًا كثيرة تتناسب مع المشبَّه في الحال والمقام، فقد يُشبَّه المرء بالقمر شُهرة ونباهةً وعزًا ورفعةً، وقد يُراد منه الكمال بعد النُّقصان، وقد يُعطيك القمر نقصانًا بعد كمال؛ كقولهم: (هلال نما فغدا بدرًا) يريدون منه: الطِّفل الكريم يبلغ مبلغ الرجال الشُرفاء العقلاء، قال عن عبد القَاهِر:" وإنه ليأتيك من الشَّيء الواحد بأشباه عِدَّة،ويشتق من الأصل الواحد أغصانًا في كل غصن ثمر على حِدة،نحو أن (الزّند) بإيرائه يعطيك شبَّه الجواد، والذكي الفطِن،وشبَّه النجح في الأمور والظفر بالمراد،وبإصلاده شبه البخيل الَّذي لا يعطيك شيئًا،والبليد الَّذي لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى،وشبَّه من يخيب سعيه،ونحو ذلك؟ ويعطيك من

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٣٢).

(القمـــر) الشـــهرة في الرجـــل والنباهـــة والعـــز والرفعـــة،ويعطيك الكمـــال عـــن النُّقصان،والنُّقصـان بعـد الكمـال؛ كقـولهم: (هـلال نمـا فعـاد بـدرًا)، يُراد بلـوغ النِّجـل الكريم المبلغ الَّذي يشبَّه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف، كما قال أبو تمَّام..."[1].

- **الشَّاهِد الثَّالث والثلاثون [2]، قال أبو تمَّام:**

لهفـي علـى تلـك الشَّـواهِد منهمـا لَـوْ أُمْهِلَـتْ حـتَّى تصـير شَمـائِلا
لغـدا سُـكُونُهما حجـى وصـباهُما كرمًـا وتلـكَ الأريحيَّـةُ نـائلا
إنَّ الهـلالَ إذا رأيـتَ نُمُـوَّهُ أيقنـتَ أنْ سيصـيرُ بـدرًا كـاملا[3]

شبَّه الشَّاعر هـذيْن الصغيريْن بـالهلال حـال نموه، وكيـف لا يبقى على تلـك الصِّفة من الاكتمال حتى يبدأ في النُّقصان، ووجه الشَّبه النَّقص بعد التَّمَام، والمرثيان في علو طبقتيْهما؛ كالهلال في علو طبقته وارتفاعه؛ لأنَّهم يشبَّهون بلوغ النَّجل الكريم المبلغ الَّذي يشبَّه أصله، وذلك في الفضل والعقل وسائر معانى الشرف، كما قال ذلك عبد القَاهِر.

---

(١) المصدر السَّابق، (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٣٦).

(٣) "ديوان أبي تمَّام"، (١١٤/٤، ١١٥)، ومطلع القصيدة:

مازَالـتِ الأيـامُ تُخبـرُ سـائلًا أَنْ سَـوْفَ تَفْجَـعُ مُسْـهِلًا أَوْ عـاقِلا

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي عشر والثاني عشر والرابع عشر ، قالها أبو تمَّام يرثي ابنيّ عبد الله بن طاهر وكانا صغيرين.

والأبيات في الديوان هكذا:

لهفـي علـى تلـك الشـواهدِ فيهمـا لَـوْ أُمْهِلَـتْ حتَّـى تكـونَ شَـمائِلا
لغـدا سُـكُونُهما حجـى وصِـبَاهُما حِلْمًـا وتلـكَ الأريحيَّـةُ نـائلا
ولأَعْقَـبَ الـنَّجمُ المُـرِذُّ بِدِيمَـةٍ ولعـادَ ذاكَ الطـلُ جـودًا وابـلا
إنَّ الهـلالَ إذا رأيـتَ نُمُـوَّهُ أيقنـتَ أنْ سـيكونُ بـدرًا كـاملا

(٣) يُنظر :"أسْرَار البلاغة"، (ص: ١٣٦)،بتصرُّف.

هنا لطيفة لا بدَّ من ذكرها؛ وهي أنَّ الشَّيخ لم يذكر الشَّبه من (البدر) الأمر المحسوس في شكله وهيئته ولونه واستدارته، والسبب في ذلك كما ذكره الشَّيخ عبد الهادي العدل أنَّ عبد القَاهِر يعرض بالتَّمثيل ما كان الشَّبه فيه معنويًا، وأنَّ وجه الشَّبه عقلي مركب أو مفرد، وفي ذلك يقول:" فانظر كيف جاء التَّمثيل لهذه الأشباه الكثيرة المتباينة من شيء واحد، والَّتي لم يستقصِها الشَّيخ لكثرتها...، على أنَّ الشَّيخ لم يعرض لما يشبَّه بالبدر من حيث الأمر المحسوس كتشبيه الشيء بتقويس الهلال ودقته، والوجه بنوره وبهجته؛ لأنَّه الآن في ذكر ما كان تمثيلًا، وكان الشَّبه فيه معنويًا، وهذا دليل على أن مدار التَّمثيل عنده: على كون الوجه عقليًا مركبًا أو مفردًا"[1]، إذن تلك المعاني الَّتي تولَّدت من (القمر) مردُّها إلى اختلاف أحواله ومنازله.

وهذه قصيدة رثى بها الشَّاعر ابنيْ عبد الله بن طاهر، فقال: (لهفي)، واللهف: هو الحزن والأسى والغيظ، فحالُه حزنٌ وأسى على تللك المكرمات والمخايل ودلائل الخير الَّتي كانت تدلّ على ما سيكون منهما حال كبرهما وفتوُّتهما، إلاَّ أنها لم تكتمل بموتهما، ثم بدأ يعدِّد خصالهما الَّتي لو قُدِّر وعاشا أن يكونا عليها؛ لأنها موجودة وحاضرة في أبيهما، وهي مجرُّد تنبؤات وإرهاصات ظنية من الشاعر. ولا يسلِّم الباحث لرأي أبي تمَّام؛ لأنَّ اختيار الله لهما خير من تنبؤات الشَّاعر، ولكنَّها الفجيعة والمصيبة، فمن تلك الخصال: لغدا هدؤهما تعقلًا، وعبَّر عنها بـ (الحجى)؛ أي: أنَّ شبابهما سيكون (كرمًا)، كما عند عبد القَاهِر، و(حلمًا) عند التَّبْريزي ونخوة، ولأغدقا العطاء الكثير في قوله: (الأريحية): وهو مأخوذ من الارتياح في العطاء والميل له.

(١) "دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:١١٤).

رابعًا: أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يُجدي عليك.

الحديث هنا عن أسلوب آخر في التَّمثيل امتدادًا لأسباب تأثير التَّمثيل في النَّفس، قال عنه:" وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره"(١)، فهذا يدل أنَّه من أسباب تأثير التَّمثيل، وقد ذكر ذلك عبد الهادي العدل من خلال قوله:" السبب الثَّالث من أسباب تأثير التَّمثيل: أنَّه يحتاج إلى إعمال الفكر، وتحريك الخاطر، وبذل الهمة من كل من منشئه وسامعه"(٢)، ولا شكَّ أنَّ هذا السَّبب هو أقواها وقعًا في النَّفس ومن أخصِّها في التَّمثيل، فالتَّشبيه لا يكون في هذا السَّبب؛ لأنَّه يحتاج إلى إعمال فكر وتحريك خاطر وهمة في طلبه؛ لأن الممتنع الأبيّ المحتاج إلى طول فكر يُضفي اللَّطافة والحلاوة والشوق إلى المعنى، فيبرد عقل الساعي بالاهتداء إليه، فيقع الاشتياق والشَّغف بعد طول التعب والمعاناة، ونيله أحلى لمزية أولى، وذلك ضُرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ في حاصل قول الشَّيخ:" وإنْ كان ممَّا مضى،إلاَّ أنَّ الأسلوب غيره، وهو أنَّ المعنى إذا أتاك ممثَّلاَ،فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر،وإباؤه أظهر،واحتجابه أشد.

ومن المركوز في الطَّبع أنَّ الشيء إذا نِيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى،وبالميزة أولى، فكان موقعه من النَّفس أجلّ وألطف،وكانت به أضنّ وأشغف، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطُف موقعه ببرد الماء على الظمأ"(٣).

فالتَّمثيل في غالب أمره يكون فيه وجه الشَّبه غامضًا، وخفيًا، وغير ظاهر، وهو ممَّا يُنتزَع من الطرفيْن بتأوُّل، فبهذا يكون لزامًا على الطَّالب خلفه إلى إعمال فكر

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص: ١٣٩).
(٢) "دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:١١٧).
(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١٣٩).

وإنعام النَّظر وتقليب العقل وطول التَّأمُّل، وبعد ذلك كله، ينتج المطلوب والمحصول من ذلك الفكر والتَّعقُّل ولما يجتهد فيه العقل لحصول المأمول من ذلك التَّمثيل والنَّتيجة الحتمية بالضَّرورة وهي الفرح الشوق والأنس والسَّعادة بالمعنى اللَّطيف والخفي الَّذي هزَّ العقل والوجدان، فهزَّ الألفاظ، فبرز المعنى في أحلى صورة وأبهى حلة ومزية، وما ذلك إلاَّ للتَّمثيل.

وبعد هذه الفكرة الَّتي قدَّمها عبد القَاهِر، يورِد شبهةً، يمكن لمتكلِّف أن يبثَّها من خلال كلام الشَّيخ السابق، وتلك الشُّبهة هي:أنك يا شيخ عبد القَاهِر تجعل المعنى اللَّطيف والمزيَّة كل المزيَّة خلف التَّعقيد والتَّعمية، وهو خلاف ما يقوله العُلماء: (خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك)؟

فأجاب الشَّيخ على هذه الشُّبهة في ثبات وقوة حجة فهو هكذا على عادته، يورد الشُّبهة ويرد عليها فكان رده هنا؛ أنَّ المعنى الَّذي يريده غير التَّعقيد والتَّعمية فهو على القدر الَّذي يحتاج إليه، فبعض المعاني كالجوهر في الصدف لا تُرى حتَّى تشق عنها، وكالعزيز المحتجب فستأذن عليه، فالفكر هنا والتَّعب على قدر معين وما كل أحدٍ يقدر على ذلك، فقال رحمه الله:" فإن قلت: فيجب على هذا أن يكون التَّعقيد والتَّعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضا،مشرفا له وزائدا في فضله،وهذا خلاف ما عليه النَّاس،ألا تراهم قالوا:إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك؟ فالجواب: أنى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب،وإنما أردت القدر الَّذي يحتاج إليه...، فإنَّك تعلم على كل حال أنَّ هذا الضرب من المعاني؛ كالجوهر في الصدف، لا يبرز لك إلاَّ أن تشقّه عنه،وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه، حتى تستأذن عليه. ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عمَّا اشتمل عليه،ولا كل خاطر يؤذَن له في

الوصول إليه،فما كل أحدٍ يفلح في شقّ الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة،كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فُتِحت له"[1].

وأمَّا قولهم: (خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك)، فمرادهم من ذلك بلوغ المتكلِّم بحديثه إلى المخاطب بترتيب الألفاظ والمعاني، وتهذيبها دون إخلال بالمقصود كالدلالة مثلًا، وهم بذلك لم يريدوا ما تقصده العامة[2].

ثم بيَّن أنَّ التَّعقيد المذموم في الألفاظ غير المرتَّبة من التَّقديم والتَّأخير والحذف والذِّكر للدِّلالة على الغرض، ولا بدَّ من حيلة يحتالها السَّامع ليطلب المعنى، وهذا الجنس مذموم؛ لأنَّ الرَّكض خلفه يتطلَّب فكرًا وعقلاً زائدًا على المقدار، وأحوجك في إخراج معنى خشن مشوّه عسير ناقص الحسن، فهو لا يُجدي عليك بشيء، فقال الشَّيخ : "وأمَّا التعقيد، فإنَّما كان مذمومًا؛ لأجل أنَّ اللَّفظ لم يرتّب التَّرتيب الَّذي بمثّله تحصل الدِّلالة على الغرض، حتى احتاج السَّامع إلى أنْ يطلب المعنى بالحيلة،ويسعى إليه من غير الطريق،...، وانَّما ذمَّ هذا الجنس؛ لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الَّذي يجب في مثله،وكدَّك بسوء الدِّلالة، وأودع لك في قالب غير مستوٍ ولا مملس بل خشن مضرّس، حتى إذا رمت إخراجه منه، عسرّ عليك،وإذا خرج، خرج مشوَّه الصُّورة ناقص الحسن"[3].

وبعد تلك المعاني المرتبطة ببعضها، يُهتدى إلى استشهاد عبد القَاهِر ببيتيْ شعر أبي تمَّام، فقد ذكر عبد القَاهِر أنَّ أحقّ أصناف التَّعقيد ذمًّا، هو ذلك الَّذي تبحث عنه وتفتِّش وراءه، وتغوص البِّحار لتكشف عن صدفه وتُخرج خرزه فيُتعبك ولا يُجدي عليك، فهو كالغائص في غير مواطن الغوص، وكالَّذي يصنع المواعيد الكاذبة، ثم لا يوفي بها، فيُطال العناء ويكثر الجهد، وينكشف المعنى عن غير طائل ولم يحصل منه إلاَّ

(١) المصدر السَّابق، (ص: ١٣٩ – ١٤١).
(٢) يُنظر :"دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:١٢٤، ١٢٥)، ، بتصرُّف.
(٣) "أسْرَار البلاغة"، (ص: ١٤٢).

النَّدم، فلا يجد ثمرة وراء تعبه في تقديم وتأخير وإضمار وحذف وغير ذلك من الألغاز والتَّعمية، فقال:" هذا،وإنما يزيدك الطلب فرحًا بالمعنى وأنسًا به،وسرّورًا بالوقوف عليه،إذا كان لذلك أهلاً، فأمَّا إذا كنت معه كالغائص في البحر،يحتمل المشقة العظيمة،ويخاطر بالروح،ثم يخرج الخرز،فالأمر بالضدّ ممَّا بدأت به.ولذلك كان أحقّ أصناف التعقُّد بالذمّ ما يتعبك، ثم لا يجدي عليك، ويؤرِّقك ثم لا يُورق لك، وما سبيله سبيل البخيل الَّذي يدعوه لؤمٌ في نفسه،وفسادٌ في حسِّه،إلى أن لا يرضى بضعته في بخله،وحرمان فضله،حتى يأبى التواضع ولين القول،فيتيه ويشمخ بأنفه،ويسوم المتعرِّض له بابًا ثانيًا من الاحتمال تناهيًا في سخفه = أو كالَّذي لا يؤيِّسك من خيره في أول الأمر، فتستريح إلى اليأس، ولكنَّه يُطمِعك ويسحب على المواعيد الكاذبة، حتى إذا طال العناء وكثر الجهد،تكشَّف عن غير طائل،وحصلت منه على ندم لتعبك في غير حاصل"[1].

ومن أمثلة ذلك التَّعقيد المذموم وذلك التَّعسُّف ما صنعه أبو تمَّام، فلم يهتدِ في بعض شعره إلى النَّحو، فيصلحه، وأغرب في ترتيب الألفاظ، فأعمى الإعراب وأساء العبارة، ورأى ذلك ثمرة مبتذلة ذميمة غير جليلة، فقال في ذلك :" وذلك مثل ما تجده لأبي تمَّام من تعسُّفه في اللَّفظ،وذهابه به في نحو من التركيب لا يهتدى النَّحو إلى إصلاحه، وإغراب في التَّرتيب يُعمى الإعراب في طريقه،ويُضلّ في تعريفه، كقوله:

ثانيهِ في كَبِدِ السماءِ ولم يكنْ لاثْنينِ ثانٍ إذْ هُما في الغَارِ

وقوله:

يَدِي لمنْ شاءَ رَهْنٌ لمْ يَذُقْ جُرَعًا مِنْ راحَتَيْكَ دَرَى ماالصَّابُ والعَسَلُ"[2]

(١) المصدر السَّابق، (ص: ١٤٢– ١٤٣).

(٢) المصدر نفسه، (ص:١٤٣).

الشَّاهِد الرَّابع والثلاثون[1]، قول أبي تمَّام:

ثانيـــهِ في كَبِـــدِ الســـماءِ ولم يكـــنْ لاثنْـــينِ ثـــانٍ إذْ هُمـــا في الغَـــارِ[2]

شبَّه التئام الرجليْن في مقام الصلب، بصورة التئام والتحام رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وصاحبه في الهجرة وخاصَّة في غار ثور، ووجه الشَّبه صورة ممثَّلة في الالتئام والالتصاق بعضهما بعض، وقصيدة هذه الأبيات قالها الشَّاعر يمدح فيها المعتصم بالله عندما قتل الأفشين وبابك الخرمي[3]ومازيار، فالرجلان الآخران صُلبا متجاوريْن، وهما اللَّذان قيل فيهما هذا الشَّاهِد، وقبله:

ولقـد شـفى الأحشـاء مـن برحائهـا أن صـــار بابـــك جـــار مازيـــار

وهما المقصودان في قوله: (ثانيه في كبد...) وهما مذمومان غير صالحيْن وقد صُلبا، أمَّا (الاثنيْن) الَّذي نفى الشَّاعر اتصاف بابك وصاحبه بهما، فهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، وهما في المقابل محمودان، وشرَح أبو العلَّاء المعري البيت، ومال وانحاز إلى أبي تمَّام، بل ودافع عنه، واتَّسم شرحه بتعدُّد الروايات لتخريج المعنى، فإذا كانت الرواية كذا، فالمعنى كذا، وإذا كانت كذا، فالمعنى كذا، والمعرّي مشهود له بقدرته اللغوية، واعتمد التَّبْريزي وأكثر مَنه في شرحه فقال عن الشَّاهِد:" (لاثنين ثان): رديء عند البصريين؛ لأنَّه جاء بالمنصوب في لفظ المخفوض، وذلك عند الفرَّاء لغة للعرب، وإن رويت (ثانِيَ) بفتح الياء من غير تنوين فهو ضرورة أيضًا، وإن أثبتَّ التنوين وألقيت عليه حركة الهمزة في (إذ) وهو

(١) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:١٤٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٠٧/٢)، ومطلع القصيدة:

الحـــقُّ أبلـــجُ والســـيوفٌ عَـــوارِ فَحَـــذَارِ مِـــنْ أَسَـــدِ العَـــرِينِ حـــذَارِ

ملـكٌ غَـدا جـارَ الخلافـة مـنكُمُ واللهُ قـد أوصـى بِحِفْـظِ الَجـارِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله ويذكر أمر الأفشين وهو خَيْذر بن كاوُس.

(٣) والأفشين لا يعنى بالدِّراسة؛ إذْ إن بيته الذي صرَّح بمقتله في البيت التاسع عشر من القصيدة، وبابك الخرمي الذي ثار على الخلافة.

مذهب ورش في القراءة فلا ضرورة فيه...ومن روى (ثالثًا) "[1]، فأراد أن يخلُص من الضَّرورة، فنوَّن ونقل كسرّة الهمزة من (إذ) إلى التَّنوين"[2]، والحاجة ملحةٌ أنْ يتطرَّق الشَّرح إلى التَّخريجات النَّحوية العميقة داخل الشَّاهِد، وهي كالتَّالي:

يريد أبو العلَّاء أن قول أبي تمَّام: (لاثنينِ ثانٍ) رديء عند البصريِّينَ، بل عدَّه الآمِدِيّ من الُّلحون[3]، وذلك أنَّ معنَى البيتِ أنَّ (بابَك الخُرَّميَّ) صار ثانيَ (مازيَّار) في الصَّلب، إذْ كان مازيَّار قد صُلب قبله. وأراد بقوله: (في كبِد السَّماء) أنَّهما معلَّقان في وسط السماء بعد صلبهما، ثم تذكر أبو تمَّام قوله تعالى:{ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ}[التوبة:٤٠]، فأراد أن يبيِّن أنه شتَّان بين من يكون ثانيَ اثنينِ في الصَّلبِ، ومَن يكون ثانِي اثنينِ في الغار، يعني أبا بكر رضي الله عنه، فالأول رذيلة، والثَّاني فضيلة، وهذا تكلُّفٌ لم يستدعِه المعنى.

وقوله: (لاثنينِ ثانٍ) ضعيف من جهة النَّحو، لأنَّ (ثانٍ) خبر (يكن) منصوب، واسمها ضمير مستتر يعود على (بابَك)، أي: ولم يكن (بابَك) ثانٍ لاثنينِ. والوجه أن يقول: (ثانيًا لاثنينِ)، لأن (ثانيًا) اسم منقوص، أي: معتلُّ الآخر بالياء، والاسم المنقوص إنما تحذف ياؤه في الرفعوالخفض، ولا تحذَف في النصبِ؛ علَى أنَّ هذا ما أجازَه أبو حاتم السجستاني (ت:٢٥٥هـ)وذكر أنَّه لغةٌ لبعض العرب[4]، وخصَّه المبرد (ت ٢٨٥هـ) بالشِّعْر، وعدَّه من أحسنِ الضَّرائرِ[5]، فهذا وجهٌ في رِواية البيت.

(١) قال الصولي:"ويروى لاثنين ثالثًا".

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٠٧/٢).

(٣) يُنظر:"الموازنة"، (٣٠/١).

(٤) يُنظر:"التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل"، لأبي حيان الأندلسي(٢١٤/١)،حققه: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

(٥) يُنظر:"المحصول في شرح الفصول"، لابن إياز البغدادي، (١٥٢/١)، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

والوجهُ الثَّاني: أن يكون (لاثنينَ ثانيَ إذ)، وهذا ضرورةٌ قبيحةٌ، لأن (ثاني) اسم مصروف ينبغي أن يلحَقه التنوين.

والوجه الثَّالث:أن يكون (لاثنينِ ثانيًا اذ) بجعلِ همزةِ القطع همزة وصلٍ، أي: بكسرّ التنوين، وحذفها في الوصل، وهذا مذهب حسن، ولا ضرورة فيه، وهو أحسن الوجوه إلا أنَّه من استحسان الشُّراح، ولعلَّه لم يُرَ عن أبي تمَّام.

والوجه الرابع:أن يكون (لاثنينِ ثالثًا اذ) و وهو كالوجه السابق، إلاَّ أنّ المعنى يختلف.

فهذا تفسير التركيب النحوي؛ لأن الشَّيخ عبد القَاهِر تعرَّض لمعنى الشَّاهِد وتعسُّفه في اللَّفظ أولًا، وذهاب الشَّاهِد في نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ثانيًا، فقصد التعقيد.

وعدَّ عبد القَاهِر هذا الشَّاهِد على أنَّه من أحقّ أصناف التَّعقيد ذمًا، فهو الَّذي يُتعبك ثم لا يُجدي عليك، ويؤرِّقك بالفكر والتعب الذهني ثم لا يروقك[1]. وفي ظنّ الدَّارس أنَّ بيت أبي تمَّام هذا ركيك بعض الشيء؛ إذ كيف يصف أناس فجرة، جمعهم بالصفة الثَّنائية الخارجية المشتركة، وشبَّههم بخير من وطأتْ قدَّمه الثرى –صلّى الله عليه وسلّم– وصاحبه الصديق –رضي الله عنه–، فلا يُعقل هذا ألبته، وعلى كل حال، فيتَّفق الدَّارس مع الشَّيخ في أنَّ العناء طال خلف هذا الشَّاهِد دون ثمرة معنى مُحصَّلة، أو غاية محقَّقة.

- **الشَّاهِد الخامس والثلاثون [2]، وقوله:**

يَدِي لمنْ شاءَ رَهْنٌ لمْ يَذُقْ جُرَعًا مِنْ راحَتَيْكَ دَرَى ماالصَّابُ والعَسَلُ[3]

(١) يُنظر:"أسْرَار البلاغة"، (ص:١٤٣)، بتصرُّف.

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٤٣).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/ ١١)، ومطلع القصيدة:

فَحْواكَ عَيْنٌ علىَ نَجْوَاكَ حَتَّامَ لاَيَتَقضَّى قَوْلُكَ الخَطِلُ !؟

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله.

وضع الشَّاعر يده رهنًا لدعوى أكَّدها في عجز الشَّاهِد، بأنَّ الَّذي لم يذُق طعم (الصَّاب) وهو شجر مرّ، استِعَارة منه على بطش وقوّة الممدوح، وأنَّها تذيق صاحبها المرارة، وكذلك أنَّ من لم يذُق (العسل) استِعَارة بعطاء الممدوح، وقوله (من راحتيْك) اليمين والشِّمال، فهذه كناية الخير والبذل، وتلك كناية البطش والحزم، فيدُ أبي تمَّام رهن لمن لم يصدِّق هذا القول.

وموطن ذم عبد القَاهِر للشاهد يعود إلى التركيب النَّحوي للأبيات، فحذف حرف النفي (لا) من الفعل (دَرَى)، فالتَّقدير (لا أدرى)، وعليه تقول العرب، فتحذف حرف النَّفي للعلَّم به والمعنى مضمّن للقسم، فكأنَّه قال: (والله لا أدرى مَن لم يذُق جرعًا من راحتيْك)، ومهما يكن من أمر، فالتَّعقيد في البيت أمره واضح بيِّن، وليته فعل كما فعل في البيت الَّذي قبله:

شَرَسْتَ بل لنْت بل قايَنْتَ ذاك بذا فأنت لا شكَّ فيك السهلُ والجبلُ

فأبو تمَّام يصف الممدوح أولًا بالشراسة؛ وهي ضد اللِّين، ثم وصفه باللِّين، ثم قال (قاينت): أي خلطت ذاك بذا؛ أي أنَّ الممدوح متراوح بين القوّة على الأعداء واللِّين للمؤمنين والأصدقاء. وفي ظنِّ الدَّارس أنَّ أبا تمَّام مهَّد هذا البيت للشَّاهد، فكأنَّه يقول مَن لم يصدِّق بذلك، فيدي رهن لكذا وكذا....، ولذلك فالشَّاهِد له سياقاته المعتبرة الَّتي لا يمكن لأحد أنْ يغفل عنها، أو ببتره من لُحمة مترابطة من الألفاظ والمعاني الَّتي تتلاحم لتخرج صورة مشتركة، ومعاني صغرى؛ لتخدم معاني كبرى.

واستشهد به الشَّيخ على ما سبق من ذمِّ التَّعقيد في اللَّفظ والمعنى، فالمعنى يطول العناء في طلبه، ويكثر الجهد في غير طائل، ويحصل المرء على ندم التعب في غير حاصل، ورحم الله الشَّيخ؛ فقد جرى الدَّارس خلف هذا البيت، وفتَّش بين ألفاظه

ومعانيه، علَّه أنْ يحصِّل ما يبلِّل تعب لهثه، فكانت النَّتيجة مسبوقة الدفع بحاصل كلام الشَّيخ، فالجهد كثر في غير طائل، وأمَّا اللَّفظ، فالتَّعقيد أفسده وشتَّت معناه.

فالسَّبب الثَّالث من أسباب تأثير التَّمثيل مرتبط بالسَّبب السَّابق، فالتَّمثيل يلطف ويدقُّ، وتكون حاجته إلى إعمال الفكر، إذا كان الطَّرفان متباعديْن متنافريْن، أمَّا الأشياء المتقاربة في الجنس والنَّوع، فهي مستغنية عن التَّفكُّر والتَّأمُّل؛ لظهور وجه الشَّبه بينها، فالجمع بين المتنافرات عنوان جودة قريحة الشَّاعر، ودليل الحذق يحتاج إلى دِقَّة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر بإيجاب الفضيلة للتَّمثيل(١). وهذه اللَّطيفة ذكرها الشَّيخ عبد الهادي العدل وتُحسَب له؛ فهو ممَّن قرأوا الأسْرَار والدلائل وفهموها حقَّ الفهم ولم يخرج عن مضمونها. وقد صدق فيما قاله، وهو عين النَّظر بدقائق المسائل وارتباط ثانيها بأولها وثالثاها بثانيها، هكذا كان الشَّيخ عبد القَاهِر يعلِّم القارئ لكتابيْه

(١) يُنظر :"دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:١١٧، ١١٨)، بتصرُّف.

المطلب الثَّالث:" فرق بين التَّشبيه والاستِعَارة،وما يجوز فيه إسقاط ذكر المشبَّه "

عقد الشَّيخ عبد القَاهِر فصلًا عظيمًا اتَّكأ عليه البلاغيون والنُّقاد من بعده في الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة، وفصَّل القول في صفحات شغلت كتابه العظيم "أسْرَار البلاغة"، حتَّى أنَّ السَّكَّاكي والخطيب أكثرا النَّقل عن عبد القَاهِر في هذه المسألة الشَّائكة. وحاصل قوله في هذه النُّقطة على وجهيْن:

الوجه الأول: أن يُسقط ذكر المشبَّه، ويعلم أنَّك أردت في قولك: (عنَّت لنا ظبية)، وأنت تريد امرأة، فهذه استِعَارة واضحة لانعدام وجود المشبَّه في الظَّاهر، وأصل اللُّغة تَعرف هذا ولا تُنكِره(١).

الوجه الثَّاني: أن تذكر كل واحد من المشبَّه والمشبَّه به، فتقول: (زيد أسد)، ففي هذا شبه بالاستِعَارة، ثم ذكر قول القاضي الجرجاني ورضيه؛ لاقتضاء القياس أن هذا المثال تشبيه لا استِعَارة، حيث قال:" اعلم أن الوجه الَّذي يقتضيه القياس، وعليه يدلّ كلام القاضي في الوساطة،أنْ لا تطلق الاستِعَارة على نحو قولنا: "زيد أسد" و"هند بدر"، ولكن تقول:هو تشبيه،فإذا قال: هو أسد، لم تقل: استعار له اسم "الأسد"، ولكن تقول: "شبَّهه بالأسد""(٢).

فقدَّم عبد القَاهِر مقدِّمة في دخول أداة التَّشبيه على الاستِعَارة، فذكر أنَّ الاستِعَارة الصحيحة لا يحسن دخول أداة التَّشبيه عليها؛ لأنَّ القوّة في التَّرابط والاتِّصال بين المشبَّه والمشبَّه به الَّذي سمِّاها الأصل والفرع، والاتِّحاد بينهما حقٌّ كأنَّه إيَّاه، ومثَّل لها بأنَّك تستعير العِلم والإيمان للنُّور والجهل للظلام، ولا تقول كأنَّه نور

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٢٠).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:٣٢١).

وكأنَّه ظلام، فـ"الاستِعَارة" الصحيحة: مالا يحسن دخول كلِم التَّشبيه عليه. وذلك إذا قوى الشَّبه بين الأصل والفرع،حتى يتمكَّن الفرع في النَّفس بمداخله ذلك الأصل والاتِّحاد به،وكونه إيَّاه. وذلك في نحو "النور" إذا استعير للعلَّم والإيمان، و"الظلمة" للكفر والجهل.فهذا النحو لتمكُّنه وقوة شبَّهه ومتانة سببِه،قد صار كأنه حقيقة،ولا يحسن لذلك أن تقول في العِلم: "كأنه نور"، وفي الجهل: "كأنه ظلمة" "[1].

فعبد القَاهِر ذكر شاهد أبي تمَّام مبينًا البيان الشَّافي أنَّ بين التَّشبيه المحذوف الأداة في قولك: (زيد أسد) والاستِعَارة في قولك: (رأيت أسدًا) أنَّ بينهما تباينًا شديدًا، ففي التَّشبيه حين تذكر المشبَّه باسمه أولًا (زيد) ثم تُجري اسم المشبَّه به عليه (أسد)، وهذا الإجراء؛ أي دخول المشبَّه به على المشبَّه لا يصلح في الاستِعَارة "حتى كلما كان مكان الشَّبه بين الشيئيْن أخفى وأغمض وأبعد من العرف،كان الإتيان بكلمة التَّشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال"[2]. ثمَّ مثَّل بهذا الشَّاهِد، وعبد القَاهِر جعله فرقًا شافيًا شافيًا بين التَّشبيه والاستِعَارة فقال:" وممَّا يجب أن تجعله على ذكر منك أبدًا،وفيه البيان الشَّافي: أن بين القسميْن تباينًا شديدًا = أعنى بين قولك:"زيد أسد" وقولك: "رأيت أسدا" وهو ما قدَّمته لك = من أنك قد تجد الشيء يصلح في نحو:"زيد أسد"، حيث تذكر المشبَّه باسمه أولاً، ثم تُجري اسم المشبَّه به عليه، ولا يصلح في القسم الآخر الَّذي لا تذكر فيه المشبَّه أصلًا وتطرحه"[3]، ثمَّ استشهد عبد القَاهِر بقول أبي تمَّام.

الشَّاهِد السادس والثلاثون[4]، وقول أبي تمَّام:

وكـــان الـــمَطْلُ في بَـــدْءٍ وعَـــوْدٍ دُخانًـــا للصَّـــنِيعةِ وهـــي نـــارُ[5]

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٣٢).
(٢) المصدر نفسه (ص:٣٣٣).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٣٣٣).
(٤) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٣٣٣).
(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، ، (١٥٩/٢).

شبَّه المطل بالدُّخان، والصَّنيعة بالنَّار، ووجه الشَّبه الخلوص من المكروه الَّذي يحيط المعروف والخير، فالنَّفس تحب لها الخير معجَّلًا، كما أنَّهم يحبون النَّار لصلاح معيشتهم بدون دخانٍ يُنغِّصُ عليهم حياتهم، فهو تشبيه مفروق؛ لأنه فرَّق بين التَّشبيهات، فجاء كل مستقلًا عن صاحبه، فـ" يؤتى بمشبَّه ومشبَّه به ثم بمشبَّه ومشبَّه به، أو بأكثر من ذلك"(١)، وهو من أنواع التَّشبيه الَّذي يغمض ويخفى ويدقّ فيه وجه الشَّبه، فجاء وجه الشَّبه أكثر استعمالًا، والشَّاعر صرَّح بذكر المشبَّه وأوقع المشبَّه به خبرًا عنه، فـ" تتأدَّى بالمطل، كما يتأدَّى بالدخان، فكما أنَّ المحمود من النار أن تخلص من الدخان، كذلك المحمود من العطاء، خلوصه من المطل"(٢). وفي ذلك قال عبد القَاهِر:" قد شبَّه المطل بالدُّخان،والصَّنيعة بالنَّار،ولكنَّه صرَّح بذكر المشبَّه،وأوقع المشبَّه به خبرًا عنه،وهو كلام مستقيم"(٣)، ثم استدرك الشَّيخ هذا المسلك للتَّشبِيه، فاقترح إسقاط ذكر المشبَّه وإبقاء المشبَّه به وإقامته مكانه حتى تصبح استِعَارة تصريحية، وحصل إيجاد وجه الشَّبه بين المقصود وما تستعير اسمه له، فبيَّن العِلم والنُّور شبه، فيمكن أن يُستعَار لكل مكان الآخر، وكذلك بين المرأة والظبية شبه، وهذا تعرفه العادة، وهذه الفكرة بيَّنها الشَّيخ، حين قال:" إن اطِّراح ذكر المشبَّه والاقتصار على اسم المشبَّه به، وتنزيله منزلته، وإعطاءه الخلافة على المقصود، إنما يصحّ إذا تقرَّر الشَّبه

والقصيدة من البحر الوافر ومطلعها:

نـــــوارٌ فـــــي صـــــواحبها نـــــوارُ كمـــــا فاجَاكســـــرّبٌ أو صـــــوارُ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع والعشرون، قاله أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة.

(١) "بغية الإيضاح"، (ص:٤٢٩).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٥٩/٢).

(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٣٣).

بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له، وتستبينه في الدِّلالة،وقد تقرَّر في العرف الشَّبه بين النَّور والعِلم..."[1].

ثم التفت الشَّيخ إلى أبي تمَّام، فذكر أنَّ العُرف لم يجرِ أنَّ بين (الصَّنيعة والنَّار) شبه فتجرى عليهم الاستِعَارة، وبيَّن أنَّها من تمحلات وتكلف الشَّاعر، فعندئذٍ لا تجوز الاستِعَارة، بل يذكرون جميعًا المشبَّه والمشبَّه به، وحتى لا يكون الكلام غامضًا، كمَن يشبَّه رجلًا بزيد في العِلم، ثمّ يحذف الرجل ويحلّ مكانه زيد، فيقول: (عندي زيد) استِعَارة، فهذا تكلُّف، وعليه يقول الشَّيخ:" ولم يتقرَّر في العرف شبه بين الصنيعة والنار، وإنما هو شيء يضعه الآن أبو تمَّام ويتحَّمله،ويعمل في تصويره،فلابدَّ له من ذكر المشبَّه والمشبَّه به جميعًا حتى يُعقل عنه ما يريده، ويبيِّن الغرض الَّذي يقصده، وإلاَّ كان بمنزلة مَن يريد إعلام السَّامع أن عنده رجلاً هو مثل زيد في العِلم مثلاً،فيقول له:"عندي زيد" ويسومه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول: "عندي رجل مثل زيد"،... وذلك تكليف علم الغيب"[2].ثمَّ ختم القضيّة أنَّ التَّشبيه والاستِعَارة كل له مجرى يجري فيه، ولا يستويان في القضية، فقال:" فاعرف هذا الأصل وتبيَّنه، فإنَّك تزداد به بصيرة في وجوب الفرق بين الضربيْن، وذلك أنَّهما لو كانا يجريان مجرى واحدًا في حقيقة الاستِعَارة، لوجب أن يستويا في القضية،حتى إذا استقام وضع الاسم في أحدهما، استقام وضعه في الآخر، فاعرفه"[3].

(١) المصدر السابق، (ص:٣٣٤).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٣٣٤).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٣٣٤).

المطلب الرابع: "شواهد مسائل المعاني التَّخيلية "

اتَّضح في المطالب السَّابقة أنَّ الشَّيخ عبد القَاهِر بذل جهدًا في التَّنْقيب والتَّفْتِيش، وبناء فكرة من فكرة سابقة لمسائل التَّشبيه، فبعد أن انتهى من الفرق بين الاستِعَارة والتَّمثيل، أتى بفصلٍ ظاهره يقطع بعدم صلته بالتَّشبيه والاستِعَارة؛ سماه:(في الأخذ والسرّقة وما في ذلك من التَّعليل وضروب الحقيقة والتَّخييل)، فما هذا الفصل الَّذي عناه الشَّيخ وذكر فيه المعاني العقلية والتَّخيلية، وهل له صلة بالتَّشبيه أو الاستِعَارة؟

فعند تقليب فصول "أسْرَار البلاغة"، يئست ممَّا أنا فيه، حتى اهتديت إلى كلام الشَّيخ أبي موسى –قدَّس الله روحه–، فلقد أشار بكلمات معدودات إلى أهمية وصلة هذا الفصل ولا سيما القسم التَّخيلي بالتَّشبيه والاستِعَارة، فأمَّا التَّشبيه فقد بيَّن أنَّ البلاغيين –وهو يقصد الشَّيخ عبد القَاهِر– أشاروا إلى ضرب آخر من ضروب التَّشبيه، ثم جلب عبد القَاهِر لمسائل التَّشبيه شواهد من شعر أبي تمَّام، واستحسن الشَّيخ عبد القَاهِر صورها وكيفية أدائها، وفيها من دِقَّة الصَّنْعَة، وهذا ضرب من ضروب التَّشبيه، فقال: "وهو فرع من فروع التخييل أو الأقيسة الشِّعْرية الَّتي يسوقها الشِّعْراء ويحدثون بها ضربًا من الإقناع الأدبي"(١)، وأغلب مسائل هذا الفصل متَّصلة بالتَّشبيه، وأمَّا الاستِعَارة، فقد ذكر الشَّيخ عبد القَاهِر شاهدًا واحدًا من شعر الطَّائي على مسألة ترشيح الاستِعَارة وتناسي التَّشبيه في سياق تخييل بغير تعليل، فجعلته في الفصل الثَّاني تابعًا لشواهد الاستِعَارة؛ هذا من جهة.

(١) "التَّصوير البياني"، محمد محمد أبو موسى، (ص:١٧٩)، مكتبة وهبة بالقاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

ومن جهة أخرى، فقد بيَّن الشَّيخ محمد أبو موسى أنَّ من التخيل ما هو امتداد لهما في حديث طويل، ضمَّنه بمثال للطائي، فقال –حفظه الله– في هذا الفصل:" هذا باب جيّد وبحث عبد القَاهِر فيه من أمتع البحوث ومحتاج إلى استخراج؛ لأنه كله في صنعة الشِّعْر، وقد دخل منه إلى باب التَّشبيه والاستِعَارة، كما دخل إليه، من هذا الباب نفسه؛ لأنه من التخيُّل ..."[(١)]، فالوقوف على معاني الشِّعْر، وألفاظه، وألفاظه، ومقاصده؛ تهدي إلى تشبيهات واستعارات، كما أنها تمثل بالشِّعْر الَّذي يحوي بعض أمثلة تلك الأصول.

فمزج الشَّيخ في هذا الفصل بين مسائل للتَّشبِيه وأُخرى للاستِعَارة، وعلى ذلك يبدأ الدَّارس بمسائل التَّشبيه، فقد ساق لها الشَّواهِد الكثيرة من شعر أبي تمَّام، ثم قسَّم الشَّيخ عبد القَاهِر المعاني الشِّعْرية إلى قسميْن:عقليةوتخيلية، تمهيدًا للحكم على السَّرقات الشِّعْرية، فقال:"اعلم أنَّ الحكم على الشَّاعر بأنه أخذ من غيره وسرّق، واقتدى بمَن تقدَّم وسبق، لا يخلو من أنْ يكون في المعنى صريحاً، أو في صيغة تتعلَّق بالعبارة. ويجب أن نتكلَّم أولاً على المعاني، وهي تنقسم أولا قسميْن: عقلي وتخييلي"[(٢)]، وهنا لفتة من الشَّيخ أبي موسى على تقسيم عبد القَاهِر للمعاني الشِّعْرية، الشِّعْرية، فقال:"إنَّ تقسيم الشَّيخ المعاني إلى عقلية ليس جامعًا لمعاني الشِّعْر"[(٣)].

ثم إنَّ القسم العقلي مجراه في الشِّعْر والكتابة والبيان، كقول الله تعالى:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحُجُرات:١٣]، وكقول رسول الله ﷺ:﴿من أبطأ به عمله لم يسرّع به نسبه﴾[(٤)]، وكقول الشاعر:

---

(١) "مدخل إلى كتابي عبد القَاهِر الجرجاني"، محمد محمد أبو موسى، (ص:١٩٢)، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٦٣).

(٣) "مدخل إلى كتابيْ عبد القَاهِر"، (ص:١٨٨).

(٤) "سنن الترمذي"، محمد بن عيسى الترمذي، (٤٥/٥)، تحقيق: محمد بشار عواد معروف، النَّاشِر: دار الغرب الإسلامي ، بيروت، د.ط، ١٩٩٨م.

ومـــا الحســـب المـــوروث لا درَّ درُّه بمحتســـب إلا بـــآخرَ مكتســـب[1]

"وفي هذا الباب تُجمع فيها النَّظائر، وتذكر الأبيات الدالة عليها، فإنها تتلاقى وتتناظر، وتتشابه وتتشاكل، ومكانه من العقل ما ظهر لك واستبان، ووضح واستنار"[2]، وهذا وهذا المعنى المعقول توافقت آراء العقلاء المنصفون أنَّ جميعها صحيحة، ثم لا تُعنى الدِّراسة بهذا القسم، فلم يحتوِ على شاهدٍ من شعر الطَّائي. والأهم من ذلك هو القسم الآخر؛ التَّخيلي؛ لأنَّه حوى شواهد كثيرة من شعر الطَّائي، ومسائل التَّشبيه في تلك الشَّواهِد على النَّحو التَّالي:-

أولا / شاهد القسم التَّخيلي وأنَّه مفتن المذاهب

وصف عبد القَاهِر هذا القسم في هذا الفصل بأنَّه ليس بالصِّدق، فيجيء مصنوعًا قد تُلطِّف فيه، واستعين عليه بالرِّفق والحذق، حتى أُعطي شيئًا من الحق، ويعلوه صدق بتمحُّل، وفيه تصنُّع وتعمُّل، وما تلك إلاَّ صفات مفتن المذاهب، واستشهد له من شعر الطَّائي، فقال:" وأمَّا القسم التَّخيلي، فهو الَّذي لا يمكن أن يُقال إنه صدق،وأنَّ ما أثبته ثابت وما نفاه منفى، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلاَّ تقريباً، ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً، ثم إنَّه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلطِّف فيه، واستُعِين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطى شبهاً من الحق، وغشى رونقاً من الصدق، باحتجاج تُمُحِّل، وقياس تُصنع فيه وتُعمل، ومثاله قول أبي تمَّام...[3]، والشَّاهد هو:

(١) يُنظر: "أسْرَار البلاغة"، (ص:٢٦٣-٢٦٤).
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٢٦٣).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٢٦٧).

الشَّاهِد السَّابع والثلاثون[1]، **وقوله:**

لا تُنكـري عطـلَ الكـريمِ مـن الغـنى فالسَّـيْلُ حَـرْبٌ للمكـانِ العـالي [2]

شبَّه خلو الرجل الكريم الَّذي تذهب أمواله الكثيرة من يده بالعطاء والكرم والإنفاق بخلو قمة الجبل من الماء، الَّذي لا يستقر ولا يمكث في الأماكن العالية، وفي ذلك يردُّ الشَّاعر على المنكر عليه، بأنه لا يُستغرب منه هذا الفعل، ثم قدَّم السَّبب بأنَّ الماء سَّيال، ويسمِّيها عبد القَاهِر العلَّة، فلا يمكن تقبُّل هذا كله إلاَّ بالتَّخيل. وقد جمع أبو تمَّام بين معنيَيْن بعيديْن في هذا التَّخيل والإيهام، وفي ذلك يقول الشَّيخ:" فهذا قد خيَّل إلى السامع أنَّ الكريم إذا كان موصوفًا بالعلو، والرِّفعة في قدره، وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه، وعظم نفعه، وجب بالقياس أن يزل عن الكريم، دليل ذلك السَّيل عن الطود العظيم. ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلَّة أن السَّيل لا يستقر على الأمكنة العالية، أن الماء سيَّال لا يثبت، إلاَّ إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال، شيء من هذه الخلال"[3]، فالعلَّة إذن أن الماء سَّيال، لا يثبت بسدّ، أو حاجز منيع، فكذلك المال لا يمكث بهذه الخلَّة والصِّفة عند الكريم، وسيتكرَّر هذا الشَّاهِد لمسألة أُخرى.

ثانيًا/ شواهد التَّخييل الشبيه بالحقيقة

ثم جاء الشَّيخ عبد القَاهِر للتَّخييل الشَّبيه بالحقيقة، وعدّه من النَّمط العدل والنَّمرقة الوسطى، فلا تنفر منه الطَّبائع والنَّفوس؛ لأنَّه ممزوج بحكم وآداب، فقال:"

(١) يُنظر: المصدر السَّابق،(ص:٢٦٧).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٧٧)،ومطلع القصيدة:

كُفـــي وغَـــاكِ ، فـــإنَّني لـــكِ قَـــالي ليســـتْ هـــوادي عزمتـــي بتـــوالي

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس من البحر الكامل، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن رجاء.

(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٦٧).

فالَّذي بدأت به من دعوى أصل وعلة في حكم من الأحكام، هما كذلك ما تركت المضايقة، وأخذ بالمسامحة، ونظر إلى الظاهر، ولم ينقَّر عن السرّائر، وهو النَّمط العدل والنمرقة الوسطى، وهو شيء تراه كثيرًا بالآداب والحكم البريئة من الكذب. ومن الأمثلة فيه قول أبي تمَّام..."[1]، واستشهد بأربعة شواهد من شعر أبي تمَّام، هي:

الشَّاهِد الثَّامن والثلاثون[2]، وقوله:

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اهتزاز قبل روض الوهاد روض الروابي[3]

شبه الشاعر إصابة الزمان ذوي الأحساب والرفعة بالرزايا والبلايا دون غيرهم ممن هم أقل منهم، بجفاف نبات المرتفعات والروابي قبل جفاف نبات الأودية والوهاد، بجامع النيل من أعالي كل شيء دون الأسافل، وقد جعل الإمام هذا التخييل شبيهًا بالحقيقة حين جعل أبو تمام البيت الثاني وهو (المشبه به) دليلًا على البيت الأول (المشبه)، وماقرره الشَّاعر في البيت الأول أمرًا ومسألة مهمة، تحتاج إلى دليل، وحجّة تؤيِّده، وهذا ما كان في البيت الثَّاني، فالأمر الَّذي أراده هو: أنَّ الزَّمان والدُّنيا ما دامت مريبة وخدَّاعة؛ فهي أحرى أن تؤذي، وتنال من ذوي الأحساب والمكارم، فهذا الأمر يحتاج إلى برهان يسنده، فذكر أنَّ النَّبات الَّذي يعيش في أعالي المرتفعات؛ يجفُّ نباته قبل الأودية، فالتَّشبيه هنا ضمني، جاء التَّمثيل في أعقاب المعاني، فوجه

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٧٦).
(٢) يُنظر: المصدر نفسه،(ص:٢٧٦).
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٣/٤)،.ومطلع القصيدة:
رَيْبُ دَهْرٍ أَصَمَّ دُونَ العِتَابِ مرصدٌ بالأوجالِ والأوصابِ
والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع والخامس من البحر الخفيف، قالها أبو تمَّام يرثي محمد بن الفضل الحميري، ويقال أبا العباس محمد بن عيسى الجرجاني.

الشَّبه أنَّ أعلى شيء أقرب للاضمحلال من الكسب وإبقاء المنفعة مع علوه وارتفاعه، وهذا تخييل شبيه بالحقيقة.

الشَّاهِد التَّاسع والثلاثون(١)، **وقوله:**

لَزِمُـــوا مَرْكَـــزَ النَّـــدى وذَرَاهُ وعـــدتنا عـــنْ مثـــل ذاكَ العـــوادي
غـــيرَ أنَّ الـــربى إلى ســـبل الأنـــوا ءِ أدنى والحـــظُّ حـــظُّ الوهـــادِ(٢)

شبه الشاعر وصول كرم الممدوح إلى الشاعر على الرغم من بعده عنه وحرمان من لزموا بابه بوصول الأنواء ومياه الأمطار إلى الوهاد والأماكن المنخفضة البعيدة، وحرمان الروابي والأماكن المرتفعة مع قربها من السماء، بجامع الوصول إلى البعيد دون القريب في كلٍ، وقد جعل أبو تمام البيت الثاني دليلًا على البيت الأول.

وهذا -كالشَّاهِد الَّذي سبقه- أنَّ النَّاس يتقرَّبون إلى الممدوح، ويلازمونه، وقد منعت الشاعر من قدومه (العوادي)؛ أي: الموانع، والحواجز، إلاَّ أن معروف الممدوح وخصيصته محفوظة للشَّاعر، ثم أظهر البرهان على هذه الحجَّة؛ بأن الرُّبى وهي أقرب إلى المطر لا يكون حظَّها كحظ الوهاد؛ وهي المنخفضات البعيدة عنها، والشَّاعر لم يُرِد بـ(الربى) العلَّوّ، بل الدنوّ من الغيث، ولم يرِد من (الوهاد) الانخفاض والهبوط، بل البعد مع الحظوة الكريمة النَّافعة، وهذا تخييل شبيه بالحقيقة، فذكر الشَّيخ هذا الشَّاهِد للتَّخييل الشَّبيه بالحقيقة، فقال:"وكذا قوله يذكر الممدوح قد زاده، مع بُعده عنه وغيبته، في العطايا على الحاضرين عنده اللاَّزمين خدمته:

(١) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"،(ص:٢٧٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٥٦/١)، ومطلع القصيدة:

سَـــعِدَتْ غَرْبَـــةُ النَّـــوى بِسُـــعَادِ فهـــيَ طـــوعُ الإتهامِوالإنجـــادِ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت العشرون والواحد والعشرون من البحر الخفيف، قالها يمدح أبا عبد الله احمد بن أبي دواد.

لَزِمُـــوا مَرْكَـــزَ النَّـــدى وذَرَاهُ وعـــدتنا عـــنْ مثـــل ذاكَ العـــوادي
غـــيرَ أنَّ الـــرُّبى إلى ســـبلِ الأنـــوا ءِ أدنى والحـــظُّ حـــظُّ الوهـــادِ

لم يقصد من الرُّبى ههنا إلى العلَّوّ، ولكن إلى الدُّنوّ فقط، وكذلك لم يرِد بذكر الوهاد الضَّعة والتسفل والهبوط، كما أشار إليه في قوله :

والسيَّل حربٌ للمكان العالي

وإنما أراد أنَّ الوهاد ليس لها قرب الربى من فيض الأنواء،ثم أنها تتجاوز الرَّبى الَّتي هي دانية قريبة إليها، إلى الوهاد الَّتي ليس لها ذلك القرب"[1].

ثم أتى بشاهد تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره، مع علة ظاهرة، هو:

– الشَّاهِدالأربعون[2]، وقوله:

لـيسَ الحِجـابُ بمقـصٍ عنـكَ لي أمـلاً إن الســماءَ تُرَجَّــى حــينَ تحتَجــبُ[3]

وفي ذكر البيت الَّذي قبل الشَّاهِد تبيان لكاف الخطاب وإفصاح للمعنى، فقال:

يـــا أيُّهـــا المِلـــكُ النّـــائِي بِرُؤْيتِـــهِ وجـــودُه لمرجـــي جـــودهِ كثـــبُ[4]

شبَّه الملك النَّائي عن أنظار النَّاس، المحتجب عنهم، فلايزالون يحسنون به الظنَّ، ويرتقبون منه البذل والعطاء بفعله ذلك، كالسَّماء عند تلبّد الغيوم، تحتجب عن الأرض، وقد جرت العادة أن نعمة الغيث صادرة عنها بأمر الله، فهذا تخييل شبيه

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:٢٧٦).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٧٧).
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٤٦/٤)،.ومطلع القصيدة:
صـــبراً علـــى المطـــلِ مـــالم يتلـــهُ الكـــذبُ فللخطـــــــوبِ إذا ســـــــامحتَها عقـــــــبُ
والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع من البحر البسيط، قالها يعاتب أبا دلف وقد حجبه، وقيل هي في عبد الله بن طاهر.
(٤) المصدر السَّابق، (٤٤٦/٤).

بالحقيقة، والعلَّة موجودة على ظاهر ما ادَّعى، والجمع بين المعنيَيْن احتجابًا مع ترقُّب الجود والعطاء والنِّعمة، وهذا تشبيه ضمني.

واستشهد به الشَّيخ على أنَّ من التَّخييل الشَّبيه بالحقيقة أنَّ العلَّة المتعلّقة به موجودة على ظاهر ما ادَّعى، فقال:"ومن هذا النَّمط، في أنه تخييل شبيهٌ بالحقيقة لاعتدال أمره، وأنَّ ما تعلق به من العلَّة موجود على ظاهر ما ادّعى، قوله:

لـيسَ الحِجابُ بمقصٍ عنكَ لي أملاً إن السماءَ تُرَجَّى حينَ تحتَجبُ

فاستِتار السَّماء بالغيم هو سبب رجاء الغيث، الَّذي يُعدُّ في مجرى العادة جودًا منها، ونعمة صادرة عنها"[1].

ثالثًا / شاهد تأول الصفة من غير علة يضعها الشاعر ويختلقها

ثم انطلق الشَّيخ يذكر ضروبًا من التَّخييل؛ كأن يذكر تأوُّل الصِّفة لعلَّة يضعها الشَّاعر، ونوعًا آخر بعكسه وهو تأوُّل الصِّفة من غير علة يضعها الشَّاعر ويختلقها، فمن ذلك فعلهم بتأوُّل الأمراض والحمِّيات، وأنها ليست بأمراض، لكنَّها أذهان متوقِّدة وعزمات، فمن ذلك تأولُّهم في الشَّيب، أنه ليس البياض في الشَّعْر، بل انتشار نور العقل والأدب[2]، كهذا الشَّاهِد:

الشَّاهِد الحادي والأربعون[3]، وقوله:

ولا يُرَوِّعك[4] إيماضُ القتير به فإنَّ ذاك ابتسامُ الرَّأي والأدب[5]

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:٢٧٧).

(٢) يُنظر :المصدر السَّابق،(ص:٢٧٧-٢٨٤)، بتصرُّف.

(٣) يُنظر:المصدر نفسه، (ص:٢٨٤).

(٤) وفي رواية الديوان بشرح التَّبْريزي: "ولايُؤَرقْكِ".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/١١٠)، ومطلع القصيدة:

أَبْدَتْ أَسىً أَنْ رَأَتْني مُخْلِسَ القُصَبِ وآلَ ما كانَ مِنْ عُجبٍ إلى عَجَبِ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس من البحر البسيط، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن سهل.

شبَّه توقُّد وانتشار الشَّيب في رأسه وهو محسوس، بنور وإشعاع العقل بالعِلم وهو معقول، ووجه الشَّبه الانتشار والإشعاع،فهو تشبيه محسوس بمعقول وفي ذلك يقول الشَّيخ أبو موسى:"إنَّ تلألؤ الشَّيب في رأسه، إنَّما هو إشعاعات العقل وإشراقات الحكمة وقوة الفطنة"(١)، وهذا تخييل وتأوُّل في الصِّفة من غير أن يكون معلول أو علَّة.

رابعًا / شاهد حسن التَّعليل التَّخيلي الشَّبيه بالسِّحر

بيَّن الشَّيخ أنَّ باب التَّشبيهات بأنواعها قد اتَّفق والتحم من طريقة التَّخييل، كأنَّه السِّحر في وصف لما بينهما من أواصر الرَّحم، فقال في ذلك:"وينبغي أن تعلم أن باب التَّشبيهات قد حظي من هذه الطريقة بضرب من السحر..."(٢)، ثم ازدلف الشَّيخ يذكر شواهدًا على ذلك السحر حتى أتى إلى المتأخِّرين من المحدثين، وذكر أنَّهم اتفقوا في هذا التعليل التخيُّلي غير المعلَّل أنَّ فيه نكتًا ولطائفَ، حيث قال: "وقد اتَّفق للمتأخِّرين من المحدثين في هذا الفن نكت ولطائف، وبدع وظرائف، لا يستكثر لها الكثير من الثناء، ولا يضيق مكانها من الفضل عن سعةالإطراء، فمن ذلك..."(٣)، ثمَّ غدا يسْتَشْهِدُ ويبثُّ الشَّواهِد، وينقد الألفاظ والمعاني، ويشرحها في قوة علمية أدبية رائعة، حتى جاء بشواهد من شعر البُحْتَري، وعلبة، وأبي تمَّام، والسرّي، فوصف قولهم أنه طراز في حسن التَّعليل التَّخيلي، ووازن بين أقوالهم، فقال:" وممَّا حقه أن يكون طرازًا في هذا النوع قولُ البُحْتَري:

يتعثَّـــــرن في النُّحـــــور وفي الأو جـــه سُـــكرا لمـــا شـــربن الـــدماء

جعل فعل الطاعن بالرماح تعثرًا منها، كما جعل ابن المعتز تحريكه للسيف وهزّه له ارتعادًا، ثم طلب للتعثُّر علة، كما طلب هو للارتعاد، فاعرفه.

ومن هذا الباب قول علبة:

(١) "التَّصوير البياني"، (ص:١٧٩).

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٨٤).

(٣) المصدر السَّابق، (ص:٢٨٦).

وكـــأن الســـماءَ صَـــاهَرَت الأر ضَ فصـــار النِّثـــارُ مـــن كـــافور

وقول أبي تمَّام:

كـأنَّ السَّـحَابَ الغُـرَّ غَيَّـبْنَ تَحتَهـا حَبيبـاً فمـا تَرْقَـا لَهُـنَّ مَـدَامِعُ

وقال السرّى يصف الهلال :

جـاءك شـهرُ السـرّور شـوالُ وغـال شـهر الصـيامِ مغتـالُ

ثم قال:

كأنـه قيـدُ فضـةٍ حَـرِجٌ فُـضَّ عـن الصـائمين فاختـالوا [1]

الشَّاهِد الثَّاني والأربعون[2]، وقوله:

كـأنَّ السَّـحَابَ الغُـرَّ غَيَّـبْنَ تَحتَهـا حَبيبـاً فمـا تَرْقَـا لَهُـنَّ مَـدَامِعُ [3]

الشَّاهِد متعلق بالبيت الَّذي قبله، وقد قُطع المعنى عن السِّياق، فلابدّ من ذكره، فقال:

ألا إنَّ صَـبْرِي مِـنْ عَزائـي بَلاقِـعٌ عشـيّةَ شـاقتني الـديارُ البلاقـعُ

شبَّه السَّحاب وهطول المطر على قبر الحبيب بالدُّموع الَّتي لا تجفّ، على أنَّه من باب التَّشبيه المضمر الأداة، ومن باب الموازنة بين تلك الأبيات، فكلُّ شاعر من هؤلاء الأربعة ادَّعى أنَّ للتَّشبِيه حقيقة، وأقام علّة على تشبيهه، إلاَّ أنَّ تشبيه الطَّائيين وعلبة جارٍ على الألسن معتاد، أمَّا تشبيه السرّي الهلال بالقيد، فلم تعتاده الألسن، وإنَّما اعتادت تشبيه الهلال بالسِّوار. وفي كل ذلك قال عبد القَاهِر:"كل واحد من هؤلاء قد خدع نفسه عن التَّشبيه وغالطها، وأوهم أنَّ الَّذي جرى العرف بأن يؤخَذ منه الشَّبه قد حضر وحصل بحضرتهم على الحقيقة، ولم يقتصر على دعوى حصوله حتى نصَّب له علة، وأقام عليه شاهدًا،فأثبت علبة زفافًا بين السماء والأرض، وجعل أبو تمَّام للسحاب حبيبًا قد غُيِّب في التراب، وادَّعى السرّيُّ أن الصائمين كانوا في قيد،

(١) المصدر نفسه،(ص:٢٨٩-٢٩٠).

(٢) يُنظر : المصدر السَّابق، (ص:٢٨٩).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(٥٨٠/٤)، ومطلع القصيدة:

ألا صـنعَ البـينُ الـذي هـو صـانعُ فـإنْ تَـكُ مِجْزاعـاً فمـا البَـيْنُ جـازِعُ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع من البحر الطويل، قالها أبو تمَّام يفخر بقومه.

وأنه كان حرجًا، فلمَّا فضّ عنهم، انكسرّ نصفيْن، أو اتَّسع فصار على شكل الهلال. والفرق بين بيت السرّيّ وبيتيْ الطَّائييْن، أنَّ تشبيه الثلج بالكافور معتاد عامي جارٍ على الألسن، وجعل القطر الَّذي ينزل من السحاب دموعًا، ووصف السحاب والسماء بأنها تبكى، كذلك. فأمَّا تشبيه الهلال بالقيد، فغير معتاد نفسه إلاَّ أن نظيره معتاد، ومعناه من حيث الصُّورة موجود"(١).

وبهذه الموازنة تظهر مقدرة عبد القَاهِر النَّقدية، وعلى كل حال، فهذه شواهد للتَّخييل من شعر المتأخِّرين المحدثين، والَّتي وصفها عبد القَاهِر بالطراز في حقها.

خامسًا / شاهد أنَّ للمعنى والفعل علَّة من علَّة أخرى

لم ينتهِ التَّعليل التَّخيلي، فقد أخرج عبد القَاهِر منه نوعًا غير تلك الأنواع، وهو أنَّ للمعنى والفعل علَّة من علَّة أخرى، واستشهد لهذا النَّوع:

الشَّاهِد الثَّالث والأربعون(٢)، وقوله:

ولم(٣) يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجْدُ في كَف امْرئٍ والدَّرَاهِمُ(٤)

شبَّه استحالة السَّالك إلى طريقيْن شرقًا وغربًا، الجامع بينهما في وقت واحد، كمن لا يجتمع المجد والشَّرف لرجل مع إمساكه المال، فالمجد والشَّرف والمعالي، والذِّكر الحسن، إنَّما تُكتسب ببذل النَّدى، ووجه الشَّبه انتفاء حصول المقصديْن في آن واحد، وهذا من التَّشبيه الضمني، وفي هذا النَّوع قال عبد القَاهِر:" أن يكون المعنى من المعاني

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٩٠).

(٢) يُنظر:المصدر السَّابق،(ص:٢٩٨).

(٣) وفي الديوان بشرح التَّبْريزي :"فلم".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٧٨/٣)، ومطلع القصيدة:

ألـمْ يـأن أنْ تـروى الظمـاءُ الحـوائمُ وأن يـنظمَ الشـملَ المشـتتَ نـاظمُ ؟!

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر من البحر الطويل، قالها أبو تمَّام يمدح أحمد بن أبي دواد.

والفعل من الأفعال علَّة مشهورة من علَّة أُخرى"[1]، ثم بيَّن أنَّه قد يتعمَّق في ادِّعاء العلَّة لكن "ممَّا يدفع عنه الاعتراض ويوجِب قلة الاحتفال به، أنَّ الشاعر يهمُّه أبدًا إثبات ممدوحه جوادًا أو توَّاقًا إلى السؤال فرحا بهم، وأن يبرئه من عبوس البخيل وقطوب المتكلّف في البذل، الَّذي يقاتل نفسه عن ماله حتى يُقال:"جواد" ومن يهوى الثناء والثراء معًا ولا يتمكَّن في نفسه معنى قول أبي تمَّام:

ولم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المِجْدُ في كَف امْرِئٍ والدَّرَاهِمُ

فهو يسرّع إلى استماع المدائح،ويبطىء عن صلة المادح. نعم، فإذا سُلِّم للشاعر هذا الغرض، لم يفكِّر في خطرات الظنون"[2].

ولما انتهى الشَّيخ من ذكر هذا النَّوع من التَّعليل، جعل من تبع شعر وطريقة أبي تمَّام يلحقه الضَّيم؛ لأنه لم يكن من المطبوعين على مستوى التَّشبيه والاستِعَارة، وهذه إحدى الرؤى والأحكام الَّتي أطلقها الشَّيخ على شعر أبي تمَّام، فقال في ذلك:" ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرًا من شأنه وطريقه طريق أبي تمَّام، ولم يكن من المطبوعين. وموضع البسط في ذلك غير هذا، فغرضي الآن أن أريك أنواعًا من التخيُّل، وأضع شبَّه القوانين؛ليُستعان بها على ما يراد بعد من التَّفصيل والتَّبيين"[3]. ولعلَّ هذه النَّظرة العميقة من الشَّيخ تُعطي الدَّارس إرهاصًا بالحكم على الأجناس البيانية في شعر أبي تمَّام.

سادسًا / "شاهد على إفصاح التَّشبيه وادعاء الحقيقة في المجاز"

بعد أن فرغ الشَّيخ من ذكر أنواع من التَّخييل، وتناسي التَّشبيه لأمر غير معلّل، وسرّد الشَّواهِد على ذلك، زحف ليخرج أنَّ من تناسي التَّشبيه ممَّا مداره على التَّعجب، ثم ذكر مذهبًا عكس مذهب التَّعجب، فكأنَّ المثال لا تشبيه ولا مجاز، وهو

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:٢٩٦).
(٢) المصدر السَّابق،(ص:٢٩٧-٢٩٨).
(٣) المصدر نفسه،(ص:٣٠١).

في كل أمرٍ يسْتَشْهِدُ ويدلِّل على تفصيله العجيب، حتى وصل إلى قضية إخفاء التَّشبيه وادِّعاء الحقيقة في المجاز، وعكسه من إفصاح التَّشبيه وادِّعاء الحقيقة في المجاز، وفي ذلك يقول في بيت" لابن أبي صفرة:

فقلت لأصحابي هي الشَّمسُ ضوؤها قريبٌ، ولكن في تناوُلها بُعدُ

"هي الشمس"كذا قولا مرسلًا يومئ فيه بل يُفصح بالتَّشبيه"[1]، وفي سياق حديثه عن عن إفصاح التَّشبيه وادِّعاء الحقيقة في المجاز، يجيء التَّنكير في القمر والهلال على هذا الحدّ، واستشهد بشواهد على ذلك يحلِّلُها، ويوازن بينها، فجاء بشاهد من شعر أبي تمَّام:

- **الشَّاهِد الرَّابع والأربعون**[2]، **وقوله:**

قريبُ النَّدى نائى المحلِّ كأنَّه هلالٌ قريبُ النُّورِ ناءٍ منازلُه[3]

شبَّه الشَّاعر الممدوح صاحب العطاء الفيَّاض المتدفِّق مع بعده عنهم، كالهلال نوره مستمر ومنازله بعيدة، ووجه الشَّبه القرب في الخير مع بعد المنزل والمكان، ومع ذلك وصفه عبد القَاهِر بأنَّه مُستكرَهًا نابيًا يتظلَّم منه المعنى وينكره؛ لأنَّه جاء بالهلال نكرة، يوحي بكثرة الأهلة، وعلَّل هذا الرأي بموازنة مع بيت البُحْتَري في نفس التَّشبيه والمعنى، لكن البُحْتَري تفوَّق عليه، فأتى بلفظة (البدر) معرَّفة بأل، قال الشَّيخ:"وممَّا أتى مستكرهًا نابيًا يتظلَّم منه المعنى وينكره، قول أبى تمَّام:

قريبُ النَّدى نائى المحلِّ كأنَّه هلالٌ قريبُ النُّورِ ناءٍ منازلُه

سبب الاستكراه، وأنَّ المعنى ينبو عنه:أنه يوهِم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم، أعنى أنه ينأى مكانه ويدنو نوره؛ وذلك محال= فالَّذي يستقيم عليه الكلام أن يؤتَى به معرَّفا على حدّه في بيت البُحْتَري:

---

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٠٧-٣٠٨).

(٢) يُنظر:المصدر نفسه، (ص:٣١٣).

(٣) قال الشيخ محمود شاكر: "ليس فيما بين أيدينا من ديوان أبي تمَّام ". وينظر: حاشية "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣١٣).

كالبـدر أفـرط في العلَّـو وضـوءه للعصـبة السـارين جـد قريـب"[1]

فوضَّح الشَّيخ سبب استكراهه شاهد أبي تمَّام؛ أنّ حديثه عن (الهلال) يوحي للمستمع أنَّ هناك أهلة غيره، لها أحكام، ومواضع غير هذا الهلال الَّذي ينأى بمكانه ولا يبقى، فلو عرَّف (الهلال)، لبدأ أنَّه المقصود، فـ " الاسم لا يكون نكرة حتى يعمَّ شيئيْن وأكثر، وليس هنا شيئان يَعُمّهما اسم القمر"[2]، وسبب تفضيل بيت البُحْتَري عليه، أنه أتى بلفظة (البدر) معرَّفة بأل، والشَّيخ نحوي يعرف ما الَّذي يدله التعريف والتنكير، وإن اعترض معترض في شاهد أبي تمَّام، فقال بالقطع ثم بالاستئناف، فـ(كأنه هلال) وسكت بعدها هنيهة، ثم يذكر بقية البيت:(قريبُ النُّورِ ناءٍ منازلُه)، وعلَّته في ذلك أن يتوهم السامع أنه (الهلال) المقصود بذلك، فلا أهلَّة غيره، فردَّ عليه الشَّيخ أنَّ من الممكن ذلك، غير أنَّ المعنى يشكو نبوء اللَّفظ وسوء ملاءمة العبارة، وعدَّ التفصيل في هذا الأمر ممَّا حقُّه أن يُفرَد له فصل لتحقيق المراد[3]. وممَّا يُستخلص من إرادة الشَّيخ التَّخييل من هذه الضروب المتنوّعة والمختلفة، يجزم باتِّصال خيط هذه الضروب بالتَّشبيه، فالتَّخييل مرتبط بمسائل وشواهد التَّشبيه والاستِعَارة، وقد بدا الأمر يتَّضح ويظهر في بعض تحليلات الشَّيخ للشَّواهد المختلفة، ومسائل هذا الفصل متَّصلة بعضها بعض، وهذا لا يُدرَك إلاَّ بدِقَّة التَّأمُّل، وأمَّا مزجه في هذه الفصول بين شاهد للتَّشبِيه وآخر للاستِعَارة؛ ما ذاك إلاَّ ارتباط بعضها برقاب بعض، وأنَّ سياق ترتيب الفصول عند الشَّيخ لم يَحُدِّده عبثًا، بل ساق بعد هذه الفصول فصلًا في (الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة) فما أعظم هذا الربط والفكر الَّذي لا يُدرَك قعره!

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:٣١٣).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:٣١٢).

(٣) يُنظر:المصدر نفسه، (ص:٣١٣)،بتصرُّف.

المطلب الخامس:"رؤية عبد القَاهِر الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام"

رأى عبد القَاهِر في شاعرية أبي تمَّام الأُنموذج اللَّائق لبعض تقريراته الَّتي سار عليها لترسيخها وبناء البيان، فـ"مذهب أبي تمَّام في الشِّعْر كان يقوم على كثير من الفنون البلاغية"(١)، وحشد الشَّيخ عبد القَاهِر النصوص التمَّامية -إنْ صحَّ هذا التعبير-؛ لتوظيف مذهبه في التَّشبيه توظيفًا ذوقيًا علميًا قياسيًا، وارتكزت ملاحظاته وإشاراته أحيانًا على نحو متوسط، مسلِّطة الحكم على الشَّواهِد بين المدح والذَّم، والأخذ والرَّد، كما أنَّه -رحمه الله- اتَّسع صدره لشعره كثيرًا.

وعند تجاوز الموقف من شعر الطَّائي بشكل عام وهذه الَّتي فعلها الشَّيخ، والوقوف على القضايا البيانية خاصَّة التَّشبيه والتَّمثيل في هذا الفصل، ثم الاستِعَارة في الفصل الثَّاني، ثم الكناية في الفصل الثَّالث، يمكن القول بتعيُّن القيمة الجمالية لتشبيهاته الَّتي وقف عليها الشَّيخ بالتَّحليل والتَّذوق في أغلبها، واستشهاداته في مواضع بيانية، ينذُر فيها النصّ أحيانًا حتى لا يوجد إلاَّ شعر الطَّائي الَّذي يصبح عمدة في تلك القضيَّة، فيرقى الاستدلال وموضع الاستشهاد بندرته لكشف تلك المسألة البيانية المسبوكة الَّتي صبَّها ذهن الشَّيخ.

وبالجملة كانت استشهادات الشَّيخ من شعر الطَّائي دعامات أصولية لقضية (النَّظم) الَّتي عاش الشَّيخ من أجل إحقاق القول السَّديد فيها، فتمَّ له ذلك. وممَّا سبق يمكن القول بأنَّ مفردات البيان خاصَّة التَّشبيه والتَّمثيل ومفاصلهما الدَّاخلية، وتفرقة الشَّيخ بينهما في ضوء تلك الشَّواهِد، يتَّضح فيها دور عبد القَاهِر الفكري؛ فـ" مضمون حديثه عن هذه الشَّواهِد يفوق كثيرًا ما كتبه عنها السابقون"(٢). ويمكن

(١) "البلاغة المُفْترى عليها"، (ص:١٣٠).

(٢) "الشواهد الشعرية في كتاب أسرار البلاغة -توثيق وتحليل بلاغي-"، عايد سليم الحربي،

ملامسة تلك الرُّؤية بربط عناصر المطالب السَّابقة بعضها ببعض ما أمكن ذلك، وإقامة علاقات ملائمة للكشف عن ذلك التَّصوُّر البياني؛ وفاءً بتوجيه الصياغة الجرجانية في ذلك.

وهذا المنحى رغم تقريريته ومعياريته الَّذي سيقوم به الباحث يتأتى بعدها الزعم بالوصول إلى عمق فكر الشَّيخ ولا ساحل لبحره، لانعدام الاقتدار، والإجادة، والإبداع، والقوة العِلْمِية بين الشَّيخ عبد القَاهِر والباحث، بيد أنَّ الدَّارس سيهتدي إلى فكر الشَّيخ بانصرافه إلى كتابيْه وكلُّ سفر ودراسة تتَّصل بجانب فكر الشَّيخ، وقد فعل ذلك.

وتُستخلص الرُّؤية من تلك المطالب بأنَّ مذهب عبد القَاهِر يقوم على أنْ "تتَّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأولٍ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النَّفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم، وفي حال ما يُبصَر مكانٌ ثالثٌ ورابعٌ، يضعهما بعد الأوليْن. وليسِ لما شأنهُ أن يجيء على الوصف حدٌّ يحصره، وقانون يحيط به، فإنَّه يجئ على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"[1]، والشَّيخ مطَّرد كذلك في مسائله، وقد كشفتُها في كل مطلب وهنا سيُلَمْلَمُ شتاتها.

ففي المطلب الأول، عرض الشَّيخ لمسألة: تشبيه الوجود بمنزل أدون من العدم، جاء ذلك في سياق حديثه عن الأصل الثَّالث؛ وهو أخذ الشَّبه من المعقول للمعقول، والشَّاهِدان جاء بهما عبد القَاهِر لبيان أنَّ أول ذلك وأعمُّه تشبيه الوجود وهو المحسوس من الشيء مرةً بالعدم وهو العقلي، ومرةً تشبيه العدم بالوجود؛ أي العكس، وأنَّ تنزيل الوجود منزلة العدم؛إذا أُرِيد المبالغة في حطِّ الشيء والوضع منه؛ كقولهم هو

(ص:٧٨٢)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية كليةاللغة العربية، د.ط، ١٤١٥هـ.

(١) "دلائل الإعجاز"، (ص:٩٣).

والعدم سواء، متمكِّن في العادات،وجرَّهم في ذلك الإيغال وحب السرّف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه؛ فوقعوا فيالتهوُّس، وقصد به أبا تمَّام، ثم ذكرت الاعتراض على أن هذا الباب لا يدخله التَّشبيه وجواب عبد القَاهِر لذلك السائل.

أمَّا المطلب الثَّاني، فمستوى العمق الفكري يختلف عن ذي قبله؛ لتناول التَّمثيل وأسباب تأثيره في النَّفس والمعاني الَّتي يجيء التَّمثيل في أعقابها، فقد اهتمَّ الشَّيخ بهذا المطلب وجوَّده وغاص بفكره وعقله لاستقصاء مباني التَّمثيل وما يتصل به، مستشهدًا بشعر أبي تمَّام الَّذي وجده الدَّارس أكثر من تدعيم أفكاره الَّتي نثرها في هذا المطلب.

ثم إنَّ الدَّارس قَسَّمَ هذا المطلب إلى أربعة أقسام؛ فالأول ذكر فيه تأثير التَّمثيل في النَّفس، والثَّاني وقوع التَّشبيه أو التَّمثيل الغريب واللَّطيف بين الطَّرفيْن المتباعديْن المتنافريْن، والثَّالث مجيء التَّمثيل بأشياء عِدَّة من الشيء الواحد، والرابع أحقّ أصناف التعقيد بالذمّ ما يتعبك ثم لا يُجدي عليك. وقد نقل السَّكَّاكي والخطيب تلك الشَّواهِد وضمَّنوها أسفارهم، ومن المحمود حقًا ارتباط هذه الأقسام بعضها ببعض، فالثَّاني يُبنى على الأوّل، والثَّالث على الثَّاني وهكذا، وهذه النَّظرة بشكلها العام.

ففي القسم الأول، استشهد عبد القَاهِر بثلاثة شواهد من عيون شعر أبي تمَّام وحِكَمه، وجعلها البلاغيون المتأخِّرون شواهد للتَّشبِيه الضمني، وأرجعها عبد القَاهِر وعلَّقها بالنَّفس، فلِمَ كان للتَّمثيل هذا التَّأثير؟؛ لأنَّه حلاَّها بنقلها من خفي إلى جلي، ومن العقل إلى الاحساس. وأفاض الدَّارس في المطلب شرحًا وتفصيلًا واستجلاءً لمراد الشَّيخ، ومدى تكامل فكرته بكشف تلك الأسباب، فحلَّل الشَّواهِد لإبراز القيمة الفنيَّة. وفي تصوُّري أنَّ الشَّيخ يحلِّل بعض الشَّواهِد تحليلًا فنيًا؛ قاصدًا من ذلك تصوُّر الجمال البلاغي في الشِّعْر، فكيف بالدلالات وسمات المفردات والتَّراكيب القرآنية الَّتي سمَّاها النَّمط العالي[1]، والمثل الأعلى للبلاغة العربية؟ فقد ملكت عليه وجدانه وعقله

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٩٥)، بتصرُّف.

وحياته، فراح يعتني بإجابة سؤال: أين يكمن الإعجاز في القرآن الكريم؟ فأحدث السُّؤال سفريْن عظيميْن، ملآ المكتبات خصوبة وثراءً.

أمَّا القسم الثَّاني، فمن أسباب تأثير التَّمثيل التحام الطَّرفيْن المتباعديْن والتَّاليف بينهما، فقد استشهد بشاهديْن من شعر أبي تمَّام لون بلون، (أبيض، أسود)، وهيئة بهيئة (غرَّة، بهمة)، ولكنَّه التئام الأضَّداد وعمل التَّشبيه التَّمثيلي وما يحدِثه في النَّفس.

وأمَّا ثالثًا، فذكر طرائف التَّمثيل وعجائبه في مجيئه بأشياء عِدَّة من الشَّيء الواحد، واستشهد بشاهد واحد لأبي تمَّام في ذكره (القمر)، وجاء بتشبيه لصفة الاكتمال حتى يبدأ النُّقصان، وهذه الطَّرائف للتمثيل تُحدِث عجبًا في النَّفس ويمكن إلحاقها بالأسباب، ولم يذكر ذلك عبد القَاهِر، وإنما هو اجتهاد الدَّارس.

وأمَّا رابعًا، من هذا التَّقسيم والتَّحْدِيد، فاختلفت رؤية الشَّيخ تجاه شعر الشَّاهِديْن اللذيْن ذكرهما، نظرًا للمنهج الَّذي يسير عليه الشَّيخ في نبذ التَّكلُّف والتَّعقيد، وصولًا به إلى المعاني المرذولة والضَّعيفة في غير طائل، فالمشروع عند الشَّيخ والمستوى المرتفع والعالي هو العمق غير المتكلّف بعد طلبه والاشتياق إليه ومعاناة الحينين نحو ما نيله أحلى وبالمزية أولى[1]. وأمَّا المتعب البعيد، فهو الفاسد الممقوت، وهو أحقّ أصناف التَّعقيد ذمًا، كما وصف عبد القَاهِر شاهديْ أبي تمَّام بتعسُّفه اللَّفظ وإفساده للتَّراكيب النَّحوية وتشتيت الإعراب، وحظّ السَّاعي خلف هذه المعاني التَّعب والإعياء والمشقَّة العظيمة. وكان هذا السَّبب الثَّالث من أسباب تأثير التَّمثيل الَّذي أورده الشَّيخ عبد الهادي العدل[2]، وتبعه الباحث في رأيه السديد، فالتَّمثيل أخصّ بهذا من التَّشبيه؛ لأنه يحتاج إلى إمعان فكر وطول تحريك الخاطر، وكان عبد القَاهِر قد

(١) يُنظر :المصدر السَّابق، (ص:١٣٩)، بتصرُّف.

(٢) "دراسات تفصيلية شاملة"، (ص:١١٨،١١٧).

ألمح إليه، وأشار دون تصريح بذلك في قوله: "وإنْ كان ممَّا غمض إلاَّ أنَّ الأسلوب غيره"[(١)]، فظهر هنا التَّمثيل الغامض والتَّمثيل المحوج إلى فكر.

فبهذا يتَّضح بجلاء نظرته لهذا المطلب الَّذي ضمَّ بين دفتيْه ثمانية شواهد؛ بدليل هذه الكثرة لدرجة الأغلبية، استحسن ستًّا منها، وذمَّ اثنيْن منها، فبهذا يحمد الشَّيخ شعر أبي تمَّام وقد ذمَّها أشدّ الذمّ، وهذه هي الموضوعية العِلْمِية؛ فهو عالم ذو نظرة تمرَّست بطول النَّظرة والتَّفْتِيش في دراسة النصوص ، يسير بفكر ومنهج واضح، يسْتَشْهِدُ بالشَّواهِد الشِّعْرية؛ ليعزِّز نظرياته البلاغية، وبذلك التصوَّر يُنمِّي ويطوِّر فكرته، حتى تكبر، فينشأ العِلم وينضبط البيان في تكامُل.

وفي المطلب الثَّالث، يقرِّر الشَّيخ ما يجوز تسميته استِعَارة وما يجوز تسميته تشبيهًا، جاء ذلك في سياق حديثه عن فصل عظيم؛ هو الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة[(٢)]. والحقُّ أنه في هذا الفصل الَّذي عقده إمامًا بلاغيًا ومتكلمًا ناقدًا ينقِّح الأفكار ويحكِّك الشَّواهِد بصقل وتهذيب، ويُنشِئ في ذلك الاعتراضات والاستدراكات، ويقوم بتتبعها والإحاطة بها؛ كالسِّوار على المعصم بعلم ثاقب، فهو الَّذي يُستصبَح بضوئه في المعضلات، حتى سرّد قول القاضي الجرجاني، ووافقه الرأي في مسألة (زيد أسد) أنها تشبيه وليس استِعَارة، لوجود المشبَّه والمشبَّه به حاضريْن، فالشَّيخ وقف على الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة، ومحَّص حقائقهما وما يجوز فيه ذا وما يجوز فيه ذلك، حتى جاء لشاهد أبي تمَّام وجعله من قبيل التَّشبيه الَّذي لا يجوِّز الاستِعَارة؛ لذكر المشبَّهيْن حاضريْن، وهو كلام مستقيم، كما نقله عبد القَاهِر[(٣)]، ولا يجوز حذف أحدهما، وإنزال الآخر منزلته لحضور التَّكلُّف في ذلك.

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص: ١٣٩).
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٣٢٠).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٣٣٣).

وفي المطلب الرابع، تحدَّث الشَّيخ عن مسائل المعاني التَّخيلية، ومزج في هذا الفصل بين مسائل للتَّشبِيه وللاستِعَارة، ثم جلب لمسائل التَّشبيه شواهد من شعر أبي تمَّام، واستحسن الشَّيخ عبد القَاهِر صورها، وكيفية أدائها، وفيها من دِقَّة الصَّنْعَة، والتَّخييل "ضرب من ضروب التَّشبيه، وهو فرع من فروع التخييل أو الأقيسة الشِّعْرية الَّتي يسوقها الشِّعْراء ويُحدِثون بها ضربًا من الإقناع الأدبي"(١).

ثم ذكر مسائل وشواهد تدخل في التَّعليل التَّخيلي الشبيه بالسِّحر، وأقام موازنة بين أربعة تشبيهات لأربعة شعراء، وكشف فيها الدلالات والمعاني الخفية، واتَّسعت المعاني مع إيجاز ألفاظه. وهذه الموازنات بين شعر الطَّائي وشعر غيره يُكثِر منها في كتابيْه؛ لتجلية مسألة التَّشبيه، وإحقاق القول فيها، فلا يدَّعي أمرًا يفرضه على قارئه، بل يجعل القارئ يشاركه في الحكم معه، وهذه صفات مَن حقَّق أدوات نقد الألفاظ والمعاني، وأقام مقاييس النَّقد، وفي مسائل المطالب وشواهدها ما يشفي الغلة.

ثم، إنَّ المتتبع لمفرداته، يجد جهدًا وفكرًا وكدًا وروية وسؤالًا وجوابًا وعلةً وسببًا، وهو في ذلك كله يُشرِك القارئ حديثه، فمن تلك المفردات" (اعلم)، (فإن قلت)، (الجواب)، (إذا كان الأمر كذلك)، (افرض هذه الموازنة)، (بيان ذلك)، (فإن أبيت)"، (ولا سبيل لك) "(٢)، وغيرها من الألفاظ والمفردات الَّتي حوت كتابيْه، فهذا المنحى المنطقي النَّقدي التوضيحي يتغلَّب شخصه الكريم الَّذي ينزع إلى ذلك لتقرير المسائل البيانية، وبّين مذهبه الَّذي يسير عليه تجاه استحسان أي كلام من شعر ونثر، فقال: "لابدَّ لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيّده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة = وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادَّعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العِلم إذا أنت فتحته، اطَّلعت منه على فوائد جليلة، ومعانٍ شريفة، ورأيت له أثرًا في الدين عظيمًا وفائدة جسيمة، ووجدته سببًا إلى حسم كثير من الفساد، فيما يعود إلى التَّنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلَّق بالتَّأويل"(٣)، فهذه رؤيته تجاه الشَّواهِد طامعًا القرب من عذوبة مورده وناصعِ بيانِهِ.

(١) "التَّصوير البياني"، (ص:١٧٩).

(٢) يُنظر :"أسْرَار البلاغة"، (ص:٣٢٠-٣٣٤)، بتصرُّف.

(٣) "دلائل الإعجاز"، (ص:٤١).

الفصل الثَّاني

"شواهد الاستِعَارة عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"

- **المبحث الأوَّل:" شواهد الاستِعَارة عند عبد الله بن المعتز".**
- **المبحث الثَّاني:" شواهد الاستِعَارة عند الحسن بن بِشر الآمِدِيّ".**
- **المبحث الثَّالث:" شواهد الاستِعَارة عند القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني".**
- **المبحث الرَّابع:" شواهد الاستِعَارة عند أبي هلال العسكري".**
- **المبحث الخامس:" شواهد الاستِعَارة عند ابن رشيق القيرواني".**
- **المبحث السَّادس:" شواهد الاستِعَارة عند ابن سنان الخفاجي".**
- **المبحث السَّابع:" شواهد الاستِعَارة عند عبد القَاهِر الجرجاني".**

المبحث الأوَّل

" شواهد الاستِعَارة
عند عبد الله بن المعتز"

- **المطلب الأوّل: "شواهد الاسْتِعَارة".**
- **المطلب الثَّاني:"رؤية ابن المعتز الفكرية في اسْتِعَارات أبي تمَّام".**

المطلب الأوّل:"شواهد الاسْتِعَارة"

بعد أن فرغ ابن المعتز من شواهد شعر القدماء في الاستِعَارة، عوَّل على كلام المحدثين وأشعارهم، فقال –رحمه الله– :"ومن البديع والاستِعَارة من كلام المحدثين وأشعارهم..."(١)، وهذا التدرُّج في الاستشهاد اتَّخذه العُلماء من بعده سبيلًا، ثمَّ إنَّ شواهد ابن المعتز من شعر الطَّائي قد سردها في آخر فصل الاستِعَارة، وسيقف عليها

(١) هو عبد الله ابن المعتز بالله الخليفة العباسي وكنيته أبو العباس، ولد عام (٢٤٧هـ)، في بغداد ، وكان أديبا وشاعرا ويسمى خليفة يوم وليلة ، حيث آلت الخلافة العباسية إليه ، ولقب بالمرتضي بالله ، ولم يلبث يوما واحدا حتى هجم عليه غلمان المقتدر وقتلوه في عام (٢٩٦هـ)، وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله، رثاه الكثير من شعراء العرب، ومن مؤلفاته: "البديع" و"طبقات الشعراء" وغيرهما.
يُنظر " ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان"، لمحمد عبد المنعم خفاجي،(ص: ٧١–١٢٢)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ=١٩٩١م، بتصرُّف بسيط.
ومن المحال أن يفرغ كتاب بلاغي إلا وفيه أثرٌ من آثار (البديع)، فقد اعتمدوا عليه، ونقلوا منه، كبعض المصطلحات والشواهد وغيرها من آراءه البلاغية النقدية والأوان البديعية، فقدامة نقل بعض الأمثلة لشواهد التَّجنيس.ينظر: "نقد الشعر"، (ص:١٦٤).
والآمدي نقل بعض آرائه كنشأة البديع وأن أبا تمَّام والمحدثين ليسوا أول من اخترعه.يُنظر:"الموازنة"، (١/٦– ٨).
ونقل أبو هلال باب التشبيه إن لم يكن بأكمله، فضلًا عن الشواهد الكثيرة التي استشهد بها، وكذلك نقل ابن رشيق عنه تعريف التجنيس، يُنظر:"العُمْدَةُ"،(١/١٩٩)، وأخذ منه المذهب الكلامي. يُنظر: المصدرالسابق، (٢/٧٥–٧٦).
وكتاب البديع قد خلا من المصطلحات العلمية الدقيقة، والتقاسيم والتحديدات المنطقية، لأنه شاعر وأديب وبلاغي تغلب عليه فطرة العرب السليمة، وبيَّن أهمية الكتاب الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فقال: "وللبديع أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع وتطوره في البيان العربي على مر عصورنا الأدبية، وهو ينحو في دراسة ألوان البديع نحو الدِّراسة التطبيقية الواسعة التي لها أثرها في تكوين الملكة والذوق ودعم الفكرة، والرأي في نفس القارئ".يُنظر: "ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان"، (ص: ٥٩٥). يُنظر "البديع"، لأبي العباس عبد الله بن المعتز،(ص:٣٥)، شرح وعلَّق عليه: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٦هـ= ١٩٤٥م.

الباحث بالتَّحليل واستخراج صورة الاستِعَارة، ولكنَّ هذه الأمثلة الَّتي ضربها في كتابه تدلّ على الاستِعَارة ممَّا عِيب من الشِّعْر والكلام، وأمر مَن قرأها وسمعها أنْ يتجنَّبها، حيث قال: "هذا وأمثاله من الاستِعَارة ممَّا عِيب من الشِّعْر والكلام، وإنَّما نخبر بالقليل ليُعرَف فيتُجنب"(١).

فبيَّن أنَّ شواهد الاستِعَارة من شعر أبي تمَّام ممَّا عِيب من الشِّعْر، فبالتَّفْتِيش في الشَّاهِد تبرُز الأوصاف، وتتمحَّص الحقائق الَّتي أظهرها ابن المعتز، والشَّواهِد على النَّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد الخامس والأربعون(٢)، وقال الطَّائي:**

مَطَرٌ يَذُوبُ(٣) الصَّحْوُ منه وبَعْدَه صَحْوٌ يَكادُ مِنَ النَضَارة(٤) يُمْطِرُ(٥)

الاستِعَارة في لفظة (يذوب) أو(يذوق) الَّتي على رأي الآمِدِيّ والخارزنجي، فقد شبَّه أبو تمَّام النَّدى والطّل بالصَّحو بجامع الرَّطوبة، والخصوبة، والتَّداخل، والتَّمازج بين المطر والصَّحو والنَّدى، وحذف المشبَّه وهو (النَّدى والطّل)، وصرَّح بالمشبَّه به وهو (الصحو) على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية؛ لأنَّ الشَّاعر هنا يصف مطر الربيع وطيب

(١) المصدر السَّابق، (ص:٥٢).

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٥١).

(٣) اختلف بعض العلماء. في ألفاظ هذا البيت، فقال الصولي: "قلت لأبي مالك: إن بعضهم يروونه "يذوب الضحو"، فقال: هذا تصحيف وخطأ..."، وقال الآمدي: "هذا بيت يصحف الناس فيه فرواه قوم: "مطر يذوق الصحو منه"، ورواه آخرون "يذوب" وهو أعظم خطأ، والصواب "يذوق الصحو منه"، لأنه يصف مطر الربيع وطيب الوقت، أي أن المطر إذا جاء تبينت منه أنه يقلع ولا يدوم، وإذا كان الصحو رأيته غضًا نديًا طلًا مؤذنًا بأن المطر سيعقبه" ويذوق منه "أي يحتسي فيه ويتذوق منه، وروى الخارزنجي: "يذوق الصحو، وقال مطر يذوق الصحو منه أي يمازجه ويداخله، يقول هذا الوابل هو مطر يجر بعد أيام الصحو وانقشاع الغيم،"وبعده"يعني بعد المطر صحو يرطب الزمان حتى كأنه من ريه وغضارته يقطر ويندى".حاشية"ديوان"، أبي تمَّام، (١٩٢/٢).

(٤) ورواية الدِّيوان عند التَّبْريزي: "الغضارة".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٩٢/٢)،ومطلع القصيدة:

رقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فهيَ تَمَرْمَرُ وغَدَا الثَّرَى في حَلْيِهِ يَتكسّرّ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم.

الوقت، وأنَّ المطر إذا جاء، تبيَّنت منه أنَّه يقلع ولا يدوم، وأنَّ الصحو إذا رأيته غضًا نديًا طلًا مؤذنًا بأنَّ المطر سيعقبه، ويذوق منه، وهناك إجراء آخر للاستِعَارة؛ وهو أنَّه شبَّه الصحو بإنسان يرتوي ويذوق من هذا المطر، فيصبح غضًا نضرًا يقطر ويُندي بجامع النّظرة والحيوية، فحذف المشبَّه به وهو (الإنسان)، وبقي المشبَّه وهو (الصّحو)، ورمز له بشيء من لوازمه، وبقيت له صفة تدلّ عليه، وهي"(التَّذوق)، فالذَّوق في الحقيقة من صفات الانسان ولازمة من لوازمه لا تنفكّ عنه، وهذا الإجراء يسمِّيه علماء البلاغة الاستِعَارة المكنية، والَّذي قبله استِعَارة تصريحية.

وعلى كل حال، فإجراء الاستِعَارة التَّصريحية في هذا الشَّاهِد هو الَّذي يؤيِّد المعنى في سياقه العام، واطّراد حبل المعنى، فإنَّ المطّر يداخله ويمازجه الصّحو الَّذي يزداد شبها بالنَّدى والطل، الَّذي تتخلَّله النُّضرة، والحسن، والرَّونق، والرَّطوبة، والخصوبة، وهذا شيء مشاهَد معروف.

فاستشهد به ابن المعتز على أنَّه مثال من أمثلة الاستِعَارة المعيبة من الشِّعْر والكلام، فأبو تمَّام أسقط صفة التَّذوق الحسِّية، وهي خاصَّة بالإنسان على الصّحو، فلا يمكن أنَّ يتذوَّق الصّحو أو أنَّه يذوب، فليس ثلجًا حتى يذوب وينصهر، فعلى هذا عِيب أمثال هذا الشِّعْر، لبُعد اشتراك الصِّفة بين المستعار والمستعار له، فالاستِعَارة بعدت، وهم —العرب– يفضِّلون الاستِعَارة القريبة، ولعلَّ قائلًا يقول: عاب ابن المعتز استِعَارة أبي تمَّام هذه، والسَّبب في ذلك اختلاف المفردة (يذوب)أو(يذوق)، فابن المعتز رواها (يذوب)، وذوبان الصّحو من المطر استِعَارة بعيدة جدًا كما ذكرت آنفًا.

- **الشَّاهِد السَّادس والأربعون** [1]، **وقوله:**

أَمطــرْتَهُمْ عَزَمــاتٍ لَــوْ رَمَيْــت بهــا يــوْمَ الكَرِيهَــة رُكــنَ الــدَّهْر لانهــدما

حـتَّى انتهكـتَ بحـدِّ السَّـيفِ هـامهم[2] جَـزَاء مـا انتهَكُـوا مِـنْ قبْلِـكَ الحُرُمـا[3]

شبَّه الشَّاعر في البيت الأوَّل عزيمة الممدوح الَّتي لا تكفّ ولا تنقطع بالمطر الغزير، على سبيل الاستِعَارة المكنية، فالمشبَّه (عزيمة الممدوح)، وحذف المشبَّه به وهو (المطر الغزير)، ورمز له بشيء من لوازمه وهي لفظة (أمطرتهم)، فإنَّها من فعل المطر، فعزمات الممدوح الَّتي تنصبُّ على الأعداء، لم تكفّ ولم تنقطع، حتى إنَّ الشَّاعر يتخيَّل أنَّ الدَّهر لو وقف أمام عزمات يوم الحرب، لتصدَّعت أركانه. ولفظة (المطر) في القرآن الكريم تدلُّ على العذاب باطِّراد، فقد قال الله –تعالى– على لسان المشركين: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيم}[الأنفال: ٣٢]، فالشَّاعر استخدم فعل (أمطر) للدِّلالة على العذاب والعقوبة الَّتي أوقعها الممدوح على خصومه، وهو يدلُّ على قوته وبأسه، وأنَّه لا يقف أمام وجهه شيء.

وفي عجز البيت استِعَارة كذلك، فقد جعل للدَّهر ركنًا على سبيل الاستِعَارة المكنية، وحذف المشبَّه به (البيت الذي له أركان) وكنَّى عنه بشيء من لوازمه، وهي لفظة (انهدما).

وفي البيت الثَّاني استِعَارة تصريحية تبعية، في قوله (انتهكت بحدِّ السيف هامهم)، فحذف المشبَّه (تعدّت واستأصلت) بجامع الحزّ والإبادة والانتهاء، وصرَّح

---

(١) يُنظر: "البديع"،(ص:٥١).

(٢) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي "أنفسهم".

(٣) "ديوان أبي تمَّام"، (١٧٠/٣)، الأبيات غير مرتبة. ومطلع القصيدة:

أصـغَى إلـى البـين مُغْتَـرًّا فَـلا جَرَمـا أنَّ النـوى أسـأَرَتْ فـي قَلْبـه لَمَمَـا

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والعشرون والثالث والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح إسحاق بن إبراهيم.

بالمشبَّه به (هامهم أو أنفسهم) فالرَّأس من الجسد، أو النَّفس بخروجها من الجسد، فالمحصلة واحدة وهي الموت، ولم ينسَ أبو تمَّام أنَّه من أهل الصَّنْعَة، فجانس بين فعل الممدوح (انتهكت) وفعل أعدائه (انتهكوا) فالجزاء من جنس العمل، ولا غرو، فقداستشهد به ابن المعتز على الاستِعَارة المعيبة، ولا يوافقه الدَّارس في ذلك.

- **الشَّاهِد السَّابع والأربعون[1]، وقال يخاطب منزلًا:**

يا مَنزلًا أعْطَى الحوادثَ حُكمَها ... لا مَطْلَ في عِدَّة ولا تَسْوِيفَا

أَرْسَى بنادِيكَ النَّدى وتَنَفَّسَتْ ... نَفَسًا بِعَقْوتِكَ الرِّياحُ ضَعِيفَا

ولَئِن ثَوَى بك مُلقِيًا بجِرَانِه[2] ... ضيف الخطوب لقد أصاب مضيفا[3]

موضع الاستِعَارة في البيت الأخير من هذا الشَّاهِد، فقد شبَّه الخطوب الَّتي نزلت بالممدوح وتصدَّى لها بإحلالها محلَّ الضَّيف الَّذي يُكرَم، فحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله: (ثوى)؛ أي: أقام، وقوله: (ملقيًا بجرانه)؛ أي مقدَّم عنق البعير، هذا في الأصل، وهو يدلُّ على التَّعب والعناء الَّذي حصل له من طول الطَّريق، وقوله: (ضيف، مضيف)، تدلُّ على أن الخطوب نزلت فيك وأقامت، ولقيت منك مثل تهنئة وإكرام المضيف للضيف؛ لأنَّه جارى الخطوب واحتفل بها، وهذه الَّتي عبر عنها ابن المعتز، فقال بعد ذكر الشَّاهِد:"المعنى أنَّه أصاب موضعًا يضيف إليه فيه؛ أي يميل إليه؛ لأنَّ أهله قد فارقوه ومضيف محال؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: "البديع"،(ص:٥١).

(٢) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "أجْرَامَهُ".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢/٣٧٦-٣٧٨)،الأبيات غير مرتبة. ومطلع القصيدة:

الدار ناطقة وليست تنطق ... بدثورها أن الجديد سيخلق

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هي الأبيات التي عقب المطلع، هي البيت الثاني والثالث والخامس، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف ويُعرِّض بإنسان ولى الثُّغور، وكان ناسكًا، فهُزم.

البلد لا يضيف؛ ولأنَّ الزمان لا يحتاج، وإنما المعنى أن الزمان مال عليك، فأصاب موضع محلّ ومنزل"[1].

وفي رواية التَّبْريزي: (ملقيًا أجرامه) ومفردها (جرم)، وكل عضو من البدن يجوز أن يُجعل جرمًا، فالمعنيان في اللَّفظتين يردف بعضهما الآخر، فمقدَّمة العنق يكون التعب فيها أشدّ ما يكون، وكذلك كل عضو من الجسد إذا أصابه التعب والإعياء، لم يحتمل، وأشدُّه في العنق.

فهذه الاستِعَارة عند ابن المعتز ممَّا عِيب من الشِّعْر والكلام، ولعلَّ الاستِعَارة البعيدة في قوله: (ضيف الخطوب) لم تستعملها العرب، فإنَّ الخطب مهما عظم، وارتفع شأنه، فإنه لا يُحال ضيفًا يُكرم البته، ولكنَّهم استعملوا أن يُنزلوا أعداءهم في المعركة منزلة الأضياف فيطعمونهم السُّيوف والرماح والسهام، فقال في ذلك عمرو بن كلثوم في معلقته:

نَـزلتُم مَنْـزِلَ الأضـيافِ مِنَّـا فأعْجَلنـا القِـرَى أنْ تَشْـتِمُونا[2]

وهذا كله على سبيل الاستِعَارة

- **الشَّاهِد الثَّامن والأربعون[3]، وقوله:**

يـا سـهْمُ كيـفَ يُفِيـقُ مِـنْ سُـكْرِ الهَـوَى حَـرَّانُ يُصْـبَحُ بـالفِراقِ ويُغْبَـقُ

عمْـرِي لقَـدْ نَصَـحَ الزَّمـانُ وإنَّـه لَمِـنَ العَجَائـبَ ناصِـحٌ لا يُشـفِقُ[4]

(١) "البديع"،(ص:٥١).

(٢) "شرح المعلَّقات العشر وأخبار شعرائها"، لأحمد الأمين الشنقيطي،(ص: ١١٨)، دار إحياء التراث العربي، حققه وأتم شرحه: فاتن محمد خليل اللبون، بيروت–لبنان، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.

(٣) يُنظر: "البديع"،(ص:٥١).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٣/٤، ٣٩٤)، الأبيات غير مرتبة. ومطلع القصيدة:

الـدارُ ناطقـةٌ وليسـتْ تنطِـقُ بِـدُثورِها أنَّ الجديـدَ سـيُخلقُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع والسابع، قالها أبو تمَّام يهجو عُتبة بن أبي عاصم." البديع"، (ص:٥٢)

أورد ابن المعتز الشَّاهِد الرَّابع، وعلَّق بعده بتعليق أُوجِّله قليلًا بعد عرض موطن الاستِعَارة، وهي في البيت الثَّاني من هذا الشَّاهِد، في قوله: (لقد نصح الزمان)، فقد شبَّه الزَّمان بالرَّجل الحكيم الَّذي يسدي نصائح للنَّاس في كل وقت، فذكر المشبَّه (الزَّمان) وحذف المشبَّه به (الرجل الكريم) على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه، وهي لفظة (نصح)، ثمَّ وصف هذا الزمان بأنَّه (ناصح) باسم الفاعل للدِّلالة على استمرارية النَّصح، ولكنَّ هذا النّصح أمره غريب، فالزَّمان على مذهب الشَّاعر (لا يشفق)، وهذه الَّتي أقلقت ابن المعتز -والله أعلم-، حيث قال:"نصح الزَّمان أي أدَّبكَ بما يريك من غِيَرِه واختلافه، والزمان لا يشفق على أحد؛ لأنه يأتي على الإنسان بما يُقضى عليه،فقال: "من العجائب أن يضحك الدَّهر وهو لا يُشفق"[1]، فالنَّاصح مُشفق ويخاف عليك على الدَّوام، أمَّا الزَّمان هنا عند أبي تمَّام، فيصفه بعدم الشفقة، فكيف يقول في صدر البيت (نصح الزمان) ثم ينهي النَّصيحة بعدم الشفقة، فهذا تناقض واضح مقارب لتناقض قول أبي نواس عندما أنشد مسلمًا:

ذكر الصبوح بسُحرة فارتاحا وأملَّه ديك الصباح صياحًا

فقال له مسلم: قف عند هذا البيت، لِمَ أملَّه ديك الصباح وهو يبشره بالصبوح الَّذي ارتاح له..."[1].

فأبو تمَّام ناقَض نفسه في هذا الشَّاهِد، فعِيبت عليه هذه الاستِعَارة، ولو أنَّه قال: (نصح الزمان) ثم سكت لهان الأمر، وهذه الَّتي عناها ابن المعتز وتعجَّب منها.

- **الشَّاهِد التَّاسع والأربعون[2]، وقوله:**

(١) "الشعر والشعراء"، لابن قتيبة، (٢/٧٩٥)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.

(٢) يُنظر: "البديع"، (ص:٥٢).

كُلـوا الصَّـبْرَ غَضًّـا واشـرَبُوه فـإنَّكم أَثَـرْتُمْ بَعِـيرَ الظُّلْـم والظُّلْـمُ بَـارِكُ
مَـتى يأتِـكَ المِقْـدَارُ لا تَـكُ[1] هالكًـا ولكـنْ زمـانٌ غَـالَ مِثْلـكَ هالِـكُ[2]

تكمن الاستِعَارة في صدر البيت الأول، وهي في قول الشاعر: (كلوا الصبر)، فالشَّاعر أرسل رسالة إلى حي الأراقم مفادها أن يأكلوا ويشربوا عصارة شجرة مرة وهي (الصَّبر)؛ لأنَّهم هيَّجوا الظَّلم، واستعار له (البعير، والبروك)، فقد شبَّه وجود وقيام الظَّلم بالبعير على سبيل الاستِعَارة المكنية، ثم في قوله (والظَّلم بارك)، فحذف (البعير) وهو المشبَّه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (البروك)، وهي صورة حيَّة تخيُّلية، فإنَّ البعير إذا برك، فقد ذهب شرُّه، أمَّا إذا مشى فأرعد وأزبد، فإنه لا يقوم له شيء، والعرب تعرف ذلك وتُدركه، فاستعار الشَّاعر هذا الوصف وجعله للظَّلم، ولعلَّه أخذه من قول عنترة:

وإذا ظُلِمْـتُ فـإنَّ ظُلمـيَ باسـلٌ مـرٌّ مذَاقَتـهُ كَطعـم العلَّقـم[3]

وقصده ردّ الظَّلم عن نفسه، وكذلك أبو تمَّام، فإنَّ صفة الظَّلم ابتداءً ليست مدحًا، بل تجوز في ردّ الظَّالم والمعتدي، فهو يصف الممدوح بأنه ردَّ الظَّالم على ظلمه، وكسرّ حدَّه، وطرد فلوله؛كي لا يعود إلى ظلمه، فالشَّاعر يقول لا تهيِّجوا حفيظة الممدوح فهو كالبعير، فإذا هيَّجتموه، فاصبروا على ما يأتيكم، وقد استشهد ابن المعتز بهذه الشَّواهِد الخمسة السَّابقة وبغيرها، وذكر أنَّ هذا الشِّعْر من المعِيب والاستِعَارة المذمومة، وضرب هذه الأمثلة ليُحتذي بها في هذا الشأن.

- **الشَّاهِد الخمسون[1]، وقوله:**

(١) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "لا تُدْعَ".

(٢) "ديوان أبي تمَّام"،(٢/٤٦٠، ٤٦٧)،. الأبيات غير مرتبة. ومطلع القصيدة:

قِـرَى دَارِهِـمْ مِنِّـي الـدُّمُوعُ السَّـوافِكُ وإنْ عاد صبْحي بَعدهمْ وهْوَ حَالِكُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والرابع والثلاثون – الأخير–، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري، ويذكر المالكيِّين من بني تغلب.

(٣) "شرح المعلَّقات العشر"، (ص:١٤٦).

فَضَـــرَبْتَ الشِّـــتَاء في أخدَعَيْـــهِ ضـــرْبَةً غَادَرَتْـــهُ عَـــوْدًا رَكُوبَـــا[٢]

شبَّه الشِّتاء القارس برجل شديد الصَّلابة بجامع الشدة، ثم حذف المشبَّه به وهو (الرجل شديد الصلابة) وبقي المشبَّه وهو الشَّتاء القارس،ورمز له بشيء من لوازمه وصفة تدل عليه وهي (الأخدع)، لأنَّ الأخدع في الحقيقة من لوازم الرَّجل الشَّديد، فكأنَّ هذه الصِّنبر الباردة الَّتي لا تقاوم، تغلَّب عليها الممدوح بضربة من سيفه فأصبحت عودًا باليًا، والشَّاعر يصوَّر أثر المعركة، وأنَّ الممدوح قد بلغ منه استقصاء جميع أثر العدو حتى الطبيعة وعقباتها، ونوامسها المهلكة حطَّمها، وجعلها مطية وذلولًا أمام هي وجِّهها حيث يشاء، فهذه الصُّورة المتكاملة الأطراف استِعَارة مكنية، والمتأمِّل يرجع إلى الأبيات في نسقها الكامل، لا أنْ يجتزئها من مجموع ما قِيلت فيه؛ لأنَّ المناسبة لها إضافاتها كذلك،قال الطَّائي:

لقـــد انصـــعت والشـــتاء لـــه وجـــــ ـــــه يـــراه الكمـــاة قطـــوبًا

طاعنًـــا منحـــر الشـــمال متيحـــًا لـــبلاد العـــدو موتًـــا جنـــوبًا

في ليـال تكـاد تُبقـي بخـد الشمـ س مـن ريحهـا البليـل شحـــوبًا

سبرات إذا الحروب أُبيخـــت هـــاج صـــنَّبرها فكانـــت حـــروبًا

فضـربت الشـتاء في أخدعيـه ضـربة غادرتـه عـودًا ركـوبًا

لـو أصـخنا مـن بعـدها لسمعـنا لقلـوب الأيـام منـك وجيـبا[٣]

(١) يُنظر: "البديع"، (ص:٥٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٦٦/١)، ومطلع القصيدة:

مـــنْ سَـــجايا الطُّلُـــولِ ألاَّ تُجيبـــا فصـــوابٌ مِـــن مُقْلَـــةٍ أَنْ تَصـــوبَا

من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والثلاثون، قالها يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري.

(٣) المصدر السَّابق، (١٦٦/١).

يمدح الشَّاعر أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري، فأراد إعلاء شأنه-كعادة المدَّاحين-وأنَّه عندما زحف إلى الروم بدأ يُنكِّلُ فيهم، ويضرب الطَّعنات إثر الطَّعنات، حتى مزقهم شرّ مُمزَّق، ومن بطشه وقوة بأسه عرض له(الصنِّبر)، وهو البرد الشَّديد، الَّذي يكون في الشَّتاءوهذه الرياح لا يقوم لها شيء، فصوَّر الشَّاعر بأس الممدوح في ضرب الشَّتاء بسيفه في أخدعه، فخرَّ صريعًا كالعود، وهذا التَّشخيص الَّذي وظَّفه أبو تمَّام في هذا البيت يرفع من قيمة النصّ،حيث جعل للشَّتاء أخدعًا، قال التَّبْريزي: "الأخدعان: عرقان في العنق، يُقال للرجل إذا كان أبيًا صعبًا، إنه لشديد الأخدع، وقد استقام أخدعه"(١)، فهذا الإسقاط من أبي تمَّام على الشَّتاء في مثل هذه الاستِعَارة انتقدها البلاغيون والنُّقاد؛ لأنَّه أبعد الاستِعَارة ولمخالفتها عمود الشِّعْر، والَّذي يظهر أنَّ الصُّورة بهية زيدت في حلاوتها؛ لأنَّ المتأمِّل في الأبيات، يجد أنَّ معجم ألفاظ أبي تمَّام في هذا المقطع تدور حول(الوجه): وجه قطوب، و(المنحر): الشمال له منحر، و(الخد): الشَّمس لها خد، و(الأخدع): الشتاء له أخدع، و(القلوب): الأيام لها قلوب(٢).

بعد أن فرغ ابن المعتز من الشَّواهِد السَّابقة ونقدها بفحص وتفتيش في لفظها ومعناها، ثم حكم عليها بأنَّها استعارات معيبة، أردف أمثلة أخرى سكت في الحكم عليها، فلا نقد ولا حكم، أظنَّه استوى لديه فيها الحسن والقبح، والمدح والذّم، ويخال الباحث أنَّ هذا الكلام أميَل إلى الصَّواب؛ لأنَّه أخبر بالقليل من الأمثلة لتُجتنَب، فلم يكُ بدٌ من الزِّيادة عليها فتكثر، حيث قال: "هذا وأمثاله من الاستِعَارة مما عيب من الشِّعْر والكلام، وإنما نخبر بالقليل ليُعرف فيتُجنب، قال المهلب..."(٣)، فذكر القليل من الشَّواهِد، فلم يعدْ مناسبًا ذكر شواهد أخرى، فقد عُرفت الأولى، ليجتنبها القارئ.

(١) المصدر نفسه، (١٦٦/١).
(٢) يُنظر: "وجه الشعر"، (ص:٢٦٤).
(٣) "البديع"، (ص:٥٢).

أمَّا هذا الشَّاهِد وغيره، فوضعه ابن المعتز قبل آخر مثال في باب الاستِعَارة، فلم ينقده، ولم يشْرحه، بل تركه للقارئ على وفق ما ظنَّه الباحث آنفًا، وشواهد — الأبيات الدَّهرية–بالذات تلقاها البلاغيون والنُّقاد القدَّماء على شنئان منهم، وحملوها في كتبهم وهنًا على وهن، حتى طووا لها العداوة ومقتوها أشدَّ المقت، بل جعلوها من أقبح استعارات أبي تمَّام، فما تلك المحامل الَّتي حملوها على أبيات أبي تمَّام؟ ولماذا وسَمُوهُا بالقبح والشناعة؟ وهل قولهم يحتمل الصواب أم الخطأ ؟ إجابة ذلك سأذكرها– إن شاء الله تعالى– عند كل عالم تناول الشَّواهِد في مبحثه الخاص به، وهذا مذهب الباحث في جميع الشَّواهِد المكرَّرة، فيذكر كل بلاغي على وفق ما تناوله ونقده وحكَم عليه، فلربما تخرج النَّتائج بمجموعها خلاف توحُّد الآراء والمذاهب، لتصبح أقرب إلى النَّظر والتَّأمُّل.

فأول من ذكر هذا الشَّاهِد هو ابن المعتز(ت:٢٩٦هـ)، ثم سرّد شواهد الأبيات الدَّهرية الحسن بن بشر(ت:٣٧١هـ)، ثمالقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني(ت:٣٩٢هـ)، ثم أبو هلال العسكري(ت:٣٩٥هـ)،ثم ابن سنان الخفاجي(ت:٤٦٦هـ)، وقد تشابه تناولهم للشَّواهِد.

ويتمكَّن مذهب وحدة القول، ومحاسبة البلاغيين والنُّقاد لشعر أبي تمَّام محاسبات جزئية، تركِّز على معجمه الشِّعْري، الَّذي يُغرِق في الاستعارات البعيدة إلى إقصاء بعض الشَّواهِد،وكذلك أخطاء أبي تمَّام في اللَّفظ والمعنى، وسوء النَّظم والوحشي من الألفاظ، وإذا ما نُظر إلى الاستِعَارة في بعض أبياته،يُخيَّل أنَّالحاجة ملِّحة للرُّجوع إلى بنية النَّصّ كاملًا وسياقه المكتمل ماسَّةٌ جدًا، ليتَّضح هل في البيت استِعَارة بعيدة، وتعسُّف وإفراط،نأى بألفاظ ومعاني الاستِعَارة، فجعلها تقبح إلى هذا الحد؟ أم أنَّ أبا تمَّام له معجمه الجمالي الخاص به، يحلِّق به أنَّى أراد وفي أي وقت يشاء؟ بحسب مقالته: لماذا لا تفهم ما أقول؟ فالدَّهر والأخدع في أبيات أبي تمَّام تتكرَّر، خاصَّة عند

الآمِدِيّ، وسيقف الباحث عند الشَّواهِد الدَّهرية ومسألة سبّ الدَّهر ومقت أبي تمَّام له بعد هذا المبحث -إن شاء الله-. فالَّذي يظهر -والله أعلم- أنه لا يريد سبّ الدَّهر لذاته، ولكنَّه شاعر،تشرَّبته فكرة الابتكار في المعاني،فراح يتقلَّب في سمائها بلا قيد ولا حدَّ، فأدَّى به إلى الثورة علىعمود الشِّعْر الَّتي ابتكرها الأوَّلون.

فالَّذي يظهر أنَّ القدَّماء تعاملوا مع نصوص أبي تمَّام بوصفها ابتكارًا وخروجًا عن المعاني العهدية، وأنَّه من الخوارج على عمود الشِّعْر، ممَّا جعلهم يُخرِّقون ما في أيديهم من شعره، وهناك مسألة أُخرى أردتُ التَّنويه إليها؛ هي مسألة قطع الشَّاهِد عن سياقه، وقد ذكرتها في التَّمهيد، فكما تبيَّن في هذا الشَّاهِد من اجتزاءالشَّاهِد عن نسقه العام، ومناسبته الكبرى، وهذا محقٌ لحسنات الشاعر الَّتي ربما احتفى بها معاصروه ومَن بعده، فبعض الشَّواهِد يكون لها صورة كاملة لمقطع متَّصل، لا يمكن فهم الصُّورة إلاَّ بالرجوع لأبيات قبله أو بعده، وقد تأتي شواهد لها هذا الوصف، وأمَّا وصفهم له بالشَّناعة والقباحة والهجانة،فربما أنَّ الأمر متوجِّه للألفاظ والمعاني مع التركيب المعقَّد، ووحشي القول، وهم محقُّون في ذلك.

وعند تأمُّل كتب البلاغيين المتأخِّرين، وجدتُ أنَّ السَّكَّاكي والخطيب وشرَّاح التَّلخيص لم يذكروا الشَّواهِد الدَّهرية، ولم يتعرَّضوا لها كما فعل المتقدَّمون، فربما أنَّهم اتَّفقوا مع القوم في إقصاء هذا الشَّواهِد واستكراهها واستهجانها، وهذه مسألة أُخرى انقدحت في الذهن يجب التَّنْقيب عنها، ويُحتمل أنَّهم رأوْا غُنية عنها بشواهد أخرى أكثر أهمية.

المطلب الثَّاني: "رؤية ابن المعتز الفكرية في استعاراته أبي تمَّام"

عندما ألَّف ابن المعتز كتابه الموسوم بـ(البديع)بناه على قسميْن؛ الأوّل: فنون البديع الخمسة؛ الاستِعَارة، والتَّجنيس، والمطابقة، وردّ الأعجاز على الصدور، والمذهب الكلامي، والقسم الآخر: محاسن الكلام.

ويلحظ الباحث أنَّ ابنَ المعتز اعتنى بالاستِعَارة عناية فائقة، فقد عرَّفها، وساق لها شواهد كثيرة، فقال: "وأول فنّ من فنون البديع عُني ببحثه والتَّمثيل له الاستِعَارة، وقد عرَّفها بأنَّها: استِعَارة الكلمة لشيء لم يُعرف بها من شيء قد عُرف بها، وساق لها شواهد كثيرة من القرآن، والأحاديث، وكلام الصحابة، وأشعار الجاهليين، والإسلاميين، وكلام المحدثين؛ المنثور والمنظوم"[1].والمتأمِّل في تناوله لتلك الشَّواهِد، يلقاه يسرّد دون تناول لها بالحكم والنَّقد بالمدح أو الذمّ إلا قليلًا، وأحيانًا يشرح بنقد معلَّلاً ومفسرّا، فـ"كان معتدلًا في نظرته وحكمه على شاكلة الجاحظ وغيره من المتكلِّمين، فهو يسوِّي بين المحدثين والقدَّماء في الإحسان مع شيء من الاحتياط إزاءهم جميعًا، وهو احتياط جعله يُعقِّب على شواهدهم الرائعة في فنون البديع بما يُعاب من كلامهم وأشعارهم جميعًا، فهو يستحسن حين ينبغي الاستحسان، ويستهجن حين ينبغي الاستهجان، بغضّ النَّظر عن القدم والحداثة....، ومن أهم ما يميِّزه في الكتاب دِقَّة ذوقه وصفاؤه في اختيار الأمثلة والشَّواهِد"[2]. وبالنَّظر لتناول ابن المعتز لشواهد أبي تمَّام واستعاراته، فقد عدَّها ممَّا عِيب من الشِّعْر والكلام، فهي إذًا استعارات رديئة معيبة، وقد ذكر قبلها استعارت جيّدة، فكأنه"سنَّ للبلاغيين بعده أنْ يتحدَّثوا عن العيوب الَّتي وقعت في بعض الفنون البلاغية"[3]، وهذا أمر تأثَّر به من بعده، فالآمِدِيّ يسطِّر موازنة بين أبي تمَّام والبُحْتَري على ضوء المحاسن والقبائح، وصاحب "الوساطة" يقضي بين الخصوم على أنموذج شعر المتنبي، وصاحب "الموشح" يذكر مساوئ الشِّعْراء، فكأنَّ دافع فكرة مآخذ ومحاسن الشِّعْراء بذرة بذرها ابن المعتز.

(١) "البلاغة تطور وتاريخ"، شوقي ضيف،(ص:٧٠)، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٩١م.

(٢) المرجع السَّابق، (ص:٧٤-٧٥).

(٣) المرجع السَّابق، (ص:٧٠).

أمَّا شواهد أبي تمَّام فقد مضى تحليل الاستِعَارة، وكان في أغلبها محقًّا عندما حكم عليها بالرداءة، ونصح مَن يقرأها بأنْ يتجنَّبها، وعند التأمُّل في الاستعارات، يُلحَظ أنَّها في الغالب استعارات مكنية[١]؛ لأنَّها "فعلًا كانت موضع النِّقاش بين المحافظين من اللُّغويين والشُّعْراء وبين مَن ينزعون نحو التَّجديد المسرّف"[٢]. وقد يكون هذا الرَّأي محقًّا فيه؛ لأنَّ صورة الاستِعَارة المكنية تُلبس المعاني ألبسة محسوسة، فـ(الليل) يتكلَّم، و(الشَّمس) تشتاق، و(الأرض) تشكو، وفي الاستعارات هنا (مطر يذوب)، و(الزَّمان ينصح)، و(الظَّلم بارك)، و(ضربت الشَّتاء)، فالاستِعَارة المكنية صور متحرِّكة، ومعاني عقلية تتجسَّد في الذِّهن، فالشَّاعر مغرم بمثل هذا النَّوع من الاستعارات؛ لأنَّه مبعث التَّخييل، وهو أمر يخرج على ما اعتاده العرب من التَّصوير، والاستِعَارة القريبة. فكأنَّ ابنَ المعتز يوافق اللُّغويين في ردِّهم بعض شعر أبي تمَّام، الَّذي يُغرق في الاستعارات البعيدة، الَّتي لم يعتادهاالشُّعْراء القدماء، إضافةً إلى سلوكه مسلك الإغراب في الوحشي من الغريب، فهذا تكرهه العرب لما فيه من التَّكلُّف، كذلك فابن المعتز شاعر يُميِّز بين الشِّعْر الجيّد والرَّديء، وله ذائقة ثاقبة، فهو "صاحب النَّظم البديع والنثر الفائق...،وهو أشعر بني هاشم على الإطلاق، وأشعر النَّاس في الأوصاف والتَّشبيهات"[٣]، فبهذا تتَّضح رؤيته الفكرية تجاه شعر أبي تمَّام في فصل الاستِعَارة.

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (ص:٧٠).

(٢) المرجع نفسه، (ص:٧٠).

(٣) "ابن المعتز وتراثه"،(ص:١٤٦)،وينظر:"معاهد التنصيص"، لعبد الرحيم العباسي،(١٤٢/١)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة عالم الكتب ببيروت ١٣٦٧هـ.

المبحث الثَّاني
" شواهد الاستِعَارة عند الحسن بن بشر الآمِدِيّ "

- **المطلب الأوّل : "شواهد مرذول ألفاظ أبي تمَّام وقبيح استعاراته ورديئها وفاسدها".**

أولًا: شواهد أخادع الدَّهر.
ثانيًا: شواهد أخرى مرذولة.
ثالثًا: استِعَارة العرب وتمحيص الشَّواهِد الدَّهرية عند أبي تمَّام.
رابعًا: شواهد استعارات الطَّائي البعيدة والفاسدة والقبيحة.

- **المطلب الثَّاني : "شواهد استعارات في غاية الحُسن".**
- **المطلب الثَّالث : "رؤية الآمِدِيّ الفكرية في استعارات أبي تمَّام".**

المطلب الأول: "شواهد مرذول ألفاظ أبي تمَّام وقبيح استعاراته ورديئها وفاسدها "

قبل الحديث عن الشَّواهِد الشِّعْرية الَّتي ذكرها الآمِدِيّ في الموازنة من شعر الطَّائي، والوقوف على تحليلاته النَّقدية، وسبر أغوارها، والتَّفْتِيش في جنباتها، فقد قرَّر الآمِدِيّ في أول الجزء الثَّالث من الموازنة بأنَّه سيتعرَّض للمرذول من ألفاظ أبي تمَّام، والسَّاقط من معانيها، وقبيح استعاراته، وما استُكرِه من نظمه ونسجه، وبيَّن أنَّ الطَّائي نظر في شعر القدماء، فجعلهم أمام بصره يقلِّب في أشعارهم، ويحتذي سننهم؛ ليعتذر لناقديه وخصومه-كما زعم ذلك الآمِدِيّ – وليس له من عذر في تلك الأخطاء، وقد اعتمد في ذلك كله لطلب الإغراب، وميلًا منه إلى الوحشي من المعاني والألفاظ، وذلك بعد أن وضَّح خطأه في الألفاظ والمعاني في الجزء الثَّاني، فقال:"وأنا أذكر في هذا الجزء الرذل من ألفاظه، والساقط من معانيه، والقبيح من استعاراته، والمسْتَكره المتعقِّد من نسجه ونظمه، على ما رأيت [المتذاكرين بأشعار] المتأخِّرين يتذاكرونه، وينعونه عليه ويعيبونه [به] ، وعلى أني وجدت لبعض ذلك نظائر في أشعار المتقدَّمين؛ فعلِمت أنه بذلك اغترّ، وعليه في العذر اعتمد؛ طلبًا منه للإغراب والإبداع، وميلاً إلى وحشي المعاني والألفاظ "[1].

ويقدَّم الآمِدِيّ شبهة لدعوى وجود الأنواع المستكرَهة على لسان الشُّعْراء القدماء والأعراب، فلماذا لا تُحاكَم جميع الأشعار وفقًا لقاعِدة العدل والمساواة، فردّ الآمِدِيّ بحجَّة وبرهان على تلك الشبهة الَّتي سمَّاها عذرًا، فبيَّن أنَّ الشَّاعر العربي القديم يندر على لسانه إتيان الألفاظ والمعاني المسْتُكرهة، فقد يكون البيت الواحد أو البيتان، فتُغمَر سيئاته في بحور حسناته، ويُتجاوَز عنه في ذلك؛ لأنَّه ما اعتمد في ذلك إلاَّ عن

(١) "الموازنة"، (٢٥٩/١).

شاعرية بليغة فصيحة، وهو يلوذ ويعتصم دائمًا في نسج الأشعار على قريحته البدوية، ويأمر الآمِدِيّ المتتبِّع والنَّاسج لشعر الشُّعْراء الأعراب أنْ يحذوَ حذوهم في الإحسان، وينسج الجيّد البارع، ويتجنَّب المعاني الشَّاذةِ والمتكلَّفة، ويبتعد عن الصَّنْعَة في سائر شعره؛ لأنَّها معيبة، ومجاهدة للطَّبع، ومغالبة للقريحة، وفيها من التَعمُّل الشَّيء الكثير، حيث قال: "وإنما كان يندر من هذه الأنواع المستكرَهة على لسان الشَّاعر المحسن البيت أو البيتان يتجاوز له عن ذلك؛ لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يعتصم إلا بخاطره، ولا يستقي إلا من قلبه، وأما المتأخر الَّذي يطبع على قوالب، ويحذو على أمثلة، ويتعلَّم الشِّعْر تعلُّمًا، ويأخذه تلقنًا؛ فمن شأنه أن يتجنَّب المذموم، ولا يتبع مَن تقدَّمه إلاَّ فيما استُحسِن منهم، واستجيّد لهم، واختِير من كلامهم، أو في المتوسط السالم، إذا لم يقدر على الجيّد البارع، ولا يوقِع الاحتطاب والاستكثار ممَّا جاء عنهم نادرًا ومن معانيهم شاذًا، ويجعله حجَّة له وعذرًا، فإن الشَّاعر قد يُعاب أشدَّ العيب، إذا قصد بالصَّنْعَة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه؛ فإنَّ مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجةٌ سهل التَّاليف إلى سوء التكلُّف وشدة التَعمُّل"(١).

ويشير إلى شعر صالح بن عبد القدوس الَّذي سقط شعره؛ لأنَّه سلك هذا السَّبيل، فهذا الَّذي يُوقع في الإفراط، فيفسد صحته، ويقبح حسنه وبهاءه، ثم يذكر أنَّ عين الخطأ، والغاية في سوء الاختيار، تتبع ألفاظ مسْتغثَّة لشاعر متقدِّم، ومعنى وحشي. وفي ذلك قال الآمِدِيّ: "كما عِيب صالح بن عبد القدوس وغيره ممَّن سلك هذه الطَّريقة حتى سقط شعره؛ لأن لكل شيء حدًا إذا تجوَّزه، سُمِّي مفرطًا، وما وقع الإفراط في شيء إلاَّ شانه، وأعاد إلى الفساد صحته، وإلى القبح حسنه وبهاءه، فكيف إذا تتبَّع

(١) المصدر السَّابق، (١/٢٥٩-٢٦٠).

الشَّاعر مالا طائل فيه: من لفظة شنيعة لمتقدَّم، أو معنى وحشي فجعله إمامًا، واستكثر من أشباهه، ووشَّح شعره بنظائره؟ إن هذا لَعيْن الخطأ، وغايةٌ في سوء الاختيار"(١).

والآمِدِيّ في كل ذلك يُعرِّض بشعر أبي تمَّام بتلك الأوصاف الَّتي نعتها آنفًا، وقد جعلها مقدَّمةً لبابه المقصود، وتنظيرًا واضحًا لتطبيق آتٍ، فـ" لقد نال الآمِدِيّ كثيرًا من أبي تمَّام في استعارته، وبخاصَّة تلك الَّتي كان يشخِّص فيها المعاني المجرَّدة، وهي ما عُرِف فيما بعد بالاستِعَارة المكنية "(٢).

وينسج بابًا لمرذول الاستِعَارة عند أبي تمَّام بالشَّواهِد الدَّهرية الأخدعية، الَّتي يقف الباحث عندها قليلًا؛ في هذا المطلب عدة مسائل منها:

أولًا/ شواهد أخادع الدَّهر

وعلى كل حال، فقد بدأ الآمِدِيّ هذا الباب بقوله: "فمن مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته قوله..."(٣)، وبدأ يذكر شواهد كثيرة جدًا، تجاوزت العشرين في هذا المطلب، المطلب، ثم إنه لم يقف على كل مثال للتَّحليل والنَّقد؛ بل أرجأ ذلك كلّه، فور الانتهاء من سرد الشَّواهِد فقال جوابًا –على كل شاهد– لما ابتدأ به: "... وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته [كثيرًا]؛ فجعل كما ترى–مع غثاثة هذه الألفاظ–للدَّهر أخدعًا،... وهذه استعارات في غاية القباحة،والهجانة [والغثاثة]، والبعد من الصَّواب"(٤).

- **الشَّاهِد الحادي والخمسون(٥)، وقوله :**

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أُخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ(٦)

(١) المصدر السَّابق، (١/٢٦٠).
(٢) "البلاغة المُفْترى عليها"، (ص:١٣١).
(٣) "الموازنة"، (١/٢٦١).
(٤) المصدر السَّابق، (١/٢٦٥).
(٥) يُنظر: المصدر نفسه، (١/٢٦١).
(٦) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٢/٤٠٥)، ومطلع القصيدة:

شبَّه الشَّاعر الدَّهر بالرَّجل الَّذي أمال عنقه كِبرًا منه، فذكر (الأخدعين) وهما : عرقان في العنق، يُقَال للرّجل إنَّه لشديد الأخدع، وهما رمز للرَّجل المتكبِّر، فذكر المشبَّه وهو (الدَّهر)، وحذف المشبَّه به وهو (الرجل المتكبر) على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله (قوَّم أخدعيك)، فإنَّ الدَّهر ليس له أخدعان.

فالصُّورة الفنيَّة في البيت توحي بجمالها التّخيلي، حيث تنكَّر له الدَّهر وشاح بوجهه عنه، وهو يقصد أهل زمانه، وقد ذاق مُرَّ الألم، ومن جانب آخر، نادى الشَّاعر الدَّهر بأداة تصلح للقريب والبعيد بـ(يا) وكأنَّ له سمعًا يسمع به، ثمَّ نكَّره لأنَّه معروف، وهو زمان الشَّاعر الَّذي وصفه بالمتنكِّر له، فالاستِعَارة هنا مرذولة قبيحة على رأي الآمِدِيّ، لبُعد المعنى بين المستعار له (الدَّهر) والمستعار (الرجل)، فليس هناك ما يشبَّه بينهما وما يناسبه، وليس سببًا من أسبابه، فقبحت لذلك، وقد جرى هذا الشَّاهِد في كتب الأقدَّمين مجرى السَّيل، ورفضت استعارته ورميت بالعيوب، وأول من استشهد به الآمِدِيّ. وسيأتي التَّفصيل في الشَّاهِد بالموازنة مع غيره -إن شاء الله- عند ابن سنان في المبحث السَّادس.

- **الشَّاهِد الثَّاني والخمسون[1]، وقوله :**

سأشكُرُ فَرْجَةَ اللّبَبِ الرَّخِيِّ ولِينَ أخادعِ الدَّهر الأبيِّ [2]

كانَتْ صرُوفُ الزَّمانِ مِنْ فَرَقِكْ واكتَنَّ أهْلُ الإعْدَامِ في وَرَقِكْ

وهي من البحر المنسرّح، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانه، ويهنّيه بالعافية.

(١) يُنظر: "الموازنة"، (٢٦١/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٥٤/٣)، ومطلع القصيدة:

أَيَا وَيْلَ الشَّجي مِنَ الْخَلِيِّ وبالي الرَّبعِ من إحدَى بَلِيّ

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب.

وصف الشَّاعر الدَّهر بلين الأخادع؛ لأنّ الرَّجل إذا وُصف بالإباء، قِيل هو شديد الأخدع، وقوله (الأبي): المتكبِّر، فكأنَّه يقول: سأشكر الفرصة والوقت الَّتي أتاحها لي الدَّهر للمثول أمام الممدوح-الحسن بن وهب-، وعلى كل حال، فقد استعار الشَّاعر (أخادع الرَّجل)، وجعلها للمستعار، وهو الدَّهر على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازم المشبَّه به؛ وهو (لين الأخادع). قال التَّبْريزي: "ويقال فلان رَخِي اللَّبب: إذا كان في وسعه من أمره، ووصف الدَّهر بلين الأخادع؛ لأنَّ الرَّجل إذا وُصف بالإباء، قِيل هو شديد الأخدع، وإنما فعلوا ذلك؛ لأنَّ "الأخدع"عِرق عظيم، فكَنَّوْا به عن الذُّل والعِزَّ"[1]، و(الفرجة): السعة، و(اللبب): البال، و(الرخي): و(الرخي): الهنيء الموسوع. وقد صنَّف الآمِدِيّ هذا الشَّاهِد من مرذول استعارات أبي تمَّام لنفس السَّبب في الشَّاهِد الَّذي قبله، وهو المباعِدة بين المعنى المستعار والمستعار له، وعدم المشابهة والمقاربة.

- **الشَّاهِد الثَّالث والخمسون[2]، وقوله :**

فَضَـــرَبْتَ الشـــتَاءِ في أخدَعَيْـــهِ ضـــرْبَةً غَادَرَتْـــهُ عَـــوْدًا رَكُوبَـــا[3]

سبق تحليل موضع الاستِعَارة وأركانها لهذا الشَّاهِد عند ابن المعتز، فلا حاجة إلى الإعادة، واستشهد به الآمِدِيّ على مرذول الاستِعَارة وقبيحها، فجعل أبو تمَّام للشِّتاء أخدعًا، ومنهج العرب في الاستِعَارة يقوم على المقاربة بين المعنى المستعار والمستعار له، وهو أمر غير موجود في هذا الشَّاهِد، فقبحت الاستِعَارة عندئذٍ.

- **الشَّاهِد الرَّابع والخمسون[1]، وقوله :**

(١) المصدر السَّابق، (٣/٣٥٤).

(٢) يُنظر: "الموازنة"،(١/٢٦١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/١٦٦)،ومطلع القصيدة :

مـــنْ سَـــجايا الطُّلُـــولِ ألاَّ تُجيبـــا فصـــوابٌ مِـــن مُقْلَـــةٍ أَنْ تَصـــوبَا

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري.

تــروحُ علينــا كــلَّ يــومٍ وتغتــدي خطــوبٌ كــأنَّ الــدَّهر مــنهنَّ يصــرعُ[٢]

شبَّه الشَّاعر (الدَّهر) بالرَّجل العليل، الَّذي يصيبه الصَّرع على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه؛ وهي قوله (يُصرع) فالدَّهر أمر معنوي، ولا تصيبه تلك الانفعالات النَّفسانية الَّتي تصيب البشر أبدًا، وقد يُجرى تشبيه حالة بحالة، وهي تشبيه حالة النَّاس بتلك المصائب بحالة الدَّهر الَّذي تصرعه الخطوب، فيصدر عنه ما لا يصدر عن عاقل، وعلى كل حال، فقد بيَّن الباحث من قبل خلط الآمِدِيّ بين الاستِعَارة والتَّشبيه المحذوف الأداة، والأمر يُجرى على الاستِعَارة الموجودة في آخر الشَّاهِد، فالشَّاعر أشار إلى عدم تحمُّله تلك المصائب والخطوب الَّتي يكابد من أجلها، وتعيش معه على الرَّواح والغدو باستمرار، فبات ينقم على أهل زمانه والزَّمن الَّذي جمعهم به؛ وهي حالة لا تنقطع عنه.

واستشهد به الآمِدِيّ على الاستِعَارة المرذولة حتى قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته [كثيرًا]؛ فجعل -كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... وكأنَّه يصرع... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[٣]، فجعلها غايةً في القباحة لبُعد المستعار له من المستعار.

- **الشَّاهِد الخامس والخمسون[٤]، وقوله :**

ألاَ لاَ يَمُــدَّ الــدَّهْرُ كَفًّــا بِسَــيِّئٍ إلى مُجتـدي نصـرٍ فيُقَطـعْ مـن الزنـدِ[٥]

---

(١) يُنظر: "الموازنة"،(٢٦١/١).

(٢) " ديوان"، أبي تمَّام، (٣٢٤/٢)، ومطلع القصيدة :

أمــا إنــه لــولا الخلــيطُ المــودعُ وربــعٌ عفــا منــه مصــيفٌ ومربــعُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع عشر، قالها يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري.

(٣) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

(٤) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦١/١).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٦٤/٢)ومطلع القصيدة :

شبَّه أبو تمَّام (صوارف الدَّهر) برجل متطاول على النَّاس بالسُّوء على سبيل الاستِعَارة المكنية، فحذف المشبَّه به وهو (الرَّجل)، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (يمد، كفًا)، وهي استِعَارة تخيُّلية، فقد خُيِّل للشّاعر تصرُّف الزَّمن وعصره بالذَّات، وامتداده ليفقر الكريم، ويُضعف القوي، فالشَّاعر أراد أنَّ الممدوح يدافع عن سائله غوائل الدَّهر (المجتدي) وهو طالب المعروف، فالممدوح لا يدَع للزَّمن أن يتدخَّل في كونية فقر سائله وطالبه، بل يمدُّ لهم العون والمساعِدة، وينجدهم ويعطيهم مرادهم، فكأنّه بذلك قطع يد الزَّمن الَّتي تُساعد على إبقائهم على أحوالهم دون تغيُّر أو تبدُّل، وقوله: (فيقطع) معطوفًا على النَّهي في قوله :(ألا لا يمد) ولولا الوزن لكان (يقطع) أولى بالنصب؛ لأنَّه واقع موقع الجواب بالفاء، والأحسن في بيت الطَّائي أن يُحمل على العطف فيكون مجزومًا، "وقد رواه بعضهم (فتقطع من زند) على التنكير"[1]، وعلَّق ابن المستوفى فقال: "قال عبد الله بن المعتز: تجاوز حدّ المدح، ولم يجيء بشيء في ذكر زند يد الدَّهر"[2].

واستشهد الآمِدِيّ بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة القبيحة حتى قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... ويدًا تقطع من الزَّند... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[3].

أَطْلاَلَ هِنْدٍ ساءَ ما اعْتَضْتِ مِنْ هِنْدِ أقايضتِ حورَ العين بالعُون والرُّبْدِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا العباس نصر بن منصور.

(١) المصدر السَّابق، (٦٤/٢).

(٢) يُنظر حاشية: المصدر نفسه، (٦٤/٢).

(٣) المصدر نفسه (٢٦٥/١).

- **الشَّاهِد السَّادس والخمسون[1]، وقوله :**

والـدَّهْرُ أَلأَمُ مَـنْ شَـرقْتَ بلَؤمِـه[2] إلاَّ إذَا أشـــــــرَقتَهُ بكـــــــريمِ[3]

شبَّه (الدَّهر) بالرَّجل اللئيم، الَّذي يُجرِّع النَّاس كؤوس اللؤم حتى غصَّ منها، وحذف المشبَّه به (الرَّجل اللئيم) على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله :(شرقت، بلؤمه) فالدَّهر لا يغصّ ولا يلؤم، فقد غلب كرم الممدوح لؤم الدهر مما جعل الصورة المتخيلة شاخصة وبديعة.

ولا يزال الشَّاعر يُحمِّل الدَّهر والزَّمن كل نوائب الحياة، فالدَّهر عند أبي تمَّام مقلق، ويُلبسه أنواعًا من الصِّفات، ويضفي عليه صفات الرَّجل اللَّئيم تارة، والمتطاول على النَّاس بالسُّوء تارة أُخرى، والشَّاعر على عادته في أبياته الدَّهرية يُسقط عليه الأعباء الَّتي تلحق بالشَّاعر، ثم تلحظه يستثني من ذلك الممدوح الَّذي يغصّ ويشرق الدَّهر بكرمه العميم، فنوائب وحاجات الشَّاعرمتنكِّدة، ولكن حين يلجأ الشَّاعر لكرم الممدوح، يُنغِّص عيش الدَّهر بدفع ما فيه من قلة وحاجة، فالدَّهر لا يزال يغصّ من الويلات؛ لتغلُّب الممدوح الَّذي يقيل العثرة، ويشفي الغلة، وتقديم (الدَّهر) في صدر البيت يدلّ على اهتمَّام الشَّاعر به، وأنَّه أشغله على الدَّوام، فهو هاجسه وفكره، فلم يقل :(ألأم من شرقت بلؤمه الدَّهر) وهذا يدلّ على مزيد عناية وخصوصية، واستشهد الآمِدِيّ بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة القبيحة فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره

---

(١) يُنظر: المصدر نفسه، (٢٦٢/١).

(٢) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "بلَوْمِه".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٦٧/٣)، ومطلع القصيدة :

يـا ربْـعُ لَـوْ رَبَعُـوا علـى ابـنِ هُمُـومِ مُسْتَسْـلِمِ لجَـوَى الفِـرَاقِ سَـقِيمِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح إسحاق بن إبراهيم.

وجدته [كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... ويشرق بالكرام... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[(١)].

- **– الشَّاهِد السَّابع والخمسون [(٢)]، وقوله :**

تحمَّلْتَ ما لوْ حُمِّلَ الدَّهرُ شَطْرَهُ لَفَكَّر دَهْرًا أيُّ عِبأيْهِ أَثْقَلُ[(٣)]

الاستِعَارة المرذولة في الشَّاهِد في قوله: (حُمِّلَ الدَّهرُ، لَفَكَّر دَهْرًا)، فجعل الشَّاعر الدَّهر رجلًا يتحمَّل أثقال الحياة، ويفِّكر كذلك، على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله:(حُمِّل، فَكَّرَ)، فالشَّاعر أثنى على الممدوح بأنَّه قادر على تحمُّل النَّوائب، وأنَّ ما عليه من الأثقال والأحمال لا يقدر الدَّهر على النَّهوض بشطرها، ويفترض أنَّ الأثقال لو قُسِّمت قسميْن، وقِيل للدَّهر أيهما تحمل على سبيل الاستِعَارة المكنية، لوقف حائرًا يفكِّر-كالرَّجل المتحيِّر-؛ أي النِّصفين أثقل عليه ليتركه ويعمد إلى الأخفّ، وهذه مندوحة للممدوح بأنَّه يتحمَّل الصِّعاب، وقد أُخذ على الشَّاعر هذه الاستِعَارة بالقبح والرداءة، وأنَّها من مرذول الألفاظ وقبيحها – كما ذكر الآمِدِيّ-، فكيف جعل الدَّهر يفكِّر زمنًا طويلًا، والدَّهر ليس له عقل يفكِّر ولا وقت محدَّد للتَّفكير، وهذه مخالفة لاستِعَارة القدَّماء، لعدم المقاربة بين طرفيْ الاستِعَارة، وممَّا لا شكَّ فيه "أنّ وراء بعض أحكام الآمِدِيّ أثرًا دينيًا، فأكثر استعارات أبي تمَّام يجدها الآمِدِيّ غثّة، إنمَّا تتعلَّق بالدَّهر والزمان، وربما ارتبط هذا -شعوريًا أو

(١) "الموازنة"، (٢٦٥/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٢/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام،(٧٤/٣)، ومطلع القصيدة :

تحمَّلَ عنه الصبرُ يومَ تحمَّلوا وعادَتْ صبَاهُ في الصبّا وَهْيَ شَمْأَلُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها يمدح أبا المُستهل محمد بن شقيق الطَّائي.

لا شعوريًا- بما يُروَى في الأثر "((لا تسبُّوا الدَّهر))"[1]، وفي التَّحليل حاصل نقد الآمِدِيّ لهذا الشَّاهِد.

ثانيًا: شواهد أخرى مرذولة

- **الشَّاهِد الثَّامن والخمسون[2]، وقوله يصف قصيدته :**

تحل يفاع المجد حتى كأنها على كل رأس من يدِ المجد مغفرُ[3]

لها بينَ أبوابِ الملوكِ مزامرٌ مِنَ الذِّكرِ لم تُنفَخْ ولا هي تُزْمَرُ[4]

في قوله:(تحل يفاع المجد) استعارة مكنية، حيث جعل قصائده في الممدوح تحل أعالي المجد، فحذف المشبه به (الانسان) ورمز له بشي من لوازمه وهو (يحل).

والَّذي أراده الآمِدِيّ في البيت الثَّاني، شبَّه الشَّاعر وقوع أثر القصيدة على الملوك، فتُفتح الأبواب لها بهجة وفرحًا وتغريدًا بها، بالمزامر تطرب الملوك، فقصيدة المدح الَّتي تُنشد للملوك، وإن لم يكن ثمة مزمار، فهي تفعل فعله دون آلته وصوته، وشعر العرب غنائي، فالشَّاعر يُصوِّر عظم التَّرحيب بقصيدة المدح الَّتي يتناقلها النَّاس بينهم، فكأنَّها مزمار يتسلَّى به.

---

(١) "تاريخ النَّقد الأدبي"، (ص:١٧٠).

(٢) يُنظر: الموازنة، (٢٦٢/١).

(٣) هذا البيت غير موجود في الديوان برواية التَّبْريزي، غير أني وجدته في ديوان أبي تمَّام، أبي تمَّام، دار صادر.

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام،(٢١٦/٢).وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي :"ولا تُتَزَمَّرُ"، وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في جعفر الخيَّاط. ومطلع القصيدة:

شَجًا في الحَشَى تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ بِهِ صمنَ آمالي وإنِّي لمُفْطِرُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في جعفر الخيَّاط.

فالَّذي يظهر أنَّ في هذا الشَّاهِد تشبيهًا محذوف الأداة وليس ثمة استِعَارة،(فقصائده كالمزمار)، فالطَّرفان موجودان، وقد ذكر الباحث كلام ابن الأثير في الفصل الأول، خلط الآمِدِيّ بين الاستِعَارة والتَّشبيه المحذوف الأداة، وسيأتي الحديث عنها في مبحث ابن سنان، وعلى كل حال فالآمِدِيّ اعتبرها استِعَارة مرذولة وقبيحة، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... ولقصائده مزامر، إلاَّ أنها لا تنفخ ولا تزمر... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(١)، وفي التَّحليل مراد الآمِدِيّ من ذلك الشَّاهِد، على أنَّ الدَّارس يُرجِّح أنَّ البيت الثاني من الشَّاهِد تشبيه وليس استِعَارة.

- **الشَّاهِد التَّاسع والخمسون(٢)، وقوله :**

بِهِ أَسْلَمَ المعْروفُ بالشّامِ بَعْدَمَا ثَوَى مُنذُ أَوْدَى خالِدٌ وهْو مُرْتَدُّ(٣)

شبَّه الشَّاعر المعروف بالرَّجل المرتدّ والمعاند، على سبيل الاستِعَارة المكنية، فحذف المشبَّه به، ورمز له بشيء من لوازمه؛ وهي قوله (أسلم)، فالمعروف لا يُسلم ولا يرتدّ؛ لأنَّه شيء معنوي، وجعل الشَّاعر (المعروف) عند خالد البرمكي، فلمَّا قضى نحبه، رجع المعروف إلى الممدوح، فكأنه ارتدَّ إليه؛ لأنَّ خالدًا والممدوح فارسيان، فالاستِعَارة صورتها خيالية، فكأنَّ المعروف هُدي بعد الضَّلال، ورجع لأصله وموطنه ونشأته واعتقاده. وقد أُخذت على الطَّائي هذه الاستِعَارة، وعُدَّت من قبيحها ومرذولها، فهي استِعَارة قامت على البعد بين طرفيْ الاستِعَارة، وفيها من الغموض والغوص في المعاني.

فالآمِدِيّ صرَّح بأنَّها من قبيل الاستِعَارة المرذولة والقبيحة، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره، وجدته؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... وجعل

(١) "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٦٢/١).
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٩١/٢).

المعروف مسلمًا تارةً ومرتدًا أخرى... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[١]، فالخصائص بينهما مبتعِدَّة غاية البعد.

- **الشَّاهِد السّتون[٢]، وقوله :**

أَمَـــا وأَبِي أحداثِـــهِ إنَّ حَادِثًـــا حَـدَا بيَ عنـكَ العـيسَ لَلحـادِثُ الوَغْـدُ[٣]

شبَّه الـ (الحـادث) بـ (الرجـل) وهـو السَّـاقط الَّـذي لا خـير فيـه، علـى هيئـة الاستعارة مكنية، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وصفة من صفاته وهو قوله: (الوغد)، ومعنى (الوغد) وضَّحه التَّبْريزي عندما شرح الأبيات، وبيَّن الوجه الَّذي أراده أبـو تمَّـام فقـال –رحمـه الله– : "قـد جـرت العـادة بـأن يقـول الإنسـان : وأبيـك لأفعلنَّ، وأصل ذلك أن يقوله الرجل لمن يَكرُم عليه، ثم كثر حتى أُخرج إلى غير ما هو الأصل؛ لأن الأحداث غيرُ كريمة على المقسِم، ويجوز أن يَعني "بأبي أحداثه": الدَّهرَ، والشِّعْراء مُولعة بذمِّه، وأصل "الوغد": الضعيف، ويُقَال للعبد: وغد، وحكوا وغَدْتُ القـوم أغِـدُهم: إذا خـدمتهم، ثم استُعمل "الوغـد "في السـاقط الَّـذي لا خـير فيـه، ولا مـروءة لـه، وإلى هـذا المعـنى ذهـب الطَّـائي"[٤]. وهـذه الاسـتِعَارة–علـى رأي الآمِـدِيّ– قبيحة وهجينة، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى–مع غثاثة هذه الألفاظ–... الحادث وغدًا... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[٥].

- **الشَّاهِد الحادي والستون[٦]، وقوله :**

لـدى ملـكٍ مـنْ أيكـةِ الجـودِ لمْ يـزلْ علـى كَبِـدِ المعْـروفِ مِـنْ فِعْلِـهِ بـرْدُ[١]

(١) "الموازنة"، (٢٦٥/١).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٢/١).
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٨٤/٢).
(٤) المصدر السَّابق،(٨٤/٢).
(٥) "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٦) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٣/١).

قصد الشَّاعر في هذا البيت إرجاع أصل الممدوح الَّذي خرج من أيكة الجود، و(الأيكة) هو الشَّجر الكثير الملتفّ من سدر وأراك ونحوهما من ناعم الشَّجر[٢]، الَّذي ينتمي إلى الجود الملتفّ على بعضه، ولكثرة خيره والتفاف النَّاس حوله، حتى كأنَّ الممدوح أحد أعمدة شجر الجود والمجد، وليس هذا ما يعني المؤلِّف، بل الَّذي يعنيه هو ما في عجز البيت من استِعَارة، فالشَّاعر جعل للمعروف كبدًا ككبد الانسان الَّتي تحترّ وتبرد، فحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه؛ وهي قوله:(من فعله برد)، فالمعروف ليس له كبد تبرد، فجعل الممدوح الَّذي هو من أصل شجرة الجود، ويهب العطايا والمكرمات، حتَّى أنَّ المعروف لتبرد كبده من فعل الممدوح، والأصل أنَّ السَّائل الَّذي تلبَّى حاجته، تبرد كبده عند إشباع حاجته.

وهذه الاستِعَارة قبيحة عند الآمِدِيّ، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... وأنَّ له-أي المجد-جسدًا وكبدًا... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[٣].

وهذه الشَّواهِد الثَّلاثة المتلاحقةمن قصيدة واحدة[٤]، وكل شاهد يدلّ على استِعَارة فريدة، تنفرد بخصائص معينة عن غيرها، تتَّحد بالاستِعَارة المرذولة عند

---

(١) "ديوان"، أبي تمَّام،(٨٧/٢)، ومطلع القصيدة:

تجرعْ أسىً قدْ أقفرَ الجَرَعُ الفردُ ودعْ حِسيَ عينٍ يجتلبْ ماءَها الوَجدُ

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي الرابع والخمسون هو البيت الثلاثون، والشَّاهِد البلاغي الخامس والخمسون هو البيت السادس عشر، والشَّاهِد البلاغي السادس والخمسون هو البيت الحادي والعشرون قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانه.

(٢) يُنظر: "لسان العرب"،(٢١١/١)، مادة: (أيك) .

(٣) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

(٤) قد تصرَّف الباحث في تقديم بعض هذه الشواهد على بعض للترتيب المنطقي للأبيات، خلافًا لما في الموازنة، وهو تقديم لا يضرُّ في أصل الكلام، والباحث عمد إلى فعل ذلك؛ لأنها من قصيدة واحدة.

الآمِدِيّ، فتبلغ الغاية في القباحة والهجانة، ويتمّ الكشف عنها بالوقوف على كل شاهد لسبر أغواره، والتحقّق من النَّتائج المرجوَّة في تحليل ذلك.

وهذه الاستِعَارة على قبحها عند الآمِدِيّ لبعد طرفيْ الاستِعَارة، إلاَّ أنَّه بين المعنى واللَّفظ علاقة التحام أجزاء النَّظم والتئامها.

- **الشَّاهِد الثَّاني والسّتون[1]، وقوله :**

جـذبتُ نـداهُ غُـدْوَة السَّـبتِ جَذْبـةً فخَـرَّ صَـريعًا بـيْنَ أيْـدِي القَصَـائِدِ[2]

في هذا الشَّاهِد استعارتان، الأولى في صدر البيت، والثَّانية في عجزه، وكلتاهما ملتحمة الأجزاء، فالأولى حينما قال: (جذبت نداه)، فشبَّه استدرار الكرم من الممدوح بالجذب؛ وهو جرُّ الشيء وأخذه بقوة، ونازعه إياه، وهنا نكتة لُغوية بين جذب وجبذ، فقد ردَّ ابن جني على مَن قال: أن جبذ مقلوبًا عن جذب، وفي الجملة كلاهما بمعنى واحد، فقال: "ليس أحدهما مقلوبًا عن صاحبه، وذلك أنَّهما جميعًا يتصرَّفان تصرُّفًا واحدًا، تقول جذب يجذب جذبًا فهو جاذب، وجبذ يجبذ جبذًا فهو جابذ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلًا لصاحبه، فسد ذلك؛ لأنَّك لو فلعلَّته، لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر"[3].

فالشَّاعر حذف المشبَّه به وهو (الرجل) ورمز له بشيء من لوازمه؛ وهي (الجذب)، فالنَّدى أمر معنوي ولا يجذب أبدًا إلاَّ على المجاز.

وأمَّا الاستِعَارة الثَّانية في الشَّاهِد، فهي في عجز البيت في قوله: (فخرَّ صريعًا بين أيدي القصائد)، و(الصرع) صفة مرض للإنسان، وجعل للقصائد يدًا، وهذه من

(١) يُنظر: "الموازنة"، (٢٦٢/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٥/٢)،ومطلع القصيدة:

يقـولُ أنـاسٌ فـي حَبينـاءَ عـايبُوا عِمـارةَ رَحْلـي مـن طريـفٍ وتالـدِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يمدح خالد بن يزيد بن مزْيد الشيباني.

(٣) "لسان العرب"، (٦٧/٣)، مادة: (جبذ وجذب).

الاستِعَارة التَّخيلية، فالصُّورة الَّتي صنعها الشَّاعر توحي بميل الممدوح لشعر الشَّاعر، وإغداق العطايا عليه بغير حساب، والمتصوِّر لديوان أبي تمَّام في سياقه العام خاصَّة في ديوان المدح، يجده يُثني على شعره من خلال تلبية الممدوح لمطالبه في سرّعة عجيبة تخدع الألباب، وهذه الاستِعَارة على ما فيها من إجراءات متنوِّعة هي قبيحة وهجينة، نزولًا على رأي الآمِدِيّ، فقد قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-... وجذب ندى الممدوح بزعمه جذبةً حتى خرَّ صريعًا بين يديْ قصائده... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(١). والدَّارس في ظنه أنَّ هذه الاستِعَارة تُوحي بدلالات وضروب من الحسن، الحسن، غرَّد بها لسان أبي تمَّام؛ وهي استِعَارة بديعة.

الشَّاهِد الثَّالث والستون(٢)، وقوله :

لَوْ لَمْ تَفُتَّ مُسِنَّ المِجْدِ مُذْ زَمَنٍ بالجُودِ والبأْسِ كانَ المجدُ قد خَرِفَا(٣)

يصف الشَّاعر الممدوحَ بأنْ له الفضل بعد الله -عزَّ وجلَّ- في إرجاع المجد من الشَّيخوخة والهرم والقِدم إلى الفتوة، والشَّباب، والجدة، وهذه استِعَارة، فقد شبَّه المجد بالشَّيخ الكبير، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، وكنَّى عنه بشيء من لوازمه وهي قوله: (تفت، خرفًا)، وذيَّل بالاستِعَارة التَّخيلية (خرفًا)، الَّتي تضفي على المعنى التَّصوير والخيال للمعنى المطروق، فالصُّورة مجازية خيالية، فكأنَّ المجد كبر سنه-بموت مَن كان يحييه-وأصبح على هامش الحياة ينتظر قطف ينعه، والكبير لا يُعطي كما يُعطي الشاب، أو الرَّجل الفتي. وقد ذكر التَّبْريزي وجهيْن لكلمة خرف؛ بمعنى إذا

(١) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٣/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٣٧٥/٢)،ومطلع القصيدة:

أمَّا الرُّسُومُ فقد أذكَرْنَ ما سَلَفَا فَلا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والخمسون، قالها يمدح أبا دُلفَ القاسم بن عيسى.

ذهب عقله من الكبر، وهما: "إمَّا أن الرَّجل أصبح كالخروف، مَن أراد به أمرًا بلغه، وأنه يتبع النَّاس كما يتبع الخروف الانسان، والآخر من قولهم : خرفتُ الثمرةَ إذا جنيتها؛ أي حان له الموت، كما يحين اختراف الثمرة"(١). والباحث يُرجِّح الوجه الآخر؛ إذ إنَّ المجد بدأت تظهر عليه سمات الموت، فأحياه الممدوح ببذل النَّدى والهبات. وهذه الاستِعَارة على ما فيها من وجوه للمعنى متعدِّدة ومتنوِّعة، هي غثيثة الألفاظ، وغاية في الهجانة والبعد عن الصِّحة والصَّواب على مذهب الآمِدِيّ، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، وجعل المجد ما يجوز عليه الخرف،... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(٢)، والأمر بوجهة أخرى خلاف ذلك.

- **الشَّاهِد الرَّابع والستون(٣)، وقوله :**

في غُلــةٍ أوْقَــدَتْ علــى كَبِــدِ السَّــ ـــائِل نَــارًا أخنــت(٤) علــى كَبِــدِه

إيثَــارَ شَــزْرِ القُــوَى يَــرَى جَسَــدَ الــ معــروفِ أوْلى بالطِــبِّ مــنْ جَسَــدهْ(٥)

وصف الشَّاعر في هذيْن البيتيْن أمله الَّذي أراده من الممدوح، والَّذي ذهبت حرارة جوفه على كبده دون أن يخرج منه على طائل، وفي رواية التَّبْريزي (تُعيي) بدلًا من (أخنت) حيث قال: "أعيا عليه الأمر، إذا لم يهتدِ إلى إصلاحه"(٦).

---

(١) المصدر السَّابق، (٣٧٥/٢).

(٢) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

(٣) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٣/١).

(٤) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "تُعيي".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤٤١/١، ٤٤٢)، ومطلع القصيدة:

مــا لِكَثِيــبِ الِحمَــى إلــى عَقِــدِهْ مــا بَــالُ جَرْعائِــهِ إلــى جَــرَدِهْ !

وهي من البحر المنسرّح، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السَّادس والخمسون والسَّابع والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح خالد بن يزيد بن مزْيد الشَّيباني.

(٦) المصدر السَّابق، (٤٤١,٤٤٢/١).

وأمَّا البيت الَّذي يليه، فهو الشَّاهِد المقصود في هذا المقام، فموضع الاستِعَارة في قوله:(جسد المعروف)، فجعل الرَّجل يداوي المعروف ليزيل مرضه، وهو على شفائه أحرص منه على جسده إذا اعتلَّ، فجعل للمعروف جسدًا يمرض، ويُداوَى، ويعتلُّ على سبيل الاستِعَارة المكنية، فحذف المشبَّه به وهو (الانسان) وكنَّى عنه بشيء من لوازمه وهو (الجسد). وأبو تمَّام أثنى على الممدوح بصورة غير مباشرة، فجعله يتعهَّد المعروف الَّذي يبذله للنَّاس، فببذله يكون المعروف صحيحًا، وبانعدامه وتأخُّره عن النَّاس يُصبح عليلًا، فكأنه يتعاهده بالشَّفاء مرةً بعد مرة، ولا يكون ذلك إلاَّ بكثرة العطاء. وهذه استِعَارة في غاية الرَّوعة، إلاَّ أن الآمِدِيّ–رحمه الله–قد استهجنها ومقتها، فهي غثيثة الألفاظ، وبعيدة عن الصِّحة والصَّواب، فقد ذكر المعروف بالضَّمير الغائب، حيث قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى–مع غثاثة هذه الألفاظ–...، وأن له جسدًا...،وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"[(١)].

- **الشَّاهِد الخامس والسِّتون[(٢)]، وقوله :**

حتى[(٣)] إذا اسودَّ الزَّمَانُ تَوضَّحوا فيهِ فغُودِرَ وَهْوَ مِنهمْ أَبلَقُ[(٤)]

تقع الاستِعَارة في قوله: (اسود الزمان)، فقد شبه الشاعر الزمان بالليل، ثم حذف المشبه به (الليل) وأتى بلازم من لوازمه وهو (اسود)، على سبيل الاستعارة المكنية.

وموضع الاستِعَارة هنا لم يُعلِّق عليه الآمِدِيّ، أحسب أنها استِعَارة ترجَّح عنده فيها الحسن والقبح، فلم يذكر عليها تعليقًا، واكتفى بالشَّاهِد فقط، وهذه تحتاج إلى

(١) "الموازنة"، (٢٦٥/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٣/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام،(٣٩٧/٤). وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "قومٌ".ومطلع القصيدة:

الدارُ ناطقةٌ وليستْ تنطقُ بدثورها أنَّ الجديدَ سيخلقُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العشرون، قالها أبو تمَّام يهجو عُتبة بن أبي عاصم.

سبر غور فكر الآمِدِيّ، والمتأمِّل في فكره يجده ناقدًا فذًا، لا يُلقي بالًا بالمسائل والشَّواهِد الَّتي ليس فيها إشكالًا كهذا الشَّاهِد مثلًا، فقد حسُنت الاستِعَارة، وتألَّق موضعها، فالصُّورة قريبة جدًا من استعارات العرب، وعلى كل حال، فالتحام الأجزاء بين الضِّيق في الشَّيء كالَّليل، بجامع عدم الحركة والانطلاق.

- **الشَّاهِد السَّادس والسِّتون[1]، وقوله :**

فما ذُكِّرَ الدَّهرُ العبُوسُ بأنَّه له ابنٌ كيومِ السَّبتِ إلا تبسَّما[2]

حلَّت الاستِعَارة في قوله: (الدَّهر العبوس)، فشبَّه الطَّائي (الدَّهر) وما فيه من ضيق الرِّزق والخير بـ(الرَّجل العبوس) مقطَّب الجبين والحواجب، مكفهر الوجه، الَّذي لا تأخذ منه شيئًا، فحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله : (العبوس)، فإنَّ الدَّهر لا يعبس أبدًا؛ لأنه أمرٌ معنوي، وأمَّا قوله (إلاَّ تبسُّمًا)، فقد صوَّر لنا الدَّهر يعبس مرةً ويبتسم مرةً أُخرى وهذه صورة بديعة، ومعنى البيت يشير إلى أنَّ يوم السبت هذا تمَّ فيه النَّصر؛ لأن الأبيات السَّابقة ترفد المعنى وتقوِّيه، فقال الطَّائي :

به سُبِتُوا في السَّبتِ بالبيض والقنا سُبَاتًا ثَوَوْا مِنه إلى الْحَشْرِ نُوَّما

ومعنى ذلك أنَّهم قُتِلوا، فناموا إلى يوم الحشر.

فالطَّائي صوَّر الدَّهر بأنه إذا تذكَّر هذا اليوم-وهو من أبنائه-الَّذي كان فيه النَّصر والظفر للممدوح؛ يبتسم على ما فيه من عبوس متمكِّنٌ فيه، فصَّور له ابنًا، وهو السَّبت الَّذي انتصر فيه الممدوح، فجعل الدَّهر المقطّب في ضيق الرزق والخير على تصوير الشَّاعر؛ كلما تفكَّر في حال ابنه هذا-السَّبت-قام وابتهج، وهذا الشَّاهِد فيه

(١) يُنظر: "الموازنة"،(٢٦٣/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٤٣/٣). ومطلع القصيدة:

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بهِمْ ولَعَلَّما وأنْ تُعْتِبَ الأيامُ فيهمْ فربَّما

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف.

من التَّصوير الخيالي الرَّائع، فالشِّعْراء لم يحسدوا أبا تمَّام إلاَّ من أجل هذه السبائك. على أنّ الآمِدِيّ لم يسُقْ نقدًا عليه، فلم يقل مثلًا أنَّه وصف الدَّهر بالعبوس، كلاَّ بل تركه كسابقه الَّذي مضى قبل قليل، وكأنه استوى لديه الحسن والقبح، فترك الحكم عليه، وجعله للقارئ الَّذي وصفه في أول كتابه.

- **الشَّاهِد السَّابع والسّتون[1]، وقوله :**

وكَمْ أحرَزتْ مِنْكُم عَلى قُبْحِ قَدِّها صُرُوفُ النَّوى من مُرهفٍ حَسَنِ القَدِّ[2]

استعار الشَّاعر لصروف الزَّمن قدًّا حسنًا، ويتَّضح بُعدُ المستعار له من المستعار، وحلَّل التَّبْريزي ذلك، قال: "أيْ كم فرَّق بيني وبين حبائب لي صروف الدَّهر، وقوله :(على قبح قدِّها). أي على قبح صورتها؛ لأنه جعل لها قدًّا مثل قدِّ الانسان؛ لأنَّه يحتمل أن يُقال: كأنَّ فلانًا قُدَّ من فلان؛ أي خُلق منه وصُوِّر، وإن كان أصل القدِّ فيما قُطع مستطيلًا، ولذلك سُمِّي قوام الانسان قدًا، و(القدُّ) مسك السخلة، فإنَّه استعاره لصروف النَّوى، فهو مؤدٍّ مثل المعنى الأول؛ لأنَّه يجعل القدَّ بمعنى الأديم، وإنما ذلك كناية عن الهيئة والصُّورة، وقد يجوز أن يريد (بقدّ النَّوى) قطعها الوصل"[3]. ثم عقب ابن المستوفى على قول التَّبْريزي، فقال: "قد عاب هذه الاستِعَارة الاستِعَارة عليه جماعة واستهجنوه، وهي لعمري قبيحة، ولم يرد بها إلاّ القدّ الَّذي هو القوام، لقوله: (مرهف القدِّ)، فقابل قبح قدِّها بحسن قدِّه"[4].

---

(١) يُنظر: "الموازنة"،(٢٦٤/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١١٠/٢)،ومطلع القصيدة:

شهِدتْ لقد أقوَتْ مغانيكم بعدي ومحَّتْ كما محَّتْ وشائعُ من بُردِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يمدح أبا المغيث الرافقي، ويعتذر له.

(٣) المصدر السَّابق، (١١٠/٢).

(٤) حاشية "ديوان"، أبي تمَّام، ((١١٠/٢).

وتبعه الآمِدِيّ في ذلك، فجعل هذه الاستِعَارة غاية في القباحة والهجانة، وبعيدةٌ كل البعد عن الصَّواب، حيث قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، وجعل لصروف النوى قدًّا...، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(١)، والحق ما قالوا.

- **الشَّاهِد الثَّامن والسِّتون(٢)، وقوله :**

إذا الغيثُ غادى(٣) نَسْجَهُ خِلْتُ أنَّه مَضتْ حِقبةٌ حَرْسٌ له وهْوَ حائكُ(٤)

الصُّورة في هذا الشَّاهِد توضِّح أانهماك (الدَّهر)، وهو المشبَّه بحوك وخياطة صورة الأرض المتزينة بالأنوار والزهر، فشبَّه الدَّهر بالخياط الماهر، شديد الحنكة عظيم الحبكة، وحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (حائك)، فالدَّهر ليست من صفاته الخياطة، وهذه استِعَارة مكنية، والشَّاعر هنا متأثِّر بمهنته الَّتي أسقطها على الدَّهر، وجعل عمله كعمله، وتبيَّن من خلال الصُّورة البيانية الرَّائعة أنَّ أبا تمَّام كان بارعًا في الخياطة، ويقرِّب بين الخيوط المتناسقة، ويؤلِّف بين المتباعدات في زخرفة ووشي حسن، قال التَّبْريزي: "أي إذا أصاب الغيث ندى هذه الأرض وجاده وزيَّنه بالأنوار والزَّهر، حسبتَ أنَّه كان يحوكها، ويصنعها زمانًا من الدَّهر"(٥).

فهذه الاستِعَارة لم تصِل إلى إعجاب الآمِدِيّ، بل راح يكرهها ويصف ألفاظها بالغثاثة كسابقتها، واستخدم فعل الشَّك (ظنَّ) للتعبير عن استيائه، وظنَّ أنَّ الغيث كان دهرًا حائكًا. وفي مبحث عبد القَاهِر تفصيل وإجراء آخر لهذا الشَّاهِد.

---

(١) "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٤/١).
(٣) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي : "سدًى".
(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٥٩/٢).
(٥) المصدر السَّابق، (٤٥٩/٢).

- **الشَّاهِد التَّاسع والسِّتون[1]، وقوله :**

إذَا للبســـتم عـــار دهْـــرٍ كأنمـــا ليالیـه مـن بـين الليـالي عـوارك[2]

شبَّه الشاعر (الدهر) باللباس المشين، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (للبستم) ، على سبيل الاستعارة المكنية.

- **الشَّاهِد السَّبعون[3]، وقوله :**

ولا اجْتُـذِبتْ[4] فُـرْشٌ مِـنَ الأمْـنِ هـي المثْـلُ في لِـينِ بهـا والأرائـكُ[5]

شبَّه الشَّاعر فرش من الأمن بالرَّاحة والطمأنينة على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، فـإنَّ الأمـن لـيس تحتـه فـرش، ولكنَّـه يـدلّ علـى رغـد العـيش والطمأنينـة والسَّـعادة، و"(المثل) جمع مثال وهو الفراش، و(الأرائك) قِيل الوسائد، وقيل السرّر في الحجال، واشتقاقها يناسب قولهم أرك إذا قام، وقِيل إنَّ أصلها ليس بعربي"[6].

وهذه الشَّواهِد الثَّلاثة المتتابعة من قصيدة واحدة كالَّتي سبقت من ذي قبل، وتكـاد تكـون القصـيدة برمتهـا تحـوي شـواهد البلاغيـين والنُّقـاد الَّـتي بَثُّوهـا في كتبهـم، واستشـهد الآمِـدِيّ بها علـى الاستِعَارة الَّـتي بلغـت حظًـا في البُعـد عـن الصَّـواب وعـدم الصِّـحة، وهـي مـع ذلـك غثيثـة الألفاظ،فقـال: "وأشـباه هـذا ممَّـا إذا تتبَّعتـه في شـعره

(١) يُنظر: "الموازنة"،(٢٦٤/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٦٤/٢).

(٣) يُنظر: "الموازنة"،(٢٦٤/١).

(٤) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "ولا استلبت".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤٦٥/٢)، ومطلع القصيدة:

قِـــرَى دَارِهـــمْ مِنِّـــي الـــدُّمُوعُ السَّـــوافِكُ وإنْ عـــاد صـــبْحي بَعـــدهمْ وهْـــوَ حَالِـــكُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي الثالث والستون هو البيت السادس، والشَّاهِدان البلاغيان الآخران متعاقبان، فالشَّاهِد الرابع والستون هو البيت الثالث والعشرون، والشَّاهِد الخامس والستون هو البيت الرابع والعشرون، وقال أبو تمَّام هذه القصيدة يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري، ويذكر المالكيِّين من بني تغلب.

(٦) المصدر السَّابق، (٤٦٥/٢).

وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، للأمن فرشًا، وظنَّ أن الغيث كان دهرًا حائكا، وجعل للأيام ظهرًا يركب، والليالي كأنها عوارك...، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(١)، فالتَّحليل لكلام الآمِدِيّ الآمِدِيّ يكشف عن سرّ هذه القباحة الكامنة في الاستِعَارة، وسبب غثاثة الألفاظ المستخدمة في هذه الاستِعَارة.

- **الشَّاهِد الحادي والسَّبعون(٢)، وقوله يرثي غلامًا:**

أَنْزَلَتْــهُ الأيَّــامُ عــن ظَهْرهــا مِــنْ بَعْــدِ إثبــاتِ رجْلِــه في الرِّكــابِ(٣)

وجه الاستشهاد هنا في قوله: (أَنْزَلَتْهُ الأيَّامُ عن ظَهْرها)، فالشَّاعر شبَّه خروج نفس الميت، وإزهاق الدُّنيا له، ونزوله من الحياة إلى قبره بنزول الرَّاكب عن ظهر الجواد الثَّابت الرِّجلين في الرِّكاب، فالمستعار له صورة والمستعار صورة أخرى، جاءت هذه الاستِعَارة على طريقة الاستِعَارة التمثيلية، فالأيام أمر معنوي لا تُنزل ولا تُركب، فالمعنى برمته مجازي قائم على الصُّور التَّخيلية، ومع ما في هذه الاستِعَارة من تحليق في سماء الصُّورة البيانية، وبهجتها، وروعتها، إلاَّ أنَّ الآمِدِيّ عدَّها من قبيح الاستعارات وأهجنها لفظًا ومعنىً، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، وجعل للأيام ظهرًا يركب،...وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبُعد من الصَّواب"(٤).

---

(١) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٦٤/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٦/٤).ومطلع القصيدة :

رَيْــبُ دَهْــرِ أَصــمَّ دُونَ العِتَــابِ مُرْصــــدٌ بالأوجـــالِ والأوصـــابِ

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن عشر، قالها أبو تمَّام يرثي محمد بن الفضل الحِمْيري، ويقال أبا العباس محمد بن عيسى الجرجاني.

(٤) "الموازنة"،(٢٦٥/١).

- **الشَّاهِد الثَّاني والسَّبعون[1]، وقوله :**

كـأنَّني حـين جـردت الرجـاء لـه عضْبًا صـببتُ بـه مـاءً علـى الـزَّمن[2]

هـذا الشَّـاهِد مرَّ في الفصـل الأول-فصـل التَّشـبيه-، واستشـهد بـه العسـكري على قبيح التَّشبيه وشدة برودة، وجعله الآمِدِيّ استِعَارة فكيف يكون ذلك؟ وهذا الخلـط الَّـذي كـان يقـع بـين القـدَّماء في تحديـد الفـرق بـين التَّشـبيه المضـمر الأداة والاستِعَارة، وقد سبق تفنيد أركان التَّشبيه وتوضيحها في هذا الشَّاهِد، لكن الاستِعَارة الَّتي أرادها الآمِدِيّ هي في قوله (صببتُ به ماءً على الزَّمن) صفة العضب وهو السَّيف القاطع، فقد استعار لـ (يُطفأ) قوله (صببت)، وكأنه يُخمد الفتن الَّتي تدور عليه بذلك العضب، الَّذي من صفاته الحزّ والقطع وإخماد الفتنة، فالأحداث لا تقع بمنأى عن الزَّمان، بل تحدث بداخله ويشهدها بنفسه، حتَّى كأنَّه يرضى عن بعضها للمصلحة المترتِّبة، وقد يُصيبه حمى من تلك الأحداث ويُصبّ فوق رأسه ماءً؛ للدلالة على الحرارة الَّتي بلغت منه جرَّاء تلك الأحداث، فالاستِعَارة تتراوح بين التَّصريحية من جهة الإطفاء، والمكنية من جهة صورة الرَّجل الَّذي بلغ منه الجهد والإعياء، فارتفعت حرارة جسمه لِحُمَّى أصابته، وهذه استِعَارة لم يُسمع عن العرب أنَّهم صنعوها، بل هي من بُنيَّات أفكار الطَّائي، الَّذي يُتحف سامعيه وقارئيه بهذه الاستعارات البعيدة بين المستعار له والمستعار، ولم يسكت الآمِدِيّ عن هذه الاستِعَارة بل وصفها كسابقتها بالقباحة والهجانة، فقال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٦٥/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٣٩/٣)، ومطلع القصيدة:

أَرَاكَ أكبَـرْتَ إدْمَـاني علـى الـدِّمَنِ وحَمْلِـيَ الشَّـوْقَ مِـنْ بَـادٍ ومُكـتَمِنِ

لا تُكثِـرنَّ مَلامِـي إنْ عَكَفـتُ علـى رَبْـعِ الحَبيـبِ فلَـمْ أعكُـفْ علـى وَثَـنِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في أبي الحسن عليَّ بن مُرّ.

كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ...، والزمان كأنه صُبَّ عليه ماء،... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبُعد من الصَّواب"[١].

- **الشَّاهِد الثَّالث والسَّبعون[٢]، وقوله :**

وكأنَّ فارِسَهُ يُصرِّف إذْ بدا في متنهِ ابنًا للصَّباحِ الأبلقِ[٣]

هنا استِعَارة بالكناية في عجز البيت، فقد حذف المشبَّه به وهو (الانسان) واستعار له الصباح، على سبيل الاستِعَارة المكنية ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله (ابن)، والصَّباح ليس له ابن. وقد استشاط غضب الآمِدِيّ من هذه الاستِعَارة ومقتها أشدَّ المقت، لبُعد المستعار له من المستعار، وعلى كل حال، فقد نبَّه الآمِدِيّ في نقده للشَّاهد بأنذَه جعل الفرس ابنًا للصباح، وهذا تشبيه وليس استِعَارة، حيث قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، والفرس كأنه ابن للصَّباح[٤] الأبلق،... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبُعد من الصَّواب"[٥].

ومجموع قول الآمِدِيّ في هذه الاستعارات:"وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته[كثيرًا]؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-للدهر أخدعًا، ويدًا تقطع من الزند، وكأنه يصرع، وجعله يشرق بالكرام، [ويفكِّر]ويتبسم، وأنَّ الأيام بنون له[٦]، والزمان أبلق، وجعل للمدح يدًا، ولقصائده مزامير، إلاَّ أنها لا تنفخ ولا تزمر، وجعل

(١) "الموازنة"، (٢٦٥/١).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٦٥/١).
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤١٥/٢)، ومطلع القصيدة:

يا برقُ طالِعْ مَنْزِلًا بالأبرقِ واحدُ السَّحابَ لهُ حُداءَ الأنيُقِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن عشر، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب، ويصف فرسًا حَمَله عليه.

(٤) وفي رواية أخرى: "ابن للزمان"، يُنظر : حاشية "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٥) "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٦) وفي رواية: "الأيام تنزله" .

المعروف مسلمًا تارةً ومرتدًا أخرى، والحادث وغدًا، وجذب ندى الممدوح بزعمه جذبةً حتى خر صريعا بين يدي قصائده، وجعل المجد ممَّا يجوز عليه الخرف[1]، وأنَّ له له جسدًا وكبدًا، وجعل لصروف النَّوى قدًّا، وللأمن فُرُشًا، وظنَّ أنَّ الغيث كان دهرًا حائكًا، وجعل للأيام ظهرًا يركب، والليالي كأنها عوارك، والزَّمان كأنه صبّ عليه ماء، والفرس كأنه ابن الزمان الأبلق؛ وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبُعد من الصَّواب"[2].

ثالثًا/ استِعَارة العرب وتمحيص الشَّواهِد الدَّهرية عند أبي تمَّام

فبماذا خالفت استِعَارة أبي تمَّام استِعَارة العرب إذن ؟

بيَّن الآمِدِيّ أنَّ العرب استعارت المعنى لأمرٍ يقوم على المقاربة، والمشابهة، والمناسبة بين المستعار والمستعار له، حينها تتألف اللَّفظةَ وتتلاءم مع المعنى المستعار لها، وعرَّض باستعارات أبي تمَّام بذكر هذه الشَّواهِد قبل، وأنها قد خالفت سُنن العرب، قال الآمِدِيّ: "وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو يشبَّهه في بعض أحواله، أو كان سببًا من أسبابه؛ فتكون اللَّفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشَّيء الَّذي استُعِيرت له وملائمة لمعناه"[3]، وهذا سرّ استهجان الآمِدِيّ لاستعارات لاستعارات أبي تمَّام.

وقد لا يكون من السَّهل أحيانًا تحديد ذلك بمحاكمة أغلبية استعارات أبي تمَّام في ديوانه؛ بل وردت استعارات في شعره فائقة الحسن والجمال، وستأتي في المطلب الثَّاني، ولكن الحكم هنا مقصور على هذه الشَّواهِد، وبنظرة الآمِدِيّ نفسه الَّتي أردفها بعِدَّة أوصافٍ، حدَّد فيها الاستعارات المرذولة، والقبيحة والهجينة، والغثيثة، وأنَّها خالفت نهج العرب في استعاراتهم، فقد قامت أغلب استعارات أبي تمَّام في هذه

(١) وفي رواية: "ممَّا يحقد عليه الخوف" .

(٢) "الموازنة"، (٢٦٥/١).

(٣) المصدر السَّابق، (٢٦٥/١).

الشَّواهِد على المباعِدَّة بين المعنى المستعار له والمستعار، وضرب لذلك أمثلة، فابتدأ بقول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بَكَلْكَلِ[1]

فلما حلَّله وبيَّن أركان الاستِعَارة في البيت، وشدة المقاربة بين المستعار له والمستعار، قال: "وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة، لشدة ملاءمةً لمعناها لما استُعِيرت له... فهذا مجرى الاستعارات في كلام العرب"[2]، فبيَّن القاعِدَّة وضرب عليها أمثلة.

ومن عجيب أمر الآمِدِيّ وطول نفسه في النَّقد، والمناقشة، والمحاورة، يرجع أحيانًا لبعض الأبيات الَّتي يرى أنه لم يستوفِ الحديث عنها، فيفنِّدها من جديد، وعندئذٍ تظهر الملكة المصقولة، والمقدرة العالية في التَّفْتِيش عن سرّ استهجان بعض الشَّواهِد، فيستأنف الآمِدِيّ الحديث عن بعض الشَّواهِد ممَّا مضى ذكره، ليُدلي بدلوه ويضع يده على المفصل، وهو يُراوح بين توضيحها من جهة وذكر الاستعارات الحسنة من جهة أخرى، وقد استصفى الباحث الاستعارات الحسنة في مطلب مستقلّ.

والحقّ أنَّ كلام الآمِدِيّ هذا جاء في سياق واحد، فمزج بين الشَّكليْن، وأظنه صنع ذلك لكي لا يُقال عنه أنَّه متحامل على أبي تمَّام، فذكر الرَّديء ثم الجيّد، والدَّارس لم ينقل هذا الكلام في موضعه الَّلائق، وجعله في شاهده الخاص به للأمانة العِلْمِية؛ لأنَّ الآمِدِيّ أرادها كذلك، وأحسب أنَّه أمسك قلمه عِدَّة أيام، فسالت أفكاره بعدئذٍ؛ لأنه رأى أن الحديث لم يوفِه حقه في بداية الأمر، فرجع إليه ليفتش في أسبابه وعلله، وليس ما يمنع من إرجاع هذا النَّقد تحت كل شاهد جاء ذكره فيه، وأذكر هذا النَّقد هنا؛ لأنَّ الآمِدِيّ بعد أن فرغ من هذا النَّقد لبعض الشَّواهِد، ذكر

(١) "شرح المعلَّقات العشر"،(ص:٢٧).

(٢) "الموازنة"، (٢٦٦/١، ٢٦٩).

العلَّة في إتيان الطَّائي لهذه الاستعارات البعيدة، فسأذكر كلامه بعد الحديث عنها، فقد جاءت في قالب واحد، وسياق متَّصل لا يمكن الفصل بينها.

وجاء حديث الآمِدِيّ عن شواهده الدَّهرية من شعر أبي تمَّام، بعد أن فرغ من نقده العام، واستعارات العرب الصَّحيحة، فبدأ يُفرِد لهذه الشَّواهِد فحصًا وتفنيدًا يدل على القامة العِلْمِية المُتَمَكِّنَة عنده بأسلوب علمي مقارن، يُدخِل السؤال في بطن الجواب والعكس، حتى كأنَّه يُدرِّب طالب العِلم على النَّظر والتَّفْكِير؛ ليبني عنده المعرفة وملكة البحث ودِقَّة النظر، وكيفية الفحص الَّتي تتعامل مع النُّصوص المشكِلة والمحيرة. فذكر شاهد أبي تمَّام الدَّهري الَّذي فيه (ولين أُخادع الدَّهر الأبي)، فسأل سؤالًا ليشحذ همَّة القارئ، فحواه ما الحاجة من استِعَارة الأخادع للدهر؟، حتى انسال قلمه دون تردُّد في ذلك، ليبيِّن أن اختيار اللَّفظة أمر لا بدَّ منه لمشاكلة المعنى، فبدأ يحضِّر بعض الخيارات المناسبة كحلّ بديل من لفظة أبي تمَّام (أخادع)، فقال ليته وضع لين معاطف الدَّهر، أو لين جوانب الدَّهر، وغيرها، وهي الأولى من (الأخادع)؛ لأنه يرى أن الدَّهر يكون سهلًا وحزنًا ولينًا وخشنًا على تصرُّف الأحوال فيه، وكل هذه المحاولات من الآمِدِيّ ليُخلِّص بيت أبي تمَّام من قبح الأخادع، ويرى أن في العرب تتَّسع في كلامها، فقال:"وأمَّا قول أبي تمَّام "ولين أخادع الدَّهر الأبي"، فأي حاجة دعته إلى الأخادع حتى يستعيرها للدهر؟ [وقد]كان يمكنه أن يقول: ولين معاطف الدَّهر الأبيِّ ، أو لين جوانب الدَّهر، أو خلائق الدَّهر، كما تقول: فلان سهل الخلائق، ولين الجانب، وموطَّأ الأكناف؛ ولأن الدَّهر يكون سهلًا وحزنًا ولينًا وخشنًا على قدر تصرُّف الأحوال فيه؛فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع، وكانت تنوب [له]عن المعنى الذى قصده، ويتخلَّص من قبح الأخادع؛ فإنَّ في الكلام متَّسعًا"[1].

(١) المصدر السَّابق، (٢٦٩/١-٢٧٠).

ولـمَّا انتهى من تفنيد القول في هذا الشَّاهِد، بيَّن شواهد الاستِعَارة الحسنة، والَّتي لم يتكلَّف فيها الشَّاعر، وهي شبيهة باستعارات الأوائل، بيد أنَّ الباحث تصرَّف فيها وأفرد لها مطلبًا مستقلًا؛ يعقب هذا المطلب مباشرة؛ ليكون البحث مقسمًا تقسيمًا منطقيًا، وسيذكر الأسباب والعلَّل المواتية للبحث؛ لتكون الدِّراسة أكثر دِقَّة، وأغزر خصوبة، على أنه ذكر كلامًا متَّصل العَلَاقة بهذا الشَّاهِد، وذلك بعد أن سرّد شواهد الاستِعَارة الحسنة الَّتي سيكون الحديث عنها في مطلبها القادم، بيَّن أمورًا تتصل بشواهد الاستِعَارة من شعر الطَّائي وهي المزج في شعره بين الحسن والقبيح، والجيّد والرديء، وهذه هي المناصفة الحقيقية، فخرج بذلك مَن كان يصف الآمِدِيّ بالمتحامل على أبي تمَّام ووقوفه في صف البُحْتَري، فبيَّن أنَّ لفظة (الأخدع) تقبح استعارته للدَّهر لبُعد الطرفيْن فلا مشابهة ولا مناسبة، فلو ذكره في غير هذا الموضع أو غيَّره أو بدَّله، أو ذكره على الحقيقة، لكان أصوب ولما قبح، فقال -رحمه الله-: "فقد تراه كيف يخلط الحسن بالقبيح، والجيّد بالرديء ، وإنما قبح الأخدع لما جاء به مستعارًا للدهر، ولو جاء في غير هذا [الموضع]، أو أتى [به] حقيقة ووضعه في موضعه،لما قبح"(١).

ثم ذكر بيتًا للبحتري، وصفه أنه أجاد فيه ولم تقبح لفظة (الأخدع) في قوله :

وأعتقـــت مـــن ذل المطـــامع أخـــدعي(٢)

ثم أتى بشاهد لأبي تمَّام-دهري أخدعي-وضَّح فيه أمرًا غريبًا، فكلامه السابق عن الشَّاهِد يصفه بغثاثة الألفاظ، وأنها غاية في القباحة والبعد عن الصِّحة، وتراه هنا يُقرِّب الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد من الصَّواب قليلًا، ولعلَّه ترك القلم عِدَّة أيام ثم استأنف الحديث عن هذه الشَّواهِد، فبدا له من الأمر ما بدا له، فأعاد النَّظر، فوصف مجيء الأخدعين وضربته تشبيه ضربة البعير على صفحتيْ عنقه؛ فجعلها سائغة لهذا القرب، فقال: "فأمَّا قوله:فضربت الشتاء في أخدعيْه فإن ذكر الأخدعيْن [ههنا]-على

(١) المصدر السابق، (١/٢٧٠).

(٢) المصدر نفسه، (١/٢٧٠).

قبحهما – أسوغ؛ لأنه قال "ضربةً غادرته عودًا ركوبًا "وذلك أن العَوْدَ المسِنُ من الإبل [والبعير أبدًا]يضرب على صفحتيْ عنقه فيذل؛ فقربت الاستِعَارة ههنا من الصَّواب قليلاً"[(١)].

وهنا كذلك يرفض اتِّصال الأخدع بالدَّهر، ويمكن العدول عن قوله: قوِّم من أخدعيْك إلى قوِّم من اعوجاج صنعك، أو طريقك، أو مطيتك، ثم ختمها بوصف الدَّهر بالأخرق، فكيف يقوِّم اعوجاجه الأخرق الَّذي لا يحسن العمل، ولا يصلح لتدبير الأمور، فلا يكون ذلك أبدًا، فقبحت حقًا هذه الاستِعَارة؛ لبُعد الطرفيْن عن بعضهما البعض، وعلى ذلك قال: "ومن القبيح في هذا قوله:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ[(٢)] أُخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ[(٣)]

فأيُّ ضرورةٍ دعته إلى الأخدعيْن؟ و[قد]كان يمكنه أن يقول "قوِّم من اعوجاجك "،أو "قوِّم معوج صنعك "،أو: يا دهر أحسن بنا الصنيع؛ لأن الأخرق هو الَّذي لا يُحسن العمل، وضده الصَّنَعُ"[(٤)].

سلك الآمِدِيّ في تحليل هذا الشَّاهِد سبيل التَّفْتِيش والتَّحكيك، فبرزت آراؤه النَّقدية كدُرِّ الجمان، فأخذه التَّعجيب من فعل الطَّائي؛ أن جعل للدَّهر عقلًا يفكِّر به، فكانت استِعَارة مخالفة للصَّواب، فذكر خيارات أُخرى للتَّعبير؛ فلو جعل الدَّهر يتضعضع،كان أفضل وهو من"الخضوع والتذلُّل، ففي الحديث أبي بكر –رضي الله عنه– في إحدى الروايتيْن: قد تضعضع بهم الدَّهر، فأصبحوا في ظلمات القبور أي

(١) المصدر السَّابق، (٢٧١/١).

(٢) "من" هنا زائدة، غير مذكورة في الديوان، ربما أنها من عمل المصحِّفين.

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤٠٥/٢)، ومطلع القصيدة:

كانَتْ صُرُوفُ الزَّمانِ مِنْ واكتَنَّ أهْلُ الإعْدَامِ فِي وَرَقِكْ

وهي من البحر المنسرّح، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانه، ويهنّيه بالعافية.

(٤) "الموازنة"،(٢٧١/١).

أذلهم"[1]، أو ليته جعله ينهدّ وغيرها، ممَّا يراه الآمِدِيّ بأنه الأليق والأشبَّه، فتقرب بذلك الاستِعَارة بين طرفيْها، حتى وصف الآمِدِيّ أهل المعاني وأنَّ من خصائصهم وصفاتهم معرفة البلاغة من الإفراط، فكأنَّ الطَّائي أفرط وخالفه الصَّواب في هذه الاستِعَارة، ولم يأتِ بالبلاغة المرضية عند أهل المعاني، وهنا لفتة؛ هي أنَّ الآمِدِيّ مدح نفسه بتعريض؛ بأنَّه من أهل المعاني وممَّن يعرفون البلاغة والإفراط في تفنيد الشَّواهِد الشِّعْرية، فعرف ذلك عند الطَّائي واستخرج الخلل الكامن في الشَّاهِد، فقال: "وكذلك قوله :

تحمَّلْتَ ما لوْ حُمِّلَ الدَّهرُ شَطْرَهُ لَفَكَّر دَهْرًا أيُّ عِبأيْهِ أَثْقَلُ[2]

فجعل للدَّهر عقلاً، وجعله مفكِّرًا في أيِّ العِبأيْن أثقل، وما شيء هو أبعد من الصَّواب من هذه الاستِعَارة، وكان الأشبَّه والأليق بهذا المعنى لما قال: "تحمَّلْتَ ما لوْ حُمِّلَ الدَّهرُ شَطْرَهُ أن يقول: لتضعضع، أو لانهدَّ ، أو لأَمن النَّاس صروفه ونوازله، ونحو هذا المعنى ممَّا يعتمده أهل المعاني في البلاغة والإفراط"[3].

رابعًا/ شواهد استعارات الطَّائي البعيدة والفاسدة والقبيحة

قدَّم الآمِدِيّ هذه الشَّواهِد في نسج من الحرير النَّقدي، يفلُّ الشَّواهِد، ويُحرِّر المسائل، ويقف على الخصائص، ويستدرك على نفسه أحيانًا كما فعل قبل قليل، وها هو الآن يقف على سؤال هو: كيف جاءت استعارات الطَّائي البعيدة؟

فبعد الانتهاء من شواهد خالفت سنن العرب الَّتي وضَّحها الآمِدِيّ، وشواهد ستأتي لاستعارات حسنة على نهج الأوائل، جاءت النَّتيجة تتهادى كالجمان من فيِّ

(١) "لسان العرب"،(٩/٤٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٣/٧٤)، ومطلع القصيدة:

تحمَّلَ عنه الصبرُ يومَ تحمَّلوا وعادَتْ صبَاهُ في الصبّا وَهْيَ شَمْأَلُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها يمدح أبا المُستهل محمد بن شقيق الطَّائي.

(٣) "الموازنة"، (١/٢٧١-٢٧٢).

النَّاقِد النِّحرير الآمِدِيّ، بيَّنها في بداية حديثه عن شواهد الاستِعَارة، وتتركَّز في انكباب الطَّائي على شعر الأوائل، وخاصَّة قليل استعارات العرب البعيدة الَّتي مال إليها، وأكثر منها، حتى سمَّاه الآمِدِيّ حاطب ليل، الَّتي جعلته يحمل الجيّد والرَّديء دون أن يشعر، فقال: "وإنما رأى أبو تمَّام أشياء يسيرةً من بعيد الاستعارات متفرِّقةً في أشعار القدَّماء، كما عرفتك لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة، فاحتذاها، وأحبَّ الإبداع، والإغراب بإيراد أمثالها، فاحتطب، واستكثر منها"(١)، ثم سرّد الآمِدِيّ بعد ذلك شواهد اتَّكأ عليها الطَّائي فاحتذاها، وجعلها مرجعًا له في استعاراته البعيدة، وأكثر منها وأفرط حق الإفراط، فمن تلك الشَّواهِد قول ذي الرُّمة :

إذا شمَّ أنفَ الصيف(٢) ألحقَ بطنهُ مِـرَاسُ الأَوَابِي وامْتَحَـانُ الْكَـوَاتِمِ(٣)

قال الآمِدِيّ:"وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله في كتاب"سرّقاتالشِّعْراء"، وبهذا البيت اغترَّ الطَّائي حتى أتى [بما أتى]به، [قال أبو القاسم]: وإنما أراد ذو الرُّمة بقوله (أنف الضيف): [أول الضيف]كقولهم (أنف النهار): أي أوله،[ورعينا أنف الغيث؛ أي أوله] "(٤).

وقال في شاهدٍ آخر: "وقول الآخر: أنشدناه الأخفش عن ثعلب يذم رجلًا:

ما زال مذمومًا على اسْتِ الدَّهر ذَا حَسَـدٍ يَنْمِـى وعَقْـلٍ يحْـرِى

فجعل للدهر استًا"(٥)، فهذه الشَّواهِد الَّتي ذكرها الآمِدِيّ على قلَّتها ونُدْرتها؛ ونُدْرتها؛ هي الَّتي احتذاها الطَّائي وأسقط نفسه في وحلها، فأكثر واستكثر واستعملها في جدِّه وهزله، كما يقول الآمِدِيّ: "ومثل هذا في كلامهم قليل جدًا، ليس ممَّا يعتمد

(١) المصدر السَّابق، (٢٧٢/١).
(٢) والرواية في الديوان: "أنف البرد".
(٣) "ديوان"، ذي الرُّمة، (١٨٩/١)، دار صادر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠=١٩٩٩م.
(٤) "الموازنة"،(٢٧٣/١).
(٥) المصدر نفسه، (٢٧٤/١).

ويجعل أصلا يُحتذى عليه ويستكثر منه، [ويُستعمل في الجدّ كما يُستعمل في الهزل"[1]، الهزل"[1]، ثم بدأ الآمِدِيّ يسوق شواهد أُخرى لاستعارات قبيحة وفاسدة، وفي كل ذلك يُدلي بدلو نقده بعد كل شاهد يذكره، لا كما مرَّ من قبل من ذكر شواهد كثيرة، ثم ينقدها نقدًا عامًا ثم يستدرك عليها، وعلى كل حال هذه هي طريقة التَّاليف في تلك المرحلة.

- **الشَّاهِد الرَّابع والسَّبعون[2]قوله :**

لم تُسْقَ بَعْدَ الهَوى ماءً أقلَّ قذىً مِنْ ماءِ قَافِيةٍ بَسْقِيكَهُ فَهِمُ[3]

شبَّه الشَّاعر المعنى الجميل في القافية بالماء الَّذي يُشرَب على سبيل الاستِعَارة المكنية، ويرى الآمِدِيّ أنَّ استِعَارة القّافية للماء قد تجاوزت الحدَّ المعمول به، فلو أراد الرَّونق لصلحت، والرونق هو: "السيف والضُّحى: ماؤه وحُسنه"[4]ولا تصلح؛ لأنَّه ختم الشَّاهِد بقوله :(بسَقِيكَهُ) فالحُسن ماء السيف لا يُسقى، فلا يُقال ما شربت ماء أعذب من ماء (قفا نبكِ) استِعَارة حسنة، ولا يُقال ما شربت ماءً أعذب من شعر فلان أو قصيدته، فعلى ذلك فسدت وقبحت وتجاوزت الحدَّ، قال الآمِدِيّ: "فجعل للقافية ماء على الاستِعَارة؛ فلو أراد الرونق لصلح، ولكنَّه قال "يسقيكه"، ففسد معنى الرَّونق؛ لأنك إذا قلت "هذا ثوب له ماء "[أو لفظ له ماء] لم تجعل الماء مشروبًا [على الاستِعَارة]فتقول : ما شربت ماء [أعذب] من ماء ثوب شربته عند فلان، ورأيته

(١) المصدر السابق، (٢٧٥/١).

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، (٢٧٥/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام ، (٤٩٠/٤)، والبيت في الديوان مختلف في بعض ألفاظه:

لم تُسقَ بعدَ الهوى ماءً على ظمأٍ كَماءِ قافِيةٍيَسْقِيكَها فَهِمُ

ومطلع القصيدة:

مُحَمّدَ بنَ سَعيدٍ أَرْعِني أُذُنًا فما بأذنِكَ عنْ أُكرومةٍ صَمَمُ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني، قالها أبو تمَّامشُعاتب محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل.

(٤) "القاموس المحيط"،(ص:٩٥٤).

على فلان؛ وكذلك لا تقول : ما شربت ماء أعذب من ماء "قفا نبكِ "، أو أعذب من ماء [قصيدة] كذا؛ لأن للاستِعَارة حدًّا تصلح فيه، فإذا تجاوزته، فسدت وقبحت"(١).

وأورِد الآمِدِيّ اعتراضًا، وأجاب عنه، في قول بعضهم: "فلان حلو الكلام "وغيرها من الألفاظ هل هي صفة ملتصقة بآلة الفم وهي اللسان، فتوجد حلاوة ومرارة وعذوبة، فردَّ الآمِدِيّ على ذلك الاعتراض، وذكر أنه من كلام النَّاس أولًا، وهو بحسب موقعه في النَّفس المتلقية، وحلاوة في قلوب المخاطبين ليس إلاَّ، واستشهد بقول أبي تمَّام في ذلك، فقال : "فأمَّا قولهم: "فلان حلو الكلام"و "عذب المنطق"أو "كأن ألفاظه فتات السكر"فهذا كلام النَّاس على هذه السياقة، وليس يريدون حلاوة على اللسان، ولا عذوبة في الفم، وإنما يريدون عذبًا في النُّفوس، وحلوًا في القلوب، كما قال أبو تمَّام:

يستنبطُ الرُّوحَ اللَّطيفَ نسيمُها أَرَجًا، وتُؤْكَلُ بالضَّمِيرِ وتُشْرَبُ"(٢)

وفسَّر التَّبْريزي هذا الشَّاهِد بأنَّه مثلٌ يُقال لمن استطاب خلق أو ظرف امرئ فقال له: وددت أن آكلك أو أشربك حبًا لك وشغفًا بك، فقال: "هذا مثل، كما يُقال فلانٌ يُشرَب مع الماء، وكدت آكلُه شغفًا به، لمن يُستحلى خلقًا وظرفًا، و "نسيمها " أي نسيم هذه الضرائب يُحرِّك الرُّوح اللَّطيف"(٣).

يبيِّن الآمِدِيّ في هذا المقطع حدود الاستِعَارة في الكلام، فكما يُقال: وددت أنَّ آكله ظرفًا به، فيُقال لمِن رأى شيئًا أعجبه ووجد حلاوة في العين، قال: "حلو المنظر"، فالكلام والألفاظ لا تُذاق، فالقول حقيقة لا استِعَارة فيه، ووجد الآمِدِيّ مخرجًا لمن أراد ذكر ذلك، فبيَّن أنَّ عليه تجاوز العبارة، فتقول: زيد يُشرب مع الماء ويؤُكل مع

(١) "الموازنة"، (١/٢٧٥-٢٧٦).
(٢) المصدر السَّابق،(١/٢٧٦).
(٣) "ديوان" أبي تمَّام،(١/١٢٩).

الطعام؛ لحسن وجمال وطيب معشره وأخلاقه، ولا يُقال: ما أكلت أطيب من زيد أو عبيد، فهذا مخالف للاستِعَارة المعهودة عند العرب، قال الآمِدِيّ: "وكذلك قولهم: "حلو المنظر "إنما يريدون حلوًا في العين، ولا تقول: ما ذقت أحلى من كلام فلان، ولا ما شربت أعذب من ألفاظ فلان؛ لأنَّ هذا القول صيغة الحقيقة لا الاستِعَارة، ولكن يُقال: هذا كلام يصلح أن يُتنقل به، وزيد يُشرب مع الماء لحسن أخلاقه وحلاوته، وعمرو يؤكل ويُشرب لرقة طبعه، ولا تقول: ما شربت أعذب من عمرو، ولا ما أكلت أحلى من عبد الله،فاعرف هذا؛فإنَّ حدود الاستِعَارة معلومة"[1]. وهذه الوقفات من الآمِدِيّ تدلُّ يقينًا جازمًا على رُجحان عقله وقوته اللغوية العِلْمِية.

- **الشَّاهِد الخامس والسَّبعون [2]، وقوله :**

لَمَكاسرّ الحسن بن وهبٍ أطيبُ وأمَرُّ في حنكِ العدو وأعذبُ[3]

شبَّه الممدوح بالمذاق غير السَّائغ في حنك العدو، في قوله (وأمر في حنك العدو)، والمذاق المرّ أشدُّ ما يكون في الحنك؛ لأنَّه محلّ الإطعام والذَّوق؛ لأنَّ الممدوح يقف دائمًا في وجه العدو، فلن يذكر أخلاقه، ولن ينطق بخلاله، فحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، بجامع التَّنغيص والحروب المتوالية، فهو بذلك أعذب في حنك وليِّه ووديدِه وخليله على المفهوم من هذا المنطوق. وقد عاب الآمِدِيّ استِعَارة الطَّائي، ونعتها بأنَّها فاسدة، ومدح استِعَارة زهير في بيت ذكره، وبيَّن أنَّ سبيل الاستِعَارة هو ما نهجه زهير في بيته، فقد جعل خصمه لقمة في فيه، وأدخلها في طريق الاستِعَارة الصَّالحة، وعلى ذلك قال الآمِدِيّ: "فالمكاسرّ: الأخلاق، وإنما أراد أمرّ في حنك العدو، إذا نطق بها، أو أمرّ في حنكه أن يذكرها، أو يخبر بها، وأعذب في حنك وليِّه ووديده إذا سترها، وكما قال زهير:

(١) "الموازنة"،(٢٧٦/١).
(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٧٧/١).
(٣) "ديوان" أبي تمَّام،(١٢٧/١).

تُلَجْلِجُ مُضغةً ، فيها أنيضٌ أصَلَّتْ ، فَهْيَ تَحْتَ الكَشْحِ داءُ[1]

لأنه أراد كلمةً، فصلح أن يقول:أنيض، أي لم تنضج، و أصَلَّتْ: تغيَّرت وأنتنت، وذلك لما جعلها مضغة؛ أي لقمة في فيه؛ فهذا طريق الاستِعَارة فيما يصلح منها ويفسد؛ فتفهمّه فإنه واضح"[2]. وهنا يتبيَّن أن منهج الآمِدِيّ الَّذي سار عليه في في هذا الشَّاهِد هو منهج الموازنة والمقارنة.

- **الشَّاهِد السَّادس والسَّبعون[3] وقوله :**

مقصِّرٌ خُطُواتِ البثِّ[4] في بدني عِلمًا بأنِّي ما قَصَّرتُ في الطَّلبِ[5]

الاستِعَارة في قوله (خُطُواتِ البثِّ) أو على رواية الدِّيوان (خَطَراتِ الهم)، فجعل للبثّ أو الهمّ خطوات يمشي بها، وخطى في بدنه قصيرة، فلم يقصَّر في الطَّلب، وحذف المشبَّه به وهو (الانسان)، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (المشي) على سبيل الاستِعَارة المكنية، ومعنى الشَّاهِد بشكل عام أنه لم يدَع الهمّ يخرمه ويضايقه، متعزيًا في ذلك بأنَّه لم يقصِّر في طلب النجاح والرزق، وهذه الاستِعَارة نعتها الآمِدِيّ بأنها من وساوس الطَّائي، وذكر أنَّ المعنى الَّذي أراده خلاف ما ذكره في الشَّاهِد، فالخطوات الطويلة والسرّيعة في قلب المرء تمكث زمنًا ووقتًا قليلًا، بعكس الخطوات القصيرة الَّتي لا تكاد تبرح القلب، فتولعه همًا وغمًا، وتزيد عليه الجزع والسُّخط، قال الآمِدِيّ:"فجعل للبثّ –وهو أشد الحزن–خطواتٍ في بدنه، وأنَّه قد قصرها؛ لأنَّه ما قصر في الطَّلب، وهذا من وساوسه المحكمة، وإنما أراد أنه قد سهل أمر الحزن عليه، أنه ما قصَّر في

(١) "ديوان"، زهير بن أبي سُلمى،(١٦/١)، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة ١٤٠١= ١٩٨٠م.

(٢) "الموازنة"،(٢٧٧/١).

(٣) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٧٩/١).

(٤) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي :"خَطَراتِ الهم".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام،(٥٤٩/٤)، ومطلع القصيدة:

عَنَّتْ فأَعْرَضَ عَنْ تَعْرِيضَها أَرَبي يا هذه اعذري في هذه النُّكَبِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس عشر باب الفخر.

الطلب؛ لأنه لو قصَّر،لكان يأسف ويشتدّجزعه، فجعل للحزن خطى في بدنه قصيرةً، لما جعله سهلا خفيفًا، وهذا ضدُّ المعنى الَّذي أراده؛ لأن الخطى إذا طالت [أخذت من الشيء الَّذي تمرّ عليه أقلَّ ممَّا تأخذه الخطى القصيرة؛ فعلى هذا] يجوز أن يقع قلبه أو كبده بين تلك الخطى الطويلة، فلا يمسّها من البثّ-وهو الحزن-قليلٌ ولا كثير.فإن قِيل: إنما أراد أنَّ الحزن هو في قلبه خاصَّة، وأن قوله "في بدني "أي في قلبي؛ لأن قلبه في بدنه"[1].

ثم يُورِد الآمِدِيّ اعتراضات في هذه المسألة ويردُّ عليها، من ذلك أنَّ أبا تمَّام إنَّما أراد القلب خاصَّة ولم يُرِد البدن، فيردّ عليه بأنّ الأمر سِّيان، القلب أو البدن، فالخطوات تمرّ عليهما جميعًا في وقت واحد، ويورِد أمرًا آخرَ، وهو أنَّ أبا تمَّام أراد بطول الخطى الكثرة وبقصرها القلَّة، وهذا توجيه يحتمله المعنى، لكن الآمِدِيّ دمغ هذه الحجَّة بأنَّ هذا القول فيه تأويل غلط وليس هو المراد، وإنَّما الشَّأن في توجيه المعاني لألفاظها دون تأويل أو تحريف، ثم حكم على الشَّاهِد أنه من أعجب الوساوس. حيث قال : "فإن قِيل : إنما أراد [أنَّ] الحزن هو[في] قلبه خاصَّة، وأنَّ قوله "في بدني "أي في قلبي؛ لأن قلبه في بدنه.

قِيل: الأمر واحد في أنَّ الخطى إذا طالت على الشيء-قلبه كان أو ما سواه-أخذت منه أقلَّ ممّا تأخذ إذا قصرت.فإن قِيل: أراد بطول الخطى الكثرة وبقصرها القلة.قِيل: هذا غلط من التأوُّل، وليس العمل على إرادته، وإنما العمل على توحيه[2] معاني ألفاظه.وبعد؛ فإنَّ من أعجب الوسواس خطوات البثّ في البدن"[3].

يتبيَّن في هذا الشَّاهِد روح النِّقاش العِلْمِي، وسعة صدر الآمِدِيّ للاعتراضات الَّتي يورِدها ويردُّ عليها، ولا شكَّ أنه يعمد في تحليل النَّص الأدبي إلى التَّغلغل في

(١) "الموازنة"،(٢٧٩/١).

(٢) الكلمة هنا -والله أعلم- توخيه معاني ألفاظه.

(٣) "الموازنة"،(٢٧٩/١-٢٨٠).

حيثيات المعنى، دون الغفلة عن اللَّفظ الدال، ويعمد إلى تخيُّر الأصحّ من الصَّحيح بعقلية تقود النَّقد الأدبي إلى الرِّفعة وعلو المقاصد.

- **الشَّاهِد السَّابع والسَّبعون[1]،قوله :**

جَارَى إِلَيْهِ البَيْنُ وَصْلَ خَرِيدَةٍ ماشَتْ إِلَيْهِ المِطْلَ مَشْيَ الأَكْبَدِ[2]

الاستِعَارة في قوله:(جارى إليه البين)، و(البين): الفراق وهو أمر معنوي لا يُدرك إلاَّ بالعقل، فحذف المشبَّه (حال)، وأبقى المشبَّه به وهي قوله (جارى)، على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية التبعية، والجامع الحيلولة بين العاشق والمحبوبة، ومعنى الشَّاهِد بشكل عام أنَّ العاشق يريد وصل هذه الخريدة، وهي المرأة المنعَّمة البِكر، ويريد البين أن يقطع عنه الطريق فتجاريا، فوقع الوصل وجاء الفراق، أمَّا هي؛ فكانت تمشي مع المطل، كما يمشي فرس متوجِّع عظيم وهو(الأكبد)، فكان بطؤها في السير إطالة للمطل فسبقته، وهذا الشَّاهِد فيه من التَّعقيد، وإكلاف العقل في التَّفْكِير الَّذي تنفر منه النُّفوس، وليت هناك معنى رائعًا ينتظر السَّاعي وراءه، بل هو جهد وإتعاب الفكر دون طائل، ولا ريبَ أنَّ الاستِعَارة في هذا البيت حملت في طيَّاتها الخلط والتَّعقيد، وفُعِّل عنصر التَّناقض في الشَّاهِد، فالوصل سبيل البين، والمشي سبيل المطل. ويمثل هذه الشَّواهِد عند أبي تمَّام نُفِرَ من شعره، وأُصِيبت استعاراته بالرداءة والقباحة، وهو حاصل تفسير الشَّاهِد عند التَّبْريزي، الَّذي قال:"جاء بـ (ماشى)؛ لأنَّه ضد (جارى)، و(الأكبد) الَّذي يشتكي كبده، فيعظم بطنه لذلك، و(الأكبد) العظيم الوسط، يقول: جارى البين وصل هذه الخريدة، الَّتي تمشي مع المطل مشيًا رويدًا.(أبو عبد الله): معناه: سابق إلى هذا العاشق، يعني نفسه، البين وصال هذه الخريدة، وانتهيا معًا،

(١) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٨٠/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤٤/٢)، ومطلع القصيدة:

كُشِفَ الغِطَاءُ فأَوْقِدِي أَوْ أَخْمِدِي لم تكمدي فظننتِ ان لم يَكْمَدِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس، قالها أبو تمَّام يمدح المأمون.

فحين وقع الوصل، جاء الفراق، فهذا معنى المصراع الأول، ثم أخذ في وصف هذه تلك الخريدة، بأنها تُماشي المطل إلى العاشق، فتمشي معه مشي فرس عظيم الجوف، لا ينقطع جريه، فهي أيضًا تداوم المطال، ولا ترى الإنجاز، فتكون أبدًا مع المطل في المشي، لا ينقطع جريهما، هذا إذا كان (الأكبد) العظيم الجوف، وإذا أراد بـ(الأكبد) الَّذي يشتكي كبده، فمعناها : وصل خريدة تمشي مع المطل مشي فرس متوجِّع الكبد، فيُبقي على نفسه في السير، ويُبطيءُ فيه، فهي أيضًا تبطيء مع المطل؛ ليكون بقاؤهما معه أطول، ووصولهما إليه أبعد"(١).

وقد عصر الآمِدِيّ عقله في سبيل تحليل الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد، وحبَّر قلمه بعد تفتيش وإنعام نظر فجعله ضربًا من التَّخليط، ثم عطف في آخر حديثه باستفهامات حقيقية وتقريرية، مفادها احترام العقل والفكر، قال الآمِدِيّ:"الهاء في "إليه "راجعةٌ إلى المحب، يريد أن البين [ووصل الخريدة تجاريا إليه، فكأنه أراد أن يقول : إنَّ البين] حال بينه وبين وصلها، واقتطعها عن أن تصله، وأشباه هذا من اللَّفظ المستعمل الجاري [العادة]، فعدل إلى أن جعل البين والوصل تجاريا إليه، كأن الوصل في تقديره جرى إليه يريده، فجرى البين ليمنعه، فجعلهما متجاريَيْن، ثم أتى في المصراع الثَّاني بنحو من هذا التخليط، فقال: ماشت إليه المطل مشى الأكبد، فالهاء هنا راجعة إلى الوصل: أي لما عزمت على أن تصله عزمت عزم متثاقلٍ مماطل، فجعل عزمها مشيا، وجعل المطل مماشيا لها، فيا معشر الشِّعْراء والبلغاء ويا أهل اللُّغة العربية: خبِّرونا كيف يجاري البين وصلها؟ وكيف تماشي هي مطلها؟ ألا تسمعون؟ ألا تضحكون؟"(٢).

ولمَّا انتهى الآمِدِيّ من ذكر شواهد استعارات أبي تمَّام، عوَّل على شعر سلم الخاسرّ الَّذي أنشده ابن المعتز، في كتابه "سرّقات الشِّعْراء"، يعيبه برديء استعارته،

(١) المصدر السَّابق، (٢/٤٤، ٤٥).

(٢) "الموازنة"،(١/٢٨٠).

ويشبَّه بيته بشعر الطَّائي؛ لإتيانه بمثل هذه الاستعارات الرَّديئة، بل يُفضِّل سلم على أبي تمَّام؛ لأنَّه لا يُكثر من هذه الاستعارات الرديئة في شعره، فيتمنَّى أنَّ أبا تمَّام له استعارات نادرة كاستِعَارة سلم، فقال:"وأنشد أبو العباس ابن المعتز في كتاب سرّقات الشِّعْراء لسلم الخاسرّ يعيبه برديء الاستِعَارة في قوله يرثي موسى الهادي:

لـولا المقـابر مـا حـطَّ الزَّمـانُ بـه لا، بـل تـولَّى بـأنفٍ كَلْمُـهُ دامِـي

وقال: هذا ردئ كأنه من شعر أبي تمَّام الطَّائي!وليت لم يكن لأبي تمَّام من ردئ الاستِعَارة إلاَّ مثل استِعَارة "سلم"هذه أو نحوها، ونعوذ بالله من حرمان التوفيق"[1].

(١) المصدر السَّابق،(٢٨٠/١).

المطلب الثَّاني : "شواهد استعارات في غاية الحسن "

انتهى الآمِدِيّ من ذكر مجرى الاستعارات في كلام العرب، ثمَّ ثنَّى بالشَّواهِد الدَّهرية وأدخل في إهابها هذه الشَّواهِد الَّتي استحسنها، وجعلها القسيم الآخر والموازي للاستعارات القبيحة والرَّديئة، على أنَّها نقطة في بحر، ويظنُّ الباحث أنَّه استوفى سبب إدخال هذه الاستعارات الحسنة في بطن الاستعارات الرَّديئة، وذلك من خلال حديث الآمِدِيّ نفسه، فعندما انتهى من سرد هذه الشَّواهِد، بيَّن أنَّ الطَّائي كان يخلط بين الحسن والقبيح والجيّد والرديء[1]، وذلك في رسالة عاجلة لأنصار أبي تمَّام؛ فلا يُقال يُقال عنه إنَّه من المتحاملين عليه، وأنَّه أراد إظهار المساوئ والقبائح فقط؛ بل أراد إظهار الحسنة والسَّيّئة معًا، وهذا منهج قرآني اتخذه الآمِدِيّ منهجًا له من أول كتابه وحتى نهايته، يذكر الجيّد والرديء، فلا يؤاخَذ بالانحياز لطرف دون الآخر، كل ذلك ولم يسلم من انتقادات النُّقاد، فقد صُنِّف من أعداء أبي تمَّام، على أنَّه لم يألُ جهدًا واسعًا في تبيُّن الأسباب والحكم على أحكامه.

تمَّت دراسة شواهد الاستعارات الرَّديئة في المطلب الماضي، وأخذت حيزًا كبيرًا من هذا المبحث، بعكس هذه الشَّواهِد، فقد جاءت قليلة جدًا، وكان حديث الآمِدِيّ عنها لا يُداني غيرها، وسيسعى الباحث للكشف عن استحسان الآمِدِيّ لها؛ في تحليل لعلَّه يقترب من لبنات أفكاره؛ لتتجلَّى للقارئ تلك العبارات القصيرة المكثَّفة، المنسوجة من خيط فكر هذا العالم النَّاقِد المتبحِّر.

- **الشَّاهِد الثَّامن والسَّبعون[2]، وقوله :**

لياليَ نحنُ في وسناتِ عيشٍ كأنَّ الدَّهرَ منها في وثاقِ
وأيَّامًا لَنا ولَهُ لِدَانًا غنينا في [1]حواشيها الرِّقاقِ[2]

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٧٠/١)، بتصرف.
(٢) يُنظر: المصدر نفسه،(٢٧٠/١).

في البيت الأول استِعَارة مكنية، فقد جعل الشَّاعر (الدَّهر) انسانًا شرسًا وعدوًا متربِّصًا يُنزل بهم الملمات والمصائب، فالشَّاعر يصف الدَّهر كأنَّه مُوثَّقٌ بالحبال والرِّباط، فلا يستطيع الفكاك منها، ولم يعُد له طاقة بإنزال خطوبه فيهم، فنعموا بذلك فلا ينال منهم، فهذه الصورة لم يبينها الآمِدِيّ، فقد شبه الشاعر (الدهر) برجل في وثاق وأداة التشبيه هنا ظاهرة للعيان (كأن) وأن المشبه به مقيد بالجار والمجرور (في وثاق)، ولكنَّه التفت واستحسن الاستِعَارة في البيت الثَّاني في قوله :(حواشيها الرِّقاقِ)، وهو يقصد الأيام، فجعل لها رقة الحواشي وكأنَّها امرأة منعَّمة، على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله (الرقاق)، فهذا البيت استِعَارة على رأي الآمِدِيّ، فقال:"فاستعار للأيام [رِقَّة] الحواشي"(٣).

- **الشَّاهِد التَّاسع والسَّبعون(٤)، وقوله :**

أيَّامُنا مَصْقُولَةٌ أَطرَافُهَا بكَ واللَّيالي كُلُّها أَسْحَارُ (٥)

شبَّه الأيام بالمرأة، وحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه (مصقولة الأطراف) على سبيل الاستِعَارة المكنية، فهذا الشَّاهِد كالَّذي سبقه في الحسن وفي الاستِعَارة، قال الآمِدِيّ: "وأبلغ من هذا وأبعد من التَّكلُّف وأشبَّه بكلام العرب"(١).

---

(١) وفي الديوان عند التَّبْريزي : "عَرِينًا مِنْ".

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤٢٦/٢)، ومطلع القصيدة:

ذَرِيني مِنْكِ سَافِحَةَ المآقِي ومِنْ سرّعانِ عَبْرتك المُرَاقِ

من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي عشر والثاني عشر، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب.

(٣) "الموازنة"،(٢٧٠/١).

(٤) يُنظر: المصدر السَّابق،(٢٧٠/١).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨١/٢)، ومطلع القصيدة :

لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ خفَّ الهوى وتولتِ الأوطارُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد.

فإذا كان الشَّاهِد الَّذي يليه أبلغ فهذا بلغ الغاية، وإذا كان ذاك أبعد عن التَّكلُّف، فهذا بعيد عن التَّكلُّف، وإذا كان ذاك أشبَّه بكلام العرب فهذا شبيه بكلامهم، فالآخر مفضَّل على هذا الفاضل، فكلاهما يشوبهما الحُسن والنَّضارة.

- **الشَّاهِد الثَّمانون[٢]، قوله :**

سكنَ الزَّمانُ فلا يدٌ مَذْمُومةٌ للحادِثَاتِ ولا سَوَامٌ تُذْعَرُ[٣]

موضع الاستِعَارة في الشَّاهِد قوله (فلا يدّ مذمومة للحادثات)، فجعل للزمان يدًا، فاليد الَّتي تُستعمل للبطش بالخير والشرّ تدلُّ على شرّ الزمان، وكأنَّها هي الَّتي تبدِّد الأمور وتُصرِّف المقادير، وحذف المشبَّه به وهو الانسان، ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله (يد).

قصد الآمِدِيّ في عبارته الَّتي ابتدأ الحديث بها عن هذا الشَّاهِد في قوله :وأبلغ من هذا، يقصد الشَّاهِد السَّابق، فهذا الشَّاهِد على صيغة أفعل التَّفضيل، ووصفُه يوحي بالتَّفْتِيش في جنبات الشَّاهِد، حتى تستخرج تلك الأوصاف الَّتي ذكرها؛ ابتهاجًا وسرّورًا به.

فالآمِدِيّ جعل هذا الاستعمال من فعل الأوائل، ومن الاستعارات الجيّدة والحسنة، وذكر أنه أبلغ من الشَّاهِد السَّابق وأشبَّه بكلام العرب وأبعد من التَّكلُّف، ويقصد بالتَّكلُّف الصَّنْعَة، وأبو تمَّام كان يخلط بين الحسن والقبيح، فهذا الحسن قد بُيِّن في هذا المطلب، وأمَّا القبيح ففي ذكر أخادع الدَّهر، فليست على استِعَارة العرب الأوائل، ولهذا استقبحها الآمِدِيّ وقد ذُكرت بالتَّفصيل في المطلب السابق.

---

(١) "الموازنة"،(٢٧٠/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٢٧٠/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٩٧/٢)، وفيه:"يُذْعَرُ".

- **الشَّاهِد الحادي والثَّمانون[1]، وقوله :**

لا تَسْـــقِني مـــاءَ المـــلامِ فـــإنَّني صـــبٌّ قـدِ استعذبتُ مـاءَ بُكـائي[2]

حوى هذا الشَّاهِد استِعَارة في كلمة (لا تسقني ماء الملام...)، فإنَّ الملام ليس له ماءٌ على الحقيقة، ولا ظرف يوضَعُ فيه، وعلى كل حال، فربما نجريها على أنَّها استِعَارة مكنية وعلى أنها استِعَارة تصريحية، فكيف يكون ذلك؟، فإذا كان الشَّاعر يقصد أنَّه شبَّه لبث اللَّائم ومكثه على رأسه بالسَّقي، فالمحذوف هو المشبَّه، والمذكور هو المشبَّه به (لا تسقني)، وكأنَّه يقول له: لا تلبث تُملِي عليَّ اللَّوم والعِتابَ، وهذه استِعَارة تصريحية، وقد أشار الزمخشري إلى أنَّ"من المجاز في باب سَقَيَ، وسقاه تسقِيَةً: كرَّرَ غمسَه في الصِّبغ"[3].

وهناك وجهٌ آخر، يمكن أنْ نُجريَه ، وهو إذا كان الشَّاعر يقصد: لا تروِني من الراوية وهي المزادة، ولا تسقني من اللَّوم ومن الملاءمة، ولا تُكثِر عليَّ حتى كأنَّك تملأُ ظرف ماءٍ فتصبه في أذنِي، وهذا يدلُّ على أن اللائم أكثر على الشَّاعر، وأطال عليه الكلام، ولبث فوق رأسه طويلا؛ ليُمليَ عليه هذا العِتاب، فشبَّه (الملام) بظرف الماء أو الإناء الَّذي يوضَعُ فيه الإناء، وحذف المشبَّه به (الإناء)، ولكنَّه رمز له بشيء من لوازمه، وهو: لا تسقني، وبقيت له صفةٌ تدلُّ عليه؛ لأنَّ السَّقيَ من لوازم الآنية الممتلئة بالماء، فهي الَّتي تُسقَى.

---

(١) يُنظر: "الموازنة"،(٢٧٧/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٢٢/١)، ومطلع القصيدة:

قَـــدْكَ انَّئِـــبْ أَرْبَيْـــتَ فـــي الغُلَـــوَاءِ كَـــمْ تَعْـــذِلُونَ وَأَنْـــتُمُ سُـــجَرَائِي

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن حسَّان الضبي، وكان مدح بهذه القصيدة يحيى بن ثابت.

(٣) "أساس البلاغة"، جار الله الزمخشري، (ص:٣٥٨)، طبعة دارإحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

وتُسمَّى هذه العملية الفنية عند أهل البيان ،-وهي إضافة أو إسناد أحد لوازم المشبَّه به إلى المشبَّه-: استِعَارة تخيلية، فلقد تخيَّلنا أنَّ الملام له إناءٌ يُوضَعُ فيه، ليُقدَّم إلى مَن يشربه، ويرتوي به، بلازم (لا تسقني)، ومن هنا كانت الاستِعَارة المكنية أبلغ وأكثر تأثيرًا، وأبدع تصويرًا للحوادث من التَّصريحية.

ذكر الآمِدِيّ أنَّ البلاغيين والنُّقاد حكموا على هذا الشَّاهِد بأنَّه معيوب، وذا نقيصة، وقَدَحَ فيه مَن قدح، حتى استُقبح وعُدَّ عيبًا، وحُمِلَ هذا الشَّاهِد من كتاب إلى كتاب، وتناقله خصوم الطَّائي وهنًا على وهن، ولم يكتفوا بذلك، بل ذمَّوه وأزروا به، فلماذا إذن وضعه الدَّارس في مطلب الاستعارات الحسنة والجيّدة؟ إلاَّ أنَّ عللًا وأسبابًا تكمن خلفه، لتحقَّق المراد من خلال استنباط فكر هذا العالم، والآمِدِيّ في هذا الفصل يُعتبر من أوائل البلاغيين والنُّقاد الَّذين تعرَّضوا له، فما الَّذي خبَّأته الموازنة لنعت هذا الشَّاهِد؟ كل سؤال سيُجاب عنه من خلال تحليل كلام الآمِدِيّ نفسه ضمن سياقات الشَّاهِد.

ولما جاء الآمِدِيّ إلى هذا الشَّاهِد، لم يجعله تحت حكم معيَّن، فلم يَسِمّه بالقبح والرَّداءة، ومن جانب آخر، لم يذكر أنه من الاستعارات الحسنة، لكنَّه في الوقت نفسه صرَّح بكلام ظاهره التَّأييد، وباطنه الدَّفاع عنه بجميع الاحتمالات الواردة من قبل الخصوم الَّذين يتشبثون بالنَّظائر والقرائن الَّتي تدور حول الشَّواهِد الموازية والمتشابهة له، نعم لقد تحمَّل في صورة محدَّدة، وبمنطق مركَّزٍ يربط بين القرائن، ويُمايز بين المتباعدات بإعمال فكره الدَّقيق، فلا ينكر تلك الاحتمالات الَّتي ترِد لتفلسف الشَّاهِد، وتسحبه إلى سُدَّة المباعِدَّة في التَّشبيه، بل يثب بردود كالصَّواعق المرسلة؛ لتهدم كل تلك الحِجَج.

ولم يسلم الآمِدِيّ من هذه الانتقادات، فقد جاء بعض العُلماء كابن سنان، فصبَّ عليه ألوان النَّقد، وفنَّد آراءه، وسيأتي الحديث في المبحث السَّادس، غير أنَّ

الآمِدِيّ قطع الأدلة والبراهين المشتعلة لتقبِّيح هذا الشَّاهِد، فخرج بصورة هي: أنَّ الشَّاهِد قد عِيب عند أقوام من البلاغيين والنُّقاد، وليس بعيب عنده، بل دافع عنه باستجلاب الدَّليل القرآني؛ لتثبيت تلك الحجَّة، فذكر أنَّ الماء ليس له ملام، ولكنَّه جاء في سياق الجزاء، فقد ذكر ماء البكاء، فجاء بماء الملام، وبيَّن أنَّ هذه الطريقة في الشِّعْر والكلام هي من استعمالات العرب الشَّائعة، فقال الآمِدِيّ:"فقد عِيب، وليس بعيب عندي؛ لأنَّه لما أراد أن يقول:قداستعذبت ماء بكائي، جعل للملام ماءًا؛ ليقابل ماء بماءٍ، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة، كما قال الله عز وجل :{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}[الشورى :٤٠]، ومعلوم أن الثَّانية ليست بسيئة، وإنما هي جزاء السَّيّئة؛ وكذلك:{إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُون}[هود :٣٨]، والفعل الثَّاني ليس بسخريةٍ، ومثل هذا في الشِّعْر، والكلام كثير مستعمل"(١)، ثمَّ أتى الآمِدِيّ باستعارات تؤيِّد صحة الاستِعَارة بماء الملام، وجعله من الكثير الموجود في الكلام، فيُقال عن الرَّجل إذا أراد أحدٌ أن يجرعه ألما على الاستِعَارة أغلظت لفلان القول، وجرعته منه كأسًا مرة أو سقيته علقمًا، فقد جاز أن يُستعمَل الملام فيه التَّجرُّع على الاستِعَارة، فجعل له ماءً على الاستِعَارة، ثم ذكر الآمِدِيّ أنَّ أحد أنصار أبي تمَّام استدلَّ لتأييد الطَّائي في استعارته (ماء الملام) بقول ذي الرُّمة في بيت له استِعَارة وهي قوله: (ماء الهوى)، واستدلَّ بقول آخر وفيه استِعَارة في قوله: (ماء البين).

وقد ردَّ الآمِدِيّ هذا الاحتجاج، وبيَّن أنَّه لا يشبه ماء الملام، فجعل مجيء ماء الملام استِعَارة، وأمَّا ماء الهوى وماء البين، فهي على الحقيقة لاستِعَارة فيها ألبته، فأصبح الآمِدِيّ أكثر انتصارًا لأبي تمَّام من أنصاره المتعصِّبين له، ولم يكن مُتَعَصِّبًا، بل هو الدَّفاع المؤيَّد بالعِلم والبرهان والحجَّة القاطعة، فأثبت الاستِعَارة لأبي تمَّام ونفاها عن غيره، ثم قال الآمِدِيّ:"فلما كان [في] مجرى العادة أن يقول قائل: أغلظت لفلان

(١) "الموازنة"،(١/٢٧٧-٢٧٨).

القول، وجرعته منه كأسًا مرة، أوسقيته منه أمرَّ من العلَّقم، وكان الملام ممَّا يُستعمَل فيه التَّجرُّع على الاستِعَارة-جعل له ماء على الاستِعَارة، ومثل هذا كثير موجود، وقد احتجّ محتج لأبي تمَّام في هذا بقول ذي الرُّمة:

أدارًا بحُزْوى هِجْتَ للعين عبرةً فماء الهوى يَرْفَضُ أو يَتَرَقْرَق

وقول الآخر :

وكأسٍ سباها التَّجْرُ من أرض بابلٍ كرقَّةِ ماءِ البين في الأعيُنِ النُّجْلِ

وهذا لا يشبَّه ماء الملام؛ لأن ماء الملام استِعَارة، وماء الهوى ليس باستِعَارة؛ لأن الهوى يبك؛ فتلك الدموع [هي ماء الهوى في الحقيقة، وكذلك البين يبكي؛ فتلك الدموع] هي ماء البين [على الحقيقة]"[1].

ويُورِد الآمِدِيّ ردًا على ردِّه على المحتج السَّابق، فيفترض قائلًا يقول: إنَّ أبا تمَّام أبكى الملام كذلك على الحقيقة، فردَّ عليه بأنَّ لا يُجمع في البيت بين بكائيْن، فقد استعذب ماء بكائه، فلم يكن من المناسب أن يكون بكاء ماء الملام على الحقيقة، فلن يُجمع بين مائيْن للبكاء، فماء البكاء سيكون ماء الملام؛ وهذا لا يكون؛ لأن أبا تمَّام لن يسلم من النَّقد على هذا الاحتمال الوارد، قال الآمِدِيّ: "فإن قِيل: فإنَّ أبا تمَّام أبكاه الملام، والملام قد يبكي على الحقيقة؛ فتلك الدموع هي ماء الملام على الحقيقة. قِيل: لو أراد أبو تمَّام ذلك لما قال: "قد استعذبت ماء بكائي؛ لأنه لو بكى من الملام، لكان ماء الملام هو ماء بكائه أيضًا، ولم يكن يَسْتَعْفِي منه"[2].فعلى هذا الشَّأن استطاب الآمِدِيّ هذه الاستِعَارة، ودافع عنها في نضال وتثبيت لها، ولم يعِب فيها على أبي تمَّام؛ بل أقام الاستِعَارة الحسنة في صورة هذا الشَّاهِد.

(١) المصدر السَّابق، (١/٢٧٧– ٢٧٨).

(٢) المصدر نفسه، (١/٢٧٧– ٢٧٨).

المطلب الثَّالث : "رؤية الآمِدِيّ الفكرية في استعارات أبي تمَّام "

ومن خلال ما سبق عرضه؛ يجدر بالدِّراسة أن تُفصح عن أهمية فهم عقلية الآمِدِيّ من خلال تأمُّله للشَّواهد، وجداوها على الصَّعيد النَّقدي والبلاغي، وأنَّه أحد أعمدة الرأي النَّاقِد والفاحص لشعر الطَّائي، ولا يمكن لدارس نقدي إلاَّ ويرجع بالضَّرورة للرَّكائز والقواعد الَّتي سنَّها، وبثَّها في كتابه العظيم.

من أجل ذلك؛ وبالضَّرورة يجب النَّظر لرؤيته النَّقدية تجاه استعارات الشَّاعر متكاملة الجوانب عمقًا، وفكرًا، فلقد ضمَّ بين دفتيْ الجزء الأوَّل من كتابه شواهد كثيرة، امتزجت بين الحسن والقبح من جهة، ومن جهة أُخرى بين السُّكوت والبوح، ليدقِّق ويفتِّش في دلالتها اللُّغوية والبلاغية حتى خرج بها على أتمِّ وجه، فالآمِدِيّ عقلية نقدية متماسكة، متَّزنة، لا يرومها التَّعصب القادح في الموضوعية حتى يقول بلا حجَّة، ولا يأخذه القياس على غرار شاهد واحد، فيحكم على بقية الشَّواهِد دون تمحيص، بل هو عالم فذٌّ، صاحب تدقيق متسغرق، لم يُقصِّر إلا ما كان مِن بشريته، وأتحفظ على رأي الأستاذمحمد علي أبو حمدة الَّذي يرى قصور الآمدي في النَّظرة إلى شعر أبي تمَّام، حيث قال: "وما كان مِن غبن لأبي تمَّام وشعره، فهو من قصور مبدأ الآمِدِيّ النَّقدي وطريقته في الموازنة"(١).

وقد تناول الشَّواهِد بإيضاح العلَّل، واستحضار البرهان، وفي المقابل أشاد بشواهد بليغة، ابتعدت عن التَّكلُّف والتَّصنُّع، حتى شابهت إِرث الأوائل، ولم يكتفِ بذلك، بل راح يدافع أحيانًا عن بعض الشَّواهِد، مثبتًا تمكُّن الاستِعَارة، حتى ليراه الرَّائي، فيزعم أنَّه من أنصاره ومؤيِّديه؛ لدفاعه عن الحق الَّذي يراه امتلك عقله.

(١) "النَّقد الأدبي حول أبي تمَّام والبحتري"، (ص:٩٢).

ولا غرو فقد سرّد شواهد من مرذول استعارات أبي تمَّام، وذكر الدُّكْتُور شوقي ضيف أنَّها استعارات مكنية، فقال: "ومَن يرجع إلى نقد الآمِدِيّ لاستِعَارة أبي تمَّام، فيجده منصبًّا على كثرة ما يورِد من الاستعارات المكنية"(١). وفي ظنِّ الباحث قد صدق؛ لأنَّ الآمِدِيّ حصرها في قالب من النَّثر عقب ذكر الشَّواهِد، فقام بتبيين موطن الاستِعَارة المرذولة، والبعيدة عن الصَّواب، ولغة الإيجاز الَّتي ابتكرها الآمِدِيّ يفاجئ بها قارئه، وقد زعم الدَّارس أنَّ الآمِدِيّ قد أمسك عن الكتابة ثم عاود إليها، فاستكمل ما ظنَّ أنَّه لم يكمله، وراح بعدها يورِد الحلَّ من هذه الاستعارات الرَّديئة؛ وهي أنَّ استعارت العرب كانت على نحو من التمَّام والكمال، وقد خرج عنها الطَّائي، ثم بيَّن بعد ذلك كيف أتت استعاراته البعيده، ووضَّح أنَّه قد نظر إلى أشعار متفرِّقة، نادرة قليلة، فاحتذاها وأكثر منها، واغتر بها، واحتطب منها.

والآمِدِيّ بين هذا وذاك أتى بشواهد لاستعارات حسنة، قد بالغ في تزكيتها، ومدحها أشدَّ المدح، مبيِّنًا أنَّ منهج الطَّائي في الاستِعَارة الخلط بين الحسن والقبيح، والجيّد والرديء، فالدَّارس يرى أنَّ الآمِدِيّ استكمل في هذا المطلب أصول النَّقد، والبحث العِلْمِي؛ من إظهار المشكلة، وتبيُّنها، ووضع الحلول المناسبة، ثم أظهر البراهين على ذلك، وأردف بالتَّعليل المنطقي السَّليم، فالآمِدِيّ يُكثر من قول:(ولو جاء في غير هذا...لما قبح)، (فلو قال كذا...)، (كان يُمكنه أن يقول...)، وعلى هذه الوتيرة، عالج شواهد أبي تمَّام أشدَّ المعالجة، ووقف عليها بالنَّظر، والتَّأمُّل، والفحص.

ومع ذلك كله، فالبشر مُعرَّضون للخطأ، فقد أثبت استِعَارة في شواهد لأبي تمَّام ظنَّها تشبيه محذوف الأداة، وقد أثبت ابن الأثير هذا الخبر عند القدَّماء، وسيأتي المبحث السَّادس عند ابن سنان؛ لتتَّضح فكرة الفرق بينهما.

(١) "البلاغة تطور وتاريخ"،(ص:٧٠).

وأخيرًا لقد قدَّم الآمِدِيّ في موازنته عصارة فكره، وشحذ عزيمته للتَّفتيش عن خبايا وأسْرَار استعارات الطَّائيين، واستوفى هذا الباب بحقٍّ، وردَّ كل شيء إلى نصابه، حتى إنَّ الباحث لَيقف مكتوف اليدين أمام رؤية عميقة لفكر عالم النَّقد العظيم، الَّذي ينبض بالعِلم والرؤى، و"الموازنة" بحاجة إلى مزيد عناية وبحث.

المبحث الثَّالث

" شواهد الاستِعَارة عند القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني"

- المطلب الأوَّل: "شواهد الاستِعَارة الحسنة".
- المطلب الثَّاني: "شواهد الاسْتِعَارة الَّتي تُصدئ القلب وتعميه".
- المطلب الثَّالث: "الفرق بين التَّشْبِيه والاستِعَارة".
- المطلب الرَّابع: "رؤية القاضي الجرجاني الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

المطلب الأوَّل:"شواهد الاسْتِعَارة الحسنة"

بدأ القاضي الجرجاني –رحمه الله– فصل البديع؛ ومنه الاستِعَارة بإبراز وجودها في شعر الأقدَّمين، من غير تكلُّف ولا تقصُّدٍ لها، لكنَّها عند المحدثين تعدَّت إلى درجة التَّكلُّف، فمن محسن ومسيء، فقال –رحمه الله–: "وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتّفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمُّد وقصْد. فلما أفْضى الشِّعْر الى المْحْدَثين، ورأوْا مواقعَ تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميّزَها عن أخواتها في الرشاقة واللُّطف ، تكلّفوا الاحتذاء عليها فسمّوْه البَديع؛ فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومُفرط"[1].وهذا الكلام يدلّ بالضَّرورة أنَّ القاضي اطَّلع على ما كتبه المتقدِّمون، وخاصَّة ابن المعتز في صدر كتابه "البديع".

ومهما يكن من أمرٍ، فقد بيَّن القاضي مواضع الاستِعَارة الحسنة في شعر القدماء والمحدثين بذكر الشَّواهِد الَّتي يراها من وجهة نظره أنَّها حازت قصب السَّبق، وارتفعت في سماء اللُّغة البيانية، فقال:"فإذا جاءتك الاستِعَارة–على مثل هذه الشَّواهِد

(١) هو أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، وولد في جرجان ٢٩٠هـ، رحل في طلب العلم إلى العراق والشام، واقتبس من أنواع العلوم والآداب حتى أصبح من أعلام عصره في الأدب والعلم والشعر، وفد على الصاحب بن عبَّاد فقربه واختص به، وحظي عنده وقلَّده قضاء جرجان، ثم ولاه قضاء الري، ومنحه رتبة قاضي القضاة، وكان إلى جانب علمه الوفير في الفقه شاعرا وناثرا ومتكلما، لكنه اشتهر بالشعر والتَّاليف، كان شعره جزل، نقي الألفاظ، متين السبك، مع سهولة وعذوبة، وأحسن فنونه الحكمة والغزل، أما نثره فسهل ممتنع، كان أبَّي النفس، حافظ على كرامته. وكان على شدة صحبته للصاحب بن عباد يخالف رأيه في المتنبي، فالصاحب يحمل على المتنبي لأنه لم يمدحه، وقد ألف كتابا في الكشف عن مساوئه، وكان القاضي الجرجايي يدافع عنه، فألف كتابا في الرد على خصومه سمَّاه" الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وإلى جانب ذلك له مصنفات أخرى، توفي سنة ٣٦٦هـ. يُنظر: "وفيات الأعيان"، (٣/٢٨٠)، بتصرف، ويُنظر: مقدمة "الوساطة "،(ص:٣٩) بتصرف.

الَّتي يذكرها-فقد جاءك الحسنُ والإحسان، وقد أصبتَ ما أردت من إحكام الصَّنْعَة وعذوبة اللَّفظ"[1]، فسرد بين فعل الشَّرط وجوابه شواهد لأبي تمَّام وغيره تدلّ على الاستِعَارة الحسنة،فتحدَّدت العبارة، وتوضَّحت شمس البحث في شواهد أبي تمَّام ومواطن الاستشهاد منها، فالقاضي بيَّن عذوبة الاستِعَارة وبديعها، ووازن بين الشُّعْراء، وقد يترك الحكم أحيانًا للقارئ، فيجتهد في استخراج النُّكتة البلاغية، في تفضيل قول على قول، وأحيانًا يساعده في التقاط تلك المزيَّة بإشارة قلمه إلى موضع الحسن والجمال، كل ذلك بنقد واضح وعبارة رشيقة، والشَّواهِد على النَّحو التَّالي:-

- **الشَّاهِد الثَّاني والثَّمانون[2]، قال أبو تمَّام:**

مـــا ضـــرَّ أروعَ يرتقـــي في همـــةٍ روعـــاء[3]ألاَّ يَرْتَقـــي في سُـــلَّمِ[4]

موضع الاستِعَارة في شاهد أبي تمَّام (يرتقي في همة روعاء أو علياء)، يقصد الممدوح، فقد وصفه بأنَّه يصعد إلى العلَّياء لدلالة المجد والسُّؤدد؛ وهي المكان العالي معنويًا، أو حسيًا في قلوب الخلق محبة وفخرًا، وهي عامة وتحتمل الصعود في كل شيء حسن، وهذه استِعَارة مكنية حُذف منها المشبَّه به وهو الصُّعود في الأماكن العالية حسيًا مثل الجبال والحصون والقلاع، وهذا يدلُّ على السَّيطرة والتَّمكين في الأرض، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (يرتقي، وسلم)، فالشَّاعر يصف الممدوح بأنَّه لا يحتاج في الرُّقي إلى سلمٍ؛ بل يثِب إلى العلياء وثبًا، وفيه دلالة الطُّموح وسموّ الهمَّة، وبلوغ ذروة السُّؤدد في قلوب الخلق، وهذه استِعَارة مندوحة لأبي تمَّام ماشت سُنن

(١) "الوساطة"،(ص:٣٩، ٤٣).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٤٠).

(٣) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "علياء".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٥٣/٣)، ومطلع القصيدة:

نثـرتْ فريـدَ مـدامعٍ لـمْ يـنظمِ والـدَّمْعُ يَحْمِـلُ بَعْـضَ ثِقْـل المُغْـرَمِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح ابن شبانة، ابا الحسين محمد بن الهيثم.

الأوائل، وسارت على نهج الشِّعْر القديم، وليس هناك ما يخرمها، فاستحسنها القاضي واستطابتها.

واستشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة الحسنة، وجاء بهذا الشَّاهِد في معرض الموازنة بين قول الطَّائي وقول مسلم، فبدأ بقول مسلم، فقال: "وقوله:

ظلمتُـك إن لم أجـزِل الشـكر إنّمـا جعلـتَ الى شـكري نوالَـك سُـلَّما

فانظر كم بين استعارته السُّلّم ، واستِعَارة أبي تمَّام له في قوله..."(١).

والموازنة بين بيت مسلم وبيت الطَّائي تحتاج إلى تحليل الصورتين الكامنتيْن في بيت مسلم، فالتشبيه في بيت مسلم في قوله: (جعلتَ الى شكري نوالَك سُلَّما)، فقد فقد شبه نوال وعطاء الممدوح بالسلم، بجامع الوصول إلى المراد في كلٍ، فالنوال يوصل إلى الشكر والسلم يوصل إلى الممراد.

وعندما انتهى القاضي من الموازنة بين قول مسلم وقول أبي تمَّام، ذكر أمرًا يدلُّ على إنعام نظره في المثال مرةً بعد مرة، فبيَّن أنَّ أول من افتتح لفظة السُّلم الحصين بن الحمام فقال: "وأول مَن علمناه افتتح هذه اللَّفظة،الحُصين بن الحُمام المرِّي في قوله:

فلســـتُ بمبتـــاع الحيـــاة بذلـــة ولا مُرتَـقٍ مـن خشـيةِ المـوت سُـلّما

وهذا قريب من الحقيقة، وإن كان فيه شُعبة من ضرب المثل"(٢).

فأورد الشَّاهِد، وذكر أنَّه قريب من الحقيقة؛ أي لا استِعَارة فيه، ولا يشبه الَّذي قبله من شعر مسلم والطَّائي، ولمح بعدم الاغترار بأنَّه يشبه المثل؛ لأنَّ الأمثال يغلب عليها التَّصوير المجازي، أمَّا هذا الشَّاهِد فيقرب من الحقيقة، فالشَّاعر يذكر بأنَّه لن يذلَّ في الحياة، ولن يرتقي سلمًا خوفًا من الموت.

(١) "الوساطة"،(ص:٤٠).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:٤٠).

- **الشَّاهِد الثَّالث والثَّمانون[1]، وقول أبي تمَّام:**

أدنَـت نقابًـا علـى الخـدّين وانتقبَـتْ للنـــاظرين بقـــدٍّ لـــيس ينتقـــبُ[2]

موضع الاستِعَارة (وانتقبت للناظرين بقدٍّ ليس ينتقب)، ومعنى الشَّاهِد أنَّ هذه المرأة استترت عن القوم بحجابها، إلاَّ أن قدَّها كشف لهم عنها؛ إذ لا قدَّ يماثله ولا نسبة له في سواه، فهو نسيج وحده، وقالب منفرد عن جميع أصنافه وأنواعه، وانتقابها بقدٍّ أو انتسابها بقدٍّ ليس على الحقيقة بل هو مجاز لغوي؛ لأنَّ الاستتار والانتقاب لا يكـون إلا بالخِمـار، فالاسـتِعَارة التّصـريحية هنـا لعبـت دورهـا في التَّغيـير في الخيـارات التَّعبيريـة، فجعلـت الانتقـاب بالقـدِّ بـدلًا مـن الانتقـاب بالخِمـار، وروايـة الـدِّيوان: (انتسبت) غيَّرت المعنى، فالانتساب لا يكون بالقدِّ؛ ولكنَّه بالوجه والملامح والأخبار الحسنة، فالمرأة عند العرب تُعرف من خُطواتها وقدِّها ورأسها، فيكون المعنى الَّذي يخدم الشَّاهِد ويُعلي من قدر الاستِعَارة على رواية التَّبْريزي، فالانتساب بالوجه والملامح، وليس بالقدِّ الَّذي لا يماثله قدٌّ ولا نسبة له في سواه، فتُعرَف بقدِّها وحسن قوامها، وهذه أقوى في المعنى من قوله (وانتقبت)، ولذلك استشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة الحسنة.

- **الشَّاهِد الرَّابع والثَّمانون[3]، وقول أبي تمَّام:**

وقَـد عَلِـمَ الأَفْشِـينُ وهْـو الَّـذي بـهِ يُصَـانُ رِدَاءُ المُلْـكِ عَـنْ كـل جـاذِبِ [4]

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٤١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٤١/١)، ومطلع القصيدة:

قد نابتِ الجزعَ من أرويّةَ النوبُ واسْـتَحْقَبَتْ جـدَّةً مِـن رَبْعِهـا الحِقَـبُ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات.والبيت في الديوان عند التَّبْريزي هكذا:

أَدنَـــتْ نِقابًـــا علـــى الخـــدَّيْنِ لِلنَّـــاظِرينَ بقَـــدٍّ لَـــيْسَ يَنْتَسِـــبُ

(٣) يُنظر: "الوساطة"، (ص:٤١).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢١٠/١)، ومطلع القصيدة:

موضع الاستِعَارة في قوله: (به يُصَانُ رِدَاءُ المُلْكِ) وهل للمُلك رداء؟.

استعار للملك رداءً، وليس له رِداء على الحقيقة، فهي إذن استِعَارة مكنية، حذف المشبَّه به وهو الانسان الَّذي يلبس الرِّداء والإزار، ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (رداء). فالصُّورة أوضحت أنَّ الملك يُصان بكل قوة وبأس، وأنَّه الَّذي تُراق دونه الدماء، وترخص من أجله النُّفوس، ويُحفظ من كل جاذبً لهيبته وسلطانه، والملك يقصد به ملك الإفشين، فإنه كان عبدًا للمعتصم، اصطنعه ورفع شأنه ثم خان فقتله. وهذه القصيدة قِيلت في زمان دولة الإفشين وإقبال الدُّنيا عليه، ثم سقط أسيرًا في أيدي المسلمين، فالشَّاهِد يوضِّح أنَّ الأفشين على قوته وحصانة ملكه، وإلباسه الملك بغطاء ورداء من السِّلاح والعِدَّة والعتاد والرجال، لم يمنع جيوش المعتصم من قلع صلعته، وإسقاط ملكه، وهذا تعريض بقوة المعتصم.

- **<u>الشَّاهِد الخامس والثَّمانون[1]، وقول أبي تمَّام:</u>**

رقّت حواشي الدَّهر فهي تمرْمَرُ وغدا الثّرى في حَلْيه يتكسَّرّ[2]

موضع الاستِعَارة في الشَّاهِد قوله: (رقّت حواشي الدَّهر)، والحواشي جمع حاشية وهي طرف كل شيء، وغالبًا تكون رقة الحواشي للنِّساء، فاستعارها الشَّاعر للدَّهر، فأسقط لفظة الحواشي على الدَّهر استِعَارة مكنية، فحذف المشبَّه به وهن النِّساء، ورمز لهن بشيء من لوازمهن وهي قوله (رقت حواشي)، فأضحى الدَّهر وأيامه ترفل وتموج بالأزهار، من دبيب الماء في الأغصان، فباتت تتكسرّ لطراوتها، وهذه

على مثلها من أربُعٍ وملاعبِ أُذيلتْ مصوناتُ الدُّموعِ السَّواكبِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي.

(١) يُنظر: "الوساطة"،(ص:٤١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٩١/٢)، والشَّاهِد البلاغي هو مطلع قصيدة يمدح بها المعتصم، وهي من البحر الكامل، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم.

استِعَارة رقيقة حسِّية، فجعل الطقس الَّذي تغيَّرت ملامحه من شدَّة رعونته، وجفاف أترابه، وقلة الخيرات فيه إلى طقس بأيام ربيع وخير وبركة، ونعومة، وترقرق، وتكسرّ للنَّباتات المتمايلات بالأغصان، وهذه أوصاف النِّساء.

وهذه الاستِعَارة الحسنة الجميلة عدَّها القاضي من مجيء الحسن والإحسان، وأصابت ما أرادت من إحكام الصَّنْعَة، وعذوبة الألفاظ والمعاني، وبرّغم معرفته بالشِّعْر ونقده، لم يمنعه من تبيُّن بعض الألفاظ الدَّخيلة على الفصحى، ولعلَّه يعتذر لهذا الشَّاهِد على ما فيه من حسن بيِّن جاء على سُنن العرب، فالتفت ووضَّح أنَّ الطَّائي استخدم لفظة (يتكسرّ) حضرية مولَّدة، وهذا تعريض بشناعتها، فعلى ذلك قال: "على أنَّ لفظة يتكسرّ حضَريّة مولَّدة"(١)، ومع ذلك فقد غدا الشَّاهِد يحكي الاستِعَارة الاستِعَارة الحسنة.

- **الشَّاهِد السَّادس والثَّمانون(٢)،وقول أبي تمَّام:**

وكم سرّقَ الدُّجى من حُسْنِ صَبْرٍ وغطّى من جِلادِ فتىً جليدِ(٣)

موضع الاستِعَارة الحسنة في هذا الشَّاهِد هو قوله: (سرّقَ الدُّجى)، فهل الدُّجى يسرّق ؟ وهذه استِعَارة مكنية، شبَّه الدُّجى باللصِّ الَّذي يتخفَّى ويسرّق في جنح الظَّلام دون أن يراه أحدٌ، ولفظة (الدُّجى): "هو سواد الليل مع غيم، فلا يُرى نجم ولا قمر، وقالوا: ليلة دجيٍ وليالٍ دُجى، وذهب ابن جني إلى أن الدُّجى الظّلمة"(٤). ومعنى البيت أنَّ الممدوح -أبا سعيد الطَّائي- أوقع ليلًا بأعدائه هزيمة،

---

(١) "الوساطة"،(ص:٤١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق،(ص:٤١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩/٢)، ومطلع القصيدة:

أَظُنُّ دُمُوعَهَا سَنَنَ الفَرِيدِ وهيَ سلكاهُ منَ نحرٍ وجيدِ

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطَّائي.

(٤) يُنظر :"لسان العرب"،(٢٢٠/٥، ٢٢١)، بتصرُّف.

وقد غطَّى الظَّلام الحالك جنبات أماكنهم، ووقع النَّصر المظفَّر له ولجيشه الباسل الصَّابر في الحرب لاجتهادهم وصبرهم على القتال، فستر الدُّجى عن الممدوح كثيرًا ممَّا كانوا يستعملونه من التجلُّد والصَّبر، وهذا يدلُّ يقينًا أن الوقيعة كانت عظيمة الشَّأن، طويلة الزَّمن، فالتَّجلُّد والتَّحمُّل لا يكون إلاَّ في مثل هذه الحال.

وهنا نكتة لا بدَّ أن يشير إليها الباحث؛ فقد وصف الممدوح الَّذي خاض المعركة بنفسه وجيشه لم يدرك من أحوال جيشه ما أدركه الشَّاعر، فالشَّاهِد هنا يبيِّن مقدرة الشَّاعر التَّصويرية الخيالية على بثِّ الصُّور والأخيلة، حتَّى ربمَّا أنَّ العقل لا يستوعبها إلاَّ بالكدّ والتَّفْكِير، وهذه المقدرة الشَّاعرية لا يستطيعها إلاَّ الفحول من الشُّعْراء، أو أنَّ الشَّاعر لتلهُّفه للأخبار، وصل له ما لم يصل الممدوح؛ لخلو ذهنه من الأتعاب والرزايا، فبعض الأحداث خفيت عن الممدوح نفسه، وهذا يشير إلى قوة بأس هؤلاء الأبطال، فلم يستغِلُّوا الدُّجى؛ ليتمكنوا من اللِّواذ والفرار، بل صمدوا ولم يخافوا. وهنا تعريض داخل تعريض سبق إلى ثقة القائد الواثق من جيشه المقدام، وعلى كل حال، فالاستِعَارة واضحة فيها خيال ومبالغة وتصوير، وترقى لتكون استِعَارة تخيلية، فقد قال: (وغطى) للمبالغة في التَّستُّر والتكتُّم، وكأنَّ الدُّجى يحذو خطى السَّارق المتلبِّس المتغطِّي المتستِّر، لذا نالت هذه الاستِعَارة الحسنة على رضى القاضي الجرجاني، فاستشهد بها، وجعلها قرينة الحسن والإحسان.

- **الشَّاهِد السَّابع والثَّمانون[1]، وقول أبي تمَّام:**

ويضحكُ منهم عن غطارِفَةٍ كأنّ أيامَهم من حُسنِها[2] جُمعُ [3]

(١) يُنظر: "الوساطة"،(ص:٤١).

(٢) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "أنسها".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٩١/٤) ومطلع القصيدة:

أي القلوب عليكم ليس ينصدعُ وأي نومٍ عليكم ليس يمتنعُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي عشر، قالها أبو تمَّام يرثي بني حُميد بن قحطبة.

وموضع الاستِعَارة الحسنة في قوله: (ويضحكُ الدَّهر) شبَّه الدَّهر بالرَّجل الباسم، فحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وذلك في قوله: (يضحك)، فإنَّ الدَّهر لا يضحك أبدًا، ويتراءى لي أنَّ معنى الشَّاهِد أنَّ الدَّهر اغتبط بهم لمآثرهم، وهذه قصيدة رثاء لبني حُميد بن قحطبة، وأنَّ أعداءهم يتمنَّون لهم الموت، فحصدوهم عن بِكرة أبيهم، ووصفهمالشَّاعربالغطارفة؛ وهي جمع غطريف:"وهو السَّيد أو الشريف السخيّ الكثير الخير، والتغطرُف الاختيال في المشي خاصَّة"[١]، فكأنَّ الأعداء واجهوا أناسًا عالية رؤوسهم، غير ذليلين، ووصف أيامهم كأنَّها من (حسنها)، ورواية أخرى (أنسها) جمعٌ، أي أعياد؛ لأنَّ الجمعة عيد المسلمين وفيها الفرحة والسرّور، فاستشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة الحسنة.

- **الشَّاهِد الثَّامن والثَّمانون[٢]، وقول أبي تمَّام:**

ملْطومةٌ بالوردِ أطلق دونها[٣] في الخَلْقِ فهْوَ مَعَ الْمَنُونِ مُحَكَّمُ[٤]

وموضع الاستِعَارة في قوله: (ملطومة بالورد)، واللَّطم: ضربك الخدّ وصفحة الجسد ببسط اليد، والملطمان الخدان، والملاطم الخدود واحدها ملطم[٥]. شبَّه خدَّها خدَّها المحمر الَّذي فاق الحسن كلَّه، بالَّذي قد بسط صفحة يده بالورد ضربًا على الوجه، فالأول جمال مع احمرار، والآخر ضربٌ مع احمرار، واستشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة الحسنة، وساقه للموازنة بينه وبين قول ابن المعتز:

---

(١) يُنظر :"لسان العرب"،(٦١/١١)، مادة: (غطر).

(٢) يُنظر :"الوساطة"،(ص:٤٢).

(٣) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "طرفها".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢١٣/٣)، ومطلع القصيدة:

أزَعَمْتَ أنَّ الرَّبْعَ ليسَ يُتَيَّمُ والدَّمْعُ في دِمَنٍ عَفَتْ لا يَسْجُمُ !

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن حسان.

(٥) يُنظر :"لسان العرب"،(٢٠٢/١٣)، مادة:(لطم)، بتصرُّف.

مــا زال يلطِــم خــدّ الأرض وابلُهــا حــتى وقَــتْ خــدّها الغُــدْرانُ والخضــرُ[1]

عندما استعار المطر الَّذي قام بلطم الأرض بالوابل المنسكب عليها دون كفٍّ، فكأنه يلطم خدَّيْ الأرض، وهذه استِعَارة مكنية، أمَّا شاهد الطَّائي ففيه تقريب بين الطرفيْن؛ المستعار له والمستعار، فحسنت وارتفعت على شاهد ابن المعتز، فليس هناك قرب شديد بين لطم المطر للأرض ولطم الوجه، ثم نبَّه القاضي أنَّ أبا تمَّام قد سرقه من أبي نواس، وقصَّر فيه، وأحسن في بقية قوله وجبر ذلك النَّقص، فحاز أبو نواس شرف التقدُّم، وعلى ذلك قال: "وقوله-أي ابن المعتز-:

مــا زال يلطِــم خــدّ الأرض وابلُهــا حــتى وقَــتْ خــدّها الغُــدْرانُ والخضــرُ

وشتَّان ما بين هذا اللَّطم ولطْم أبي تمَّام في قوله:

ملْطومــة بــالورد أطلــق دونهــا في الخَلْــق فهــو مــع المِنــون مُحكَّــمُ

وإنما نازع أبا نُواس قولَه:

يبكــي فَيَــذْرى الــدرَّ مــن نــرْجس ويلطِــــم الــــورْدَ بعُنّــــابِ

فسبق أبو نواس بفضل التقدَّم والإحسان ، وحصل هو على نقْص السرّقِ والتقصير؛ لكنَّه أحسن في بقية البيت، فجبر بعض ذلك النَّقص"[2].

وبعد أن انتهى القاضي من سرّد شواهد الاستِعَارة الحسنة بشكل عام، قال: "فإذا جاءتك الاستِعَارة كقول:...، وقول أبي تمَّام:...، فقد جاءك الحسنُ والإحسان ، وقد أصبتَ ما أردت من إحكام الصَّنْعَة وعذوبة اللَّفظ"[3].

فهذه الاستعارات الَّتي وضَّحها القاضي في هذا المطلب تحكي الاستعارات الحسنة والَّتي قرب فيها المستعار من المستعار له، ولم تكن هناك نُفرة بينهما، بل هو الالتئام والتوافُق في المجاورة، فالاستِعَارة قائمة على المشابهة والمقاربة بين المشبَّه والمشبَّه

(١) "الوساطة"،(ص:٤٢).
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٤٢).
(٣) المصدر نفسه،(ص:٣٩، ٤٣).

به، وأن لا يكون المعنى المستعار له بعيدًا وغريبًا، وبمثِّل تلك الشَّواهِد وصف القاضي أبا تمَّام بإصابة الصَّنْعَة وإحكامها، الَّتي نال شرفها بوصف القاضي له، وبتلك الاستعارات تلبس ألفاظ الشَّاعر نتاج تلك الاستعارات المحمودة عذوبةً وجمالًا، وبريقًا.

المطلب الثَّاني:"شواهد الاستِعَارة الَّتي تُصدئ القلب وتعميه"

لما انتهى القاضي من ذكر الاستِعَارة الحسنة، لم يغفل عن الجانب الآخر للاستِعَارة؛ الَّتي عبَّر عنها بأنَّها تُصدئ القلب وتعميه، وتطمس البصيرة، ويحتاج المتأمِّل في الشَّاهِد إلى كدِّ القريحة، وإعمال العقل، ومراجعة اللَّفظ مع المعنى؛ ليدلي كلٌ برأيه في غوص لفكر عميق، وقد يكون المدْرَكُ من المعنى لا يستحق هذا كلِّه، ثم استشهد القاضيبها من شعر أبي تمَّام، وهو الأمر الَّذي سيذكره الشَّيخ عبد القَاهِر في المعاني الَّتي لا يُحصَّلُ من ورائها كبير معنى، بل هو التَّعب الشَّديد عن غير طائل[1]، والشَّواهِد على النَّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد التَّاسع والثَّمانون[2]،وقول أبي تمَّام:**

باشـــرت أســـباب الغِـــنى بمـــدائح ضـــربت بـــأبواب الملـــوكِ طُبـــولا [3]

شبَّه الشَّاعر مدائحه الرَّصينة القوية المجلَّلة الَّتي تنال حيّزها في قلب الممدوح، بـ(الرجل ضارب الطُّبول على أبواب الملوك)، فحذف المشبه به (الرجل) ورمز له بشيء من لوازمه (الطبول) بجامع الاحتفاء.

وهذا الشَّاهِد أخذ بلبِّه القاضي الجرجاني، فاستشهد به على أنَّه استِعَارة سيئة، مع أنَّ هذا الشَّاهِد ليس بهذه الصُّورة لأبي تمَّام، وقدْ بيَّنت ذلك، فبينهما شبه في الألفاظ أو المعاني.

---

(١) "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:١٤٣).

(٢) يُنظر: "الوساطة"،(ص:٤٤).

(٣) لم أجد هذا البيت في دواوين أبي تمَّام الورقية والإلكترونية بطبعات عِدَّة، ولكن وجدت بيتًا يشبهه ويقترب منه، يتفق في الصدر ويختلف في القافية، وهو قوله:

يـا مَـن يُبشِّـرُني بأسـبَابِ الغِنَـى مِنـه بَشـائِرُ وَجْهـهِ الـمُسْتبشرِ

يُنظر:"ديوان"، أبي تمَّام،(٤/٤٥٨).

- **الشَّاهِد التّسعون[1]، وقوله:**

لهـا بـينَ أبـوابِ الملـوكِ مزامـرٌ مِـنَ الـذكرِ لم تُـنفَخْ ولا هـي تُزْمَـرُ[2]

سبق تحليل هذا الشَّاهِد عند الآمِدِيّ على مرذول ألفاظ أبي تمَّام وقبيح استعاراته[3]، واستشهد به القاضي الجرجاني على أنها استِعَارة سيئة، وأنها تُصدئ القلب وتعميه، وتطمس البصيرة، وتكدُّ القريحة، وعلى كل حال، فالقاضي الجرجاني يراها استِعَارة سيئة، وسيُعرَف رأيه في الصفحات القادمة.

- **الشَّاهِد الحادي والتّسعون[4]، وقوله:**

إذا مـا الـدَّهر جـرّ جـرَت أيـادي يديـه[5] فغشّـتِ الـدُنيا ظـلالا [5]

الاستِعَارة في قول الشَّاعر: (إذا ما الدَّهر جرّ)، فشبَّه الدَّهر بالإنسان، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله: (جر) فالدَّهر لا يجرّ على الحقيقة،وفي قوله: (جرَت أيادي يديه) مجاز مرسل، فسمّى الشَّيء باسم جزئه، فأطلق اليديْن وهي الجزء وأراد شخص الممدوح كلّه، فالجارحة هي المقصود في كون الرَّجل كريمًا، وكما يقول الخطيب: "إذا ما عداها لا يغني شيئًا عن

---

(١) يُنظر: "الوساطة"، (ص:٤٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢/٢١٦)، وفي الديوان: "ولا تُتَزَمَّرُ"،ومطلع القصيدة:

شَجًا في الحَشَى تَزْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ بـِهِ صـمنَ آمـالي وإنِّـي لمُفْطِـرُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في جعفر الخيَّاط.

(٣) يُنظر: (ص:١٩٦) من هذا البحث.

(٤) يُنظر: "الوساطة"،(ص:٤٤).

(٥) والبيت تختلف أغلب ألفاظه عن البيت في الديوان، فقد قال:

إذا حـرَّ الزمـانُ حـرتْ أيـادي نـداهُ فغشـتِ الـدنيا ظـلالا

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤/٤٨١) ومطلع القصيدة:

شَـهِدْتُ لَقـدْ لَبِسْـتَ أَبـا سـعيدٍ مَكـارِمَ تَبْهَـرُ الشَّـرَفَ الطُّـوَالا

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني، قالها أبو تمَّام يعاتب أبا سعيد ويستبطئه.

فقدها، فصارت كأنها الشخص كله"[١]، فـ"الجَرُّ الجَذْبُ جَرَّهُ يَجُرُّه جَرًّا وجَرَرْتُ الحبل وغيره أَجُرُّه جَرًّا وانْجَرَّ الشيءُ انْجَذَب"[٢]، فيكون الدَّهر وأيامه وسنونه هنا جذبت خيرها، وطيبها، ورزقها، فكانت نِعَمُ يديْ الممدوح تجري بالعطاء والكرم والسَّخاء الَّذي ملأ الأرض خيرًا وطيبًا، ومن معاني الجرِّ يُقال:" جرَّ النوء المكان: أدام المطر"[٣]. المطر"[٣].

فيكون المعنى أنَّ الدَّهر جذب الخير وأدامه، ومع ذلك فإنّ يديْ الممدوح سالت بالخير العميم والعطاء الكثير، وعلى كل حال؛ فالشَّاهِد غنيٌ بعِدَّة مجازات، فالمجاز الأول لغوي علاقته المشابهة فهو استِعَارة، والمجاز الآخر لغوي علاقته غير المشابهة مجاز مرسل علاقته الجزئية.

ورواية التَّبْريزي: "إذ حرّ الزمان جرت أيادي نداه، ولهذا يُقال حرّ النَّهار؛ أي اشتد حرُّه، وحرَّ بمعنى اشتدَّ، وفي حديث عمر –رضي الله عنه– وجمع القرآن، وأنَّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن؛ أي اشتدَّ وكثر"[٤]، فاستشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة السَّيّئة، وكرهه الآمِدِيّ لتصوير الدَّهر بالرجل، وهذه استِعَارة بعيدة.

(١) "الإيضاح"، (٤/٢٥).
(٢) "لسان العرب"، (٣/١١٧).
(٣) المرجع السَّابق، (٣/١١٨).
(٤) المرجع نفسه، (٤/٧٩، ٨٠).

- **الشَّاهِد الثَّاني والتّسعون[1]، وقوله:**

يَـا دَهْـرُ قَـوَّمْ مِـنْ أُخْـدَعَيْكَ فَقَـدْ أَضـجَجْتَ هـذا الأنـامَ مـن خُرُقِـكْ[2]

شبَّه الشَّاعر الدَّهر بالرَّجل الَّذي أمال عنقه كِبرًا منه، واستشهد به القاضي الجرجاني على الاستِعَارة السَّيّئة، وأنَّها تُصدئ القلب وتعميه، وتطمس البصيرة، وتكدُّ القريحة، وكأنَّ القاضي اطَّلع على ما كتبه الآمِدِيّ، عندما عدَّها من الاستِعَارة القبيحة والمرذولة، فـالتَّوافُق بينهمـا في بعـض الأحكـام علـى الشَّـواهِد ينبـئ بـذلك، وأول مـن استشهد به على الاستِعَارة المرذولة والقبيحة الآمِدِيّ، وقد سبق تحليل الشَّاهِد[3]، على علـى أنَّ القاضـي قـال في مـوطن تفـاوُت شـعر أبي تمَّـام وتعلقـه وولعـه بـذكر الأخـدع فقال:"وقد

أولع بذكر الأخدع؛ فردَّده في عِدَّة أبيات لم يوفَّق إلاَّ في واحد منها"[4].

- **الشَّاهِد الثَّالث والتّسعون[5]، وقوله:**

إلى ملـــكٍ في أيكـــةِ الجـــودِ لمْ يـــزلْ علـى كَبِـدِ المعْـروفِ مِـنْ نيلـه بـرْدُ[6]

---

(١) يُنظر: "الوساطة"،(ص:٤٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٠٥/٢)، ومطلع القصيدة:

كانَـتْ صـرُوفُ الزَّمـانِ مِـنْ فَرَقِكْ واكـــتَنَّ أهْـــلُ الإعْـــدَامِ فـــي وَرَقِـــكْ

، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين بن شبانه، ويهنّيه بالعافية.

(٣) يُنظر:(ص:١٨٧) من هذا البحث.

(٤) "الوساطة"،(ص:٦٨).

(٥) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٤٤).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٧/٢)، ومطلع القصيدة:

تجرعْ أسـىً قدْ أقفرَ الجَرَعُ الفردُ ودعْ حِسيَ عينٍ يجتلبْ ماءَها الوَجدُ

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والعشرون قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانه.

سبق تحليل الاستِعَارة في الشَّاهِد(١)وموقع المستعار والمستعار له عند الآمِدِيّ، وعدّه شاهدًاعلى قبيح الاستِعَارة عند أبي تمَّام، وجعل من تتبّع شعره يجد الألفاظ غثيثة، وأنَّ استعاراته في غاية القباحة والهجانة والبُعد من الصَّواب، وتبعه القاضي في ذلك، وبيَّن أنَّ الاستِعَارة في هذا الموضع تُصدئ القلب وتعميه، وتطمس البصيرة، وتكدّ القريحة.

- **الشَّاهِد الرَّابع والتّسعون(٢)، وقوله:**

كـأَنَّني حِـيْنَ جَـرَّدتُ الرَّجـاءَ لَـهُ عَضـب صـببتُ بـه مـاءً علـى الـزَّمن(٣)

سبق تحليل هذا الشَّاهِد(٤) في فصل التَّشبيه عند العسكري، واستشهد به على على قبيح التَّشبيه وشدة بروده، وعدَّه الآمِدِيّ من قبيح الاستِعَارة وتم تحليله(٥)، وصنع وصنع القاضي ما صنع الآمِدِيّ، فعدَّه من قبيل الاستِعَارة السَّيّئة، وهذا الخلط الَّذي كان يقع بين القدَّماء في تحديد الفرق بين التَّشبيه المضمر الأداة والاستِعَارة يؤكِّد بدء تكوين التَّاليف في البلاغة والنَّقد، وأنَّهما لا يزالا في باكورة تصنيف العلَّوم، وستتضح الصُّورة الَّتي اتَّكأ عليها القاضي في بناء هذا الأمثلة وأشباهها قريبًا.

---

(١) يُنظر:(ص:١٩٦) من هذا البحث.

(٢) يُنظر: "الوساطة"، (ص:٤٤).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٣٣٩)، ومطلع القصيدة:

أَرَاكَ أكبَـرْتَ إدْمَـاني علـى الـدِّمَنِ وحَمْلِـيَ الشَّـوْقَ مِـنْ بَـادٍ ومُكـتَمِنِ

لا تُكثِـرنَّ مَلامِـي إنْ عَكَفـتُ علـى رَبْـعِ الحَبيـبِ فلَـمْ أعكُـفْ علـى وَثَـنِ

والبيت في الديوان:

كـأَنَّني يـوم جَـرَّدتُ الرَّجـاءَ لَـهُ عَضبًا أخذت بـه سيفًا علـى الـزمنِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في أبي الحسن عليَّ بن مُرّ.

(٤) يُنظر:(ص:٨٠) من هذا البحث.

(٥) يُنظر:(ص:٢٠٧) من هذا البحث.

ثم إنَّ القاضي لما انتهى من هذه الشَّواهِد السَّيّئة لم يُقدَّم نظرة نقدية واضحة، يُمكن أنْ يكون الحُكمُ على الشَّاهِد الرَّديء من أجل كذا أو كذا، فلم يذكر سببًا يُرتكز عليه، أو يُتكأ على قاعِدَّة واضحة، كما فعل في ذكر الحسن في عذوبة اللَّفظة وغيرهافي المبحث السَّابق، ولم يصنع كالآمِدِيّ في الموازنة الفعلية، وإبانة وجه الكراهة والقبح من تلك الاستِعَارة، بل أظنه ترك للقارئ إنعام النَّظر في تلك الشَّواهِد، وكأنّه يقدَّم له النَّتائج النَّهائية من الغوص وراء تلك الشَّواهِد، فقال:"فإذا سمعت بقول أبي تمَّام...فاسدد مسامعك، واستغشِ ثيابك، وإيَّاك والإصغاء إليه، واحذر الالتفاتَ نحوه، فإنَّه ممَّا يُصدئ القلب ويُعميه، ويطمس البصيرة، ويكدّ القريحة"(١)، ففيها تحذير وتنفير، وتجلية الحقائق، فالقلب يصدأ باجتلاب ما يغيِّر مزاجه فيتلفه ويُصديه، ويجعله لا يميِّز بين الخبيث والطيّب، فينقلب بصره إلى عمى، ونوره إلى ظلام، ويأتي على البصيرة الَّتي يرى بها الإنسان، ويفتِّش ببصره بين الجيّد والرّدئ، فبسماع مثل هذه الأمثلة تنقلب الرُّؤية إلى طمس البصيرة، وبعد صدأ القلب والعقل، وطمس البصر والبصيرة، تُكدُّ القرائح في غير طائل، ويختلط الحابل بالنَّابل، ولا جدوى للفظ رشيق ومعنى لطيف جميل برَّاق، عندما لا يكون هناك حسن وإحسان، وإحكام صنعة وعذوبة ألفاظ.

ويظنُّ الدَّراس أنَّ القاضي كان يرمي إلى أنَّ أبا تمَّام ابتعد بالاستِعَارة، لأنَّ "الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض الَّتي في النُّفوس، وإذا كان كذلك وجب أنْ يتخيَّر من اللَّفظ ما كان أقرب إلى الدِّلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النَّفس"(٢)، هذا ما سطرته أنامل القاضي.

(١) "الوساطة"، (ص:٤٤).

(٢) "إعجاز القرآن"، للباقلاني، (ص:١١٧)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ط، ١٩٤٥م.

المطلب الثَّالث:"الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة عند القاضي الجرجاني على ضوء شواهد الطَّائي"

نظر القاضي إلى ما قاله العُلماء في الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة فأنكر ذلك؛ لأنَّ بعضهم عدَّ التَّشبيه المحذوف الأداة كالتَّشبيه البليغ أو الضّمني استِعَارة، لانعدام الفرق بينهما، وعندما ذكر القاضي شواهد استِعَارة أبي تمَّام السَّيِّئة، ظهر أنَّ بعض تلك الشَّواهِد تشبيه محذوف الأداة، من ذلك قول أبي تمَّام:

باشرت أسباب الغِنى بمدائح ضربت بأبواب الملوكِ طُبولا [1]

وقوله:

لها بينَ أبوابِ الملوكِ مزامرٌ مِنَ الذكرِ لم تُنفَخْ ولا هي تُزْمَرُ[2]

وقوله:

كأَنَّني حِيْنَ جَرَّدتُ الرَّجاءَ لَهُ عَضب صببتُ به ماءً على الزَّمن[3]

فهذه الشَّواهِد تشبيه محذوف الأداة، ليس كما زعم القاصي أنها استِعَارة، فمدائحه كالطُّبول، والقصائد مزامر لم تنفخ، والرَّجاء عضب، فهل هذا هو الخلط الَّذي دار في تلك الحقبة من الزَّمن؛ وقبل اكتمال المصطلحات البلاغية والنَّقدية؟ أم أنَّ هناك أمرٌ آخر يخفيه القاضي ضمَّنه في ورقة تشهد بعدم اكتسابه ذلك الخلط، الَّذي تعقَّبه ابن الأثير في "المثل السَّائِر" على بعض العُلماء؟ ثم ليس من المعقول حقًا

(١) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤/٤٥٨).
(٢) المصدر السَّابق، (٢/٢١٦).
(٣) المصدر نفسه، (٣/٣٣٩).

أن يناقض القاضي نفسه بهذه السُّهولة، فعندما انتهى من ذكر شواهد الاستِعَارة الحسنة ثم السَّيّئة من شعر أبي تمَّام، أوضح كلامًا يستنكر فيه أهل الأدب-وهي كلمة تُوحي بعدم استقلال علم البلاغة بالبلاغيين-من الوقوع في الخلط بين التَّشبيه والاستِعَارة فقال: "وربما جاءَ من هذا الباب ما يظنّه النَّاس استِعَارة، وهو تشبيه أو مثَل؛ فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعًا من الاستِعَارة عدّ فيها قول أبي نواس:

والحـــبُّ ظهْـــرٌ أنـــت راكبُـــه فـــإذا صـــرفتَ عِنانـــه انصـــرفا

ولست أرى هذا وما أشبَّهه استِعَارة، وإنما معنى البيت أنَّ الحب مثل ظهْر، أو الحب كظهْر تُديره كيف شئتَ إذا ملكتَ عِنانه؛ فهو إمّا ضرب مثَل أو تشبيه شيء بشيء"(١).

وكلام القاضي في غاية الإنصاف، فبيت أبي نواس تشبيه لا استِعَارة فيه ألبته، ويُستخلص من تحبيره أنَّه عرَّف التَّشبيه فهو تشبيه شيء بشيء، مثل شاهد أبي نواس، فقد شبَّه الحب بالظَّهر، وذكر وجه الشَّبه باستطاعة إدارتهما كيفما شئت متى أدركت عنانه ولجامه، بعكس انفلاته فإنه لا يبقي على حالته، بل ينصرف دون لجام، أو زمام يعيق حركته، ويذكر بعد ذلك أنه إمَّا مثل سائر أو تشبيه لا ينفكّ عن هذيْن الأمريْن.

ثم بيَّن أنَّ الاستِعَارة الصحيحة والمحمودة لها شروط لا بدَّ أن تحقَّقها حتى يطلق عليها ذلك، وبإسقاط الشَّرط تبطل المسألة، ليُنظر في دواعيها وأسبابها وعللها، فكان من أول الشروط أن يُكتفى بذكر الاسم المستعار الدَّال على أصله الَّذي حُذف واستعير له، مثل ذلك كثير؛ كرأيت بحرًا يتكلم، فالاسم المستعار (بحرًا) والمحذوف الدال عليه أصالة (العالم)، وشواهد الاستِعَارة من شعر الطَّائي قائمة على ذلك إلاَّ ثلاثة شواهد دلَّت على التَّشبيه، ذكرتها في هذا المطلب، فلم يُحذف أيّ طرف منهما،

(١) "الوساطة"،(ص:٤٥).

فالمشبَّه والمشبَّه به في صدر وعجز البيت غير مُغيَّب؛ فمدائحه كالطبول، والقصائد مزامر لم تنفخ، والرجاء عضب.

ومن الشروط الَّتي ذكرها كذلك؛ انتقال العبارة وجعلها في مكان غير الَّذي كانت عليه؛ أي يجاء بالكلام على صيغة المجاز والمبالغة لا الحقيقة المحضة، وهذا أمرٌ يتفق عليه علماء البلاغة والنَّقد، وشواهد أبي تمَّام باتفاق تدلُّ على هذا الشرط، ثم ذكر شرطًا اتَّفق عليه البلاغيون والنُّقاد وسدَّدوا سهامهم على شعر الطَّائي، وحاسبوه عليه، فخرجت لديهم شواهد الاستِعَارة السَّيِّئة؛ وكان الشَّرط الَّذي محَّص تلك الشَّواهِد وملاكه المقاربة في التَّشبيه، وهذا الشَّرط أحد أعمدة قاعِدَّة عمود الشِّعْر الَّتي خرمها الطَّائي وخرج عنها بحسب قولهم، فالقرب بين المشبَّه والمشبَّه به استِعَارة حسنة على نهج الشُّعْراء القدَّماء، كمثال (البحر والعالم) كل منهما يُعطي العطاء الجزيل، وقعرهما عميق، وفيضهما جليل، ومرماهما بعيد، فعلى هذا المثال صح هذا الشَّرط، ولكن أبيات أبي تمَّام الَّتي تحدَّث فيها عن دهر يبتسم، ويصرع، وله أخدعان، فليس هناك قرب بين المشبَّه والمشبَّه به أبدًا، بل هو البعد كله بينهما، وهذا الشَّرط هو الَّذي أسقط أغلب شعر أبي تمَّام عند بعضهم، ورموه بكل نقيصة، وتهاوت عليه معاول التَّقبيح والتَّهجين، لأنَّهم نظروا أنَّ العرب كانت تقرِّب المشبَّه من والمشبَّه به، ثمَّ إنهم لم ينظروا إلى بعض شواهد العرب بعيدة الاستعارة الَّتي سار على أثرها الطَّائي فاحتذاها؛ لأنَّها نادرة لا يُعتدّ بها، ولو كان قائلها جاهلي أو ممَّن يُحتج بكلامهم، فالحجَّة والبرهان عندهم لمن غلبة عليه هذه السِّمة، أمَّا النَّادر فلا حكم له.

ثم وضَّح القاضي شرطًا لا يقل خطرًا عن الَّذي سبقه وهو مناسبة المستعار له للمستعار منه، ويقصدون بذلك أن تكون اللَّفظة المستعارة حينئذٍملائمة ومناسبة بالشيء الَّذي استُعِيرت له، كاستِعَارة امرئ القيس عندما قال:

فقلـــت لـــه لمـــا تمطـــى بصـــلبه وأردف أعجـــازًا ونـــاء بكلكـــل[1]

فجعل للَّيل وسطًا يمتد،وأعجازًا تردفه للوسط،وصدرًا متثاقلاً في نهوضه، وجعله متمطِّيًا من أجل امتداده، فعلى مثل هذه الاستِعَارة تكون الملاءمة بين اللَّفظ المستعار له والمستعار، وشواهد الاستِعَارة الحسنة من شعر أبي تمَّام الَّتي ذكرها القاضي قائمة على الملائمة بينهما، أمَّا شواهد الاستِعَارة السَّيّئة، فلا تقوم على الملاءمة على رأي القاضي؛ لأنَّه لا تناسب بين الدَّهر والانسان، ولا تقارب بين كبد الانسان وكبد المعروف؛ فاختلفت النَّسب بينهما في التلاؤُم، ثم راح يذكر آخر الشروط في الاستِعَارة الحسنة الَّتي تُلاقي القبول والتَّسليم، بأن يحدث بين اللَّفظ والمعنى التحام، وامتزاج، وتآلف بينهما من كلّ الجهات، حتى كأنَّ المستعار والمستعار له يخرجان من مشكاة واحدة، لا ندري أيُّهما ذاك من تضامنهما، فلا منافرة ولا مخالفة ولا افتراق بينهما، ولا يُعرض اللَّفظ بوجههِ عن المعنى المراد استقباحًا أو كراهية له، بل المودة والتَّكاتُف بينهما. وقد نجح الطَّائي في أغلب استعاراته في هذه النُّقطة بالذَّات، فمزج بين ألفاظه ومعانيه في أحوالها المختلفة، على ميل منه لوحشي المعاني والألفاظ، وكان يجاهد طبعه ويحمل نفسه على التَّكلُّف؛ حتى قال القاضي: "بلغنا أنَّ إسحق بن إبراهيم الموصلي سمعه ينشد هذا البيت:

المجـدُ لا يرضـى بـأن ترضـى بـأن يرضـى المؤمـل منـك إلا بالرضـا

فقال له أن: يا هذا، لقد شققت على نفسك، إن الشِّعْر لأقرب ممَّا تظنّ"[2]، تظنّ"[2]، وعِيب عليه قَصْدَالصَّنْعَة سائر شعره، ولعلَّ القاضي اطَّلع على "الموازنة" فاقتبس منها بعض شروطه، حيث يقول الآمِدِيّ: "وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس [هو] له إذا كان يقاربه: أو يدانيه، أو يشبِّهه في بعض أحواله، أو كان سببًا من

(١) "شرح المعلَّقات العشر"، (ص:٢٧).

(٢) "الوساطة"، (ص:٧٠).

أسبابه؛ فتكون اللَّفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشيء الَّذي استُعِيرت له وملائمة لمعناه"[1].

فبهذه الأمور بيِّن القاضي متى تكون الاستِعَارة محمودة مفترقة عن التَّشبيه، فيُكتفى بذكر الاسم المستعار الدَّال على أصله الَّذي حُذف واستعير له، وانتقال العبارة وجعلها في مكان غير الَّذي كانت عليه، والمقاربة في التَّشبيه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، ولا بدَّ أن يحدث بين اللَّفظ والمعنى التحام، وامتزاج، وتآلُف بينهما من كل الجهات، وفي ذلك يقول القاضي: "وإنَّما الاستِعَارة ما اكتُفِي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكُها تقريب الشبَّه، ومناسبةُ المستعار له للمستعار منه، وامتزاجُ اللَّفظ بالمعنى؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبيَّن في أحدهما إعراض عن الآخر"[2].

وأخيرًا كانت تلك فروق القاضي بين التَّشبيه والاستِعَارة، مُزجت تنظيرًا من قوله، وأُدخلت تطبيقًا في استشهاداته، واستعارات الطَّائي هي محلّ النَّظر وتحت أشعة مجهر القاضي الهمام الَّذي لا يُشقّ له غبار في الأدب والنَّقد، فأحرز أبعد الغايات في العِلم والبلاغة والنَّقد، فأوقع استعارات الطَّائي في الميزان، فتساوت الكفتان؛ فمدح الحسن، وذم القبيح على وفق شروطه المذكورة، -والله تعالى أحكم-.

(١) "الموازنة"، (٢٦٦/١).

(٢) "الوساطة"، (ص:٤٥).

المطلب الرابع:"رؤية القاضي الجرجاني الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

حقيقٌ على الباحث أن يبيِّن أن القاضي الجرجاني قدَّم في أول مؤلفه الموسوم بـ"الوساطة" أسلوبه الَّذي يختار المحدث، فهو لا يرد شعرًا سهلًا ركيكًا، ضعيفًا، ولا ذاك البدوي الوحشي، بل إنَّ تقسيم الألفاظ على رتب المعاني، والتَّنوُّع في موضوعات الشِّعْر يجب أن يكون لكل واحد نهج هو أملك به، وطريق لا يُشاركه فيه الآخر(١)، وهذه نظرته في الشِّعْر بشكل عام، وخاصَّة عند المحدثين الَّذين يقبل شعرهم على الأوصاف الَّتي بيَّنها، ويردف بعد ذلك الشُّعْراء المطبوعين، ويرى أن ترك التكلُّف، والاسترسال للطبع، وتجنُّب الحمل عليه، والعنف به، هو مِلاك الأمر في هذا الباب(٢)، وذكر أمثلة من هؤلاء الشُّعْراء المطبوعين؛ كجرير والبُحْتَري، وانتهى به المطاف ليتحدَّث عن أمِّ القضايا النَّقدية؛ كالبديع ومنه الاستِعَارة، فقسَّمها إلى استِعَارة حسنة وسيئة، واستشهد عليها من شعر الطَّائي، وأكثر منه، وفي ذلك مدح استعمال الشُّعْراء للاستِعَارة الحسنة، فجعل فيها إحكام الصَّنْعَة، وأنَّ اللَّفظ عذب زلال. وأمَّا الاستِعَارة السَّيِّئة، فكان حظ أبي تمَّام منها الغالب إلاَّ بيتًا لأبي نواس، ثم ختمها بالتَّحذير من سماع تلك الأبيات؛ لأنها تؤذي القريحة، وتسبِّب عدوى صدأ القلب، وطمس البصيرة.

ولما انتهى من ذكر نوعيْ الاستعارتيْن الحسنة والسَّيِّئة، ذيَّلها بموضوع آخر، هو أولى به، فأراد من خلالها أن يفرِّق بين الاستِعَارة والتَّشبيه، ولعلَّه رأى أن بعض أهل الشِّعْر والأدب، والبلاغة والنَّقد لا يفرِّقون بينهما؛ لغموض الفرق، ودِقَّة المسلك، فقام وعرَّف الاستِعَارة، ووضع لها شروطًا تفترق بها عن التَّشبيه، فلَّخص ذلك في أسطر محدودة، ولم يسْتَشْهِدُ إلاَّ بشاهد لأبي نواس في ذلك، فألحق الدَّارس هذا التَّنظير بالتَّطبيق في تحليل شواهد أبي تمَّام، فلم تتوافق شروط القاضي مع تطبيقاته، ففي

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٣٠)، بتصرُّف.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٣١)، بتصرُّف.

بعضها كان حديثه عن استِعَارة وهو تشبيه محذوف الأداة، وهذا اجتهاد محض من الدَّارس في بعض تحليلاته لتلك الشَّواهِد مع التَّقصير الشَّديد.

وإنَّ المتأمِّل فيما مضى، يجد أنَّ القاضي حكم فعدل، ووازن بين شواهد أبي تمَّام في الاستعارتيْن، فرجحت كفة شواهد الاستِعَارة الحسنة على قبيلتها، هذا بالنسبة للحديث عن شواهد الاستِعَارة، وإلاَّ فقد أفرد القاضي فصلًا سمَّاه: "تفاوت شعر أبي تمَّام"، فقسَّمه إلى قسميْن: (الحقّ من شعره)؛ فقال عنه: "ولو لزمت هذا المثال في شعر أبي تمَّام لتظاهرتْ عليك الحُجج، وكثرت عندك الشَّواهِد، فقوِي في نفسك رأيي واعتقادي، وتصوَّر لك صدقي وإصابتي؛ وإذ رأيته يقول:..."[1]، والقسم الآخر: (الرديء من شعره)؛ فقال عنه: "فيترقَّى في هذه الدّرج العالية، ويتصرَّف هذا التَّصرُّف المعجز، ثم ينحط الى الحضيض ويلصق بالتَّراب"[2]، وهو في ذلك يذكر شواهد لأبي تمَّام كثيرة جدًا تتعلَّق بأبواب البلاغة من معانٍ وبيان وبديع، يسرّد الشَّواهِد تلو الشَّواهِد، ويعلِّق عليها تعليقًا سرّيعًا، أظنها أحكامًا ذاتية لا ترتبط بقضية بلاغية محضة، بل هو تمهيد قدَّمه لخصوم المتنبِّي، فكبار الشُّعْراء المحدثين ممَّن سبق أبي الطيّب قد تفاوت شعرهم بين الجيّد والرَّديء؛ فكذلك عند المتنبِّي حسن وقبيح، فكيف تقبلون منهم ولا تقبلون منه؟ هكذا حُجته.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الملحوظات الَّتي قدَّمها القاضي عندما وصف شعر أبي تمَّام بالعويص المعمَّى، وأنَّه "ما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة؛ وأخرى غثّة، لاسيما إذا طلب البديع وتتبّع العويص"[3]، وأنَّه "أولع بذكر الأخدع؛ فردَّده في عِدَّة أبيات لم يُوفَّق إلاَّ في واحد منها"[4]، وأنَّه "حمَل نفسه على التَّكلّف،

(١) المصدر السَّابق، (ص:٦٤).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٦٦).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٦٨).
(٤) المصدر السَّابق، (ص:٦٨).

وفارق الطبع الى التعمّق"[١] أحيانًا، ومن جهة الألفاظ، فإنَّه تعجرف، وتشبَّه بالبدو ونسي أنَّه حضري أديب متأدِّب، وهو قروٌ متكلّف[٢]، فعندما سرّد الشواهدكان ذلك تمهيدًا لإعذار أبي الطيّب، فقد أراد أن يعترض لمن يوازن ويجمع فيه بين أبي تمَّام والشافعي في النَّكير، فقال:"وفي الإفصاح بما أشرت إليه، وتبيين ما أجملته كلامٌ يتَّسع، ولا يتَّصل بالغرض الَّذي قصدناه، وإنما نبذْت منه نُبذاً اقتضاها فصلٌ أصبته لبعض من اعترض على أبي تمَّام، جمع فيه بينه وبين الشافعي في النكير، ووازن بين قولهما في الخطأ"[٣]. وعلى هذا أعود لأذكر من قول القاضي أنَّ في حشده لمثل هذه الشَّواهِد في فصل تفاوُتًا شعره، لما جاء بسيِّديْ المطبوعين وأهل الصَّنْعَة؛ أبي نواس وأبي تمَّام، وما كان عليه شعرهما، وأنَّ فضلهما لم يحملهما من الزلل، فعلى هذا لم يكن القصد لأجل قضايا بيانية بحتة، بل الغرض الأساس الاعتذار لتفاوُت شعر أبي لطيب، فقال في بداية حديثة قولًا بيِّنًا: "ثم أعود الى نسق الكتاب وأكتفي بما قدَّمته من هفوات أبي تمَّام وإن كان ما أغفلته أضعاف ما أثبتّه؛ إذ البغْية فيه الاعتذار لأبي الطيّب، لا النّعي على أبي تمَّام. وإنما خصَصْتُ أبا نُواس وأبا تمَّام لأجمع لك بين سيّديْ المطبوعين، وإمامَيْ أهل الصَّنْعَة، وأريك أن فضلَهما لم يحمِهما من زلل، وإحسأنَّهما لم يصفُ من كدَر"[٤]. فهذا العذر قدَّمه الدَّارس بين يدي الدِّراسة ومعه الحجَّة، وهذا يجعل استصحاب تلك الأبيات ممَّا لا تهمُّه الدِّراسة إلاَّ في نظرته النَّقدية الَّتي تُضم إلى رؤيته الفكرية العامة، ممَّا يجدر ذكره أنَّ القاضي أثبت فضل الشَّاعر وإحسانه مع ما لديه من زلل في استعاراته، فبهذا يتحقَّق الحكم باعتدال بين جيّد استِعَارة أبي تمَّام ورديئها، وهذه رؤية تشبَّه إلى حدٍّ كبير ما كان من نظرة الآمِدِيّ لاستعارات أبي تمَّام.

(١) المصدر نفسه، (ص:٦٩).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٧٠)، بتصرف.
(٣) المصدر نفسه، (ص:٧٦).
(٤) المصدر نفسه، (ص:٧٧).

المبحث الرَّابِع
"شواهد الاستِعَارة
عند أبي هلال العَسْكري"

- **المطلب الأوَّل: "شواهد الاسْتِعَارة الحسنة والمصيبة".**
- **المطلب الثَّاني: "شواهد الاستعارة الرَّدِيئة".**
- **المطلب الثَّالث: "رؤية أبي هلال الفكرية في استعارات أبي تمَّام".**

توطِئة:

كان أبو هلال العسكري أحد أولئك الأدباء والبلاغيين والنُّقاد الَّذين أسَّسوا لمرحلة التَّاليف البلاغي والنَّقدي، وقد تحدَّث الباحث في الفصل الأول أنَّ أبا هلال كان يُمثل مرحلة التَّوسُّط بين جيل وجيل، وسطَّر في كتابه "الصِّناعتين" شواهد ومصطلحات وأراء ومذاهب كثيرة جدًا، إلاَّ أنه –رحمه الله– لم يكن ينسب ما ينقله إلاَّ نادرًا جدًا. ولعلَّ مذهب المسامحة في نقل العِلم بين ابن قتيبة والجاحظ أخذ به أبو هلال، على خلاف البحث العِلْمِي القائم على الأمانة، حتّى قال أحد علماء البلاغة المعاصرين: "وكنَّا نقبل في الأقلّ أن يورِد الحكم منسوبًا إلى صاحبه، لنعدّ الرَّجل في الأمناء الصادقين، ولسنا نستطيع أن نتصوَّر أن تكون هذه السَّرقة الواضحة من توارُد الخواطر...، حتّى ليبدو للنَّاظر المحقَّق أنَّ العسكري أخذ الباب بتمَّامه من الموازنة"(١).

وممَّا هو جدير بالذِّكر هاهنا أنَّ الباحث بصدد شواهد الاستِعَارة عند العسكري، فقد أسرّف في سردها وذكرها، فكانت على حساب هذا البحث، حتّى تُعدّ هذه الخصلة الَّتي ارتسمت على كتاب العسكري مأخذًا عليه، يقول الأستاذ أمين الخولي: "وأمَّا الطَّريقة الثَّانية وهي طريقة الأدباء في درس البلاغة، فتمتاز بالإكثار المسرّف من الشَّواهِد نثرها وشعرها، والإقلال من البحث في التَّعاريف والقواعد والأقسام، وتعتمد في النَّقد الأدبي على الذَّوق الفنِّي... ونرى في مثل كتابة أبي هلال العسكري في "الصِّناعتين"، يسوق في المقام الواحد عشرات الأمثلة والشَّواهِد من القرآن والحديث، وكلام العرب شعرًا ونثرًا، ويعتمد في النَّقد على الذَّوق غير مكتفٍ بالصِّحة العقلية والسَّلامة النَّظرية"(٢)، ويؤكد الدُّكتور بدوي طبانه ما قاله الأستاذ أمين

(١) "أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية"، بدوي طبانه،(ص:٨٤)، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ=١٩٨١م.

(٢) "البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها"، أمين الخولي،(ص:٢٠)، دار غريب، القاهرة، د.ط،

الخولي فيقول: "كتاب الصِّناعتين يمتاز بالإكثار المسرف من الشَّواهِد الأدبية شعرها ونثرها، فذلك حق واضح"(١).

وبعد هذه المقَدِّمة، أُزجي شواهد أبي هلال من شعر أبي تمَّام في الاستِعَارة، الَّتي مثَّلت النَّصيب الأكبر، فساق للاستِعَارة أربعين شاهدًا تقريبًا، كان أغلبها نقلًا عن ابن المعتز،والآمِدِيّ، والقاضي، وكانت توازي شواهدهم مرتَّبة على المحاكاة الَّتي نهجها أبو هلال في النَّقل عن غيرهم، وقد قال عن نفسه معرِّضًا: " والحاذق من يُخفي دبيبه إلى المعنى"(٢)، ثمَّ إنَّه تفرَّد بشواهد من بنات أفكاره، على أنَّ الأحكام الَّتي أطلقها على بعض الشَّواهِد كانت نقولًا عن علماء البلاغة والنَّقد السابقين؛ كالرُّماني، وابن المعتز، وقدامة وغيرهم، وفي المقابل لم يكن ينوِّه بأسمائهم إلاَّ قليلًا؛ والنَّاظر لأول وهلة يظنها لأبي هلال، حتّى يقف القارئ على كتب أولئك فيجد الكلام نفسه.

ومن جانب آخر، قلَّل أبو هلال النَّقد العِلْمِي على شواهد الاستِعَارة، واعتمد على الذَّوق الفنِّي الخاص به، فهو من النُّقاد الَّذين " لم يتخلَّصوا من الرُّوح التَّعليمية المعيارية، إذ إن أهداف النَّقد عندهم إبراز الحسن للاقتداء به وإظهار القبيح للابتعاد عنه"(٣)، ممَّا يجعل استكناه مذهب أبي هلال يُتلقَّف من مجموع كتابه، ففي ذلك تعريف لأحكامه على بعض الشَّواهِد، وممَّا يبدو واضحًا لا لبس فيه؛ ذلك الغموض النَّقدي الَّذي يلفُّ هذه الشَّواهِد، ويجعل الحيرة تحلِّق فوق ذهن الباحث ممَّا يزيد الأمر صعوبة،فسيعتمد الباحث في ذلك التَّحليل على ما يقوله وما يمنهجه أبو هلال في كتابه بشكله العام، كقوله:"ومن تمَّام آلاتِ البلاغة: التوسُّع في معرفة العربية، ووجوه

١٤٢٧هـ.

(١) "أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية"، (ص:١٠٣).

(٢) "الصِّناعتين"، (ص:١٧٨).

(٣) "مفهوم الأدبية في التراث النقدي"، توفيق الزايدي، (ص:١٥٧)، دار سرّاس للنشر، ١٩٨٤م.

الاستعمال لها، والعِلم بفاخر الالفاظ وساقطها، ومتخيّرها، ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام"[1]؛ حتّى يُنبأ عن سرّ الشَّاهِد وموضع الحكم، وماهية الاستشهاد، والتَّحليل الَّذي يرمي إليه المؤلِّف.

والطَّريقة المثلى الَّتي انتهجها الدَّارس في هذا المبحث الطَّويل هي تقسيم الشَّواهِد إلى قسمين ؛ فالقسم الأوَّل ما كانت الشَّواهِد الحسنة المصيبة من بنات أفكار المؤلِّف في أغلبها، وكذلك التَّحليل لأحكامه النَّقدية الَّتي لم يُبدِ رأيه فيها، والقسم الآخر هو ما نقله أبوهلال في أعمِّها عن غيره من الشَّواهِد الرَّديئة والسَّيّئة، وكذلك الأحكام النَّقدية، ففي هذا المبحث يكون عمل الباحث كعمله في بقية المباحث السَّابقة واللاحقة، فالغرض ليس تكرار الأحكام دون العناية والإضافة، بل المقصود هو كيف استثمر أبو هلال تلك الشَّواهِد لتأسيس مسائل بلاغية ونقدية، قصد من خلالها إبراز الحكم النَّقدي الداعم لما يروم إليه.

ومن روافد هذا المسلك الاسترشاد بتعريف أبي هلال للشِّعر، ليوضِّح ما غمض، ويكشف عن النَّهج المتبع إزاء تلك الشَّواهِد، فما كان من نظرته للشِّعر يناقض ما في الشَّواهِد أو يؤيِّده حكم الباحث برأي أبي هلال من خلال لبنات تعريفه، في قوله: "والشِّعْر كلامٌ منسوجٌ، ولفظٌ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام، فيكون جلفًا بغيضًا، ولا السوقيّ من الألفاظ فيكون مهلهلاً دونًا...، ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرًا، والألفاظ إذا اجترّت قصرًا، ولا خير فيما أجيّد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلاَّ إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد"[2]. ثم إنَّه يرى أنَّ الشِّعْر لا يكون بالألفاظ الغليظة، والمتكلَّفة، والغريبة، بل بالسَّهل الممتنع،

(١) "الصِّناعتين"، (ص:٢٥).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:٥٧).

وعلى ذلك ردَّ على مَن اعتقد ذلك، فقال: "وقد غلب الجهل على قومٍ، فصاروا يستجيّدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلاَّ بكدّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزّة غليظة، وجاسيةً غربية، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً، ولم يعلموا أنَّ السهل أمنع جانباً، وأعزّ مطلباً، وهو أحسن موقعًا، وأعذب مستمعًا"[1]، فبهذه الأوصاف تُحاكَم شواهد أبي تمَّام إذا انعدم نقده المباشر له، ويطبَّق ما تم عقده من تنظير، ويُتوخَّى فيها الصَّواب بلا إفراط أو تفريط.

(١) المصدر السَّابق، (ص:٥٨).

المطلب الأول: "شواهد الاستِعَارة الحسنة والمصيبة "

يتَّضح ممَّا تقدَّم أنَّ هذا القسم من شواهد أبي هلال سيشهد معالجة المؤلِّف لشواهد تفرَّد بها عن غيره في غالبها، وحتّى يصل البحث برقاب بعض، لا بدَّ من الوقوف على تعريف الاستِعَارة عند أبي هلال، هي:"نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللُّغة إلى غيره لغرض"(١)، ثم بيَّن ذلك الغرض وأنَّه يكون "شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللَّفظ، أو تحسين المعرض الَّذي يبرز فيه؛ وهذه الأوصاف موجودة في الاستِعَارة المصيبة"(٢).

ثم سرّد شواهده على غرار تلك الأغراض الحسنة والجيّدة، فبدأ بالقرآن الكريم ثمَّ من أمثال العرب، ثمَّ ممَّا في كلام النَّبي ﷺوالصحابةرضي الله عنهم، ثمَّ مننثر العرب، ثمَّ من أشعار المتقدِّمين، ثمَّ من أشعار المحدثين، وبدأ بشعر أبي تمَّام، فدفع عجلة الشَّواهِد المصيبة ثم الشَّواهِد الرَّديئة، وكما ذكر الأستاذ أمين الخولي أنَّ أبا هلال يُسرّف في الشَّواهِد دون طائل(٣)، ولم يتعرَّض لأي شاهد من شواهد الطَّائي بالتَّحليل أو النَّقد، أو الإشارة إلى سرّ الاستِعَارة الكامن في جوهرها، أو الإبانة عن الغرض منها إن كانت مصيبة، أو سبب استهجانها إن كانت رديئة أو هجينة،وسيعمل الباحث في هذا المطلب ما وسعه للإبانة عن غرض الاستِعَارة، إن كانت مصيبة من خلال كلام أبي هلال السَّابق عن الاستِعَارة حتّى تتكوَّن رؤيته، وباستلهام نظرته ورؤيته للشِّعر، فمن خلال تلك المكوِّنات ينطلق التَّحليل، فالأمر في غاية الصُّعوبة، وفي مثل هذا يقع التَّكلُّف والزلل، وعلى نتاج تحليل الشَّواهِد يقع النَّقد المتوَّقع من أبي هلال على وفق ما سطَّرته أنامله، وقد أشار أبو هلال أول باب الاستِعَارة إلى أسباب وأغراض حسن

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٤٠).
(٢) المصدر نفسه،(ص:٢٤٠).
(٣) يُنظر :"البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها"،(ص:٢٠) .

الاستِعَارة، فمن ذلك أنَّ لكل استِعَارة ومجاز من حقيقة؛ لأنَّها تدلّ وتساعد في مقصود دلالة الكلمة في اللُّغة، فقال: "ولا بدَّ لكل استِعَارة ومجاز من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللُّغة"(١)، ثم أشار إلى أنَّ سبب حسن الاستِعَارة الاشتراك الاشتراك بين المستعار والمستعار منه في المعنى المراد؛ فقال: "ولا بدَّ أيضًا من معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه"(٢)، فبهذه الإشارات القصيرة يورِد لها الشَّواهِد الغفيرة؛ لأنَّها وافقت محاسن الاستِعَارة الحسنة والمصيبة، فقال عنها: "وممَّا جاء(٣)في كلام المحدثين قول أبي تمَّام..."(٤).

- **الشَّاهِد الخامس والتّسعون (٥)، وقوله:**

ليالي نحن في غفلات(٦) عيشٍ كأنَّ الدَّهرَ عنها في وثاقِ

وأيَّام لَنا ولهم(٧)لدانٌ عرينا من حواشيها الرقاقِ(٨)

موضع الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد في قول أبي تمَّام: (حواشيها الرِّقاقِ)،فاستعار للأيام رِقَّة الحواشي، واستشهد به العسكري على الاستِعَارة الحسنة، وقد ذُكر هذا الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ(٩)، وفُصِّلت أركان الاستِعَارة وحُلِّل تحليلًا فنيًا، وهنا معنى معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه.

(١) "الصِّناعتين"،(ص:٢٤٢).
(٢) المصدر السَّابق،(ص:٢٤٢).
(٣) أي: ممَّا يدلّ على الاستعارة.
(٤) المصدر نفسه، (ص:٢٥٨).
(٥) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٢٥٨).
(٦) وفي رواية الديوان: "وسَنَاتِ، منها".
(٧) وفي رواية الديوان: "وأيامًا، وله، لدانًا".
(٨) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٢٦/٢)، القصيدة:

ذَرِني مِنْكِ سَافِحَةَ المآقِي ومِنْ سرّعانِ عَبْرتك المُرَاقِ

من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي عشر والثاني عشر، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب.

(٩) يُنظر: (ص:٢٢٧) من هذا البحث.

- **– الشَّاهِد السَّادس والتّسعون[1]، وقوله:**

وحُسْـــنُ مُنْقَلَـــبٍ تَبْـــدو عَوَاقِبُـــهُ جـاءتْ بشاشـتهُ مـنْ سـوءٍ منقلـبِ[2]

موضع الاستِعَارة (وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ...جاءتْ بشاشتهُ)، فمجيء حسن المنقلب بشوشًا هو المشبَّه، وحذف المشبَّه به وهو الانسان البشوش على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله: (جاءت بشاشته)، فالشَّاعر يريد أن يقول أنَّ مصائب الرُّوم تأتي بفرحةٍ للمسلمين، والغرض من هذه الاستِعَارة المبالغة وتأكيد المعنى، واشترك المعنى بين المستعار والمستعار منه.

- **الشَّاهِد السَّابع والتّسعون [3]، وقوله:**

رَخُصَـــتْ لهـــا المهجَـــاتُ وهْـــيَ غَـــوالي[4]

شبَّه الشَّاعر قلة أهمِّية المهجات؛ وهي النُّفوس بالرخص في الأسعار، فقد صرَّح بالمشبَّه به وهو (رخصت)، وحذف المشبه وهو حاربت العدوٍ، وهذه استِعَارة تصريحية تبعية، والنَّفس عند تقديمها للقتال يُرخِّصها أصحابها؛ لأنَّهم لو كانوا يُغلونها لما تقدَّموا للنِّزال في ساحة الحرب، أشار إليها بقليل من اللَّفظ مع حُسن معرض الإبراز فيه،

---

(١) يُنظر:"الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٢) "ديوان أبي تمَّام" ،(٥٨/١)، ومطلع القصيدة:

السَّـيْفُ أَصـدَقُ أَنْبَـاءً مِـنَ الكُتُـبِ فـي حـدِّهِ الحـدُّ بـينَ الجـدِّ واللَّعـبِ

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ويذكر حريق عمّوريّة وفتحها.

(٣) يُنظر:"الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام،(١٣٢/٣). وصدر البيت:

"غضـــب الخليفـــةُ للخلافـــةِ غضـــبةً"

ومطلع القصيدة:

آلـــتْ أُمُـــورُ الشـــرْكِ شَـــرَّ مـــآلِ وأَقَـــرَّ بَعْـــدَ تَخَمُّـــطٍ وصـــيَالِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله، ويذكر فتح الخُرّمية.

وكأنَّه مزاد للسِّلع الَّتي يُبَاع فيه ويُشترَى، فقد اشترك المعنى بين المستعار والمستعار منه، ولم يستعمل الغليظ من الكلام.

- **الشَّاهِد الثَّامن والتّسعون[1]، وقوله:**

وتَنَظَّـرِي خَبَـبَ الركـاب يَنُصُّـهَا مُحْيِـي القَـريضِ إلى مُميـتِ المـالِ [2]

موطن الاستعارتيْن في قوله: (مُحْيِي القَريضِ إلى مُميتِ المالِ)، فمحيي القريض هو الشَّاعر نفسه لتفوُّقه وعلوّ كعبه، ومميت المال الممدوح في عطائه وكثرة نواله، فشبَّه الشَّاعر إقامة القصائد وصياغتها على تمَّامها بمَن يحيي الشِّعْر ويبعثه من موته ويقصد في ذلك نفسه، وهذا يدلُّ على تفرُّده بالشِّعْر، وأن لا أحد يدانيه أو يقترب من منزلته، فهذه استِعَارة تصريحية، وقد تكون مكنية؛ فشبَّه القريض بالميت الَّذي يُبعث ليحيا من جديد، فحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (محيي)، فهذه الاستِعَارة الأولى، أمَّا الاستِعَارة الثَّانية في الشَّاهِد ففي قوله: (مُميتِ المالِ)، فقد شبَّه الشَّاعر معطي المال بسخاء وبذل بمَن يميته على سبيل الاستِعَارة التصريحية، وقد تكون استِعَارة مكنية؛ فشبَّه الَّذي يميت المال بالَّذي يميت رجلًا ويسفك دمه ويُخرجه من حياته المعتادة، وحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (مميت) فالموت لا يكون إلاَّ للإنسان.

وهاتان الاستعارتان تأتيان لتأكيد المعنى والمبالغة فيه غير سخيفة ولا غريبة، وأتت بإشارة إلى المعنى بالقليل من اللَّفظ، وحسن المعرض الَّذي برزت فيه، والتَّخييل يلعب دوره في احترافية الصُّورة الشِّعْرية الَّتي تتفرَّد به هذه العقود من الجواهر، فتخرج هذه الحِسان في أحلى صورة.

(١) يُنظر:"الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٧٧)، ومطلع القصيدة:

كُفـــي وعَـــاكِ ، فـــإنَّني لـــكِ قَـــالي ليســـتْ هـــوادي عَزْمَتـــي بِتَـــوَالي

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن رجاء.

- **الشَّاهِد التَّاسع والتّسعون[1]، وقوله:**

تُطِـلُّ الطُّلُـولُ الـدَّمْعَ في كُـل منـزل[2] وتمثُـلُ بالصـبرِ الـدِّيارُ المواثِـلُ

دوارسُ لمْ يجـفُ الربيـعُ ربوعَهـا ولا مَـرَّ في أغفَالِهـا وهْـوَ غَافِـلُ

فَقَـدْ سَـحبَتْ فيهـا السَّـحائِبُ ذَيلْهَـا وقَـدْ أُخمِلَـتْ بـالنَّوْر فيهـا الْخَمَائِـلُ

ليـاليَ أضـللتَ العـزاءَ وخزَّلـتْ[3] بعَقْلِـكَ آرَامُ الْخُـدُور العَقَائِـلُ[4]

هذه الأبيات فيها استعارات عِدَّة، ففي البيت الَّذي يلي الأول فيه استِعَارة تصريحية ومكنية، ففي قوله: (لمْ يجفُ الربيعُ) فقد شبَّه عدم مرور الرَّبيع وهجرانه لتلك الطُّلول بمَن يجفو ولم يُلازِمْهُ، فالرَّبيع هنا المطر، ولا شكَّ أن هذه استِعَارة تصريحية، وقد تكون مكنية فيها وفي قوله (ولا مرَّ)، فشبَّه الرَّبيع بالرَّجل الَّذي يمشي في وقت معيَّن، فحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (المرور) وهو المضي على سبيل الاستِعَارة المكنية، والاستِعَارة في البيت الَّذي يليه في قوله (سَحبَتْ فيها السَّحائِبُ ذَيلْهَا)، وهذه استِعَارة مكنية، فقد شبَّه السَّحاب بالمرأة تجرّ ذيلها وطرف ثوبها، فحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله:(سحبت ذيلها)، وموطن الاستِعَارة في البيت الأخير في قوله: (وخزَّلتْ-وجوَّلت-بعَقْلِكَ آرَامُ الْخُدُور)، فالآرام: هي الغزلان، وآرام الخدور: أي النِّساء على التَّشبيه بالغزلان، والمعنى أن النِّساء

(١) يُنظر:"الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٢) وفي الديوان عند التَّبْريزي: "مَوْقِفٍ".

(٣) وفي المصدر السَّابق:"وجوَّلَتْ".

(٤) المصدر السَّابق، (١١٣/٣-١١٥)،. ومطلع القصيدة:

متـى أنـتَ عـنْ ذُهليَّـةِ الحـيّ ذاهلُ وَقَلْبُـكَ مِنهـا مُـدَّةَ الـدَّهْرِ آهِـلُ !

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني والثالث والرابع والسابع، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن عبد الملك الزَّيات ويعاتبه.

المخدَّرات المحصنات وخطرت بعقله، وصار يفكر بهن، فالاستِعَارة في قوله: (آرام الخدور)، فقد شبَّه النِّساء بالغزلان وحذف المشبَّه وصرح بالمشبَّه به وهي (الآرام).

والغرض من هذه الاستعارات البديعات لم تستكره المعاني قهرًا، ولم تجرِ الألفاظ قصرًا، بل فيها شرحٌ لمعنى وتأكيدٌ له، والمبالغة في قوله (سحبت ذيلها، آرام الخدور) وكذلك الإشارة بالقليل من اللَّفظ كما في قوله: (ولا مرَّ)، وهذه كلها أوصاف لاستعارات مصيبة حسنة.

- **الشَّاهِد المئة[1]،وقوله:**

بِسَقيمِ الجُفُونِ غَيْرِ سَقِيمٍ ومُرِيبِ الألحاظِ غيرِ مُرِيبِ[2]

و(الباء) في هذا الشَّاهِد للمكافأة والجزاء، والبيت الَّذي قبله في قوله:

رُبَّمَا قَدْ أَراهُ رَيَّانَ مَكْسُوَّ الـ مَغَانِي مِنْ كل حُسْنٍ وطِيبِ

والمغاني مفردها مغنى وهو: المنزل، فكأنَّه يقول أقفرت الدَّار بما قد أراها وهي آنسة، وقوله: (بسقيم الجفون) يقصد صاحبته الَّتي يبكي عليها، ويقول إنَّه لقي فيه غانية أسقم السَّحر جفونها، دون أن تكون سقيمة، وأنه أثارته بها دون غاية أو ريبة، وهذه استِعَارة تصريحية، والغرض منها الإشارة إليه بالقليل من اللَّفظ، وفيه تأكيد للمعنى والمبالغة فيه.

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١١٨/١)، ومطلع القصيدة:

أَيُّ مَرْعَى عِيْنٍ ووَادِي نَسِيبِ لَحَبَتْهُ الأيَّامُ في ملحُوبِ ؟ !

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن، قالها أبو تمَّام يمدح سليمان بن وهب.

- **الشَّاهِد الواحد بعد المئة[1]، وقوله:**

أُصِـــبْنَا بِكَنْـــزِ الغِـــنَى والإِمَـــامُ أمســـى مُصَـــابًا بكنـــزِ الفنـــاء
ألا أيُّهـــــا المِـــــوْتُ فَجَّعْتَنـــــا بِمَـــاءِ الحَيَـــاةِ ومَـــاءِ الحَيَـــاءِ
غَليلـــي علـــي خالـــدٍ خالـــدٌ وضـيفُ همـومي طويـلُ الثـواءِ[2]

في البيت الأول شبَّه الموتى بكنز الغنى، فالنَّاس أصيبوا بمصدر حياتهم في الجود وهو خالد الشَّيباني هذا من جانب النَّاس، أمَّا الخليفة، فقد أصيب بكنز الفناء؛ أي كان وحده يغني عمَّن دونه، فالمصاب جمع الأطراف، فالدَّهر أصابهم بهذا الرَّجل الغالي القدر والقيمة، وهذه استِعَارة تصريحية، وهاتان الاستعارتان جميلتان، فيهما إشارة بقليل اللَّفظ لتأكيد المعاني والمبالغة فيه، وهذا الشَّاهِد مليء بالاستعارات.

أمّا البيت الَّذي يليه، فموطن الاستِعَارة في قوله:(بِمَاءِ الحَيَاةِ)، وهو يخاطب الموت بأنه قد فُجِع بموت ماء الحياة؛ أي الَّذي يعيش النَّاس من فضله، وأنَّ حياتهم تقوم بكرمه وعطائه، ثم قال (ماء الحياء)، استعار بأنَّه يعطي النَّاس بلا سؤال ليحفظ ماء وجوههم، ففي هذا البيت استعارتان تصريحيتان كالَّذي سبقه، فصرَّح بذكر المشبَّه به وحذف المشبَّه.

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٦٥).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٩/٤، ٢٠، ٢٥)، وفيه:"بكنزِ الغَنَاءِ"، ومطلع القصيدة:

نعـــاءِ إلـــى كـــلِّ حـــيٍّ نعـــاءِ فَتَـــى العَـــرَبِ احتَـــلَّ رَبْـــعَ الفَنَـــاءِ!

وهي من البحر المتقارب، والشَّاهِد البلاغي السادس والتسعون هو في الثلاثة أبيات، قالها أبو تمَّام يرثي خالد بن يزيد الشيباني، وترتيب الأبيات حسب الديوان تكون هكذا:

ألا أيُّهـــا المَـــوْتُ فَجَّعْتَنـــا بِمَـــاءِ الحَيَـــاةِ ومَـــاءِ الحَيَـــاءِ
أُصـــبْنَا بِكَنْـــزِ الغِنَـــى والإِمَـــامُ أمســـى مُصـــابًا بكنـــزِ الغَنَـــاءِ
غَليلـــي علـــي خالـــدٍ خالـــدٌ وضـيفُ همـومي طويـلُ الثـواءِ[2]

والغرض الكامن من هذيْن البيتيْن شرح المعنى وفضل الإبانة عنه؛ لأنّ الَّذي يذكر صنائع الموتى يطول نحيبه، ويعظم بكاؤه، وموضع الاستِعَارة في البيت الأخير في قوله: (وضيفُ همومي)، استعار مكث وإقامة الهموم بالقلب بالضيف الَّذي يستريح بالمكان ولا يغادره إلاَّ بعد فترة من الزَّمن، وهذه استِعَارة تصريحية، فقد حذف المشبَّه (المكث والإقامة وطول البقاء)، وصرَّح بالمشبَّه به وهو (الضَّيف)، والغرض من هذه الاستِعَارة الخيالية العجيبة الإشارة إلى المعنى بالقليل من اللَّفظ.

- **الشَّاهِد الثَّاني بعد المئة[1]، وقوله:**

ثَوَى في الثَّرَى مَنْ كانَ يَحيا به الثَّرَى ويغمرُ صرفَ الدَّهر نائلُهُ الغمرُ[2]

موطن الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد في قوله: (يَحيا به الثَّرَى)، وقصده يحيا به النَّاس ويعيشون على أُعطياته، وذلك على الأصل، فالإنسان أصله من الثَّرى، وهذه استِعَارة مكنية، شبَّه (الثَّرى) بالممدوح، أو الانسان الذي من صفاته الحياة، ثم حذفه ورمز له بشيء من لوازمه وهو (يحيا)، فالنَّاس هم الَّذين يحيون ويموتون لا الثّرى.

وهذه استِعَارة في غاية اللَّطافة والجمال والقرب بين المشبَّه والمشبَّه به، ممَّا يجعل الاستِعَارة ترتفع وتصل إلى قاعِدَّة عمود الشِّعْر الَّتي ينتهجها الطَّائي لا حسب ما يقوله المعارضون لشعره، وأنَّه يُخالف العمود ويذهب مذهب الصَّنْعَة في شعره كلِّه، فأين هذا الشَّاهِد وأين ما يقولون؟ فهذه الاستِعَارة تأكيد للمعنى والمبالغة فيه.

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين،(ص:٢٦٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٤/٤)، ومطلع القصيدة:

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ فليسَ لعين لم يفضْ ماؤها عذرُ

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع والعشرون، قالها يرثي محمد بن حُميد الطَّائي

- **الشَّاهِد الثَّالث بعد المئة[1]، وقوله:**

سَـــعِدَتْ غَرْبَـــةُ النَّـــوى بِسُـــعَادِ [2]

بَّين الشَّاعر أن غربة النَّوى وهي نية الفراق، وما يتَّجه إليه المسافر قد سعدت واستبشرت وفرحت بنزوح سعاد وترحُّلِها بين تهامة ونجد، فالاستِعَارة هنا مكنية؛ فقد حذف المشبَّه به وهو الانسان السعيد المستبشِر بالأمر المفرح، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله:(سعُدت)، فالفراق ونيته لا يُسعد بهما على الحقيقة إلاَّ في العودة من السفر والغياب الطويل، لكن إسقاط هذه الصفة عليها استِعَارة مصيبة حسنة؛ لتأكيد المعنى والمبالغة فيه.

- **الشَّاهِد الرَّابع بعد المئة[3]، وقوله:**

إذا سيفهُ أضحى على الهامِ حاكمًا غَدا العَفْوُ مِنْهُ وَهْوَ في السيفِ حاكمُ[4]

شبَّه السَّيف بالحاكم وشبَّه عفوه بالحاكم أيضًا وحذف الأداة، ووجه الشبَّه التَّمكن من الشّيء أي تمكن، وهنا استعارة مكنية في قوله (غدا العفو) فشبه العفو بالانسان وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (غدا).

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٥٦/١)، وعجز البيت:

..... فهـيَ طـوعُ الإتهـامِ والإنجـادِ

والشَّاهِد البلاغي هو مطلع القصيدة، وهي من البحر الخفيف، قالها أبو يمدح أبا عبدالله أحمد بن أبي دؤاد.

سَـــعِدَتْ غَرْبَـــةُ النَّـــوى بِسُـــعَادِ فهـــيَ طـــوعُ الإتهـــامِ والإنجـــادِ

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨١/٣)، ومطلع القصيدة:

ألـــمْ يـــأن أنْ تـــروى الظمـــاءُ وأن يـــنظمَ الشـــملَ المشـــتَّتَ نـــاظمُ ؟

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والعشرون، قالها يمدح أحمد بن أبي دؤاد.

- **الشَّاهِد الخامس بعد المئة[١]، وقوله:**

لَـــئِنْ أصـــبحتِ مَيْـــدَانَ السَّـــوافِي لقَـــدْ أصـــبَحتِ مَيْـــدَانَ الهُمُـــومِ
أظُـــنُّ الـــدَّمْعَ في خَـــدي سَـــيَبْقَى رســـومًا مـــن بكـــائي في الرســـومِ
وليـــلِ بـــتُّ أكلـــؤه كـــأني سَـــليمٌ أوْ سَـــهِدت[٢] علـــى سَـــليمِ
أُراعـــي مـــن كَواكبـــهِ هِجانًـــا ســـوامًا لا تزيـــغ[٣] إلى المِسَـــيمِ
يَكـــادُ نَـــدَاهُ يترُكُـــهُ عَـــديمًا إذا هَطَلَـــتْ يَـــداه علـــى عَـــدِيمِ
ســـفيهُ الـــرمح جاهلُـــهُ إذا مـــا بـــدا فَضْـــلُ السَّـــفيهِ علـــى الحَلـــيمِ[٤]

في قوله (وليل بت أكلؤه) استعارة مكنية ، وفي قوله (هطلت يداه) استعارة مكنية كذلك شبه يدي الممدوح بالك\مطر وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (هطلت)، فالأبيات تمهِّد لإصابة الغرض وتأكيد المعنى.

- **الشَّاهِد السَّادس بعد المئة[٥]، وقوله:**

عهـدي بهـم تسـتنيرُ الأرض إن نزلـوا فيهـا وتجتمـع الـدنيا إذا اجتمعـوا
ويضـحك الـدَّهر مـنهم عـن غطارفـة كـأن أيـامهم مـن أُنسـها جُمـع[٦]

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٦٦).
(٢) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي: "سَهِرْتُ".
(٣) وفي رواية: "ما ترَيعُ".
(٤) "ديوان أبي تمَّام، (١٦٠/٣، ١٦١)، الأبيات غير مرتبة. والقصيدة من الوافر ومطلعها:
أرامـةُ كنـتِ مـألفَ كـلِّ ريـمِ لـو اسـتمتعتِ بـالأنسِ القـديمِ
الشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح أحمد بن أبي دؤاد.
(٥) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٦).
(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(٩٠/٤)، والقصيدة من البحر الوافر ومطلعها:
أرامـــةُ كنـــتِ مـــألفَ كـــلِّ ريـــمِ لـــو اســـتمتعتِ بـــالأنسِ القـــديمِ
الشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، والحادي عشر، قالها أبو تمَّام يمدح بني عبد الكريم الطَّائيين.

موضع الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد في قوله: (ويضحك الدَّهر)، ومعنى الشَّاهِد أنَّ أيام الدَّهر تغتبط بهم لمآثرهم وأيامهم، حتّى كأنَّها أيام أعياد الأسبوع وهي الجُمع، وهذه استِعَارة مكنية، شبَّه الدَّهر بالرَّجل الباسم الضَّاحك، وحذف المشبَّه ورمز له بشيء من لوازمه، وهي قوله: (ويضحك)، ولا يضحك الدَّهر ألبته، بل هي صفة من صفات الانسان، وهذه الاستِعَارة اتَّخذت معرض الحسن، وبرزت فيها الاستِعَارة الحسنة، والمبالغة المحمودة للمعنى، واستشهد به القاضي على الاستِعَارة الحسنة[1].

- **الشَّاهِد السَّابع بعد المئة[2]، وقوله:**

وضَلَّ بِكَ المُرْتادُ مِنْ حيثُ يَهْتدي وضَرَّتْ بك الأيَّامُ مِنْ حيثُ تَنْفَعُ[3]

الاستِعَارة في قوله:(وضَرَّتْ بك الأيَّامُ)، ومعنى ذلك أنّ مَن أراد أنْ يهتدي بطريقك وسبيلك الواسع، فسيضل الطَّريق، وشبَّه (الأيام) بالَّذي يُعطي ويمنع على سبيل الاستِعَارة المكنية، وحذف المشبَّه به ورمز له بشيء من لوازمه في قوله: (وضرَّت، تنفع) فالَّذي يضرّ وينفع من العباد فيما يقدر مَن كانت له سلطة عليهم؛ كالسُّلطان وصاحب الشُرط والقاضي، وقد تكون استِعَارة تصريحية فقد شبَّه (الضّيق) بالضرر الَّذي يحدث من الأيَّام؛ والجمادات قد تضيق على الانسان كما قال سبحانه وتعالى: {وَعَلَى الثَّلاثة الَّذين خُلِّفُواْ حتّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ...}الآية [التوبة:١١٨]،، فالآية مثل في شدة الحيرة، وضيق الأرض كناية عن ضيق المحل، وضيق النفس كناية عن ضيق الحال، فالأرض والدُّنيا والحياة والأيَّام قد تضيق بالإنسان، فإذا ضاقت ضرَّت به، وقد يكون الخير فيما يُقدِّره الله للإنسان،

---

(١) يُنظر: (ص:٢٤٤) من هذا البحث.

(٢) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٦).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام،(٩٣/٤). والقصيدة من البحر الطويل ومطلعها:

دُموعٌ أجابَت دَاعي الحُزن هُمَّعُ توصلُ منَّا عَنْ قلوبٍ تقطَّعُ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن، قالها أبو تمَّام يرثي إدريس بن بدر الشامي القرشي.

فيحصل له النَّفع والخير، وهذه استِعَارة أبي تمَّام أشار إليها بلفظ قليل لمعنى كبير؛ فخرج المعنى وبرز في أحسن معرض، وهي استِعَارة حسنة مصيبة عند العسكري.

- **الشَّاهِد الثَّامن بعد المئة[١]، وقوله:**

تَـرِدُ الظُّنُـونُ بـهِ علـى تَصْـدِيقها ويحكـــمُ الآمـــالَ في الأمـــوالِ[٢]

الاستِعَارة هنا في قوله: (تَرِدُ الظُّنُونُ) فشبَّه وقوع وتحقَّق الظُّنون بالورود على الشَّيء، ولذلك يُقال وردتُ الماءَ أردُ وورودًا، إذا حضرته لتشرب[٣]، فحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية التبعية، ومعنى الشَّاهِد أنَّ مَن ظنّ به الخير، يصرف ظنَّه فيما أمَّله عنده، وهنا إشارة إلى المعنى بالقليل من اللَّفظ.

- **الشَّاهِد التَّاسع بعد المئة[٤]، وقوله:**

إذا أَحســنَ الأقــوامُ أنْ يتطــاولُوا بــلا مِنَّــةٍ[٥] أحْسـنتَ أن تتطـوَّلا
تعظمــتَ عــن ذاكَ الـتعظُّمِ مـنهمُ وأوْصَـاكَ نُبْـلُ القَـدْر أن تَتَنـبَّلا[٦]

هـذا الشَّـاهِد فيـه حِكَـمٌ عظيمـة، تفـرَّد بهـا أبـو تمَّـام عـن غـيره مـن الشُّـعْراء، فالفلسفة الشِّعْرية تصنع مثل هذه الأبيات، والاستِعَارة الحاصلة في هذا الشَّاهِد واقعة في البيت الثَّاني عند قوله: (وأوْصَاكَ نُبْلُ القَدْر)، فشبَّه الشَّاعر غنى الممدوح بهذا النُّبل

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٦).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٧٧)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

كُفـي وعَـاكِ ، فـإنَّني لـكِ قَـالي ليســتْ هــوادي عزمتــي بتــوالي

الشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن رجاء.

(٣) "لسان العرب"، (١٥/١٩١)، مادة: (ورد).

(٤) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٧).

(٥) وفي الديوان: "بلا نِعمَةٍ".

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/١٠٠)،وفي الديوان: "ألاَّ تَنَبَّلا"،والقصيدة من البحر الطويل ومطلعها:

لهانَ علينا أن نقولَ وتفعلا ونَذكُرَ بعضَ الفَضْلِ عنكَ وتُفْضِلا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والناسع، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات ويعاتبه.

القدير الرَّفيع بقوله: (وأوْصَاكَ)، فحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، فالمعنى في الشَّاهِد كله أنَّ من تطاول وتعظَّم وتكبَّر بلا نعمة لديه ينعمها على النَّاس، أحسن الممدوح في إنعام النَّاس والإكثار من أُعطياتهم، وكل هذا يرجع إلى أنَّ قدرك قد أجلَّك ونصحك قدرك النَّبيل أن تتكلَّف النَّبل وتتشبَّه بالنُّبلاء؛ لأنَّ الشِّيم فيك بالطبع لا تكلف فيها، فهذه الاستِعَارة على ما فيها من أصباغ ألوان البديع على شكلها الخارجي، كما قوله: (يتطاولوا، وتتطوَّلا) و(تعظمتَ، التعظُّمِ)، فقد بلغت حسنًا لا مثيل له، وشرحت المعنى المقصود، وأكدّت ما لدى الممدوح من هذا النُّبل الَّذي يلبسه ويبالغ فيه، فأصابه الغرض المقصود.

- **الشَّاهِد العاشر بعد المئة[1]، وقوله:**

فاطْلُبْ هُدوءًا بالتَّقَلْقُلِ واسْتِثِرْ بالعيسِ مِنْ تَحْت السُّهَاد هُجُودَا[2]

شبَّه (الصبر والتنقُّل) على التقلقل؛ وهو التعب؛ ليصل إلى الهدوء والراحة بطلب ذلك، وحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستِعَارة التصريحية، فاستعار للصبر (الطلب والهدوء) الَّذي لا يأتي بالراحة والدعة، وإنما بالمكابدة والسهر وطلب المجد في صبر وحزم حتّى ينال الهدوء، فمعنى الشَّاهِد فسرّه الصولي بقوله: "تنقل في البلاد لتنال الغنى واسهر لتنام"[3]، وعلى تأويل الغرض الَّذي ذكره العسكري في هذا الشَّاهِد أن اشاعر أشار إلى المعنى المطلوب بالقليل من اللَّفظ، وهذه من الاستِعَارة الحسنة.

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٧).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٤١٠/١)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

طَلَلَ الجَميعِ ، لَقَدْ عَفَوْتَ حَميدَا وكفى على رزئي بذاكَ شهيدا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر، قالها أبو تمَّام يمدح خالد بن يزيد بن مزبد الشيباني.

(٣) المصدر السَّابق ،(٤١٠/١).

- **الشَّاهِد الحادي عشر بعد المئة[١]، وقوله:**

أيامنـــــا مصـــــقولةٌ اطرافُهـــــا بـــك والليـــالي كلُّهـــا أســـحار[٢]

شبَّه الشَّاعر الأيَّام بالمرأة على سبيل الاستِعَارة المكنية ورمز لها بشيء من لوازمه في قولـه: (مصـقولة الأطراف)،وذكـره الآمِـدِيّ في فصـل الاسـتِعَارة[٣]، وأظـنّ أنَّ العسكري نقل عنهم، وهذا الشَّاهِد من أغزر الشَّواهِد في قضاياه ومسائله البيانية، واعتنى به البلاغيون أشدَّ الاعتناء،وسيأتي عند الخفاجي وعبد القَاهِر في المبحثين السَّادس والسَّابع.

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٦٧).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(١٨١/٢)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

لا أنـــتِ أنـــتِ ولا الـــديارُ ديـــارُ خـــفَّ الهـــوى وتولـــتِ الأوطـــارُ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد.

(٣) يُنظر:(ص:٢٢٥) من هذا البحث.

المطلب الثَّاني:"شواهد الاسْتِعَارة الرَّدِيئَة"

يشهد هذا المطلب قسمًا لا يقلّ أهمية عن القِسم الَّذي سبقه، فقد نقل أبو هلال أغلب شواهد هذا القسم عن غيره من علماء البلاغة والنَّقد مع آراء أصحابها دون الإشارة من قريب أو بعيد لآرائهم، ووضَّح أنَّ جميع استعارات أبي تمَّام من باب الاستِعَارة البعيدة فحكم عليها بالرَّداءة، فلابد أن تُحاكم الشَّواهِد بالتَّحليل الصَّواب، ويُتوخَّى فيها النَّظرة الصَّحيحة بلا إفراط أو تفريط، معأنَّ هذا المبحث الَّذي حكاه العسكري بأنَّه من رديء استِعَارة الطائي لم يتطرَّق إلى تحليل الشَّواهِد أو المراد منها، أو إبراز الحالة النَّقدية الخارجة عن نظام الشِّعْر وما الَّذي أخطأ فيه الطَّائي، بل اكتفى بقوله:"ومن رديء الاستِعَارة...، ومن بعيد الاستِعَارة...، ومن عجيب هذا الباب...، وقول أبي تمَّام..."[1].

ثمَّ نعت استعارات الطَّائي بعد الانتهاء من الشَّواهِد بشكل عام فقال:"وقد أكثر أبو تمَّام من هذا الجنس اغترارًا بما سبق منه في كلام القدَّماء ممَّا تقدَّم ذكره، فأسرّف، فنعى عليه ذلك، وعِيب به، وتلك عاقبة الإسرّاف"[2]، وسيأتي الحديث عن هذه المقولة الشَّهيرة عند الشُّروع في تحليل الشَّواهِد، فإذا تبيَّن ذلك فقد سرّد العسكري الشَّواهِد دون توقُّف يردف بعضها بعضًا إلى أنْانتهى من باب الاستِعَارة، عندها قال: "وقد جنى أبو تمَّام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه، واختياراتُ النَّاس مختلفة بحسب اختلاف صورَهم وألوأنَّهم"[3].

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٦٩-٢٧١).
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٢٧٢).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٢٧٥).

والَّذي يجعل الباحث يَظن أن هذه الشَّواهِد منقولة من السابقين، إرداف الشَّواهِد بعضها ببعض مرتبة كفعل الآمِدِيّ، والقاضي، حيث أرفقوا في كتبهم أبيات أبي تمَّام الدَّهرية مرتبَّة، وكذلك صنع العسكري، وهذا أمر آخر يجزم بالنَّقل عنهم، غير أنَّ هذه الشَّواهِد الَّتي تمثِّل رديء الاستِعَارة،-والمنقولة- لها شواهد لم يسبق لأحدٍ أن استشهد بها في باب الاستِعَارة الرَّديئة، وهذا المراد تحقيقه والتَّفْتِيش في لفظه ومعناه، وسبر محتوى الشَّاهِد دلالةً ومدلولاً، فهو غاية منتهى طلب الباحث؛ حيث الاختيار دون الاجتلاب.

وستتحقَّق نظرة أبي هلال من خلال المقاربة بين أركان الاستِعَارة في الشَّاهِد وتعريفه للشِّعر الَّذي ذكره في كتابه، فإن خرجت الاستِعَارة عن تلك الأوصاف الحسنة للشَّعر وللاستعارة الحسنة تقرَّرت الرَّداءة، وإن وافقتها وصفًا وحكمًا ثبت الحسن، فملاحظة ذلك تقرِّرعدم تَكرَار ما سبق ذكره من تحليل للشَّواهدعند الآمِدِيّ، والقاضيإلاَّ بحسب ما يتطلَّبه الشَّاهِد، فالعنصر الوحيد يدور حول مكونات آراء العسكري في سياقات حسن الشِّعْر ورداءته، وإذ تقرَّر ذلك، فشواهد الاستِعَارة الرَّديئة على النَّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد الثَّاني عشر بعد المئة[1]، وقوله:**

حـتّى اتَّقَتْـهُ بكيمِيَـاءِ السُّـؤْدُدِ[2]

الاستِعَارة في قوله: (كيمِيَاءِ السُّؤْدُدِ)، فالسؤدد ليس له كيماء، ولكن أراد عظيم السُّؤدد، فحذف المستعار له، وصرَّح بالمستعار على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، وهي استِعَارة بعيدة جدًا، وفيها من التَّعقيد وإنعام النَّظر فيما لا يُجدي عليه بكبير معنى، فالممدوح ذلَّل العلى وطلبها وصبر في ذلك الشَّأن ليصل إليها، وجعل الوقاية

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٧٢).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢/٥٠)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

كُشِـفَ الغِطَـاءُ فأَوْقِـدِي أَوْ أَخْمِـدِي لـم تكمـدي فظننـتِ ان لـم يَكْمَـدِ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح المأمون،

والاختبار منها له ببذل أعلى ما يملكه الجواد؛ كعطائه الكيمياء، وهو الجوهر الخالص حتّى ساد على النَّاس، عند ذلك قال العسكري: "فلا ترى شيئًا أبعد من إكسير الخلق، وكيمياء السُّؤدد"(١).

- **الشَّاهِد الثَّالث عشر بعد المئة(٢)، وقوله:**

يا دهر قوَّم من أخد عيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرُقك(٣)

سبق تحليل هذا الشَّاهِد عند الآمِدِيّ، وأستشهد به على الاستِعَارة الرَّديئة(٤)، الرَّديئة(٤)، واستشهد القاضي الجرجاني على ذلك(٥)، ونقل أبو هلال كلامًا لابن المعتز وتصرَّف فيه ولم ينسب، فقال في ذلك: "وقد أكثر أبو تمَّام من هذا الجنس؛اغترارًا بما سبق منه في كلام القدَّماء ممَّا تقدَّم ذكره، فأسرّف، فنعى عليه ذلك، وعِيب به، وتلك عاقبة الإسرّاف"(٦)، وقد قال ابن المعتز في مقدَّمة "البديع" قولًا شافيًا عن اغترار المحدثين بالبديع واستكثارهم منه وخاصَّة أبي تمَّام، فقال:"ثم إنَّ حبيب بن أوس الطَّائي من بعدهم شُعفَ به حتّى غلب عليه وتفرَّغ فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسرّاف"(٧)، وذكر ذلك

---

(١) "الصناعتين"، (ص:٢٧٢).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٧٢).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(٤٠٥/٢)، والقصيدة من البحر المنسرّح ومطلعها:

كانَتْ صرُوفُ الزَّمانِ مِنْ فَرَقِكْ واكتَنَّ أهْلُ الإعْدَامِ في وَرَقِكْ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانه، ويهنّيه بالعافية.

(٤) يُنظر:(ص:١٨٧) من هذا البحث.

(٥) يُنظر:(ص:٢٤٨) من هذا البحث.

(٦) "البديع"، (ص:١٦).

(٧) المصدر السَّابق،(ص:١٦).

الآمِدِيّ[١]، فالعبارة هي هي، وجملة أبي هلال فيها تقديم وتأخير، وهذا يُعضِّد من أنَّ أنَّ أبا هلال نقل عن العُلماء دون أن ينسب الأقوال.

- **الشَّاهِد الرَّابع عشر بعد المئة[٢]، وقوله:**

كَـــانُوا رِداءَ[٣]زَمـــانهم فتَصَـــدَّعُوا فكأنَّمـــا لـــبِسَ الزَّمـــانُ الصُّـــوفا[٤]

فقـولُ أبي تمَّـام: (لـبِسَ الزَّمـانُ الصُّـوفا) هـو موضـع الاسـتِعَارة، فالمسـتعار لـه الزمان، والمستعار الانسان الحزين، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية ورمز له بشيء من لوازمه وهي قوله: (لبس الصُّوفا) فالزمان لا يلبس الصُّوف، وهي استِعَارة لحالة الترحُّل والوحشة الَّتي أعقبت ذلك الترف، ويصف الشَّاعر في البيت الَّذي قبل الشَّاهِد حال النساء وكيف كان الزمان في عهدهم ناعمًا، فلما تشتَّتوا، لبس الزمان الصُّوف حزنًا على فراقهم، ولقد مقت أبو هلال هذه الاستِعَارة وجعلها من الاستعارات الرَّديئة.

- **الشَّاهِد الخامس عشر بعد المئة[٥]، وقوله:**

نَزَحْـــتُ بـــه رَكِـــيَّ العَـــينِ إنِّي[٦] رأيـتُ الـدَّمع مـن خـير العتَـادِ[٧]

---

(١) يُنظر: "الموازنة"،(١٨/١).

(٢) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٢).

(٣) وفي رواية: "كانُوْا بُرُودَا".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(٣٨٠/٢)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها

أطلالهـــمْ ســـلبتْ دماهـــا الهيفـــا واســـتبدلتْ وحشًـــا بهـــنَّ عكوفـــا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس عشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، ويُعرِّض بإنسان ولى الثُّغور مكانه، وكان ناسكًا.

(٥) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٢).

(٦) وفي رواية عند التَّبْريزي: "لمَّا رأيتُ".

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٦٩/١)، والقصيدة من البحر الوافر ومطلعها:

سـقى عهـدَ الحمـى سـبلٌ العهـادِ وروَّضَ حاضـــرٌ منـــهُ وبَـــادِ

الشَّاهِد البلاغي هوالبيت الثاني، قالها يمدح أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، ويعتذر إليه.

شبَّه موضع تجمُّع الدَّمع في العين كالآبار، وحذف المشبَّه على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، وقد وصف الشَّاعر حاله أمام الدِّيار والأطلال، ودعاءه لها بالمطر المستمر، فشبَّه الدمع المغمور في العين بالرَّكي؛ والرَّكي: الآبار جمع ركية وهي الَّتي يُستخرج منها الماء الكثير بالنَّزح، وهو أخذ الماء كله، وجعل العين آبارًا يجتمع فيها الدَّمع، وهو ينزح هذه الدُّموع، ويخرجها بتدفَّق كالنّزح الشَّديد من الآبار.

- **الشَّاهِد السَّادس عشر بعد المئة [١]، وقوله:**

ولِـينَ أخـادع الـدَّهرِ الأبيِّ[٢]

- **الشَّاهِد السَّابع عشر بعد المئة[٣]، وقوله:**

فَضَـــرَبْتَ الشِّـــتَاءِ في أخدَعَيْـــهِ ضـــرْبَةً غَادَرَتْـــهُ عَـــوْدًا رَكُوبَـــا[٤]

- **الشَّاهِد الثَّامن عشر بعد المئة[٥]، وقوله:**

تـــروحُ علينـــا كـــلَّ يـــومٍ وليلـــةٍ خُطُـوبٌ كـأن الـدَّهر مـنهنَّ يُصْـرِعُ[٦]

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٣٥٤)، وصدر البيت:

سأشـكُرُ فُرْجَـةَ اللّبَـبِ الرَّخِـيِّ .....

ومطلع القصيدة:

أَيَـا وَيْـلَ الشَّـجي مِـنَ الْخَلـيِّ وبـالي الرَّبـع مـن إحـدَى بَلـيّ

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب.

(٣) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٣).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/١٦٦)، ومطلع القصيدة:

مـنْ سَـجايا الطُّلُـول ألاَّ تُجيبـا فصـوابٌ مـن مُقْلَـة أَنْ تَصـوبَا

من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والثلاثون، قالها يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري.

(٥) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٣).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(٢/٣٢٤)، ومطلع القصيدة:

أمـا إنـه لـولا الخلـيطُ المـودعُ وربـعٌ عفـا منـه مصـيفٌ ومربـعُ

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السابع عشر، قالها يمدح أبا سعيد الثَّغري.

- **الشَّاهِد التَّاسع عشر بعد المئة[١]، وقوله:**

ألا لا يُمــدُّ الــدَّهرُ كفَّــاً بســيْءٍ إلى مجتـدى نَصْـرٍ فتقطـع للزّنْـد[٢]

- **الشَّاهِد العشرون بعد المئة[٣]، وقوله:**

والــدَّهر ألأَمُ مــنْ شــرِقْتَ بلؤمِــه إلَّا إذا أشــــــرقْته بكــــــريم[٤]

- **الشَّاهِد الحادي والعشرون بعد المئة[٥]، وقوله:**

تحملـتُ مـا لـو حُمِّـل الـدَّهر شـطرَهُ لفكَّــر دهْــرًا أيُّ عِبْأيْــه أثقــلُ[٦]

بـيَّن الـدَّارس أركـان الاسـتِعَارة، وحلَّـل هـذه الشَّـواهِد في مبحـث الآمِـدِيّ السَّـابق[٧]، واستشـهد العسـكري بهـذه الشَّـواهِد على الاسـتِعَارة الرديئـة تابعًـا في ذلـك الآمِدِيّ، فلم يزِد على الاستشهاد بكلمة واحدة، وكأني أتصفَّح "الموازنة"، فقد جاء بها مرتَّبة على وفق ترتيب الآمِدِيّ.

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٦٤/٢)، ومطلع القصيدة:

أأطْـلاَلَ هِنْـدٍ سـاءَ مـا اعْتَضْـتِ أقايضــتِ حــورَ العــين بــالعُون

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر، قالها يمدح أبا العباس نصر بن منصور بن بسام.

(٣) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٣).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٦٧/٣)، ومطلع القصيدة:

يــا ربْــعُ لَــوْ رَبَعُــوا علــى ابــنِ مُسْتَسْــلِمٍ لجَــوَى الفِــرَاقِ سَــقِيمِ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح إسحاق بن إبراهيم.

(٥) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٣).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٧٤/٣)، ومطلع القصيدة:

تحمَّـلَ عنـه الصـبرُ يـومَ تحمَّلـوا وعادَتْ صبَاهُ فى الصبّا وَهْىَ شَمْأَلُ

من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا المُستهل محمد بن شقيق الطَّائي.

(٧) يُنظر:(ص:١٨٧-١٩٣) من هذا البحث.

- **الشَّاهِد الثَّاني والعشرون بعد المئة[1]، وقوله:**

تحــلُّ بِقــاَعَ المجــد حــتّى كأنَّهــا علــى كــل رأس مــن يــد المجــد مِغفَــرُ
لهــا بــين أبــواب الملــوك مزامــر مــن الــذكر لم تــنفخ ولا هــي تَزْمُــر[2]

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[3]، وكذلك القاضي[4]، واستشهد العسكري بهذه الشَّواهِد على الاستِعَارة الرَّديئة، فشبَّه قصائده بالزَّمار، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله:(لم تنفخ ولا هي تزمر)، وتبع العسكري الآمِدِيّ والقاضي في الحكم على استِعَارة الشَّاهد بأنَّها رديئة.

- **الشَّاهِد الثَّالث والعشرون بعد المئة[5]، وقوله:**

إلى ملــكٍ في أيكــةِ المجــدِ لم يَــزَلْ علــى كبــد المعــروف مــن نيلــه[6] بَــرْدُ[7]

- **الشَّاهِد الرَّابع والعشرون بعد المئة[8]،وقوله:**

بــهِ أَسْــلَمَ المعْــروفُ بالشّــامِ بَعْــدَمَا ثــوى مُنْــذُ أودى خالــدٌ وهــو مُرْتَــدُّ[9]

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين،(ص:٢٧٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(٢١٦/٢)، ومطلع القصيدة:

شَــجًا فــي الحَشَــى تَــرْدَادُهُ لَــيْسَ بــهِ صــمنَ آمــالي وإنِّــي لمُفْطِــرُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في جعفر الخيَّاط.

(٣) يُنظر: (ص:١٩٤) من هذا البحث.

(٤) يُنظر: (ص:٢٤٦) من هذا البحث.

(٥) "الصِّناعتين،(ص:٢٧٤).

(٦) وفي رواية: "لدى ملكٍ"،"من فعله بَرْد".

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٧/٢).

(٨) يُنظر: "الصِّناعتين،(ص:٢٧٣).

(٩) "ديوان"، أبي تمَّام، (٩١/٢)، ومطلع القصيدة:

تجرعْ أسـىً قدْ أقفرَ الجَرَعُ الفردُ ودعْ حِسيَ عينٍ يجتلبْ ماءَها الوَجدُ

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي الثامن عشر بعد المئة هو البيت الحادي والعشرون، والشَّاهِد البلاغي التاسع عشر بعد المئة هو البيت الثلاثون، قالها

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِدين في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[١]، وكذلك عند القاضي[٢]، واستشهد العسكري بهذيْن الشَّاهِديْن على الاستِعَارة الرَّديئة.

- **الشَّاهِد الخامس والعشرون بعد المئة [٣]، وقوله:**

كـــأنَ المجـــدُ قـــد خَرِفَـــا[٤]

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ[٥]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرَّديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

- **الشَّاهِد السَّادس والعشرون بعد المئة [٦]، وقوله:**

في غفلـة أوقـدت علـى كبـد النـا ئـل نـارًا أخْنَـتْ علـى كبـده[٧]

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[٨]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرَّديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانه.

(١) يُنظر:(ص:١٩٤-١٩٦) من هذا البحث.

(٢) يُنظر: (ص:٢٤٨٩) من هذا البحث.

(٣) يُنظر: "الصِّناعتين،(ص:٢٧٤).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٧٥/٢).وصدر البيت وجزء من عجزه:

لَـوْ لَـمْ تَفُـتَّ مُسـنَّ المَجْـد مُـذْ بـالجُود والبـأْس كـأن المجـد قـد خَرفَـا

ومطلع القصيدة:

أمَّـا الرُّسُـومُ فقـد أذكَـرْنَ مـا سَـلَفَا فَـلا تَكُفَّـنَّ عَـنْ شَـأْنَيْكَ أَوْ بَكفَـا

من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والخمسون، قالها يمدح أبا دُلفَ القاسم العجْليّ.

(٥) يُنظر: (ص:٢٠٠) من هذا البحث.

(٦) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٤١/١)، ومطلع القصيدة:

مـا لِكَثِيـبِ الِحِمَـى إلـى عَقِـدِهْ مـا بَـالُ جَرْعائِـهِ إلـى جَـرَدِهْ !

وهي من البحر المنسرّح، والشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس والخمسون والسابع والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح خالد بن يزيد بن مزْيد الشيباني.

(٨) ينظر: (ص:٢٠٠) من هذا البحث.

- **الشَّاهِد السَّابع والعشرون بعد المئة [1]، وقوله:**

حـتّى إذا اسـودَّ الزَّمـان توضـحوا فيـه فَغُـدرَ وهـو مـنهم أبْلَـقُ[2]

بيَّن الـدَّارس أركـان الاستِعَارة، وحلَّـل الشَّـاهِد في مبحـث الآمِـدِيّ السَّـابق[3]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرَّديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

- **الشَّاهِد الثَّامن والعشرون بعد المئة[4]، وقوله:**

وكـم مَلَكـتْ مِنَّـا[5] على قُـبْحِ قـدِّها صُـروفُ النَّـوى مـن مُرهـفٍ حسـن القَـدِّ[6]

بيَّن الـدَّارس أركـان الاستِعَارة، وحلَّـل الشَّـاهِد في مبحـث الآمِـدِيّ السَّـابق[7]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

- **الشَّاهِد التَّاسع والعشرون بعد المئة [8]، وقوله:**

إذا الغيـثُ غـادى[1] نسـجهُ خِلْـتَ أنـه مضـت حِقبـةٌ حَـرْس لـه وهـو حائـك[2]

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٧/٤)، ومطلع القصيدة:

الـدارُ ناطقـةٌ وليسـتْ تنطـقُ بـــدثورها أنَّ الجديـــدَ ســـيخلقُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت العشرون، قالها يهجو عُتبة بن أبي عاصم، شاعر أهل حمص.

(٣) يُنظر: (ص:٢٠١) من هذا البحث.

(٤) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٤).

(٥) وفي الديوان: "وكم أحرَزتْ مِنْكُم".

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، ،(١١٠/٢)، ومطلع القصيدة:

شـهِدتْ لقد أقوَتْ مغانيكم بعدي ومحَّـتْ كمـا محَّـتْ وشـائعُ مـن بُـردِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يمدح أبا المغيث الرافقي، ويعتذر له.

(٨) يُنظر: (ص:٢٠٣) من هذا البحث.

(١) يُنظر: "الصِّناعتين،(ص:٢٧٤).

(٢) وفي رواية: "سدّى".

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[٣]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

- **الشَّاهِد الثلاثون بعد المئة [٤]، وقوله:**

كلوا الصَّبْرَ مُرًا واشربوه فإنَّكم أَثَرتُم بعير الظُّلْمِ والظلمُ بارك[٥]

سبق تحليل استِعَارة الشَّاهِد في المبحث الأول[٧] عند ابن المعتز، ولم يصفها بالحسن أو الرداءة، واستشهد به العسكري على الاستِعَارة الرَّديئة.

- **الشَّاهِد الحادي والثلاثون بعد المئة[٨]، وقوله:**

أنزلتهُ الأيَّامُ عن ظَهْرِها مِنْ بعد إثْباتِ رِجْله في الركابِ[٩]

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[٦]، واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرَّديئة.فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

---

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٥٩/٢).ومطلع القصيدة:

قِرَى دَارهمْ مِنِّي الدُّمُوعُ السَّوافِكُ وانْ عاد صبْحى بَعدهمْ وهْوَ حَالِكُ

وهي من البحر الطويل، الشَّاهِد البلاغي هو البيت السادس، وقال أبو تمَّام هذه القصيدة يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري، ويذكر المالكيِّين من بني تغلب.

(٤) يُنظر : (ص:٢٠٤) من هذا البحث.

(٥) "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٦٠/٢)،وهي من البحر الطويل، الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن.

(٧) يُنظر: (ص:١٧٧) من هذا البحث.

(٨) "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٩) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٦/٤).

(١) يُنظر: (ص:٢٠٦) من هذا البحث.

- **الشَّاهِد الثَّاني والثَّلاثون بعد المئة[١]، وقوله:**

وكـأنَّ فارسَـه يصـرّف إذْ غَـدَا[٢] في متنـهِ ابنًـا للصَّـباحِ الأبلـقِ[٣]

بيَّن الدَّارس أركان الاستِعَارة، وحلَّل الشَّاهِد في مبحث الآمِدِيّ السَّابق[٤]، واستشهد واستشهد العسكري بهذا الشَّاهِد على الاستِعَارة الرَّديئة، وتبع الآمِدِيّ في الخلط بين الاستِعَارة والتَّشبيه المضمر الأداة، فقد جعل الشَّاعر الفرس ابنًا للصباح، وهذا تشبيه وليس استِعَارة..فلا حاجة لتكرار التَّحليل.

- **الشَّاهِد الثَّالث والثَّلاثون بعد المئة[٥]، وقوله:**

لمـا مَخضْـتَ الأمـانيَّ الَّـتي احتُلِبَـتْ[٦] عـادتْ هُمُومًـا وكانـت قبلهـا هِمَمـا[٧]

وبعد أن فرغ أبو هلال من سرّد شواهد استعارات أبي تمَّام السَّيّئة، بيّن أنَّ أبا تمَّام أكثر منها وأسرّف، فقال: "وقد جنى أبو تمَّام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه، واختياراتُ النَّاس مختلفة بحسب اختلاف صورَهم وألوأنَّهم"[٨]، ويدلّ قوله: بالإكثار من هذه الاستعارات، أنها أنها استعارات رديئة مرذولة غير حسنة ولا جيّدة، بيْد أن بعض الشَّواهِد تدلّ على

---

(١) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٢) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "إذْ بَدَا".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢/٤١٥)، ومطلع القصيدة:

يـا بـرقُ طـالِعْ مَنْـزِلًا بـالأبرقِ واحـدُ السَّـحابَ لـهُ حُـداءَ الأنيُـقِ

من البحر الكامل، والشَّاهِد هو البيت الثامن عشر، قالها يمدح الحسن بن وهب، ويصف فرسًا حَمَله عليه.

(٤) يُنظر: (ص:٢٠٨) من هذا البحث.

(٥) يُنظر: "الصِّناعتين"،(ص:٢٧٤).

(٦) ورواية الديوان عند التَّبْريزي: "احتَلبُوا".

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/١٧١)، ومطلع القصيدة:

أصـغَى إلـى البـين مُغْتَرًّا فَـلا جَرَمـا أنَّ النَّـوى أَسـأَرتْ فـي قَلْبـه لَمَمـا

وهي من البحر البسيط، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح إسحاق بن إبراهيم.

(٨) "الصِّناعتين"، (ص:٢٧٥).

التَّشبيه أصلًا، ومحلها في باب التَّشبيه وليس في باب الاستِعَارة، فعلى هذا يكون أبو تمَّام لم يُكثر من شواهد الاستِعَارة الرَّديئة، وأعجب أن العسكري لم يمدح استعارات أبي تمَّام بشيء ممَّا عنده، فالشَّاعر بطبعه عنده خير وشرّ، ومحمود ومرذول، فلم يذكر كعادة النُّقاد المنصفين؛ كالآمِدِيّ والقاضي الوجه الآخر لشعر أبي تمَّام ممَّا طارت شهرته؛ لأنه سيختم بابًا عظيمًا وهو باب الاستِعَارة فكان من الأولى أن يذكر مع ذلك محاسن الرَّجل، لكنَّه لم يفعل –عليه رحمة الله–.

المطلب الثَّالث:"رؤية أبي هلال الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

ليس بين يديْ هذه المطالب ما يخدم القول بأنَّ أبا هلال كانت لديه نظرة تخصُّه لوحده، ولم يمتلك زمام رؤية فكرية عميقة الأبعاد، ولم يكن لديه مشروع فكري سلَّطه على شواهد أبي تمَّام في فصل الاستِعَارة أو التَّشبيه، وهذا ما وضَّحته الدِّراسة في الفصل الماضي، فهو إذن ناقل لأفكار مَن سبقه من علماء الأدب والبلاغة والنَّقد؛ كما نقل باب الاستِعَارة بأكمله من الرُّماني(١)، فلا يناقش أحدًا في مطارحات علمية، كما هو الحال عند القاضي، وابن رشيق، وابن سنان، والشَّيخ عبد القَاهِر، وهو مع ذلك كلِّه وسيط جيّد بين القرن الرَّابع والخامس الهجري، وفي الوقوف على المطالب بمجموعها، يمكن استخلاص رؤية أبي هلال.

ففي المطلب الأول ذكر شواهد للاستِعَارة الحسنة من شعر الطَّائي، وكان عمل الدَّارس استخلاص ما ابتدأ به العسكري من تعريف الاستِعَارة، ثم تبيين الغرض منها حتّى تكون جيّدة مقبولة، وكذلك اشتراط وجود المعنى المشترك بين المستعار والمستعار منه، فسلَّط تلك الأوصاف على شواهد أبي تمَّام، ومزج ذلك التَّنظير بالتَّطبيق على الشَّواهِد، ثم قام الدَّارس بعرض تلك الشَّواهِد، وتحليل استعارات أبي تمَّام الحسنة، والنَّظر في كل ذلك على شرط العسكري في استطابة الشَّاهِد وقبوله أو رفضه، ومع امتزاج فِكْر العسكري بفِكْر الرُّماني تصبح النَّظرة مشتركة، أَصَّلها وسبَكها الرُّماني، ثم طبَّقها العسكري، فسارت الشَّواهِد الحسنة على وفق شروط البلاغيين والنُّقاد، وما سطَّرته أنامل العسكري من قرب المستعار للمستعار له.

أمَّا في المطلب الثَّاني، فقد حوى شواهد للاستِعَارة الرَّديئة الَّتي رفضها العسكري لسبب واحد؛ أنها بعيدة(٢)، وخالفت شروطه ونظرته للشِّعر، ثم ساق لأجل ذلك شواهد

(١) يُنظر: "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، (ص:٨٥-٩٤).

(٢) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٢٧١).

كثيرة جدًّا تدلُّ عليها، ومع كل شاهد لا يحلِّلُ ولا ينقد، وهو على كل حال يُتبِع الشَّاهِد الّذي بعده، ثمَّ أصدر حكمًا عامًا، وكما أنَّه لم يكن بمفرده في المطلب الأول، فكذلك الحال في المطلب الثَّاني، فقد استعان بالبلاغيين والنُّقاد وساندوه في ترتيبه للشَّواهد، وكذلك في الانتقادات والرُّؤى الموجَّهة للشَّاعر، واتَّضح ذلك جليًا في الشَّواهِد الدَّهرية لأبي تمَّام، ثم انفرد عنهم بنقد على تلك الاستعاراتفي آخر فصل الاستِعَارة، وأحسَب أن مفردات نقده المعجمية من أحكام مَن سبقه، فقال عن استعارات أبي تمَّام: "وقد جنى أبو تمَّام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكّد له الحجّة على نفسه، واختياراتُ النَّاس مختلفة بحسب اختلاف صورَهم وألوأنَّهم"(١).

والدَّارس يجد في كلامه أمرًا غريبًا؛ فعندما بيَّن اختياراتُ النَّاس وأنها مختلفة في شعره، وذلك بحسب اختلاف صورَهم وألوأنَّهم المجبولة بالطَّبع، يوحي هذا القول إلى شدة الاختلاف في شعره بين مؤيِّد ورافض له، وهذا التَّشبيه منه لحالة النُّقاد والبلاغيين ممَّن سبقه في نظرته لشواهد الطَّائي البيانية-تشبيهًا واستِعَارة-يختصره العسكري في هذا السَّطر، وكأنه يعذر مَن أيَّد شعر الطَّائي عن الحكم الجازم عليها بالرَّداءة؛ باختلافهم الطَّبعي فلم يثرِّب عليهم.

ثم إنَّ نقد العسكري لهذه الشَّواهِد بصورة عامة كان في وقت بذرة الدَّرس البلاغي والنَّقدي، ولم يأخذ صورة النَّقد المَنْهَجِي الموضوعي، القائم على المقاييس النَّقدية المفسرّة والمعلَّل، فالذَّوق الأدبي هو السائد لدى أغلبهم؛ لوضوح تلك الشَّواهِد.

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٧٥).

المبحث الخامس
" شواهد الاستِعَارة عند ابن رشيق القيرواني"

- **المطلب الأوَّل: "شاهد الاسْتِعَارة البعيدة الواضحة غير المتكلَّفة والـمُعَقَّدة".**
- **المطلب الثَّاني: "شواهد الاسْتِعَارة السَّيئة والبشعة".**
- **المطلب الثَّالث: "شاهد الاسْتِعَارة المليحة البديعة".**
- **المطلب الرَّابع:"شاهد الاسْتِعَارة القريبة الـمُتَمَكِّنَة".**
- **المطلب الخامس:"شاهد المثل السَّائِر".**
- **المطلب السَّادس: "رؤية ابن رشيق الفكرية في اسْتِعَارات أبي تمَّام".**

توطِئة:

يرى ابن رشيق أنَ التَّشبيه، والاستِعَارة، والتَّمثيل، والمثل، والكناية، ومحاسن الكلام داخلة في المجاز أصلاً، وهو رأي يحتاج إلى إنعام فكر وتأمُّل، وفي ظن الباحث أنَّه أول مَن رأى هذا الرأي، وقد وضع ابن رشيق المجاز في باب مستقلّ، أظنُّه يريد التَّمهيد للأبواب الَّتي بعده، وأنَّها راجعة إليه بالضَّرورة، وعلى ذلك ثنَّى بالاستِعَارة، حيث قال:" الاستِعَارة أفضل المجاز عندهم، وأول أبواب البديع، ليس في حِلَي الشِّعْراء أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"(١).

وعلماء البلاغة مُجمِعون على أنَّ الاستِعَارة من المجاز، بل هي من أفضل أنواعه، وابن رشيق يقف وقفة الإنصاف لا لحساب أحد، بل لحساب العدل في حسن عرض منه وتفنيد، وذلك في قرب الاستِعَارة أو بعدها، فمنهجه منهج الوسط، لا إفراط ولا تفريط، فكلما أصابت الغرض ووقعت موقعها، فهي استِعَارة جميلة، وكلما أغربت وبعدت ولم تُصِب الغرض، كانت قبيحة مستهجنة، ويأتي بالشَّواهِد الدَّالة على ذلك. وذكر ابن رشيق على لسانه رأي القاضي الجرجاني في الاستِعَارة، فقال:" وأنَّ ملاكها تقريب التَّشبيه، ومناسبة المستعار للمستعار له، وامتزاج اللَّفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبيَّن في أحدهما إعراض عن الآخر"(٢). وهناك بعض الإشارات العِلْمِية تتبيَّن من خلال تفضيله لبعض آراء العُلماء، وعرضها عرضًا تراكميًا، فيجد الباحث في هذا الباب سلسلة من كبار العُلماء الأجلاَّء؛ كأبي عمرو بن العلاَّء، وأبي الفتح بن جني، وابن وكيع، والرُّماني، والحاتمي، وغيرهم، في مظهر تكوين الآراء العميقة، ويعرض ابن رشيق أقوالهم ليستخرج من بينها تلك البدائع المذَّهبة من آراء، واستدراكات، وبراهين، مع حفظ حقوقهم، ثم إنه أكثر من الاستشهاد بالشِّعْر، وفرَّع المسائل، وقسَّم الاستعارات، ومن تلك الشَّواهِد الَّتي اعتنى بها ابن رشيق، شواهد

(١) "العُمْدَةُ"،(٤٣٥/١).

(٢) المصدر السَّابق، (٤٣٧/١)، وينظر:"الوساطة"، (ص: ٤٥).

استعارات أبي تمَّام، فمرةً يحكم عليها بالقباحة واللَّعن، ومرة يمجِّدها، ويُعلي من قيمتها؛ لأنَّه يرى أنَّ الاستِعَارة تأتي من اتِّساع العرب في الكلام اقتدارًا ليست ضرورة، وأنَّ ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، ويضرب ابن رشيق نماذج من ألوان البديع الَّتي اشتغل بها المولِّدون، وطاروا بها فرحًا، وأنها نتيجة الإسرّاف، وممَّن استشهد لهم مسلم بن الوليد، وأبي تمَّام، الَّذي سيقف الباحث ليفسرّ تلك الانتقادات، وأمَّا القضايا البلاغية والنَّقدية الَّتي أثِيرت حول شعره، فهي مناط الدِّراسة، تلك كانت بعض مسائل الاستِعَارة عند ابن رشيق، أحببت أن أقدِّمها بين يد القارئ.

المطلب الأوَّل:

"شاهد الاستِعَارة البعيدة الواضحة غير المتكلّفة والمُعَقَّدة"

- **الشَّاهِد الرَّابع والثَّلاثون بعد المئة[1]، وقوله:**

سـاسَ الأمـورَ[2] سياسـةَ ابْـنَ تَجَـارِبٍ رمقَتْـهُ عـيْنُ المُلْـكِ وهـو جَنِـينُ[3]

شبَّه المُلْكَ والسُّلطان بالرَّجل، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهي لفظة (النظر بالعين)، فالمُلك لا عين له في الحقيقة، ومعنى الشَّاهِد بشكله العام والمراد منه أن الممدوح مُجرّب في السِّياسة، وقد استبان نبوغه منذ أن كان جنينًا، "والجنين الولد في البطن وجنَّ في الرحم يجُن جنينًا؛ أي استتر"[4]، فصَّور المُلك والسِّيادة كمن يرمق جنينًا قد حان وقت ولادته، وبزوغ كمال فجره.

فالشَّاعر جعل السِّياسة والسُلطة وكأنَّها تنتظره ليقيم عزَّها ومجدها، ويخلِّصها ممَّا هي فيه، فالَّذي يَسوس الأمور ويقدِّرها الرَّجل المُحنَّك، وفي رواية (ساس الجيوش) أو(ساس الملوك)، فهذه الصِّفات مع تعدُّد الرِّوايات، إلاَّ أنَّها تخدم المعنى وتُضفي عليه المعاني الإضافية الَّتي يحتملها، وتتماشى مع نسقها العام في وصف الممدوح بالحنكة والتَّجربة والسِّياسة بشكلها الخاص والعام، سواءً كانت الجيوش في الحروب، أو الملوك

(١) يُنظر: "العُمْدَةُ"، (٤٣٧/١).

(٢) وفي الديوان عند التَّبْريزي: "سَاسَ الجُيُوشَ" وفي رواية "سَاسَ الملوك".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣١٧/٣).

والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

بـــذَّ الجـــلادُ البـــذَّ فهـــوَ دفـــينُ مـــا إنْ بـــهِ إلاَّ الوُحُـــوشَ قطـــينُ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها أبو تمَّام يمدح الأفشين.

(٤) "القاموس المحيط"،(ص:١٢٧٨).

في المكاتبات والرَّسائل، أو سياسة الأمور بشكل عام، فتدخل تحتها الرِّوايتان السَّابقتان، فالاستِعَارة هنا واضحة لا يلحقها عيب.

هذا الشَّاهِد مهم للغاية؛ لأنَّه استشهاد على قضية بلاغية ونقدية، أحدثت جدلًا بين عامة علماء البلاغة والنَّقد، هي قُرب التَّشبيه بين اللَّفظ المستعار والمستعار له؛ لأنَّهم يستحسنون الاستِعَارة القريبة، وجمهور علماء البلاغة والنَّقد على هذا الرأي، منهم القاضي الجرجاني وبه أتت النُّصوص في ذلك(١)، وأمَّا بُعد التَّشبيه بينهما مع الوضوح وعدم التَّعقيد فهو على رأي آخرين؛ كابن وكيع وغيره(٢)، فاتضح من ذلك أنَّ طائفة من العُلماء أيَّدت الاستِعَارة البعيدة الواضحة، إذا خلت من التَّعقيد اللَّفظي أو المعنوي، ولم تكن ملبسة؛ فهي خير الاستعارات،وكأنَّ ابن رشيق ارتضى هذا الرأي، واستشهدوا بهذا الشَّاهِد على هذه المسألة في سياق ترجيح قول أبي تمَّام على قول أبي الطيِّب:

وقد مُدت الخيل العتاق عيونها إلى وقت تبديل الركاب من النَّعل(٣)

فقال ابن رشيق: "وقال قوم آخرون منهم أبو محمد بن الحسنبن علي بن وكيع: خير الاستِعَارة ما بعُد وعُلِم في أول وهلة أنَّه مستعار، فلم يدخله لبس"(٤)، فعاب قول المتنبي، ورجَّح عليه قول الطَّائي، عندها قال ابن رشيق معلقًا على حديث ابن وكيع على شاهد المتنبَّي: "إذ كانت الخيل لها عيون في الحقيقة"(٥)، فهذا قرب بين بين المستعار له والمستعار، ثم علَّق على شاهد أبي تمَّام، فقال: "إذ كان الملك لا عين

(١) يُنظر: "العُمْدَةُ"، (٤٣٦/١-٤٣٧)، بتصرف.

(٢) بتصرُّف، قال المحقق النبوي: "لم أعثر على هذا القول في المنصف، وليس فيه بيت المتنبي، ولا بيت أبي تمَّام". يُنظر حاشية "العُمْدَةُ"، (٤٣٧/١).

(٣) "ديوان"، أبي الطيّب المتنبي، (ص: ٤٩)، دار صادر، بيروت، دط، ١٤٢هـ=٢٠٠٥م.

(٤) "العُمْدَةُ"، (٤٣٧/١).

(٥) المصدر السَّابق، (٤٣٧/١).

لـه في الحقيقـة"[1]، وهـذا بُعـد بـين المستعار لـه والمستعار مـع الوضـوح والعلـم مـن أول وهلة.

وقـد أبـدع أبـو تمَّـام في هـذه الإحـالات الَّـتي لا تفارقـه إلاَّ قلـيلًا، فحسـنت اسـتعارته ورجحت كفتها على قول المتنبي، فالاستِعَارة هنا بعُدت، وعُلم في أول وهلة أنَّ اللَّفظ مستعار، فلا لبس فيه ولا غرابة.

(١) المصدر نفسه، (٤٣٧/١).

المطلب الثَّاني: "شواهد الاستِعَارة السَّيّئة والبشعة"

ضرب ابن رشيق نماذج من الاستعارات السَّيّئة لبعض هؤلاء المحدثين بنقد علمي يُظهر المآخذ، ويجلِّي الأخطاء، ويبيِّن الصَّواب في موازنة بديعة، فبدأ بشواهد من شعر مسلم بن الوليد، ثم ثنَّى باللطَّائي... .

- **الشَّاهِد الخامس والثَّلاثون بعد المئة[1]، وقوله:**

والله مِفْتَــاحُ بَــابِ اَلْمَعْقِــلِ الأَشَــبِ[2]

هذا الشَّاهِد فيه استِعَارة، على مذهب الطَّائي واعتزاله في تأويل صفة الله بأنَّها أمر الله وقضاؤه، فشبَّه (أمر الله وقضاءه) بالمفتاح، فحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على طريقة الاستِعَارة التَّصريحية، وهو يقصد أمره وقضاءه، لكنَّ ابن رشيق نعتها بالبشاعة والشَّناعة، ولا طائل للمعنى وراءها؛ لأنَّ الرُّماني وصف الاستِعَارة الحسنة والجيّدة الخارجة عن الحقيقة ولا تنوب البلاغة والبيان منابها؛ أي المجاز، فأيَّد ابن رشيق قوله، ونعت هذه الاستِعَارة في شاهد الطَّائي بالبشاعة والشَّناعة؛ لأنَّها على رأيه خرجت عن الحقيقة،فلم توجب بلاغة وبيان لا تنوب منابه الحقيقة، والدَّارس يجعل هذه الشَّاهِد على الحقيقة المحضة، فيكون عملها حقيقة لا مجاز فيها، فتكون (الله يفتح ويؤيِّد وينصر ويساعد المؤمنين في فتح تلك المعاقل والحصون).

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (٤٤١/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٦٠/١)، وصدر البيت:

مِــنْ بَعْــدِ مــا أَشَّــبُوها واثقــينَ بِهَــا

والقصيدة من البحر البسيط ومطلعها:

السَّيْفُ أَصدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فــي حــدهِ الحــدُّ بــينَ الجــدِّ واللَّعــبِ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني والأربعون، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ويذكر حريق عمّورية وفتحها.

وقبل عرض رأي ابن رشيق، لا بدَّ من استعراض قول الرُّماني في الاستِعَارة الَّذي ذكره ابن رشيق إبَّان هذا الشَّاهِد، فقال الرُّماني: "الاستِعَارة الحسنة ما أوجبت بلاغة ببيان لا تنوب منابه الحقيقة؛ كقول امرئ القيس: قيد الأوابد"[(١)]، ثم ذكر ابن رشيق هذا الشاهد فقال: "وقد قال حبيب على بصره بهذا النَّوع:

والله مِفْتَاحُ بَابِ اَلْمَعْقِل الأَشَبِ

فجعل الله-تعالى اسمه-مفتاحًا، وأي طائل في هذه الاستِعَارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة!!؟ وإن كنَّا نعلم أنما أراد أمْرَ الله وقضاءه"[(٢)]، فعندما قال ابن رشيق:(قال حبيب على بصره)، يقصد ببصره في هذا النَّوع أي في هذه الاستِعَارة القبيحة، وقد وصف ابن رشيق هذه الاستِعَارة بالبشاعة، والشَّناعة، لكنَّه اعتذر له اعتذارًا لطيفًا، فقال: "وإن كنا نعلم أنَّما أراد أمر الله وقضاءه"[(٣)]، ويتبادر إلى ذهن الباحثأنَّ أبا تمَّام لا يُظهر على شعره كثيرًا ممَّا يؤمن به ويعتقده، فبيَّن ابن رشيق اعتقاده الإعتزالي، واعتذر له عن هذا المجاز، ولا شك أن الشَّاعرأخطأفي إثبات صفة ليست من أسماء الله وصفاته المثبتة عند أهل السنة والجماعة، فهم يثبتون الأسماء والصِّفات لله تعالى، كما جاءت من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، فلا يجوز شرعًا التأويل المنحرف، فاسم الله تعالى (الفتَّاح) وليس المفتاح، وأمَّا أن يُحمل هذا الوصف مضافًا إلى الله تعالى (كالله ميسرّ الأمور)، (والله مبيِّن عار الكافرين)، وغيرها فهي تُقبَل من الشَّاعر، فيكون تأويل صفة من صفات الله تعالى هو مذهب الاعتزال الَّذي انتهجه الشَّاعر وسار عليه. وهذه مسألة يطول الحديث عنها، وهي خارجة عن الدِّراسة، فالشَّاهِد بشكله العام يحكي مدح المعتصم وجيوش المسلمين في وقعة عمورية

(١) "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، (ص: ٨٦).
(٢) "العُمْدَةُ"، (٤٤٢/١).
(٣) المصدر السَّابق، (٤٤٢/١).

المشهورة، ويذكر في صدر البيت أنَّهم واثقون من حصونهم القوية المنيعة الَّتي حاصرها المسلمون، وفتحها الله لهم على تحصنهم الشَّديد لها.

- **الشَّاهِد السَّادس والثلاثون بعد المئة[1]، وقوله:**

للجُـــودِ بـــابٌ في الأنـــام ولَمْ تَـــزَلْ مُـذْ كُنـتَ[2] مفتاحًـا لـذاكَ البـابِ[3]

شبَّه الممدوح المذكور في تاء الفاعل (كنتَ) وهو مالك التغلبي (بالمفتاح) فلا استِعَارة هنـا، بـل تشبيه بليـغ، حُـذِفت أداتـه ووجـه الشبَّه، فالشَّـاهِد دليـل علـى أنَّ القدماء –كما ذكر ابن الأثير– يخلطون بين التَّشبيه المحذوف الأداة والاستِعَارة، وعلى كل حال؛ فابن رشيق لا يهمه ذلك كثيرًا؛ لأنَّه يُدخل التَّشبيه والتَّمثيل والمثل السَّائِر والاستِعَارة والكناية في باب المجاز، ومع ذلك فقد جاء بهذا الشَّاهِد في قلب شواهد الاستِعَارة، ولم يذكر أنه استِعَارة، ولكنَّها سِيقَت مساق لفظة (المفتاح) في الشَّاهِد السابق.

وقال ابن رشيق في ذلك:"واعترض بعض النَّاس على قول أبي تمَّام:

للجُـــودِ بـــابٌ في الأنـــام ولَمْ تَـــزَلْ مُـــذْ كُنـــتَ مفتاحًـــا لـــذاكَ البـــابِ

بحضرة بعض أصحابنا،وقال: أتى إلى ممدوحه، فجعله مفتاحًا، فهلاَّ قال كما قال ابن الرومي:

قَبِّـــل أَناملَـــهُ فلســـنَ أنـــاملًا لكـــــنَّهنَّ مفـــــاتحُ الأرزاقِ

فقال له الآخر: عجبتُ منك تعيب عليه أن يجعل ممدوحه مفتاحًا، وقد جعل ربه كذلك، وأنشد البيت المتقدَّم عجزه"[1]، وحاصل كلام المعترضين أنَّه جعل ممدوحه

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (٤٤١/١).

(٢) وفي الديوان عند التَّبْريزي: "يُمناكَ مِفْتَاحًا".

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٠/١)،والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

لـــوْ أنَّ دهـــرًا ردَّ رجـــعَ جـــوابِ أوْ كـــفَّ مـــنْ شـــأويهِ طـــولُ عتـــابِ

الشَّاهِد البلاغي الثالث في البيت السابع، والشَّاهِد البلاغي الرابع في البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام يمدح مالك بن طوق التغلبي.

مفتاحًا، وهذا الشَّاهِد شبيه إلى حدٍّ كبير بالَّذي قبله في لفظة (المفتاح)، فإن الله –عزَّ وجلَّ– من أسمائه (الفتَّاح)، كما ذُكر آنفًا، واللَّفظة على غير مذهب الطَّائي وابن رشيق حقيقة لا تأويل فيها ولا استِعَارة.

وحتى قول ابن الرومي عندما قال:

قَبِّــل أَناملَــهُ فلســنَ أنــاملًا لكـــــنَّهنَّ مفـــــاتحُ الأرزاقِ

وفي هذا البيت، شبَّه ابن الرومي (الأنامل بالمفاتح)، وهو أفضل من قول أبي تمَّام وأقرب في تصوير التَّشبيه، ربما أنَّ ابنَ رشيق –وقد رُزِق علمًا غزيرًا ونقدًا فهو الفاحص المدقِّق،– ذكر هذا الشَّاهِد على عادة القدماء وأهل زمانه، لكنَّه لم يُصرِّح بالاستِعَارة أو التَّشبيه فكسب الطرفيْن؛ علماء زمانه وقُرَّاء كتابه إلى اليوم، ولئن كان هذا الحدس صحيحًا، فقد رُزِق ابن رشيق فهمًا وعلمًا وإدراكًا لما تؤول إليه الأمور، ومعنى الشَّاهِد على الجملة أنَّ الممدوح يفتح باب العطاء لكلِّ الأنام، فينهلون من كرمه دون إغلاق لهذا الباب وهذا الكرم المفتوح، فهو شاهد تشبيه لا استِعَارة.

- **<u>الشَّاهِد السَّابع والثلاثون بعد المئة[٢]، وقوله:</u>**

فـــإِذَا مـــا أَرَدْتُ كُنْـــتَ رِشَـــاءً وإِذَا مـــا أَرَدْتُ كُنْـــتَ قَلِيبَـــا[٣]

هذا الشَّاهِد تشبيه بليغ لا استِعَارة فيه؛ لوجود الطرفيْن في البيت، فشبَّه أبا سعد الثغري مرةً بأنَّه حبل، ومرةً أُخرى يشبَّهه بالبئر، ومعنى الشَّاهِد أنَّ الشَّاعر يقول: إمَّا أن تستجلب لي العطاء من كريم غيرك بشفاعتك عنده، وإمَّا أن تُعطيني، فأنت بئر لا ينضب ماؤها، والشَّاعر بدأ بالأبعد في الكرم، ثم طلب من الأقرب وهو الممدوح،

(١) "العُمْدَةُ"، (٤٤١/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٤٤٢/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٧١/١)والقصيدة من البحر الخفيف ومطلعها:

مـنْ ســجايا الطُّلــولِ ألاَّ تُجيبــا فصـــوابٌ مِـــن مُقْلَـــةٍ أَنْ تَصـــوبَا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري.

فلو قدَّمه، لكان أولى، وأعنى بالمعنى في الأدب والطلب والحاجة، فالمسألة تُطلب من الكريم نفسه، فإن أبى فالإحالة إلى غيره، أمَّا أن تُطلب من البعيد، ثم إنْ لم يتيسرّ، فالأقرب، فهذا سوء أدب مع الممدوح، وليس فيه مدح، فكأنَّه قال له: أنت وسيلة وغاية، وعلى كل حال، فالشَّاهِد تشبيه بليغ لا استِعَارة، على ما فيه من القباحة، والشناعة؛ لانتفاء الاشتراك في الهيئة والصفة والمكانة، وفي ذلك قال ابن رشيق: "وقال في ممدوح ذكر أنه يعطيه مرةً، ويشفع له أخرى إلى أن يعطيه:

فـــإِذَا مـــا أَرَدْتُ كُنْـــتَ رِشَـــاءً وإِذَا مـــــا أَرَدْتُ كُنْـــــتَ قَلِيبَـــا

فجعله مرةً حبلًا ومرةً بئرًا"[(١)].

- **الشَّاهِد الثَّامن والثَّلاثون بعد المئة[(٢)]، وقوله:**

ضـــاحي المحيَّـــا للهَجِـــيرِ وللقَنَـــا تَحْـــتَ العَجَـــاج تَخَالُـــهُ مِحْرَاثـــا[(٣)]

شبَّه الممدوح بالمحراث، وهو عود تُحرَّك به النَّار، فالمشبَّه الممدوح وصفاته، والمشبَّه به المحراث، فهو يقول إنَّه ذو كفاح لا يحفل بالرَّاحة، بل يلقى من دونها أذى الحرّ وطعن الرِّماح، ويُشعل نار الحرب، ويزيد وقودها، فوجه الشبَّه ايقاد النَّار الحارّة والحرب، والصَّبر عليها، فالشَّاهِد تشبيه ليس استِعَارة، فالمشبَّه والمشبَّه به مصرَّح بهما غير محذوفيْن، والشَّاعر يذكر قوة الممدوح مالك بن طوق، ويصفه بالبسالة، فقال: (ضاحي) بمعنى بارز للشَّمس، (المحيَّا): الوجه، (الهجير): شدة الحر، (العجاج): غبار الحرب، فكل هذه صفات ويتعجَّب الباحث من هذا الحكم المرتجل من ابن رشيق والقاسي مع نقده الفذّ وقوة حجَّته، وسداد رأيه، فقد جرت على لسانه كلمة اللَّعن،

---

(١) "العُمْدَةُ"، (٤٤٢/١).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (٤٤٢/١).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣١٧/١)، والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

قـــفْ بـــالطلولِ الدارســـاتِ علاثـــا أمســـــتْ حبـــــالُ قطيـــــنهنَّ رثاثـــــا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن عشر، قالها أبو تمَّام يمدح مالك بن طوق ويستبطئه.

ثم وصف لفظة المحراث بالقبح والرَّكاكة، ولم يُعلِّل هذا الرأي، بل أحسبه ترك العلَّة والبحث عن السَّبب للقارئ؛ ليشاركه ويغوص معه على الخصوصيات ودقائق المسائل، وهذه من عادته -رحمه الله-.

ويظنَّ الدَّارس أنَّ سبب وصْف ابن رشيق للمحراث بهذه الأوصاف؛ يعود إلى صلة هذا المقام بمقامات الشَّواهِد السَّابقة، فقد شبَّه الممدوح بـ(المحراث)، وهو عود يحرّك به النار، فالمشبَّه به عود يدخل في النَّار، قال البخاري:" وعَنْ أَبِي مُوسَى—رضي الله عنه-، قَالَ احْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ فَحُدِّثَ بِشَأْنِهِم النَّبي ﷺ: قَالَ: ﴿إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ﴾"(١)، فكيف يكون الممدوح عود يُحرَّك به النار، ولو قال شهاب يرمي به الأعداء، لناسب الرِّفعة، والقوة، ولكنَّه نزل بممدوحه إلى الرَّماد، والدُّخان، وغبار الحرب؛ وهذه مقامات الدُّون، فلعلَّ ابن رشيق لعن المحراث في هذه الحال لهذه العلَّة؛ وهي المدح بالدُّونية، لا بالعلَّو والرَّفعة، وفي ذلك قال ابن رشيق:"فلعنة الله على المحراث ههنا، ما أقبحه وأركَّه!!!"(٢). وهذا تفسير حكم ابن رشيق على هذا الشَّاهِد، ولم يصرِّح بلفظة الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد؛ لأنه تَبِعَ الشَّاهِديْن السَّابقيْن في عدم التَّصريح بكلمة الاستِعَارة، وهذا من علم ابن رشيق بالنَّقد، على أنَّ المصطلحات البلاغية لم تستقرّ بعد، وعلى كل هو تشبيه قبيح، كالَّذي سبقه.

(١) "صحيح البخاري"، (١٢٤١/٣).

(٢) "العُمْدَةُ"، (٤٤٢/١).

المطلب الثَّالث: "شاهد الاستِعَارة المليحة البديعة"

- **الشَّاهِد التَّاسع والثَّلاثون بعد المئة[1]، وقوله:**

أوَ مَـا رأتْ بُـرْدَيَّ مـن نسـج الصِّبَى ورأتْ خضـــابَ اللهِ وهـــو خِضـــابِي؟[2]

شبَّه سواد شعره بالمخضوب، فصرَّح بالخضاب، وأراد سواد الشِّعْر على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية، والشَّاعر يحكي لوم وعذل المحبوبة له، وتنقُّصها منه، فيذكِّرها بأنَّه لا يـزال (نسـج الصِّبا)؛ أي: فـتىً يافعًـا في مقتبـل الشـباب، فهـو لا يُسـلِّم أو يأبـه لكلامها؛ لأنَّه صبي، أسود اللمَّة. فالشَّاعر يردَّ على المرأة بأنَّ العذل والتَّثريب يكون على الشَّيب، لا على الشَّباب المسودَّة شعورهم، الدَّالة على فتوتهم ونشاطهم.

وقد وصف ابن رشيق هذه الاستِعَارة بأنَّها مليحة بديعة، فقال:" قوله المليح البديع"[3]، ثم قام بتهمة أبي تمَّام بأنَّه أخذ هذه الاستِعَارة من آية قرآنية، وفي ذلك قال قال ابن رشيق: "وإن كان إنما أخذه من قول الله -عزَّ وجلَّ-: {صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً}[البقرة: ١٣٨]قالوا: يريد الختان، وقِيل: الفطرة"[4]،فإرادة الصبغة في الآية الكريمة على الإيمان أو الفطرة استِعَارة تصريحية، وفيها مشاكلة بديعة، وكشفت الاستِعَارة عقائد أهل الكتاب، وفيها تلميح بالاعتصام بالله وحده، وردٌّ على النَّصارى الَّذين يضعون أبناءهم في أحواض صغيرة فيها ماء، يزعمون أنَّه ماء أُهرِق على عيسى عليه السلام؛ لتُنَال البركة، فردَّت الآية بأنَّ فطرة الله وإيماننا به أحسن من هذا الَّذي تعتقدون، والاستفهام في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً}للنَّفي، وأنَّه لا أحسن من فطرة الله والإيمان به، فجاء الخطاب والردّ على هيئة المشاكلة، كما

(١) يُنظر:المصدر السَّابق، (٤٤٢/١).
(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٧٨/١).
(٣) "العُمْدَةُ"، (٤٤٢/١).
(٤) المصدر السَّابق، (٤٤٢/١).

قال ابن عاشور: "فإطلاق الصِّبغة على الإيمان استِعَارة علاقتها المشابهة وهي مشابهة خفية حسنها قصد المشاكلة، والمشاكلة من المحسنات البديعية ومرجعها إلى الاستِعَارة وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستِعَارة، وإنما سمَّاها العُلماء المشاكلة؛ لخفاء وجه التَّشبيه فأغفلوا أنْ يسمُّوها استِعَارة، وسمّوها المشاكلة، وإنما هي الإتيان بالاستِعَارة لداعي مشاكلة لفظ للفظ وقع معه، فإن كان اللَّفظ المقصود مشاكلته مذكورًا، فهي المشاكلة، ولنا أن نصفها بالمشاكلة التَّحقيقية"(١)، وبهذا يتَّضح رأي ابن رشيق في هذه الاستِعَارة التَّصريحية، والدَّارس يصفها بالجمال والبهاء؛ لاشتراك الألوان البلاغية في لباس ومظهر واحد، وهذه لا يقدر عليها إلاَّ الفحول من الشِّعْراء.

(١) "التَّحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور،(٧٤٤/١)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت–لبنان–الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ =٢٠٠٠م.

المطلب الرَّابع: "شاهد الاستِعَارة القريبة المُتَمَكِّنَة"

- **الشَّاهِد الأربعون بعد المئة[1]، وقوله:**

فقد أَكَلُوا منها الغَوارِبَ بالسرّى فصارَتْ لها أشباحُهُم كالغوارب[2]

الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد في قوله: (أَكَلُوا منها الغَوارِبَ بالسرّى)، فشبَّه إفناءهم وإتعابهم لأسنمة الجمال والرَّواحل بالأكل منها على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية التَّبعية؛ لأن لفظ المشبَّه به (فعل) هو: (أكلوا)، فعندما وضعوا المتاع على الأسنَّة، ذابت من طول الطَّريق وكثرة الحمل وهو عليها، فبرزوا كالأشباح لانحلالهم فيها، وكأنَّهم هم الغوارب، وهذا الَّذي ذكره التَّبْريزي، فقال: "الأشباح جمع شبْح، وكأنَّ الشَّبَح الشخص إذا رُئِي من بعيد. يقول: أتعبوها حتى إذا ذابت أسنمتها، وصاروا لها كالأسنمة فوقها، ويُروَى: (فصارت لهم أشباحها كالغوارب)، والمعنى: أنَّهم قد فرغوا من إفناء أسنمتها، إذ كان الفناء عند جهدها إليها أسرّع من بين جميع أعضائها، وصاروا يؤثِرون في شخوصها، فهي لهم السَّاعة بدلٌ من الغوارب من قبل"[3]، وهذه هي الزيادة الَّتي نوَّه بها ابن رشيق، فقال: "وأين هذا كلّه،ثم أتى أبو تمَّام وعوَّل على العتَّابي وزاد المعنى زيادة لطيفة بينة"[4].

---

(١) يُنظر:"العُمْدَةُ"، (١/٤٤٤).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/٢٠١)، والقصيدة من البحر الطويل ومطلعها:

على مثلها من أَربُعٍ وملاعبِ أُذيلتْ مصوناتُ الدُّموعِ السَّواكبِ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت العاشر، قالها أبو تمَّام يمدح أبا دُلف القاسم بن عيسى العجلي.

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/٢٠١، ٢٠٢).

(٤) "العُمْدَةُ "، (١/٤٤٤).

وقد ذكر ابن رشيق هذا الشَّاهِد في سياق شواهد تدلّ على الاستِعَارة المُتَمَكِّنَة القريبة؛ وتقترب من شاهد أبي تمَّام خاصَّة في المعنى، من ذلك قول طُفيل الغنوي:

فوضعت رحلي فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرَّحل[1]

فجعل شحم سنامها قوتًا للرَّحل، وهذه استِعَارة، ووصفها ابن رشيق بالمشابهة للحقيقة والمُتَمَكِّنَة والقريبة، واستشهد الخطيب ببيت الطُفيل الغنوي، فجعله من الاستِعَارة الخاصِّية الَّتي لا يظفر بها إلاَّ مَن ارتفع عن طبقة العامة، فقال: "وموضع اللُّطف والغرابة منه: أنَّه استعار الاقتيات لإذهاب الرَّحل شحم السَّنام، مع أنَّ الشَّحم ممَّا يُقتات"[2]، ثمَّ ذكر ابن رشيق قول العتَّابي فقال :" قال العتَّابي:

ومن فوق أكوار المهاري لبانة أحل لها أكل الذرى والغوارب"[3]

وجاء أبو تمَّام، فاقتفى أثر العتَّابي، لكنَّه زاد ووضَّح المعنى فقال:

فقد أكَلُوا منها الغَوارِبَ بالسرّى فصارَتْ لها أشباحُهُم كالغوارب[4]

فالصُّورة الموحَّدة بين هذه الشَّواهِد هي ذوبان شحم سنام الرَّاحلة وإحلال البديل، وإذا كان كذلك، فقد حكم عليها ابن رشيق بالجودة والحسن مع القرب، فالحقُّ في شاهد أبي تمَّام أنَّه من الاستعارات الَّتي ترتفع عن طبقة العامّية، وتدخل في حيِّز الاستِعَارة الخاصِّية الَّتي مُلِئت جودة وحسنًا.وقال ابن رشيق عن بيت أبي تمَّام:"ثم أتى أبو تمَّام وعوَّل على العتَّابي وزاد المعنى زيادة لطيفة بينة"[5].

---

(١) يُنظر:"ديوان"، طُفيل الغنوي،(٥٦/١)، المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ=٢٠٠٥م. والبيت في الديوان:

وحملتُ كوري خلفَ ناجية يقتاتُ شحمَ سنامها الرحلُ

(٢) "الإيضاح"، (٧٠/٥).

(٣) يُنظر:"العُمْدَةُ"، (٤٤٤/١).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٠١/١).

(٥) "العُمْدَةُ"، (٤٤٤/١).

وعمل موازنة بين قول الطَّائي والعتَّابي، وانتهى الحديث عن شاهد أبي تمَّام، وبقي أن تُعرف خصوصية بيت العتَّابي؛ لتُوضَع اليد على تلك الزِّيادة البينة الَّتي نوَّه إليها ابن رشيق، فقال: "وقد تناولها جماعة منهم كلثوم بن عمرو العتَّابي فقال:

ومن فوق أكوار المهاري لبانة أحل لها أكل الذرى والغوارب"[1]

فشاهد الاستِعَارة عند العتَّابي في قوله: (أحلَّ لها أكل الذرى والغوارب)، وهو قريب من شاهد الطَّائي، فالعتَّابي عندما ذكر فوق أكوار المهارى لبانة؛ واللُّبانة: "من الصّمغ إنما هي قدر قعدة إنسان"[2]، فالعتَّابي ذكر قدر قعدة الانسان فوق السَّنام، فهي الَّتي أُحلّ لها أكل السَّنام، بعكس قول أبي تمَّام أنَّهم شرعوا في الأكل من الغوارب، والقصد الإفناء مع طول الطَّريق فكأنَّهم حلُّوا محلَّها، وأصبحوا بديلًا عنها، فبهذا يتبيَّن الفرق بين الشَّاهِديْن، مع زيادة المعنى في شاهد أبي تمَّام الَّتي ذكرها ابن رشيق، فالتفت إلى المعنى وخصوصية البيان في الشَّاهِدين.

(١) المصدر السَّابق، (٤٤٤/١).

(٢) "لسان العرب"،(١٦٦/١٣)، مادة: (لبن).

المطلب الخامس: " شاهد المثل السَّائِر"

جعل ابن رشيق باب المثل السَّائِر وسطًا بين باب التَّمثيل –المماثلة– وباب التَّشبيه، وعرَّفه في آخر المماثلة –الاستِعَارة التَّمثيلية عنده– أي أنه تابع للمماثلة، وصدَّر ابن رشيق في باب المثل السَّائِر كلام العرب حول معنى المثل السَّائِر والشارد والشَّرود، فذكر خلاف العرب في معناه، فبعضهم يقول هو المثل الَّذي لا يُردّ؛ لقوته وبلاغته وإمكانه في النَّفس، بالجَمَلِ الَّذي لا يكاد يعرض له أحد لشروده، وهذا الَّذي رجَّحه ابن رشيق، وشاهد أبي تمَّام هذا يدل عليه، ثم بيَّن أنَّ هناك قومًا من أهل العربية يزعمون أنَّ المثل السَّائِر والشرود والشارد يدلّ على المثل الَّذي لا نظير ولا مثيل له، فعندهم أنَّ المثل كلما كان نادرًا، فلم يقله أحد ولم يضرب بأي أحد، فهو المثل السَّائِر، وكذلك إذا كان مثلًا شاذًا، وردَّ عليهم في بيانه للبيت الَّذي ساقه للاحتجاج برأيه وبالقول الأول.

وصدَّر بيت أبي تمَّام شاهدًا على المثل الشَّارد، وهو:

- **الشَّاهِد الحادي والأربعون بعد المئة[1]، قول أبي تمَّام:**

لا تُنكِـرُوا ضَـرْبِي لَـهُ مِـنْ دُونِـهِ مـثلًا شَـرُودًا في النَّـدى والبَـاسِ
فاللَّـهُ قـد ضَـرَبَ الأقـلَّ لِنُـورِهِ مـثلًا مِـنَ المِشْـكَاةِ والنِّبْـرَاسِ[2]

قبل هذا الشَّاهد هناك أربعة أمثال مضروبة قالها أبو تمَّام في بيت له:

إقـدامَ عمـرٍو في سماحـةِ حـاتِمٍ في حلـمِ أحنـفَ في ذكـاءِ إيـاسِ

(١) يُنظر: "العُمْدَةُ"، (٤٥٧/١).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٥٠/٢)، ومطلع القصيدة:

مـا فـي وقُوفِـكَ سـاعةً مـن بـاسِ نَقْضِـي ذِمـامَ الأرْبُـعِ الأدْرَاسِ

من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع والعشرون والخامس والعشرون، قالها يمدح أحمد بن المعتصم.

فالشُّجاعة لعمرو بن معدي كرب، والسَّماحة في حاتم، والحلم عند الأحنف بن عبد القيس، والذَّكاء عند إياس بن معاوية، فهذه الأوصاف أصبحت أمثالًا تدلّ على أصحابها، لكنَّ أبا تمَّام لـمَّا قال تلك الأمثال ووصف بها ابن المعتصم عِيب عليه من الحاضرين، فأردف أبياتًا ذكر أنَّ هذا المثل الشَّرود والسَّائِر الَّذي ضربته للممدوح لا يوجِب الإنكار، ولذلك خاطبهم بواو الجماعة في (لا تنكروا) أي: ضربي هذا المثل؛ لأنَّه شرود كالجمل الصَّعب الَّذي لا يُردّ، ثم علَّل ذلك بذكره البيت الَّذي يليه:

فاللَّـــهُ قـــد ضَـــرَبَ الأقـــلَّ لِنُـــورِهِ مـــثلًا مِـــنَ المِشْـــكَاةِ والنِّبْـــرَاسِ

فالله –سبحانه وتعالى– الَّذي له الكمال والجمال في الأسماء والصفات، مثَّل نوره بالمشكاة الَّتي فيها مصباح، وذلك في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍفِيهَا مِصْبَاحٌ... الآية}[النور: ٣٥]، وقوله: (مثل نوره): أي صفة نوره، والضَّمير عائد لله تعالى؛ أي مثل هداه في قلب المؤمن كمشكاة قاله ابن عباس، أو الضَّمير عائد إلى المؤمن، فتقديره: مثل نور المؤمن الَّذي في قلبه كمشكاة، فسواءٌ هذا التَّقدير أو ذاك، فقد شبَّه قلب المؤمن في صفائه في نفسه، وقابلية الخير والفطرة، بالقنديل من الزُّجاج الشَّفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشَّرع بالزَّيت الجيّد الصَّافي، المشرق المعتدل، الَّذي لا كدر فيه ولا انحراف[1]، وفي الآية تشبيه مركَّب بمركَّب، وأجزاء بأجزاء؛ لأنَّ الآية فيها (مثل نوره) وهذا المشبَّه مركَّب، فنور الله أمور كثيرة، الإسلام والهدى والقرآن والحكمة، وغيرها، والمشبَّه به مركب كذلك، وهو من أمور كثيرة، وعلى هذا فيكون التَّشبيه في الآية تمثيلي في أروع صورة وأبلغ بيان.

(١) يُنظر:"تفسير القرآن العظيم"، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير،(٥٨/٦)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م، بتصرُّف.

فأبو تمَّام يقول لمِن ظنَّ أنَّه أراد أنْ يقلِّل من شأن ممدوحهعندما ذكر مثلًا شرودًا قد ضُرب: هذا لا يمنع، فمكانة الممدوح معروفة، فإنَّ الله –سبحانه وتعالى– قد ضرب مثلًا لنوره من أشياء أقلَّ من النُّور، وهذا لا يمنع رِفْعة وعلو قدر ذلك النُّور.

استشهد ابن رشيق بهذاالشاهد على قول العرب في المثل الشَّرود والشَّارد، ثم بيَّن ابن رشيق أنَّ المثل الشَّرود والشَّارد أي: سائر، ووضح معناه بأنَّه لا يُردّ كالجمل الصَّعب الشَّارد، الَّذي لا يكاد يُعرض له ولا يُردّ[1]، وساق هذا المثل في الردّ على مَن قال أنَّ المثل الشَّرود هو المثل الَّذي لا نظير ولا مثيل له، فقال –رحمه الله–: "وزعم قوم أنَّ الشَّرود ما لم يكن له نظير كالشَّاذ والنَّادر، فأما قول أبي تمَّام وكان إمام الصَّنْعَة ورئيسها:

لا تُنكِـرُوا ضَـرْبِي لـهُ مِـنْ دُونِـهِ مـثلًا شَـرُودًا في النَّـدى والبَـاسِ
فاللَّـهُ قـد ضَـرَبَ الأقـلَّ لِنُـورِهِ مـثلًا مِـنَ المِشْـكَاةِ والنبْـرَاسِ

حين عِيب عليه قوله في ابن المعتصم:

إقـدامَ عمـرٍو في سماحـةِ حـاتِمٍ في حلـمِ أحنـفَ في ذكـاءِ إيـاسِ

فإنِّه يشهد للقول الأول؛ لأنَّ المثل بعمرو وحاتم مضروب قديمًا، وليس بمثل لا نظير له كما زعم الآخر"[2]، وهنا وقفة؛ فقد وصف ابن رشيق أبا تمَّام أنَّه إمام الصَّنْعَةورئيسها، وكأنَّه يردّ على مَن جعل مسلم بن الوليد إمامًا لها، فأراد تأكيد ذلك.

(١) يُنظر:"العُمْدَةُ"، (٤٥٧/١)، بتصرُّف.
(٢) المصدر السَّابق، (٤٥٧/١).

المطلب السَّادس:"رؤية ابن رشيق الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

تتمتَّع الدِّراسة البلاغية والنَّقدية في البحث العِلْمِي، وتتكوَّن وظيفتها وعناصرها الأساس في الوقوف على تجسيد الرؤى الفكرية لعلَّماءها الأجلاء، فتخرج تلك التَّفسيرات والخلفيات؛ لتنمَّ عن موقفهم إزاء شعر الشَّاعر، فالدِّراسات العِلْمِية أشعلت نار البحث العِلْمِي، فراح نورها يهدي طلَّاب العِلم، يسندهم في ذلكعلماء أجلاء متخصِّصون في فنون العِلم، فلم يعد الخوف يطرأعلى ما خطَّته أنامل العُلماء القدماء.

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ الدَّارس وجد من هذا الحديث مدخلًا ليرقب تحرُّكات قلم ابن رشيق تجاه شعر أبي تمَّام، فراح يرصدها على اجتهاد وتقصير منه، فبات على أشدِّ ما يكون من نظرة متأنيَّة، ثاقبة، تتكاثر حولها الدِّراسات المساعِدَّة في استخلاص فكر هذا العالم الفذ، فراحت تلك الرُّؤية تؤتي ثمارها على النَّحو التَّالي:

ففي المطلب الأول رصد ابن رشيق شاهدًا من شعر أبي تمَّام، استشهد به على استِعَارة بعيدة واضحة غير متَّكلفة، وهي عند بعض العُلماء استِعَارة حسنة، وكأنَّه بذلك يعتذر لشواهد الاستِعَارة البعيدة الواضحة غير المتكلَّفة من شعر أبي تمَّام، فأظهر هذا الشَّاهِد أقوال العُلماء تجاه الاستِعَارة البعيدة والقريبة، فبيَّن أنَّ غالبيتهم تُرجح الاستِعَارة القريبة؛ لملاءمة المستعار للمستعار فيه، وهذا يدل بالضَّرورة على سعة علمه، وأنَّه آية في العِلم، والأدب، والحفظ، فأصبح القائل بأنَّ كل استِعَارة بعيدة واضحة غير متكلَّفةقولٌ وجيه، لكن السُّوء المتفق عليه في البُعد مع التَّكلُّف، والإغراق، والغرابة، فقال في شأن العُلماء تجاه الاستِعَارة القريبة والبعيدة:"أنَّهم إنما يستحسنون الاستِعَارة القريبة، وعلى ذلك مضى جلَّة العُلماء، وبه أتت النُّصوص عنهم، وإذا استُعِير للشيء ما يقرب منه ويليق به، كان أولى ممَّا ليس منه في شيء، ولو كان البعيد أحسن استِعَارة من القريب، لما استهجنوا قول أبي نواس:

بـــــح صـــــوت المـــــال ممـــــا منـــــك يشـــــكو ويصـــــيح

فأي شيء أبعد استِعَارة من صوت المال؟"[1].

وعندما ساق شاهد أبي تمَّام، بيَّن رجحان قوله على قول أبي الطيّب المذكور آنفًا، وجاء به شاهدًا لرأي ابن وكيع أنَّ خير الاستِعَارة ما بعُد وعُلِم في أول وهلة أنَّه مستعار، فلم يدخله لبس[2].

أمَّا المطلب الثَّاني، فحديثٌ عن شواهد أربعة للاستعارات سيئة بشعة، وبعد الوقوف عليها تبيَّن أنَّ أول تلك الشَّواهِد استِعَارة، وبقيتها تشبيه بليغ، حُذف منه الأداة ووجه الشبَّه، وعندما ساقها ابن رشيق ذكر الاستِعَارة في الشَّاهِد الأول، أمَّا البقية فاستخدم كلمة (جعل) وهذه تُنبئُ بالتَّشبيه، على أنَّه لم يقله، لكنَّه أراد تبيين تشبيه أبي تمَّام للممدوح، فجعله (مفتاحًا، وحبلًا، وبئرًا، ومحراثًا)، ثم أعلن ابن رشيق ركاكة وقبح قول أبي تمَّام ولعن تلك الاستِعَارة؛ فهي أوصاف لاستِعَارة وتشبيه بعيدة،وبشعة، وقبيحة.

أمَّا المطلب الثَّالث، فقد ساق عقب شواهد الاستِعَارة السَّيّئة شاهدًا لاستِعَارة وصفها بالمليحة البديعة، فناسب ذكر الحسن بعد القبيح، فكأنه يوضِّح أنَّ الشِّعْر عندهم بين هذا وذاك، وقد اقتبس أبو تمَّام بيته الَّذي ضمَّنه ابن رشيق شاهدًا من آية قرآنية، فخرجت الاستِعَارة بوجهٍ مليحٍ بديعٍ، هو المشاكلة، فحسنت غاية الحسن بسبب هذا الاندماج.

أمَّا المطلب الرَّابع، فقد حوى شاهدًا على استِعَارة كأنَّها حقيقة؛ لتمكُّنِها وقربها، فجاء بشاهد لأبي تمَّام ووصفه بأنَّه أخذه من العتَّابي وزاد عليه في المعنى، فابن رشيق ظهر بلباس العالم الَّذي يوازن بين شعر وشعر، ويذكر الحكم والعلَّة في ذلك، لا سيَّما وقد جاء بشواهد سبقته في ذات المعنى.

(١) المصدر السَّابق، (٤٣٦/١).

(٢) يُنظر:المصدر نفسه، (٤٣٧/١)، بتصرُّف.

أمَّا المطلب الخامس، فكان في المثل السَّائِر وقصد منه الاستِعَارة التَّمثيلية، وفي المطلب غُنية عن ذكره.

وأخيرًا، لقد نظر ابن رشيق في استعارات أبي تمَّام نظرة الفاحص المدقِّق، ولم يتَعَصَّبُ لقول على قول، دون موازنة منه، وبذلك التَّمحيص مال بالمساواة بين استعارات أبي تمَّام الحسنة والقبيحة، فكأنه إذا أحسن ارتفع شعره، وإذا أساء جاء بالبشاعة، والرَّكاكة، والسُّوء كله، وهذه خلاصة تلك الرُّؤية، -وبالله التوفيق-.

المبحث السَّادس
" شواهد الاستِعَارة
عند ابن سنان الخفاجي"

- **المطلب الأوَّل: "موازنة استِعَارة (العين) بين ابن نباتة وأبي تمَّام" .**
- **المطلب الثَّاني: "شاهد الاستِعَارة المختارة".**
- **المطلب الثَّالث: "شواهد الاستعارات القبيحة والبعيدة".**

أولًا : شواهد استعارات أخادع الدَّهر .
ثانيًا: شواهد أخرى لاستعارات قبيحة وبعيدة.
ثالثًا : شواهد تشبيه مضمر الأداة أدخلها ابن سنان في باب الاستِعَارة.

- **المطلب الرَّابع:"شاهد لا تسقني ماء الملام".**
- **المطلب الخامس: "شواهد لألفاظ وضعت في غير موضعها ليس على وجه الاستِعَارة ولا الحقيقة".**
- **المطلب السَّادس: "رؤية ابن سنان الفكرية في استعارات أبي تمَّام".**

توطِئة:

يُعتبر "سرّ الفصاحة"سفر ابن سنان(١) العظيم أساسًا بالنِّسبة لمرحلة التَّاليف البلاغي في ذلك الحين، فهو لا يبتعد كثيرًا عن صاحبيْه-أبي هلال وابن رشيق- الَّلذين سطَّر

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، العالم الشاعر الأديب، ولد سنة ٤٢٢ هـ، وهو من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب، وكان أبوه من أشرافها، ولما شبَّ أخذ العلم والأدب على علماء عصره، ثم اتصل بأبي العلاء بمعرة النعمان، فأخذ عنه العلم والأدب، وكان انتفاعه به أكثر من غيره، وهذا واضح في كتابه، مات سنة ٤٦٦هـ، و"سرّ الفصاحة" من الكتب البلاغية النقدية، يتسم بالأسلوب الأدبي العلمي، فلا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالم كما عند عبد القَاهِر، ولا يطغى ذوق العالم على ذوق الأديب كما عند السَّكاكي، أقام كتابه على الفرق بين الفصاحة والبلاغة.يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (هـ)، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، بدون طبعة. بتصرف.
ولقد أشاد ابن الأثير به في مقدمة " المثل السَّائر" وجعله مما ينتفع به، غير أنه فضّل عليه كتاب الآمدي- الموازنة- واستدرك عليهما، فقال: " وبعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام، وقد ألف الناس فيه كتبًا...فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم =الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سرّ الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا، وأجدى محصولا، وكتاب "سرّ الفصاحة" وإن نبه فيه على نكت منيرة..."."يُنظر: " المثل السَّائر"،(٢٣/١).
وفي شأن موضوعات وفصول كتابه فإنه لم يُرتب الأبواب البلاغية ترتيبًا يفصل أجزاء المعاني عن البيان والبديع، ولم يوزِّع موضوعاته على الأبواب الثلاثة، فجعل الاستعارة في القسم الثاني وألحقها بالكلام على الفصاحة، وجعل التشبيه في القسم الثالث وألحقه بالبلاغة مع أنهما من واد واحد، وكلاهما من جسد علم البيان. يُنظر : "سرّ الفصاحة"، (ص: ح)، بتصرف.
وابن سنان كان معاصرًا لابن رشيق(ت:٣٦١هـ)، وللشيخ عبد القَاهِر(ت: ٣٧١هـ)، ومع ذلك لم يستفد من ترتيبهم للأبواب والموضوعات، ولم يُعنى بالفرق بين تلك العلوم، فاختار عبد القَاهِر الجرجاني علم البيان اسمًا لتلك العلوم في كتابه "أَسْرَارُ البلاغة" والحق أن ابن سنان لم يألُ جهدًا في التَّاليف البلاغي والنقدي، فمدرسة عبد القَاهِر طغت على كل المدارس التي سبقته، ومع هذا كله فكتابه يُعتبر نموذجًا فريدًا، من مصادر الكتب البلاغية في القرن الخامس، وفي رأييفأن"سرّ الفصاحة"، يحتاج من يفتش

الباحث بعض أعمالهما الفكرية في المبحثيْن الماضييْن، وذلك في شدة الولع بأفكار أبي الحسن الرُّماني العِلْمِية، وآثاره المَنْهَجِية، وكثيرًا ما يناقشه ويعارضه، أو قد يتَّفق معه، وهذا بالنَّظر في بعض أبواب كتابه، أمَّا من جهة الشَّواهِد، فقد رصدت الدِّراسة شواهد للاستِعَارة من شعر أبي تمَّام سلك فيها منهجًا معتدلًا، فقد نقدها ثم حكم عليها، فلم يسلك هذا المنحى للتَّقليد، أو الرغبة في الخلاف، وهو من أكثر من تعرض لأبيات الطَّائي، وهو يذكر على كل حال شواهد لشعراء آخرين، مرةً يُقدَّم الجاهليين والقدماء ومرةً يُؤخِّرهم، فحظيت الاستِعَارة عناية كبيرة من خلال تلك الاستشهادات الدَّالة على وجود نكتة مجازية، فمرةً يستحسن ومرةً يستقبح، كل ذلك برؤية ناقدة، يشيد كثيرًا بأبيات أبي العلَّاء –شيخه–، ورؤيته العِلْمِية الفاحصة، في كتابه كله تقريبًا، وكل ذلك للنَّظر وراء تلك الألفاظ الَّتي تقع في مواضعها أو لا تقع، وكأنَّه يفسِّر لنا الفصاحة، وأنها مراعاة مقتضى الحال، في عدم تكلُّف أو تقعُّر، أو إغراب عن نهج العرب في كل أبواب البيان، وقال في بداية حديثه عن الاستِعَارة:"ومن وضع الألفاظ موضعها حُسن الاستِعَارة"(١)، ومن دقيق عباراته أنَّه أنهى حديث الاستِعَارة بألفاظ وضعت في غير موضعها، فانتهى بما ابتدأ به، وربط الأوَّل بالآخر والآخر بالأول، وبهذا يتبيَّن بدء اختلاف التَّاليف عن القرن الرَّابع، وبدء إرهاصات ضبط العلُّوم.

ثمَّ رأيته يتَّكأُ كثيراً على تقعيدات الرُّماني في حدِّ الاستِعَارة، والفرق بين الاستِعَارة والتَّشبيه، على أنَّه لا يُسلِّم للرُّماني القول في كل مسألة، بل يستدرَك عليه، ثمَّ قسَّم الاستِعَارة بحسب أصلها إلى مستعار ومستعار منه ومستعار له، ثم قسَّمها إلى

عن خصوصياته ومزاياه، فالبحث هنا مركَّزٌ على مراد ابن سنان من استشهاداته بشعر أبي تمَّام، ويتطرق إلى قضايا في موضوعات علم البيان، التي لها مساس بتلك الشواهد، سواء كانت قضايا بلاغية أم نقدية.

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١١٣).

قريب مختار وبعيد مطَّرح، وذكر كلاماً أشبَّه بكلام ابن المعتز عن المحدثين[1]، وأنَّهم أوردوا الاستِعَارة في أشعارهم كثيرًا، وبيَّن أنَّ أكثر من اشتغل بها، واستعملها أبو تمَّام في شعره، فـ" أورد منه في شعره الجيّد المحمود، والرديء الَّذي هو الغاية في القبح"[2].

ومن منهج ابن سنان العِلْمِي أنَّ الاستِعَارة كلما كانت لا تبنى على استِعَارة أخرى، واكتفت بنفسها عن غيرها كانت أجودَ، وأحسنَ، وأقربَ إلى الصِّحة، إذْ حُسْن الاستِعَارة يكمن في ألفاظ تستغني بنفسها عن غيرها، وهذا المنهج يُصرِّح به في كل وقت دون غضاضة منه، وهذا الشَّرطُ ظهر في أبيات أبي تمَّام الدَّهرية الثَّلاثة، فـ"الاستِعَارة إذا بُنيت على استِعَارة أُخرى قبُحت وبعدت، والواجب أن تكون لها بلا واسطة...."[3]، وسيأتي الحديث عنها في عِدَّة مطالب.

وعلى هذا النَّهج، يسرّد الشَّواهِد ويُقدَّم الأجود منها على غيرها في قامة من قامات النَّقد العربي، ومن منهجه-رحمه الله-اتِّباع الحق، فيردُّ رأي كبار العُلماء، ويعتذر لهم، كأبي القاسم الآمِدِيّ، والصُولي، ويرى أنَّه لولا الحق المبين ما عدل عن اتِّباعهم؛ لصحة فكرهم، وسلامة نظرهم، وعلى هذا يتوِّج ابن سنان صفحات من أعذب الاستدراكات العِلْمِية، فجاء بمنهج وتحليل، وآراء محكَّمة بالبرهان والدَّليل؛ ومن ذلك أنَّه استشهد ببيت امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونـاء بكلكل

الَّذي اختاره الآمِدِيّ، وعدَّ استعارته في غاية الحسن والجودة والصِّحة، بينما عدَّها ابن سنان وسطًا بين الجيّد والرَّديء، فقال:"وبيت امرئ القيس عندي ليس من جيّد الاستِعَارة ولا رديئها، بل هو من الوسط بينهما"[4]، والسَّبب في ذلك أنَّها استِعَارة

(١) يُنظر: "البديع"، (ص:١٥-١٦).
(٢) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١١٤).
(٣) المصدر السَّابق: (ص:١١٧) .
(٤) المصدر نفسه، (ص:١٣٧-١٣٨).

مبنية على غيرها، وهذا منهجه الَّذي ذكرته من ذي قبل، ومن تلك الشَّواهِد الَّتي عكف على تفنيدها، وناقش العُلماء؛ قول أبي تمَّام: (لا تسقني ماء الملام)، فبدأ بمؤيِّدي البيت؛ كالصُّولي، ثم ثنَّى بنقض كلام الآمِدِيّ، ثم بيَّن القول المبيَّن بحجَّة وبرهان، إلى أن قال:"وليس هذا البيت عندي بمحمود، ولا من أقبح ما يكون في هذا الباب "[1]، وبعد نقاشه للعُلَماءِ، لم يترك الأمر على عواهنه، بل بيَّن سبب ذلك النَّقد بأنه لم يكن من المتعصِّبين، فنفى عن نفسه التَّعصُّب، وأنَّ نقده لأبي تمَّام كان على أساس ومنهجية الإنصاف، ولا يريد إلاَّ الحق الَّذي يراه، لأأنه يريد كشف طريقة الاستِعَارة، فقال:"فهذه الجملة تكشف لك عن نهج الاستِعَارة، وتوضِّح كيف تقع الألفاظ موقعها في المجاز"[2]، وفي نهاية باب الاستِعَارة، توقَّف ابن سنان مع ألفاظ وُضِعت في غير موضعها، ليس على وجه الاستِعَارة ولا الحقيقة، واستشهد بثلاثة شواهد من شعر أبي تمَّام، ثم نبَّه أنها موجودة في الكلام كثيراً، فعلى المتأمِّل التنبُّه والقياس عليها.

هذا منهجه بإيجاز، يحتاج إلى تأمُّل ورعاية، وإعادة فكر؛ لأنَّ كتابه، ألَّفه في باكورة التَّاليف البلاغي، فأبوابه غير مرتَّبة، فالباب الَّذي قبل الاستِعَارة هو باب فصاحة التَّراكيب وهو خاص بعلم المعاني، ووضع باب التَّمثيل والتَّشبيه مؤخَّرًا بعد باب المساواة، والمساواة من علم المعاني، وقد تصرَّف الدَّارس في تقديم وتأخير الشَّواهِد لعلَّة التَّقسيم المنطقي، فحصر أولًا شواهد الاستعارات المرذولة، فجعلها في المطلب الأوَّل، ثم حصر شواهد الاستِعَارة المحمودة وجعلها في المطلب الثَّاني، ولم يُغفل عن ترابط أفكار ابن سنان في تداخُل الشَّواهِد.

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٧-١٣٨).

(٢) المصدر نفسه: (ص:١٣٨) .

المطلب الأوَّل: "موازنة استِعَارة العين بين قول ابن نباتة وأبي تمَّام"

بدأ ابن سنان حديثه عن الاستِعَارة فعرَّفها، ثم بدأ يُفرِّق بينها وبين التَّشبيه، ثم قام بتقسيم الاستِعَارة إلى ثلاثة أقسام؛ مستعار ومستعار منه ومستعار له، وهذا التَّقسيم جاء به بعد تحليل الرُّماني لقوله تعالى: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}[مريم: ٤]،ثمَّ بيَّن أنَّ الاستِعَارة على ضربيْن قريب وبعيد، وأنَّ فنَّ الاستِعَارة أورده المحدثون كثيرًا، وإن كان المتقدِّمون بدأوا به، وممَّن أكثر من استعماله حبيب بن أوس الطَّائي، ثم بدأ يذكر شواهده للاستعارات القريبة الحسنة.

- **الشَّاهِد الثَّاني والأربعون بعد المئة[1]، وقوله:**

قَـرَّت بقُـرَّانَ عَـيْنُ الـدِّين فانشَـتَرت بالأشـترينِ عُيُـونُ الشِّـرْكِ فاصـطُلِمَا[2]

شبَّه الدِّين والشِّرك بالإنسان، وحذف المشبَّه به، على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه وهي لفظة (عين)، و(الإنشتار) هو انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل، وقد جمع ابن سنان بين استعارتيْن للفظة (العين)؛ محمودة في بيت ابن نباته؛ لقربها، ومذمومة في بيت أبي تمَّام؛ لبُعدها، فموازنة ابن سنان صحيحة معتبرة، ساق الشَّاهِديْن ووضع اليد على موضع الاستِعَارة، ووازن بينهما، ثم برهن وعلَّل على ذلك، فـ (النّوار) في بيت ابن نباتة يشبَّه (العيون)، فحسنت الاستِعَارة عنده، ثم يُقبِّح استِعَارة أبي تمَّام؛ لأنَّه جعل للدِّين والشِّرك عيون، ولا شيء يشبَّههما، فبعدت الاستِعَارة بذلك، وهذا قول معتبر عند علماء البلاغة والنَّقد والعِلم بالشِّعْر؛ لأن الاستِعَارة القريبة شرط من شروط حسنها، وملاءمة المستعار للمستعار منه، وأن يكون

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١١٨).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام،(١٦٩/٣)، والقصيدة من البحر البسيط ومطلعها:

أصـغَى إلـى البـين مُغْتَرًّا فَـلا جَرَمـا أنَّ النـوى أسـأرتْ فـي قَلْبـه لَمَمَـا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر، قالها أبو تمَّام يمدح إسحاق بن إبراهيم.

وجه الشَّبه ظاهر الشمول للطَّرفيْن، وعليه عامة المتأخِّرين، حتى قال الخطيب:"فاعلم أن لحسنها شروطًا، إنْ لم تصادفها، عريت عن الحسن، وربما تكتسب قبحًا...، ولذلك يوصَى فيه أن يكون الشبَّه بين طرفيْها جليًّا بنفسه أو عُرف أو غيره، وإلاَّ صار تعمية وألغازًا لا استِعَارة وتمثيلاً"(١).وفي هاتين الاستعارتين قال ابن سنان:"وقد كنت مثَّلت في بعض المواضع الاستِعَارة المحمودة والمذمومة ببيتيْنأحدهما قول أبي نصر بن نباتة:

حتى إذا بهر الأباطح والربا نظرت إليك بأعين النُّوار

فنظر أعين النّوار من أشبه الاستعارات وأليَقِها؛ لأنَّ النُّوار يشبَّه العيون،وإذا كان مقابلاً لمن يجتاز فيه ويمرّ به كان كأنه ناظر إليه،وهذه الاستِعَارة الصحيحة الواضحة التَّشبيه.

والبيت الثَّاني قول أبي تمَّام:

قَرَّت بقُرَّانَ عَيْنُ الدِّين فانشَتَرت بالأشترينِ عُيُونُ الشِّرْكِ فاصطُلِمَا

وقرَّت عين الدين وانشتار عيون الشرك من أقبح الاستعارات؛ لعدم وجود الوجه الَّذي لأجله جعل للدين والشرك عيونًا. ومع تأمُّل هذيْن البيتيْن يفهم معنى الاستِعَارة؛ لأنَّ النُّوار والشّرك لا عيون لهما على الحقيقة،وقد قبحت استِعَارة العيون لأحدهما وحسنت للآخر، وبيان العلَّة فيه أنَّ النوار يشبَّه العيون،والدِّين والشِّرك ليس فيهما ما يشبَّهها ولا يقاربها،وهذه طريقة متى سلكت ظهر المحمود في هذا الباب من المذموم"(٢).

(١) "الإيضاح"، (١٤٩/٥-١٥١).

(٢) "سر الفصاحة"، (ص:١١٧-١١٨).

المطلب الثَّاني: " شاهد الاستِعَارة المختارة"

ساق ابن سنان شاهدًا لاستِعَارة مختارة، والشَّاهِد على النَّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد الثَّالث والأربعون بعد المئة[1]، وقوله:**

أيامنـــــا مصـــــقولة أطرافهـــــا بـــك والليـــالي كلهـــا أســـحار[2]

سبق تحليل هذا الشَّاهِد، فاستشهد الآمِدِيّ به على الاستِعَارة الحسنة[3]، وكذلك العسكري[4]، ولا بدَّ من الوقوف على التَّحليل مرة أخرىً؛ لأنَّ ابنَ سنان أضاف إضافة نقدية، فقد شبَّه الشَّاعر أطراف الأيَّام بالمرأة مجلية الأطراف من الكدر والعناء؛ لأنَّ الأيَّام مرتبطة بالممدوح الكريم، والسَّخي، فأصبحت محمودة، وحذف المشبَّه به (المرأة)، على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه في قوله:(مصقولة أطرافها)،و"الصَّقلُ الجلاء، وهو مصقول؛ أي جلاه"[5]، ووصف للمرأة، فالأيَّام محمودة صافية نقية من الكدر، والتَّعب، والإعياء.

وقد وذكر ابن سنان هذا الشَّاهِد بعد الحكم على شاهديْن؛ أحدهما للشَّريف الرضي فوصفه بالحسن، والآخر لأبي ذؤيب الهذلي، وحكم عليه بالتَّوسُّط بين الحسن والقبح، فلما جاء ابن سنان إلى شاهد أبي تمَّام بيَّن أنَّه من قبيل الاستِعَارة المختارة؛

---

(١) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٢٠).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨١/٢)،. ومطلع القصيدة:

لا أنـــتِ أنـــتِ ولا الـــديارُ ديـــارُ خـــفَّ الهـــوى وتولـــتِ الأوطـــارُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد.

(٣) يُنظر: (ص:٢٢٥) من هذا البحث.

(٤) يُنظر: (ص:٢٧٧) من هذا البحث.

(٥) "لسان العرب"، (٢٦٢/٨)، مادة: (صقل).

وذلك لقرب المستعار من المستعار له؛ ولأنها استِعَارة لم تُبنَ على غيرها، وهذه قاعِدَّة ابن سنان وشرطه المحتوم، فهو لا يجامل أبدًا على حساب منهجه وتقعيداته.

وقد خلط ابن سنان بين الاستِعَارة والتَّشبيه المحذوف الأداة، وهذا أمرٌ واضح، فمرةً ذكر أنَّه استِعَارة مختارة، ثم قال إنه تشبيه ظاهر، وقد وصفه ابن الأثير(١) بأنَّه أشدّ خلطًا من الآمِدِيّ، وستأتي شواهد في المطالب القادمة تدلّ على ذلك.

فإذً بيت الطَّائي حكم عليه ابن سنان بأنَّه على وجه الاستِعَارة، وهو تشبيه ظاهر، حيث قال:"وأمَّا قول أبي تمَّام:

أيامنـــــا مصـــــقولة أطرافهـــــا بـــك والليـــالي كلهـــا أســـحار

فمن الاستِعَارة المختارة؛لأنه لما أراد الأيام المحمودة الصَّافية من الكدر والقذى جعلها مصقولة على وجه الاستِعَارة وهذا تشبيه ظاهر"(٢)، وهذا يدلُّ على أن التَّاليف البلاغي في أوله ولم تستقرّ المصطلحات بعد.

(١) يُنظر :"المثل السَّائر"، (٣٦٩/١) .

(٢) "سرّ الفصاحة"،(ص:١١٩).

المطلب الثَّالث: " شواهد الاستعارات القبيحة والبعيدة"

أولًا / شواهد استعارات أخادع الدَّهر

بعد أن انتهى ابن سنان من ذكر شاهد الاستِعَارة المختارة، أتى بثلاثة شواهد لأخادع الدَّهر، أعرض عن اثنيْن، وانفرد بذكر أحدهما؛ لأنَّه تتبَّع القاضي الجرجاني، الَّذي جعل من الشَّاهِد الأول حجَّة لبيت أبي الطيّب في إبعاد المستعار له عن المستعار، ويتبيَّن ذلك في معركة نقدية، قدَّم كل فريق حجَّته، والشَّواهِد هي:

- **الشَّاهِد الرَّابع والأربعون بعد المئة[١]، وقوله:**

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من فَرَقِك[٢]

- **الشَّاهِد الخامس والأربعون بعد المئة[٣]، وقوله:**

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودًا ركوبًا[٤]

- **الشَّاهِد السَّادس والأربعون بعد المئة[٥]، وقوله:**

سأشكر فرجه اللبيب الرخي ولين أخادع الدَّهر الأبي[٦]

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٢٠).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤٠٥/٢)، وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي:"خُرُقِك". والقصيدة من البحر المنسرّح ومطلعها:

كانَتْ صرُوفُ الزَّمانِ مِنْ فَرَقِكْ واكتَنَّ أهْلُ الإعْدَامِ في وَرَقِكْ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث، قالها أبو تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانه، ويهنّيه بالعافية.

(٣) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٢٠).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٦٦/١)، ومطلع القصيدة:

مِنْ سَجايا الطُّلُولِ ألاَّ تُجيبا فصوابٌ مِن مُقْلَةٍ أَنْ تَصوبَا

وهي من البحر الخفيف، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والثلاثون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثَّغري.

(٥) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٢٠).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٥٤/٣)، ومطلع القصيدة:

أَيَا وَيْلَ الشَّجي مِنَ الْخَليِّ وبالي الرَّبعِ من إحدَى بَليّ

يعـدُّ ابـن المعتـز[١]،ثمَّ الآمِـدِيّ[٢] مـن أوائـل مـن نقـد هـذه الشَّـواهِد، ثمَّ القاضـي[٣]، ثمَّ العسـكري[٤]، ثمَّ ابـن سـنان، والقـول النَّقـدي عنـدهم يتَّفـق بقبحهـا واستهجانها؛ لبُعد المستعار لـه عـن المستعار، وقـد وصـفها ابـن سـنان بأنَّهـا مـن أقبـح الاستعارات وأبعدها، فقال:" فإنَّ أخادع الدَّهر والشِّتاء من أقبح الاستعاراتوأبعدها ممَّا استُعِيرت لـه،وليس بقـبح ذلـك خفـاء،ولا يعـرف أبـو تمَّـام الوجـه الَّـذي لأجلـه جعـل للشـتاء والـدَّهر أخـادع إلاَّ سـوء التوفيـق في بعـض المواضـع"[٥]. وقـد سـبق تحليـل هـذه الشَّواهِد عند الآمِدِيّ، والقاضي، والعسكري[٦]، فعلَّه قبَّح هذه الاستعارات عند ابن سنان بعدها لما استعيرت له، فالدَّهر والشِّتاء معنويان ليس لهما أخدعان على الحقيقة، فبان الاستعمال البعيد، لكن الأمر الجديد والمسألة المحدثة هنا هي المعركة العِلْمِية الَّتي قام سُوقها بين القاضي وابن سنان حول استطابة أحد هذه الشَّواهِد والتوسُّع في قبوله موازنة مع قول أبي الطيّب، فهي تُضفي روح البحث حسنًا، وبهاءً، ورونقًا.

وأول ذلك الأمر أنَّ ابنَ سنان أورد أنَّ بعض أصحاب القاضي الجرجاني أبعدوا الاستِعَارة في بيت أبي الطيّب في قوله:

مسـرّة في قلـوب الطيّـب مفرقهـا وحسـرّة في قلـوب البـيض واليلـب

فبـيَّن ابـن سـنان أن الاستِعَارة أبعـد مـا يكـون في هـذا البـاب حيـث قـال:"فمن أبعد ما يكون في هذا الباب، ولا عذر يتوجه له في الاستِعَارة للطِّيب والبيض واليلب

وهي من البحر الوافر، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع، قالها أبو تمَّام يمدح الحسن بن وهب.

(١) يُنظر:"البديع"، (ص:٥٤).

(٢) يُنظر:"الموازنة"، (٢٧١/١).

(٣) يُنظر:"الوساطة"، (ص:٦٨-٦٩).

(٤) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص: ٢٧٢-٢٧٣).

(٥) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٢٠).

(٦) يُنظر: (ص:١٩٠-١٩٢، ص:٢٥١، ص:٢٨٤-٢٨٦) من هذا البحث.

قلوبًا تسرّ وتتحسرّ.وذكر القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني؛ صاحب كتاب الوساطة بين المتنبِّي وخصمه أنَّ بعض أصحابه جاراه أبياتًا، أبعد أبو الطيّب فيها الاستِعَارة وخرج عن حدِّ الاستعمال والعادة، وكان منها هذا البيت الَّذي ذكرناه"[١]، ثم ذكر ابن سنان شواهد أُخرى دهرية، عليها المعوّل في إبراز المعركة.

فخرَّج القاضي لها بعض التخريجات بأنَّ من خرج عن سُنن العرب مصيبٌ له عذر، وإنَّما هو توسُّع من المولّدين والمحدثين، فقال ابن سنان على لسان القاضي:"وإنَّما يحمل ما جاء من ألفاظ المحدثين وكلام المولّدين زائلاً عن السنن على وجوه تقرِّبهم من الإصابة وتقيم لهم بعض العذر، وتلك الوجوه تختلف بحسب اختلاف مواضعه وتتباين على قدر تبايُن المعاني المتضمَّنة له"[٢]. ثم ذكر ابن سنان أنَّ القاضي أراد تخريج بعض شواهد الوساطة الَّتي ذُكر فيها الدَّهر بتوسُّع المولّدين كأبي تمَّام في استِعَارة الأوصاف له، فقال ابن سنان في ذلك: "وسهّله ما تقدَّم من تسامُح الشِّعْراء في نعوت الدَّهر،وتوسُّعهم في استِعَارة الأوصاف له،وإذا قال أبو تمَّام:

(يا دهر قوم من أخدعيكٍ)

فإنما يريد اعدل ولا تجر، وانصف ولا تحف، لكنَّه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل، وأن يقذفوه بالعسف والظلم،وبالخرق والعنف،...وكان الميل والإعراض إنما يكون بانحراف الأخدع وازورار المنكب،استحسن أن يجعل له أخدعًا، وأن يأمره بتقويمه، وهذه أمور حتى حملت على التحقيق وطلب فيها محض التقويم، أخرجت عن طريقة الشِّعْر،ومتى اتَّبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة، أدَّت إلى فساد اللُّغة واختلاط الكلام،وإنما القصد فيها التوسُّط والاجتزاء بما قرب وعرف،والاقتصار على ما ظهر ووضح،وهذه حكاية كلام القاضي أبي الحسن"[٣].

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٢١).
(٢) المصدر السَّابق، (ص: ١٢٢).
(٣) المصدر السَّابق، (ص:١٢٣).

فيرى ابن سنان أنَّ القاضي إنْ كان إيراده لهذه الشَّواهِد الَّتي خرجت عن طريق شعر العرب، وأنها تُفسد اللُّغة كبيت أبي تمَّام، وأنَّ من أسقط أبيات أبي الطيّب الَّتي خرجت عن حدِّ الاستعمال والعادة، وجب عليه إسقاط هذه الأبيات بأجمعها، فالمتنبِّي مشارِك مماثِل لتلك الأشعار، وأنَّه محتذٍ لها غير مبتدع، فعلّته واحدة، وجاز له ذلك، وفي ذلك قال ابن سنان:"وأمَّا اعتذار القاضي له بالأبيات الَّتي ذكرها،فإن كان قصد بذلك التنبيه على أنَّ أبا الطيّب غير مبتدع لهذا الزلل ولا مخترع،بل هو مشارك فيه مماثل له،وقد تقدَّمه من سلك هذا الطريق،ونحا هذا النحو،فإن وجب إطراح شعر أبي الطيّب لهذا السبب وجب إطراح الأشعار كلها؛ لأنَّ العلَّة واحدة، فعلى هذا الوجه الكلام في موضعه"(١).

وإن كان القاضي أراد أنَّ استِعَارة أبي الطيّب أمرٌ قد طُرِق من قبل، ورأى أنَّ له عذرٌ، فلا يُنكر عليه، فليس هذا الرَّأي الَّذي يعتقده صوابًا، فالاستِعَارة يُنظر لها كاستِعَارة محمودة أو غير محمودة، ولا يُنظر إلى أشخاصها بأعيأنَّهم، ولا إلى زمن من الأزمنة، وعلى ذلك يرى ابن سنان فساد هذا الرَّأي، وأنَّهم أخطأوا منهج الاستِعَارة وعدلوا عن الغرض المختار، وفي ذلك قال:"وإن كان القصد بذلك إقامة العذر للمتنبي وترك الإنكار عليه، إذ كان النَّهج الَّذي سلك فيه مطروقًا، فليس هذا الرأي من معتقده بصواب؛ لأن القول في استِعَارة أبي الطيّب إذا كانت بعيدة غير مرضية؛ كالقول في كل استِعَارة كذلك سواء كانت لمتقدَّم أو لمتأخِّر،وليس يتميَّز قبحها بإضافتها إلى رجل من الرجال،ولا زمان من الأزمنة،وإنما هذا شيء يقع للعامة وأشباههم من أغمار الأدباء، فيتخيَّلون أنَّ للحسن والقبح حكمًا يرجع إلى التاريخ

(١) المصدر نفسه، (ص:١٢٣).

ويتعلَّق بالإضافة،... ليس قول ابن أحمر حجَّة لأبي الطيّب،لأنَّا نقول لهما جميعًا: أخطأتما منهج الاستِعَارة، وعدلتما عن الغرض المختار فيها"[1].

ثم رجع ابن سنان للتَّفتيش في كلام القاضي حول شاهد أبي تمَّام:

(يا دهر قوم من أخدعيك)

وبيَّن أنَّ تحليله لا يُغني أبا تمَّام بشيء، فاستعارته قد بُنيت على استِعَارة قَبُحت وبعدت، والصَّحيح أن تكون استِعَارة بلا واسطة فقال: "وقوله فيما بعد إنَّ أبا تمَّام قال:

(يا دهر قوم من أخدعيك فقد)

لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل،وقالوا: قد أعرض عنَّا،وأقبل على فلان وجفانا، والميل والإعراض إنما يكون بانحراف الأخدع وازورار المنكب، كلام لا يغني عن أبي تمَّام شيئًا،لأنَّا قد ذكرنا أنَّ الاستِعَارة إذا بنيت على استِعَارة قبحت وبعدت،والواجب أن تكون لها حقيقة ترجع إليها بلا واسطة،وإذا كان الأمر على هذا وكان قولهم عن الدَّهر: قد أعرض عنَّا وأقبل على فلان،استِعَارة ومجازًا بغير شكّ، لم يحسن أن نجريه مجرى الحقيقة، ونبني عليه أمرًا بعيدًا،حتى نجعل للدهر أخدعًا لأجل قولهم:إنه قد أعرض عنَّا وانحرف"[2]، وهذه التَّعقُّبات النَّقدية تدلُّ على الملكة النَّقدية عند ابن سنان.

ثم التفت إلى القاضي وسأله: هل يستجيز القاضي أن يبني أحدٌ استِعَارة على أخرى بعيدة كما فعل أبو تمَّام؟ فإن أجاب ببلى، ظهر فساد ذلك، وإن قال أمنع ذلك ولا أقبله، قطع ابن سنان بقبح استِعَارة أبي تمَّام، ثم بدأ يُسدي إلى القاضي نصائح يذكِّره فيها بمقامه وعلمه، فقال:"ويُقال للقاضي أبي الحسن هل تُجيز لبعض المحدثين أن يبني استِعَارة أخرى على الأخدع في الدَّهر؛ لأنَّ أبا تمَّام قد استعمل ذلك،ويبني غيره على

(١) المصدر السَّابق، (ص: ١٢٣، ١٢٤).

(٢) المصدر نفسه، (ص:١٢٧).

قول هذا المحدث استِعَارة أخرى بعيدة، ويؤول هذا إلى ما لا نهاية له،حتى يفسد الكلام، وتختلّ العبارة، ويذهب التمييز في الوجوه المحمودة والذميمة ؟ فإن أجاز ذلك بأنَّ فساد قوله لكافة العقلاء،وإن امتنع منه وقال: لا بدَّ للاستِعَارة من حقيقة يرجع إليها ويكون بينهما شبَّه ظاهر وتعلُّق وكيد،قِيل له فبهذا نخاطبك، وله قطعنا على قبح استِعَارة أبي تمَّام للدهر أخدعا،فأعرض الآن عن هذا التعليل منك بالباطل جانبًا،فإنه غير لائق بك وبمن يجري مجراك من أهل العِلم بهذه الصِّناعة"(١).

وحين فرغ ابن سنان من مطارحاته العِلْمِية مع القاضي، حصل مقصوده باستهجان شواهد هذا المطلب، وأعتقد أنَّ القرن الخامس الَّذي حمل مثل هذه العقول الفذَّة مهَّدت بزوغ فجر الشَّيخ عبد القَاهِر الجرجاني، الَّذي له تعليق على هذا الشَّاهِد في"دلائل الإعجاز" أخرجه عن مضماره الَّذي سار عليه من قبله، فاستشهد به في سياق حديثه عن" النَّظم"، وأنَّ اللَّفظة المفردة لا مِزية لها، وإنَّما تُكسب الفضيلة من التركّيب؛ أي النَّحو ومعناه، فقال عن ذلك:"إنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرَّدة، ولا من حيث هي كلم مفرد وأنَّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللَّفظة لمعنى الَّتي تليها، أو ما أشبَّه ذلك ممَّا لا تعلُّق له بصريح اللَّفظ، وممَّا يشهد لذلك أنَّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتًا وأخدعا

وبيت البُحْتَري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذيْن المكانيْن ما لا يخفى من الحسن. ثم إنك تتأمَّلها في بيت أبي تمَّام:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٢٧).

فتجد لها من الثِقل على النَّفس، ومن التنغيص والتَّكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والإيناس والبهجة، ومن أعجب ذلك لفظة الشيء فإنَّك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع"[(١)]، فقبحت عند عبد القَاهِر لثِقَلها. وقد وقف البلاغيون والنُّقاد القدَّماء والمحدثون إزاء هذا الشَّاهِد، ولكن المقام يقتضي الإيجاز وعدم الخروج عن القرون المحددة، إلاَّ فيما يقتضي إبراز أمر أو إكمال رأيٍ يحتاج إلى جلبه باختصار.

ثانيًا / شواهد أخرى لاستعارات قبيحة وبعيدة

- **الشَّاهِد السَّابع والأربعون بعد المئة[(٢)]، وقوله:**

وكم أحرزتْ منكم على قُبح قدِّهَا صُروف النَّوى من مُرْهفٍ حسنِ القدِّ[(٣)]

سبق تحليل هذا الشَّاهِد الدَّال على الاستِعَارة الرديئة عند الآمِدِيّ[(٤)] ثم العسكري[(٥)]، وأبان ابنَ سنان عن سبب وعلَّة بُعْد استعارات أبي تمَّام؛ أنَّها الرَّغبة في الصَّنْعَة، فيتكلّف في ذلك، فذكر ابن سنان أنَّ الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد قبيحة، وبعيدة، لتكلُّفه في الألفاظ، وأنَّ أبا تمَّام يتصنَّع الأبيات ممَّا يُورِد التَّعقيد، ويأتي بالعجائب الغرائب في اشتراك الألفاظ بالمعاني، فقال: "وأمَّا قول أبي تمَّام: وكم أحرزت... فإن استِعَارة القدّ لصروف النوى من أبعد ما يقع في هذا الباب وأقبحه،وإنما يقود أبا تمَّام إلى هذا وأمثاله رغبته في الصَّنْعَة، حتى كأنه يعتقد أن الحسن

---

(١) "دلائل الإعجاز"،(ص:٤٦-٤٧).

(٢) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٢٨).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢/١١٠)، ومطلع القصيدة:

شهِدتْ لقد أقوَتْ مغانيكم ومحَّتْ كما محَّتْ وشائعُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يمدح أبا المغيث الرافقي، ويعتذر له.

(٤) ينظر: (ص: ٢٠٣) من هذا البحث.

(٥) يُنظر: (ص:٢٨٦) من هذا البحث.

في الشِّعْر مقصور عليها،فيُورِد منه لأجل التكلُّف ما لا غاية لقبحه، ويسعده الخاطر في بعض المواضع فيأتي بالعجائب الغرائب"[1]، وقد لاحظ الباحث أنَّ ابنَ سنان كان كان يراوح بين ذكر شواهد الاستعارات القبيحة وشواهد الاستعارات الحسنة اللَّائقة على مذهبه وشروطه، فهي ليست مرتَّبة ترتيبًا منطقيًا، وإنما كانت الفكرة تأسرّه فينساق لها، ثم يؤوب لتفنيد المسائل، فلما انتهى من هذا الشَّاهِد، ذكر أنَّ من مختار الاستِعَارة قول الشَّريف وهكذا، ولعلَّ في ردوده على القاضي لـمَّا جاء إلى بيت أبي الطيّب فجعله استِعَارة رديئة ناسب أنْ يذكر شاهدًا لاستِعَارة قبيحة من شعر أبي تمَّام.

ويذهب الباحث مع ابن سنان ليقف على ثلاثة شواهد لاستِعَارة قبيحة من شعر أبي تمَّام؛ ليتمَّ نقض مسائل هذه الاستِعَارة بالتَّحليل، ويسدِّد عليها الحجَّة والبرهان، والشَّواهِد:

- **الشَّاهِد الثَّامن والأربعون بعد المئة[2]، وقوله:**

لها بينَ أبوابِ الملوكِ مزامرٌ مِنَ الذكرِ لم تُنفَخْ ولا هي تُزهرُ[3]

- **الشَّاهِد التَّاسع والأربعون بعد المئة[4]، وقوله:**

إلى ملك في أيكة المجد لم يزل على كبد المعروف من نيله برد[5]

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص: ١٣٦).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢١٦/٢)، وفي رواية عند التَّبْريزي:" ولا تُتَزَمَّرُ" ويُروى:"ولا هي تُزمرُ".ومطلع القصيدة:

شَجًا في الحَشَى تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ بِهِ صمنَ آمالي وإنِّي لمُفْطِرُ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث عشر، قالها أبو تمَّام في جعفر الخيَّاط.

(٤) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٣٦).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٨٧/٢)، ومطلع القصيدة:

تجرعْ أسىً قدْ أقفرَ الجَرَعُ الفردُ ودعْ حِسيَ عينٍ يجتلبْ ماءَها الوَجدُ

والبيت في الديوان:

لدى ملك في أيكة لجود لم يزل على كبد المعروف من فعله بردٌ

والقصيدة من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والعشرون، قالها أبو

استشهد الآمِدِيّ بهذيْن الشَّاهِديْن، وتمَّ الوقوف على أركان الاستِعَارة فيه(١)، واستشهد به القاضي(٢) والعسكري(٣) على الاستِعَارة الرَّديئة، أما هذا الشَّاهِد:

- **الشَّاهِد الخمسون بعد المئة(٤)، وقوله:**

وتَقَسَّمَ النَّاسُ السَّخاء مُجَزَّا وذهَبْتَ أنتَ برَأْسِهِ وسَنَامِهِ
وتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الإهَابَ وما بَقَى مِنْ فرثِهِ وعروقِهِ وعظامِهِ(٥)

فلم يستشهد به إلا ابن سنان، فقد شبَّه الشَّاعر السَّخاء بـ(الجمل)، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، ورمز له بشيء من لوازمه، كقوله :(رأسه وسنامه وإهابه وعظامه وعروقه وفرثه)، وقصد بذلك أنَّ أعلى مقامات السَّخاء صفة لائقة بالممدوح، فجعل (الرَّأس والسنام) من هذا السَّخاء للممدوح، فأين رأس سنام الجمل من الإغداق والكرم والعطاء المبذول من الممدوح، فالاستِعَارة بعُدت جدًا، والبرهان في ذلك أنَّ أدنى أنواع السَّخاء لا يمكن تشبيهها بالفرث والعروق، فبينهما بونٌ شاسع جدًا لا يمكن تجاهله، ولذلك تعجَّب ابن سنان منه فقال:"ولم يقنع بأنْ استعار للسخاء رأسًا وسنامًا وإهابًا وعظامًا وعروقًا حتى جعل له فرثًا"(٦)، وعلى كل حال فطريقة سؤاله عن الكيفية ممزوجة بالنَّكير.

تمَّام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانه.

(١) يُنظر: (ص:١٩٣-١٩٦) من هذا البحث.

(٢) يُنظر: (ص:٢٤٦، ٢٤٨) من هذا البحث.

(٣) يُنظر: (ص:٢٨٤) من هذا البحث.

(٤) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٧).

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٢٤٦) ومطلع القصيدة:

قلْ للأميرِ أبي سعيدٍ ذي الندى والمَجْدِ زَادَ اللَّهُ في إكرامِهِ
يا وَاهِبَ العِيسِ الهَمُوس برَحْلِها والأعوجيِّ بسرّجِه ولجامِهِ

والقصيدة من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت التاسع والعاشر، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن حسان ويستهديه مركوبًا.

(٦) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٧).

وابن سنان في نقده على هذه الشَّواهِد متَّبعٌ لطريقة الآمِدِيّ، الَّذي يقف على لفظة الاستِعَارة ويشير إلى موضع الخطأ، فيجعل القارئ يفتِّش بنفسه؛ ليقف على الخلل في الشَّاهِد على وفق القاعِدَّة والمذهب المتَّبع للمؤلِّف، فالشَّاهِدان الأوَّلان استشهد بهما الآمِدِيّ[1] حتى كأنَّ العبارة عبارته والاستفهام له، وهذا يدلّ على التَّسامُح بين العُلماء واطلاع بعضهم على مؤلَّفات بعض، فتخرج الجملة برمتها لتعود إلى الأول؛ فمنهم مَن يصرح بها، ومنهم مَن يطويها طيًّا في كتابه، كما مرَّ عند العسكري-رحمهم الله جميعًا-.

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ ابنَ سنان لم يزِد على الآمِدِيّ بشيء، فوجَّه الخطأ في هذه الشَّواهِد على طريقة الاستفهام؛ ليبيِّن أنَّ مذهبه شديدٌ جدًا حيال شروط الاستِعَارة الصَّحيحة، فالاستِعَارة إنْ بُنِيت على استِعَارة أُخرى بُعدت وإنْ اعتُبِر فيها القرب، فقال ابن سنان في تلك الشَّواهِد:"فانظر كيف جعل للذّكر مزامرلم تنفخ، وللمعروف كبدًا تبرد،ولم يقنع بأن استعار للسخاء رأسًا وسنامًا وإهابًا وعظامًا وعروقًا حتى جعل له فرثًا"[2].

ثالثًا / شواهد تشبيه مضمر الأداة أدخلها ابن سنان في باب الاستِعَارة

تناول ابن سنان شواهد عقب شواهد الاستِعَارة المذمومة، فعندما أكمل ابن سنان نقده للشواهد القبيحة والرَّديئة، أتى بشاهديْن يدلان على التَّشبيه المضمر الأداة، هما:

- **الشَّاهِد الحادي والخمسون بعد المئة[3]، وقوله:**

أخرجتمـــوه بُكـــرةٍ مـــن ســـجيته والنـار قـد تُنتضـى مـن ناضـر السَّـلم[4]

(١) يُنظر: "الموازنة"، (٢٦٢/١-٢٦٣).
(٢) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٦، ١٣٧).
(٣) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٣٧).
(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨٩/٣).

- **الشَّاهِد الثَّاني والخمسون بعد المئة[1]، وقوله:**

وإذا أراد الله نشـــــر فضيلـــــة طويـــت أتـــاح لهـــا لســـان حســـود
لـولا اشـتعال النـار فيمـا جـاورت مـا كـان يعـرف طيـف[2] عـرف العـود[3]

هـذان الشَّـاهِدان للتَّشبيهالمضـمر الأداة، سمَّاه المتـأخِّرون التَّشبيه الضـمني، وهـو "ما لا يكون التَّعبير فيه نصًا في التَّشبيه، وإنما بُنِيت العبارة عليه، وطوته وراء صياغتها، فأنـت تـراه هنـاك مضـمرًا مكتومًـا"[4]، وقـد أثـنى عليهمـا ابـن سـنان؛ لأنهمـا مـن قبيـل الحسـنات الَّـتي تُغمَـر في بحـر سـيئات أبي تمَّـام بشـكل عـام، فقـال: "وتعـالى الله كيـف يذهب هذا على مَن يقول: ... ، لكن أعوز الكمال واستولى الخلل على هذه الطِّباع، فالمحمود مَن كانت سيئاته مغمورة بحسناته، وخطؤه يسيرًا في جانب صوابه"[5]، وهذا نقد ذاتي لهذين الشاهدين، وليته وضعهما في باب التَّشبيه، وقد ذكر ابن سنان هذيْن الشَّاهِديْن في معرض المدح، ثم علَّق تعليقًا خاصًا لما سبق من استعارات مذمومة، ولم يقـلْ أنَّهـا شـواهد تـدلُّ علـى استِعَارة محمـودة، لكنَّـه أشـار بعـد سـطور إلى الحاجـة في التَّمثيل بذكر الجيّد والرَّديء، والفاسد والصَّحيح، فقال:"وإنما قادتنا الحاجة في التَّمثيل إلى ذكر الجيّد والرديء،والفاسد والصَّحيح"[6]، ومع ذلك يُفهم أنَّ ابنَ سنان خلط بين التَّشبيه المضمر الأداة والاستِعَارة؛ كما قال ابن الأثير:"ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي –رحمه الله تعالى– قد خلط الاستِعَارة بالتَّشبيه المضمر الأداة، ولم يفرِّق

(١) يُنظر: "سرّ الفصاحة"،(ص: ١٣٧).
(٢) وفي رواية الديوان: "طيب".
(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٧/١).
(٤) "التَّصوير البياني"، (ص:٩٠).
(٥) "سرّ الفصاحة"،(ص: ١٣٧).
(٦) المصدر السَّابق، (ص: ١٣٧).

بينهما، وتأسَّى في ذلك بغيره من علماء البيان"[١]، وستأتي مناقشة هذه المسألة بعد صفحات.

وهنا أمرٌ يوضِّح الفكرة السَّابقة ويزيد الأمر شكًّا، قد يؤول إلى اليقين في مسألة الخلط من نفس كلام ابن سنان، حيث قال: "لكن أعوز الكمال واستولى الخلل على هذه الطباع، فالمحمود مَن كانت سيئاته مغمورة بحسناته وخطؤه يسيرًا في جانب صوابه"[٢]، فهو لم يُظهِر أنَّها استِعَارة ولا تشبيه محذوف الأداة، ولكنَّ السُّؤال يقول ما الَّذي جعل ابن سنان يسْتَشْهِدُ بها في هذا الموطن؟ وقد لا يكون الجواب في هذه الحال قطعي الثُّبوت، فليس في كلامه ما يُبنى عليه، لكن استدلاله بها في هذا الموضع يزيد الشَّكّ في التَّأوُّل أنَّها تدلُّ على التَّشبيه، ولقائلٍ أنْ يقول: لماذا إذن لم يجعلها في باب التَّشبيه؟ ويُجَاب بأنَّ الخلط الَّذي فشا في ذلك الوقت بين الاستِعَارة والتَّشبيه المضمر الأداة كان على أشدِّ ما يكون، حتى جاء عبد القَاهِر وفصَّل في المسألة ووضع المصطلحات، وأحدث التَّقسيمات، وربما أنَّ هذا من عمل النُسَّاخ وهذا أمرٌ قد يرِد؛ لأنَّه ذكر البيتيْن مرتيْن؛مرةً هنا ومرةً في موضع الاستدلال بالتَّمثيل[٣]، والتَّمثيل عنده من أنواع الكناية، وسيأتي الحديث عنه في الفصل الثَّالث.

ومسألة الخلط بين التِّشبيه المضمر الأداة والاستعارة ستنتهي عند ابن سنان، المتأخِّر عن الآمِدِيّ والعسكري، وأقوال العُلماء في هذه المسألة الدَّقيقة تحتاج إلى نوعٍ من التأَّمل، فقد فرَّق بعض العُلماء بين الاستِعَارة والتَّشبيه المضمر الأداة، فهذا القاضي الجرجاني تبيَّن رأيه، وظهر جليًا واضحًا من خلال تعرُّضه للفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة في المبحث الثَّالث[٤]، ثم أيَّده الشَّيخ عبد القَاهِر الجرجاني وأضاف عليه، وفصَّل

(١) "المثل السَّائر"، (٣٦٩/١).
(٢) "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٣٧).
(٣) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٦٣,٢٦٤).
(٤) يُنظر: (ص:٢٥١) من هذا البحث.

الـدَّارس ذلـك في الفصـل الأوَّل في الفـرق بـين التَّشـبيه والاسـتِعَارة[١]، وتكـراره لا تقـوم عليه الفائدة، غير أن مَن أتى بعد الشَّيخ يوافقه في أغلب فروقه، ويفرِّع منها المسائل، كما هو الشأن عند ابن الأثير، الَّذي قال:"وهذا التَّشبيه المضمر الأداة قد خلطه قومٌ بالاستِعَارة ولم يفرِّقوا بينهما، وذلك خطأ محض، وسأوضِّح وجه الخطأ فيه وأحقِّق القول في الفرق بينهما تحقيقًا جليًّا"[٢]، وقد بنى رأيه على عِدَّة مراحل، هي:

المرحلة الأولى: أنَّ التَّشبيه المظهر لا حاجة إلى ذكره؛ لأنَّه لا خلاف فيه.

المرحلة الثَّانية: عند ذكر المشبَّه والمشبَّه به ويسمِّيها: (المنقول والمنقول إليه) كـ(زيد أسد)، فإظهار الأداة وإضمارها حسن التَّشبيه تدلّ على الفصاحة، أمَّا إذا حذف المستعار له (المنقول إليه)، لم يحسن دخول أداة التَّشبيه، فيُقَال عنه استِعَارة.

المرحلة الثَّالثة: أنَّ أداة التَّشبيه المضمر يحسن إظهارها، وهي به لائقة على عكس الاستِعَارة، فإنه لا يحسن إظهار الأداة فيها وغير لائقة بها، وقد يرِد قول بأن يُضمر المستعار له ويقدِّر إظهاره، ففي قول: عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْص، أضمر المستعار له وهو (القدّ)، فعلى ذلك لا فرق بين الإظهار والإضمار، وأشبَّه ظهور وإضمار في التَّشبيه، فردَّ ابن الأثير بأنَّ الحديث والمقام على الاستحسان لا على الجواز، فلو ظهر المستعار له ذهب رونق الاستِعَارة؛ لأنَّ تعريف الاستِعَارة عنده:"نقل المعنى من لفظ إلى لفظ المشاركة بينهما مع طيِّ ذكر المنقول إليه"[٣]. ويرى ابن الأثير أنَّ تعريف الرُّماني فاسد؛ لاشتراك التَّشبيه مع الاستِعَارة فيه[٤]، فإظهار المستعار له خرجت الاستِعَارة عن حدّ الفصاحة والبلاغة، والقصد من تأليف الشِّعْر الحسن والطلاوة، ثم لو سُلِّم بهذا القول، فعندما يقول: (فعجل القضيب وأبطأ الدعص)، فإنه لا يضمر فيه أداة التَّشبيه

(١) يُنظر: (ص:١٤٤) من هذا البحث.

(٢) "المثل السَّائر"، (٣٤٤/١).

(٣) المرجع السَّابق، (٣٥١/١).

(٤) المرجع نفسه، (٣٥١/١).

إلاَّ بعد أن يظهر المستعار له، فيُصبح هنا مضمران، وإضمار أحدهما أخفّ من إضماريْن، وأحدهما معلَّق على إضمار الآخر، ثم بيَّن ابن الأثير أنَّ الاستِعَارة لا تكون إلاَّ أن يُحذف المستعار له[١]. وبهذه المراحل يُظهر ابن الأثير سائلًا يُناقشه فيقوم بالردِّ عليه في كل مسألة، حتى قال عن نفسه في آخر الباب:"فتأمَّل ما أشرت إليه وتدبَّره، حتى تعلم أني ذكرت ما لم يذكره أحد غيري على هذا الوجه"[٢].

وأقام الشَّيخ العلَّوي مذهبيْن على مسألة:(زيد الأسد شجاعة) و(عمرو البحر في الجود والكرم)، فالمذهب الأول يُسمَّى تشبيه مضمر الأداة، والآخر يسمَّى استِعَارة، ولكل مذهب حجَّة ودليل.

فالحجَّة الأولى: أنَّ قولهم: (زيد أسد) فدلالة الاسم (زيد) على الأسد دلالة هيئة الشُّجاعة فحسب، لا الأسد برمته وهيئته الكاملة، وعلى ذلك ينتفي أنَّ زيدًا أسد؛ لأنَّ الذاتيْن لا يكونان ذات واحدة، فليس هنا استِعَارة يحصل منها المبالغة ولا إعارة حاصلة[٣]، وهذا الكلام وجيه.

الحجَّة الثَّانية: أنَّ القصد من الاستِعَارة حصول المستعير منافع ينتفَع بها؛ كقولك(لقيت الأسد)، فالفائدة حصلت من الحيوان المعلوم في الشُّجاعة، بعكس قولك: (زيد أسد)، فلا فائدة ولا منفعة للمستعير غير الإخبار بكونه أسدًا لا غير[٤]. وعلى هاتيْن الحجَّتيْن، تنتهي حجَج المذهب الأوَّل بأنه تشبيه مضمر الأداة وليس استِعَارة.

ثم سرّد حِجَج المذهب الآخر، فالحجَّة الأولى: أنَّ التَّشبيه له آلة وأداة ظاهرة يعرف بها كـ(زيد كالأسد)، وإذا لم يُرَ في المثال أداة ظاهرة، فهو استِعَارة كـ(زيد

(١) يُنظر: المرجع السَّابق، (٣٤٥/١-٣٤٦)، بتصرف.

(٢) المرجع نفسه، (٣٤٦/١).

(٣) يُنظر: "الطراز"، للإمام يحيى بن حمزة العلوي، (١٠٧/١-١٠٨)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م، بتصرُّف.

(٤) يُنظر: المرجع السَّابق (١٠٨/١)، بتصرُّف.

الأسد)[1]، والحجَّة الثَّانية: أنَّ ما كان تشبيه مضمر الأداة كـ(زيد الأسد)و(زيد أسد) له حالتان:

الأولى: أن يكون الكلام متماشيًا مع الاستِعَارة، فإذا قدّرت الأداة، ذهبت الديباجة والرونق فهو استِعَارة وليس تشبيه؛ كقوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}[الإسرّاء: ٢٤]، فـ(الخفض) استِعَارة، فلو جعله تشبيه في غير القرآن، فقال: (اخفض لهما جانبيك الَّذي هو كالجناح)، كان الكلام ركيكًا باردًا[2].

الثَّانية: وأمَّا إذا كان القول متماشيًا مع ظهور أداة التَّشبيه كـ(زيد الأسد)؛ أي كالأسد لم يخرج الكلام عن بلاغته، ثم بيّن أن ظهور الأداة في (زيد الأسد) ظاهر بيِّن؛ لأنه معرَّفٌ باللام وهي للجنس فهو من باب التَّشبيه، أمَّا في النكرة كـ(زيد أسد)، فهو من باب الاستِعَارة الَّتي تدلّ على أنّ زيدًا يشبَّه في واحد من هذه الحقيقة وهي مبالغة، وعلى ذلك يفترقان في المعرفة والنكرة[3]. وفي آخر حديثه عن هذيْن المذهبيْن، أبدى رأيه بأنَّ: الاستِعَارة لا تحتاج إلى أداة تشبيه، والتَّشبيه يفتقر إلى أداة تشبيه، وكلما ازدادت الاستِعَارة حسنًا ورشاقة، كلما خفت صوت التَّشبيه، والعكس؛ كلما ازداد التَّشبيه وظهر على المعنى، كلما درست آثار الاستِعَارة، وفي ذلك قال: "فينحلّ من مجموع كلامنا أنَّ الاستِعَارة لا تفتقر إلى أداة التَّشبيه، وأنَّ التَّشبيه لا بدَّ فيه من ذكر الأداة، وهي الكاف وكأن، ومثل، ونحو، وما شاكلها، فكلما ازداد التَّشبيه خفاءً، ازدادت الاستِعَارة حسنًا ورشاقةً، وكلما ظهر معنى التَّشبيه تعفَّت آثار الاستِعَارة، وامَّحت رسومها وأعلامها"[4].

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (١٠٨/١)، بتصرُّف.
(٢) يُنظر: المرجع نفسه، (١٠٨/١-١٠٩)، بتصرُّف.
(٣) يُنظر: المرجع نفسه، (١٠٩/١)، بتصرُّف.
(٤) المرجع نفسه،(١٠٩/١).

وبعد هذه الإطلالة على إرث العُلماء ، يجد البحث أنَّ ابنَ سنان يرى أنَّ ليس لأحد الكمال، لا يبقى فالخلل على طباع البشر وارد لا محالة، لكن القاعِدَّة عندهأنَّ محمود الشِّعْر مَن كانت سيئاته مغمورة في بحر حسناته،وأنَّ الخطأاليسير لا يبقىمعالصَّواب الكثير، وهذه نظرة ابن سنان العميقة تجاه شعر الطَّائي، وسيكون الحديث مستفيضًا في رؤيته تجاه استعارات أبي تمَّام.

المطلب الرابع: " شاهد لا تسقني ماء الملام"

مَن يتأمَّل شاهد هذا المطلب يجد أنَّ عناصر مسائل الاستِعَارة فيه تُحدث بين البلاغيين والنُّقاد تعددية النَّقد، وأزمة بلاغية ذات علاقة لُغوية بيانية بين الشُّراح من جهة، والنُّقاد من جهة أُخرى، ومع أنَّ ابنَ سنان عدَّه من الشَّواهِد المنكرة عند العُلماء، فقد أُفرد بمطلب مستقلّ لما فيه من المسائل، والنِّقاشات، والعلل، وارتباط بعض الكلام ببعض، ممَّا يجعل توجيه الشَّاهِد، وتأويل مقصده العام والخاص، يروم نحو الغموض، فينساق الباحث بلا تؤدَةٍ إلى استجلاء الافتراض، وربط علاقات الشَّاهِد بنصوص أُخرى مشابهة له في اللَّفظ والمعنى، عند ذلك تتحقَّق صفة التَّعمُّق العِلْمِي، فراح الباحث يدفع تبعاتها العِلْمِية العميقة فخرج المطلب أطول ممَّا عليه جميع المطالب الأخرى، ولو خرجت جميع الشَّواهِد على غراره لطالت الدِّراسة، وامتدت حتى تخرج عن دائرة البعد البلاغي النَّقدي، ومن ثمرته أنَّ الجهد فيه خلاف الجهد في غيره، فرسمت حدود شُعبه رسمًا دقيقًا متناسقًا، يخفّها استعراض علماء البلاغة والنَّقد إلى القرن الخامس؛ ليكشف عن سرّه وقراءة العُلماء له، وهو بلا شكّ من أعمق الشَّواهِد خصوبة، وأكثرها ارتباطًا باستعارات أبي تمَّام الَّتي جناها تأويله في تخريجها، ويؤكِّد أهمية حاله ومقامه؛ والشَّاهِد على النَّحو التَّالي:

- **الشَّاهِد الثَّالث والخمسون بعد المئة[1]، وقوله:**

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي[2]

(١) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٣).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٢/١).ومطلع القصيدة:

قَدْكَ اثَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي

من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الضبي.

كثُر على أبي تمَّام منتقدوه ولائموه في حبه وعشقه، فسدَّد إليهم سهام النَّهي بقوله: (لا تسقني)، والسَّقْيُ: مصدر سقَيتُ سَقيًا، والأسقيَةُ: جمعُ سِقيٍ، وهي السَّحابة، ويُقالُ للرجل إذا كُرِّر عليه ما يكرهه مرارًا: سُقِّيَ قلبُه بالعداوة تَسقِيَةً، وسقى الثوبَ وسقَّاه: أشرَبَه صِبغًا ، والسِقاءُ: ظرف الماء من الجلد، ويُجمع على أسقية[1]، أسقية[1]، قال الزمخشري:" ومن المجاز: سقى ثوبَه مَنَّ امن العُصفُرِ، وسقاه تَسقِيةً:كرّر تَسقِيةً:كرّر غمسَه في الصِّبغِ،وسُقِّيَق لبُهب العداوة،...وسقى العرقُ: سال"[2].

وأمَّا قوله: (الملام)، قال الزَّمخشري: "والملامُ من اللوم، ورجلٌ لوَّامٌ، ولامَه على فعلِه، وتلوَّم نفسَه: استزادها، وأنحى عليه باللائمةِ، وتلوَّم على الأمر ، أي: تلبَّث عليه، وتلوَّم عليَّ قليلا"[3]، فأبو تمَّام يقول لمنتقده في الحب: لا تعاتبنَّ ولا تلومنَّ في عشقي، ولا تكثر باللائمةِ عليَّ. فيصوِّر أبو تمَّام لائِمَه بطولِ لُبثِه على لومه وعِتابِه وتَكرارِ ذلك أكثر من مرَّةٍ، حتى كأنه يملأُ ظَرفَ الماء، وكلمة (الماء): جاءت للكثرة، وهذا يدلّ على تدافُق الكلمات من فِيِّ اللائم عليه، حتى ضجر منه الشَّاعر لِلُبثِه، وطولِ إقامته.

وقوله: "صَبٌّ"، يقال:" صبَّ الماءَ،... قال ابن الأعرابي: صبَّ الرَّجلُ إذا عشِق، يَصُبُّ صبابةً"[4]، وقال الزمخشري:" وهو صبٌّ بها: كَلِفٌ"[5].

وقوله:- "استعذبتُ"، قال الزَّمخشري:"وهم يَستعذِبُونَ الماء: يَستَقُونه عذْبًا ، ومن المجاز: فلانٌ لا يشرب المعذَّبةَ، وهي: الخمرةُ الممزوجةُ"[6]، وقد يُحمَلُ قولُ أبي تمَّام تمَّام في استعذابه البكاءَ على: الخمرةِ الممزوجة، الَّتي تجعل صاحِبَها معذبًا بها، فأسقطَ

(١) "لسان العرب"، (٢١٢/٧)، مادة: (سقي)، بإيجاز.
(٢) "أساس البلاغة"، (ص:٣٥٨).
(٣) المرجع السَّابق، (ص:٦٨٧).
(٤) "لسان العرب"، (١٨٩/٨)، مادة: (صب).
(٥) "أساس البلاغة"، (ص:٤١٠).
(٦) المرجع السَّابق، (ص:٤٩٠).

كلمة: استعذَبتُ على ماءِ البكاءِ، لطول تعلُّقِه به ، وما فيه من أُنسٍ له، كما يفعلُ النُّدماءُ في استعذابِ الشرابِ، وطول المِكثِ عليه، ومثل هذا في استعذاب الملامة، أنه أخذ بعضا لمغاربة بيت أبي الشيص فقال:

أجـدُ اللـذاذة في المـلام، فلـو ردَى أخـذَ الرُّشـا مـنِّ يالَّـذي يَلْحـاني[1]

وجدير بالذِّكر أنَّ أبا تمَّام الَّذي نهى اللائمَ الَّذي شدَّد في عِتابه، ظهر عنده الجانبَ النَّفسي الَّذي أفصح عن مكنون شخصه بعبارة النَّهي؛ فتدافقت قطرات اللَّوعة، والشَّوق والحنين، فالشَّاعر متيَّمٌ، بل يعُدّ نفسه في أعلى أنواع الحُبِّ؛ لما فيه من الصَّبابةُ والكَلَف، واستخدم أنواعًا شتى من الطرائق ، ليُفصِحَ عن أحاسيسِه وشعوره، ومجمل أبيات أبي تمَّام الحكيم على هذه الصِّياغة، فهو يَنْهَى عن شيء، ويقدَّم المبرِّرَ على ذلك، واستقى أبو تمَّام هذا المنهجَ من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن بعض فحول الشِّعْراء، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلا}[الإسرَاء: ٣٢]، فنهى الله سبحانه وتعالى عن الزنا، لأنه فاحشة وطريق سيء، وهذا منهج الأنبياء ، ساقها القرآن على لِسانِ إبراهيم –عليه السلام–قال الله تعالى: {يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}[مريم: ٤٤]، فإبراهيم –عليه السلام–نهى أباه عن عبادة الشيطان، فكأن أباه خطر على باله سؤال: لماذا يا بني؟، فلم يدع الابن أباه ليسأله حتى بيَّن له وجه النهي، وحاصل العلَّة أن الشيطان عدو لله، فكيف تعبد العدو، وتدع الولي الحميد؟

ومن الحديث الشريف قال البخاري: "قال ﷺ: ﴿ لاتَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاتَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾[2]، فبيَّن الرسول ﷺ للصَّحابة رضي الله عنهما لحكمة من عدم الشرب في تلك الآنية، ولعلَّ سائل سأل نفسه فمتى نشربها إذن؟ فلم يدعهم رسول الله ﷺ حتى طمئن قلوبهم بأنها

(١) يُنظر: "معاهد التنصيص"، (٣٨٨/١).

(٢) "صحيح البخاري"، (٢١٣٣/٥).

للكفار في الدُّنيا، وللمؤمنين في الآخرة، ولا شك أنَّ الدُّنيا لا تساوي شيء في قلوب الصحابة ش، فحصل المقصود وامتثلوا لنبيهم ﷺ، وهذا الأسلوب يُطمئِنُ المخاطَبَ ، ويجعلُه يتقبل النهيَ ويقوم بتنفيذه دون تردد.

ومن الشِّعْر: قول عمر بن كلثوم – الَّذي عدَّه ابن سلاّم الجُمَحِي(١)، من أصحاب الطبقة السَّادسة–:

أَلا لا يَجهَلَـــن أَحَـــدٌ عَلَينـــا فَنَجهَـلَ فَـوقَ جَهـلِ الجاهِلينـا(٢)

فكلمة: "لا يجهلن" هي موطن النَّهي.

ويعود الدَّارس إلى الشَّاهِد في بيت أبي تمَّام، فقد حوى استِعَارة في كلمة (لا تسقني ماء الملام...)، فإن الملام ليس له ماءٌ على الحقيقة، ولا ظرف يوضَعُ فيه، وعلى كل حال ، فربما تجرى على أنها استِعَارة تصريحية، أو استِعَارة مكنية، فكيف يكون ذلك؟، فإذا كان الشَّاعر يقصد أنه شبَّه لبث اللَّائم ومكثه على رأسه بالسَّقيِ، فالمحذوف هو المشبَّه، والمذكور هو المشبَّه به (لا تسقني) ، وكأنه يقول له: لا تلبث تُملِي عليَّ اللّوم والعِتابَ، فهذه استِعَارة تصريحية.

وقد تجرى على أنّها استِعَارة مكنية إذا كان قصد الشَّاعر : لا ترْوِني،–من الرَّاوية، وهي المزادة–، ولا تسقني من اللوم ومن الملامة، ولا تُكثِر عليَّ حتى كأنَّك تملأُ ظرف ماءٍ فتصبه في أذنِي، وهذا يدل على أن اللَّائم أكثر على الشَّاعر وأطال عليه، ولبث فوق رأسه طويلا ليُمليَ عليه هذا العِتاب، فشبَّه (الملام) بظرف الماء أو الإناء الَّذي يوضَعُ فيه الإناء، وحذف المشبَّه به (الإناء)، ولكنَّه رمز له بشيء من لوازمه، وهو قوله: لا تسقني، وبقيت له صفةٌ تدل عليه ، لأن السَّقيَ من لوازم الآنية الممتلئة بالماء ، فهي الَّتي تُسقَى، وتُسمَّى هذه العملية الفنيَّة عند أهل البيان، من إضافة أو

(١) يُنظر:"طبقات فحول الشعراء"، (١/١٥١).

(٢) يُنظر: "شرح المعلقات العشر"، (ص:١٢١).

إسناد أحد لوازم المشبَّه به إلى المشبَّه-: استِعَارة تخيلية[1]، فالتَّخيل في الملام الَّذي له إناءٌ يُوضَعُ فيه، ليُقدَّم إلى مَن يشربه، ويرتوي به، بلازم (لا تسقني)، ومن هنا كانت الاستِعَارة المكنية أبلغ، وأكثر تأثيرًا، وأبدع تصويرًا للحوادث من التَّصريحية ولقد أكثر الشَّاعر من الاستِعَارة المكنية في ديوانه ، فالعمل فيها أكثر براعة من الإجراء في الاستِعَارة التَّصريحية ، فهي تبعث الحياة فيما ليس بحيّ، وتثير الحركة، وتقوي الخيال، وتُضفِي بهاءً وجمالًا.

وبعد هذه الوقفات البيانية، يسير الشَّاهِد مع ابن سنان، ومع علماء أجلاّء؛ كالصُّولي والآمِدِيّ، فقدَّموا آراءً لهم وفق معايير ومفاهيم محدَّدة؛ خدموا البيان العربي في قُدرةٍ على البناء والنَّقد والتَّأصيل، وقبل استعراض أقوالهم، ينبغي أن يُحدَّد موقع الشَّاهِد من "سرّ الفصاحة"، فقد ساق ابن سنان هذا الشَّاهِد تبعًا لشاهد ذي الرُّمة:

تيممَّن يافوخ الدجى فصدعنه وجوز الفلا صدع السيوف القواطع[2]

فقال:"وما زال العُلماء بالشِّعْر ينكرون هذه الاستِعَارة على ذي الرُّمة ويعتدُّونها من إساءاته، وقد تجاوز الشريف الرضى في بعض المواضع ذكر الرأس لليل، إلى أن جعل له مخًّا وعظمًا، فقال:

ليالي أسرّي في أصيحاب لذة ومخ الدجى رار وقد دق عظمه

وهو من أردأ ما يكون في هذا الباب وأشنعه"[3].

ولقد توقَّف علماء البلاغة والنَّقد قبل ابن سنان عند هذا الشَّاهِد وقوفًا عميقًا، فقام الصُّولي بالردِّ على مَن أنكر على أبي تمَّام (ماءَ الملام) ، فقال:" وهذا ممَّا عِيبَ عليه، وقد أحكمنا تفسيرَه، وذكرناه في الرسالة"[4]؛ يقصد رسالتَه النَّقدية الَّتي

(١) يُنظر: "الإيضاح"، (١٤٢/١-١٤٣).
(٢) "ديوان"، ذي الرُّمة، (١١٣/١).
(٣) "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٣٣، ١٣٤).
(٤) "شرح الصُّولي لديوان أبي تمَّام"، (١٧٨/١).

بعث بها إلى مزاحم بن فاتك ، وقد صدَّر تفسيرَه باستفهامٍ إنكاري، فقال: "كيف ينكرون ذلك وهم يقولون: كلام كثير الماء، وما أكثرَ ماء شعر الأخطل، قاله يونس بن حبيب، ويقولون: ماء الصبابة، وماء الهوى، يريدون الدَّمع"(١)، ثم أشار إلى أنَّ عبد الصمد بن المعذَّل-وهو محسن عند من يطعن على أبي تمَّام- قال:

أيُّ مـــاءٍ لمـــاءِ وجهـــكَ يبقـــى بعـــد ذُلِّ الهـــوى وذُلِّ الســـؤالِ

كما ذكر أنَّ العرب قد تحمل اللَّفظ على اللَّفظ، فيما لا يستوي معناه ، قال اللهُ –عزَّ وجلَّ-: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}[الشورى: ٤٠]؛ والسَّيِّئة الثَّانية ليست بسيئة؛ لأنها مجازاةٌ...وقال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}[الإسرّاء: ٢٤]، فهذا أجلُّ استِعَارة وأحسنُها، وكلام العرَبِ جارٍ عليه...، وإن أرادوا نظائرَ من الشِّعْر العربي، يقيسون عليها، فهذا قولُ ذي الرُّمة:

أَأَنْ تَرَسَّمْتَ مـــن خَرقـــاءَ منزلـــةً ماءُ الصبابة من عينَيكَ مسجومُ ؟

وقال العتَّابي:

أُكـــاتِمُ لوعـــاتِ الهـــوى ويُبِينُهـــا تخلُّـــلُ مـــاءِ الشَّـــوقِ بـــين جُفُـــوني

فما يكون أن استعار أبو تمَّام مِن هذا كلِّه حرفًا ، فجاء به في صدر بيته"(٢).

فالصُّولي يسوِّغُ لأبي تمَّام، ويُجرِي شعرَه على مثل ما قال المتقدَّمون فيما كان فيه مقَصِّرًا، أومُخِلًا؛ وهذا لا يَصِحُّ ؛ لما فيه من فساد الطريقة وضعفِ الحُجَّة، إذ لا وجهَ لقِياسِ الخطأِ على مثله، ولا يضرُّ عدالةُ النُّقاد ما ظنَّه بهم، حين اعتقد أنَّهم لو عرفوا "ما أنكره النَّاس على الشِّعْراء الحُذَّاقِ ، من القدَّماءِ والمحدَثِينَ لَكثُرَ ، حتى قلَّ عندهم ما عابوه على أبي تمَّام، إذا اعتقدوا الإنصافَ، ونظروا بعينِه"(٣).

ثم بدأ ابن سنان يرد على الصُّولي، فقال:"ومازال النَّاس ينكرون قول أبي تمَّام:

لاتســـقني مـــاء المـــلام فـــإنني صـــب قـــد اســـتعذبت مـــاء بكـــائي

(١) المرجع السَّابق، (١/١٧٨).
(٢) "أخبار أبي تمَّام"، (ص:٣٣-٣٧).
(٣) المرجع السَّابق، (ص:٣٧).

ويحكون الحكاية المعروفة عن سائل سأل أباتمَّام أن ينفذ لهف يإناء شيئًا من ماء الملام ،و ربما نسبها بعضا لرواة إلىعبد الصمد بن المعَذَّل ؛وقد تصرَّف أصحاب ....الإشكال"[(١)].

ثم ذكر ابن سنان خلال حديثه شاهدًا لأبي تمَّام؛ هو:

- **الشَّاهِد الرَّابع والخمسون بعد المئة [(٢)]، وقوله:**

عـــذلًا شـــبيهًا بـــالجنون كأنمـــا قـرأت بـه الورهـاء شـطر كتـاب[(٣)]

استشهد به ابن سنان عرضًا في سياق الحديث عن شاهد الباب"لا تسقني ماء الملام"، وفي معرض الردِّ على أبي بكر الصولي، حيث قال:" وأبو تمَّام القائل: عذلًا.... "[(٤)]، ومعنى الشَّاهِد يدلُّ على أنَّ الشَّاعر التبس عليه معنى العذل ولم يفهم يفهم معناه، فكأنما هو كلام المجانين أو ما تقرؤه المرأة الحمقاء من شطر كتاب لا تدرك له معنى، فشبَّه العذل الشبيه بالجنون؛ كالمرأة الحمقى الَّتي تقرأ نصف كتاب، فلا تعلم معناه، وجه الشبَّه حصول التعب من غير منفعة. ويعتقد الدَّارس أنَّ هذا الشَّاهِد جاء في السياق عرضًا لا قصدًا، وبيَّن أنه بهذا الأمر يُوصَف الملام، فالحديث في الشَّاهِد العام وقضيته الكبرى متسلسل متواصل.

وتعقَّب ابن سنان رأي الآمِدِيّ في هذا شاهِد (لا تسقني)، وأنَّ مقابلة اللَّفظ باللَّفظ مستعمل في الشِّعْر والكلام، فاعتذر الآمِدِيّ لأبي تمَّام عندما (استعذب ماء بكائي) فجعل للملام ماء ليقابل ماء بماء، فلا يراه عيبًا عنده، فقال:"وقال أبو القاسم

---

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٥).

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:١٣٥).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٧٨/١).

والقصيدة من البحر الكامل ومطلعها:

لـــوْ أنَّ دهـــرًا ردَّ رجـــعَ جـــوابِ أوْ كـفَّ مـنْ شـأويهِ طـولُ عتـابِ

الشَّاهِد البلاغي في البيت السادس، قالها أبو تمَّام يمدح مالك بن طوق التغلبي.

(٤) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٥).

الحسن بن بشر الآمِدِيّ ليس قول أبي تمَّام لا تسقني ماء الملام بعيب عندي؛ لأنه لما أراد أن يقول قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماءً؛ ليقابل ماءً بماء، وإن لم يكن للملام ماء علىالحقيقة، فإنَّ الله –جلَّ اسمه– يقول {وجزاء سيئة سيئة مثله}. ومعلوم أنَّ الثَّانية ليست بسيئة، وإنما هي جزاء على السَّيِّئة وكذلك {إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم} والفعل الثَّاني ليس بسخرية، ومثل هذا في الشِّعْر والكلام كثير ومستعمل، فلمَّا كان في مجرى العادة أن يقول القائل أغلظت لفلان القول وجرعته منه كأسًا مرة أو سقيته منه أمرّ من العلَّقم، وكان الملام ممَّا يستعمل فيه التجرُّع، جعل له ماء على الاستِعَارة وهذا كثير موجود"[1]، وهذه المسألة ذكرها الصُّولي في مقابلة اللَّفظ، ثم تجاوزها ابن سنان إلى مسألة أخرى طرقها الآمِدِيّ، بأنَّ العادة جرت بقول القائل جرعته من القول كأسًا مرةً ، فاستعمال الملام للتجرُّع على سبيل الاستِعَارة يجعل له ماء استِعَارة، وهذه استِعَارة يرفضها ابن سنان؛ لأنها بُنيت على استِعَارة أخرى ففسدت، فقال في ذلك: "وأمَّا اعتذاره بأنَّ العادة جارية أن يُقَال: جرعته من القول كأسًا مرةً،فلما استعمل في الملام التجرُّع على الاستِعَارة ،جعل لهماءًعلى الاستِعَارة ،فلعمري إنَّه ذا أقرب مايُعتذَر به لأبي تمَّام في هذا البيت ،وأول بمن جميعما قد ذكر ؛لما قدَّمنا همن فساد التعلُّق بذلك ،لكنَّا قدَّمنا أنَّ الاستِعَارة إذا بُنِيت على استِعَارة ،بعُدت ،وإن اعتبر فيها القرب، فماء الملام ليس بقريب، وإن لم يعتبر فيها لم ينحصر ،وبنى علىك لاستِعَارة استِعَارة أخرى،وأدَّى ذلك إلى الاستحالة والفساد علىما قدَّمناه"[2].

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٦)، وينظر: "الموازنة"، (١/٢٧٧-٢٧٨).

(٢) "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٣٦).

ثم أنَّ ابنَ سنان بعد هذه النظرات النَّقدية ذات الأبعاد والعلَّاقات المتناسبة، توسَّط في الحكم على استِعَارة هذا الشَّاهِد، وأنها استِعَارة لا محمودة ولا مذمومة، فقال في ذلك: "وليس هذا البيت عندي بمحمود، ولا من أقبح ما يكون في هذا الباب"(١).

وبعدما ناقش خصومه، لم يترك الأمر على عواهنه، بل بيَّن أنَّ مقاييس نقده تختلف عنهم، وأنَّه لم يكن من المتعصِّبين، بل نفى عن نفسه التَّعصُّب، وأنَّ نقده كان على أساس ومنهجية الإنصاف، ولا يريد إلاَّ الحق، فلم يُقِم سرّ الفصاحة ليسقِط شعر أبي تمَّام، وهذا الَّذي ذكره، فقال:"وقد قدَّمنا فيما مضى من هذا الكتاب أنَّنا لم نذكر هذه الأبيات الذميمة ،وغرضنا الطعن على ناظمها ، وإنما قادتنا الحاجة في التَّمثيل إلى ذكر الجيّد والرَّديء والفاسد والصَّحيح على ماذكرناه سالفًا،ومعاذا له أن يخرجنا بغض التَّقليد، وحب النَّظر من الطَّرف المذموم في الاتباع، والانقياد إلى الجانب الآخر في التَّسرّع إلى نقص الفضلاء...بل نتوسَّط-إنشاء الله-بينها تيْن المنزلتيْن ،فننظر في أقوالهم، ونتأمَّل المأثور عنهم، ونسلِّط عليه صافي الذهن، ونرهف لهما ضيا الفكر، فما وجدنا هم وافقًا للبرهان، وسليمًا على السبر ، اعترفنا بفضيلة السبق فيه، وأقررنا لهم بحسن النَّهج لسبيله ،وما خالف ذلك وباينه، اجتهدنا في تأويله، وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسن وجوهه "(٢).

ثم بيَّن العلَّة في هذه المناصفة الَّتي قدَّمها، وأنه يريد كشف حقيقة الاستِعَارة فقال:" فهذه الجملة تكشف لك عن نهج الاستِعَارة ،وتوضِّح كيف تقع الألفاظ موقعها في المجاز"(٣).

(١) المصدر السَّابق، (ص: ١٣٦).
(٢) المصدر السَّابق، (ص: ١٣٧، ١٣٨).
(٣) المصدر نفسه، (ص: ١٣٨).

المطلب الخامس: " شواهد لألفاظ وضعت في غير موضعها ليس على وجه الاستِعَارة ولا الحقيقة"

بيِّن ابن سنان أمرًا خرج عن الاستِعَارة والحقيقة في ألفاظ وُضِعت في غير موضعها اللَّائق بها، فالبحث العِلْمِي ينشط لتفسير مثل هذه المسائل، الَّتي يحتار الدَّارسون في فكر العالِم؛ فيقيِّض الله بعده مَن يخرِج مكنون تلك المسائل، فالعِلم قائم على التّراكُم المعرفي، وعلى ذلك فابن سنان استشهد بشواهد ليست استِعَارة ولا حقيقة، فقال:"هاهنا ألفاظ قد وُضِعت في غير موضعها، ليس على وجه الاستِعَارة ولا الحقيقة،فأنا أذكر لك منها ما تجعله دليلاً على الباقي،وتعتبر في الكلام الَّذي تؤثر معرفة حظه من الفصاحة أن يكون خاليًا من مثل تلك الألفاظ،بل كل كلمة منه موضوعة في موضعها اللّائق بها؛ إمَّا حقيقة أو على وجه المجاز السَّائغ المختار الَّذي نبَّهتك على علمه،فمن تلك الألفاظ قول أبي تمَّام..."[1]، فماذا يقصد بهذه الألفاظ؟

وعند التَّفْتِيش في كلامه، ظهر أنه يقصد من ذلك أنها استِعَارة غير صحيحة، أو غير موضوعة في موضعها اللائق بها، فهو مجاز لغوي علاقته المشابهة غير سائغ ولا مختار، يُفهم ذلك من قوله:" بل كل كلمة منه موضوعة في موضعها اللائق بها إما حقيقة أو على وجه المجاز السائغ المختار الَّذي نبَّهتك على علمه"[2]، وكذلك عندما أتى بيت ابن نباتة السَّابق:"فنظر أعين النُّوار من أشبَّه الاستعارات وأليقها"[3]، فدلَّ أنَّ هناك استعارات غير لائقة، وهذا يُتلقَّف من فحوى كلامه. وفي ظنِّ الباحث أنَّ هذا الأمر لم يقُل به أحدٌ من العُلماء في هذه القرون، إلاَّ إشارات من الآمِدِيّ، عندما

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٨).
(٢) المصدر نفسه، (ص:١٣٨).
(٣) المصدر نفسه، (ص:١١٨).

تعرَّض لاستعارات أبي تمَّام المذمومة، قال عنها :"وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره وجدته....،وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصَّواب"(١)، فاستعارات أبي تمَّام عند علماء البلاغة والنَّقد في تلك الحقبة محمودة أو مذمومة، أو بعيدة أوقريبة، ولم يقل أحدٌ منهم ألفاظًا وُضِعت في غير موضعها، ليست استِعَارة ولا حقيقة إلاَّ ابن سنان، ثمّ إنَّ المتتبِّع لأصول مذهب ابن سنان ونظرته للاستِعَارة في ظل جميع الشَّواهِد في الباب، يحظى بمقصده من تلك الألفاظ الَّتي وُضِعت في غير موضعها، بأنهَّا استِعَارة غير لائقة بالحال والمقام، واللَّفظ والمعنى، فأخذ عبارة (البعد من الصَّواب) من الآمِدِيّ، وأخرج ثلاثة شواهد من شعر الطَّائي من دائرة الاستِعَارة الموافقة للصَّواب، وكأنّه جعل الاستعارات المذمومة والقبيحة الَّتي ذكرها من الاستعارات الصحيحة، ومن قبيل الصَّواب، والشَّواهِد هي:

- **الشَّاهِد الخامس والخمسون بعد المئة(٢)، وقوله:**

سعى فاسْتنزلَ الشرفَ اقْتِسَارًا(٣) ولَوْلاَ السَّعْيُ لم تَكُن المسَاعي (٤)

شبَّه (الشَّرف) بـ(الفارس) على جواده، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، وكأنَّها صورة صراع، وإنزال وخفض، وإذلال، وهذا مدح غير لائق بالممدوح ألبته، فهي استِعَارة غير لائقة، غير صحيحة، ووقف ابن سنان على هذا الشَّاهِد وسَّلط نقده على لفظة (استنزل الشرف)، فذكر أنه أخطأ فيها؛ لأن المدح لا يكون باستنزال الشَّرف والحطِّ منه، وكأنَّ ابنَ سنان يقول لأبي تمَّام: أردت مدحه فهجوته، وفي ذلك قال ابن سنان:"فإن استنزال الشَّرف ليس بحقيقة فيه ولا على وجه الاستِعَارة

(١) "الموازنة"، (٢٦٥/١).

(٢) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص: ١٣٨).

(٣) وفي رواية ذكرها محقِّق شرح التَّبْريزي: "اقتدارًا".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٣٩/٢).والقصيدة من البحر الوافر ومطلعها:

خذي عبراتِ عينكِ عنْ زماعي وصوني ما أَزَلْتِ مِن القِناعِ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس عشر، قالها أبو تمَّام يمدح مهدي بن أصرم.

الصحيحة؛ لأنَّ الشَّرف إذا حُطَّ وأُنزِل، فقد وُصِف بما لا يليق به من الإنزال والخفض،والمحمود في هذا أنَّ يُقَال:رفعت منار الشَّرف وشيَّدته،فهو سامٍ على الكواكب، وعالٍ عن درجة الأفلاك،فأمَّا:استنزلته،فلا يحسن في هذا الموضع البتة،وقد كان يمكنه أن يعبِّر عن نيله الشَّرف ووصوله إليه بغير استنزاله،فإنَّ الرجل الشَّريف الأبيّ لو ذُمَّ، لكان أبلغ ما يُذمّ به أن يُقَال: حططت شرفك ووضعت منه،وما يجري هذا المجرىفهذا هو وضع الألفاظ في غير الموضع الَّذي يليق بها"[1]. وهذا الشَّاهِد عدَّه أول أول الشَّواهِد لألفاظ ليست بالحقيقة، ولا تدلُّ على الاستِعَارة الصحيحة.

- **الشَّاهِد السَّادس والخمسون بعد المئة [2]، وقوله:**

جذبت نداه غدوة السبت جذبةً فخرَّ صريعًا بين أيدي القصائد[3]

شبَّه النَّدى في لفظة (جذبت نداه)، بالَّذي يجرُّ ويسحب أمرًا ما، وحذف المشبَّه به على سبيل الاستِعَارة المكنية، وكذلك في قوله: (فخرَّ صريعًا)، شبَّه الممدوح بالمصروع لمرض، وهذا الوصف لا يكون في أقل النَّاس شأنًا، فكيف وهو يمدح خالد بن يزيد الشَّيباني، فهي إذن استِعَارة غير لائقة، وغير صحيحة، وبعدت عن الصَّواب الاستِعَارة ولفظة(فخرَّ صريعًا) وهذه لا تكون في حق ممدوح مهما كان، فهو لا يُعطي إلاَّ باختيار وكرم وكيفية معينة تدلّ على الاطمئنان والراحة، أمَّا الَّتي وصفها الشَّاعر ، فهي ذمّ بلا شكّ ولا ريب، والاستِعَارة في قوله: (جذبت نداه، وعليه يقول:"لأنَّ هذا الموضع لا يليق به-جذبت-والممدوح يُوصَف بأنه أعطى طوعًا واختيارًا وحبًّا للكرم وصبابة إلى الإحسان، وإذا جذب النَّدى حتى يخرَّ صريعًا، فليس من الطوع بشيء،

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٨).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٣٩).

(٣) "ديوان"، أبي تمَّام، (٥/٢)، ومطلع القصيدة:

يقولُ أناسٌ في حَبيناءَ عاينُوا عِمارةَ رَحْلي من طريفٍ وتالدِ

وهي من البحر الطويل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الرابع، قالها أبو تمَّام يمدح خالد بن يزيد بن مزْيد الشيباني.

إنما ذلك لفظ القسرّ والغلبة والجبر،وهذا لا يكون مدحًا،إنما هو صريح الهجو ومحضه"[١]. ويخطر ببال الدَّارس أنَّ ابنَ سنان اطَّلع على ما كتبه الآمِدِيّ عن مجموعة مجموعة من شعر الطَّائي فاستحسن رأيه، عندها قال: "وأشباه هذا ممَّا إذا تتبَّعته في شعره، وجدته؛ فجعل كما ترى-مع غثاثة هذه الألفاظ-...، وجذب ندى الممدوح بزعمه جذبةً حتى خرَّ صريعًا بين يدي قصائده...، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب"[٢]، فاصطفى ابن سنان من قوله: البعد عن الصواب، فكرة الألفاظ الَّتي لا تكون استِعَارة صحيحة من كلام الآمِدِيّ، فقال ابن سنان:"لأنَّ هذا الموضع لا يليق به...، وهذا لا يكون مدحًا، إنما هو صريح الهجو ومحضه"[٣].

- **الشَّاهِد السَّابع والخمسون بعد المئة[٤]، وقوله:**

ضَعُفَتْ جَوَانِحُ[٥] من أذاقتُه النوى طَعْمَ الفِراقِ فذَمَّ طَعْمَ العلَّقَمِ[٦]

بيَّن في هذا الشَّاهِد استِعَارة غير صحيحة، وغير لائقة بالمقام، وموضوعة في غير موضعها كلفظة (جوانح) الَّتي لا تليق مع طعم الفراق وطعم العلقم؛ لأنها لفظة لا معنى لها وليست من الحواس الَّتي يُضاف إليها الذَّوق في الموضع أليق، وعليه يقول:"لأنَّ دعاءه على مَن ذمَّ طعم العلقم بالإضافة إلى طعم الفراق بضعف الجوانح كلام موضوع في غير موضعه، وذكر الحواس الَّتي يضاف إليها الذَّوق في هذا الموضع

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٩).
(٢) "الموازنة"،(٢٦٥/١).
(٣) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٩).
(٤) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:١٣٩).
(٥) وفي الديوان عند التَّبْريزي: "جوارحُ" .
(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٤٩/٣)، والقصيدة من البحر الكامل، ومطلعها:

نثرتْ فريدَ مدامعٍ لمْ ينظمِ والدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْل المُغْرَمِ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس، قالها أبو تمَّام يمدح ابن شُبانة، أبا الحسين محمد بن الهيثم.

أليق،فأمَّا الجوانح، فلا معنى لها،وقوله:ضعفت، كلام ضعيف هاهنا"[1]، ولكن بالنَّظر إلى رواية التَّبْريزي، فقد أتى بـ(جوارح)بدلًا من(جوانح) والجوارح محسوسة، فطعم الفراق ثم طعم العلَّقم أضعفت جوارحه من أجل عذاب فراقها، فالاستِعَارة في قوله: (أذاقتُه النوى طَعْمَ الفِراقِ)، ويكون الذَّوق أحيانًا بغير جارحة اللِّسان، قال تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}[الدخان: ٤٩]، فالدَّارس يختلف مع ابن سنان؛ فقد استخدمالشَّاعر استِعَارة مقبولة، ووضع ألفاظها في الموضع الصّحيح واللَّائق، فأصبح الشَّاعر يذمُّ طعم العلَّقم بالإضافة إلى طعم الفراق، وهذا يُضعِف الجوارح، وهذا كلام تقبله اللُّغة، فالشُّعْراء المحبُّون تضعف ونهون جوارحهم وأبشارهم لأجل فراق محبوبهم، وهذا أمر يوافقه القياس والصَّواب،ولـمَّا قصد أنها استِعَارة غير صّحيحة جاء بلفظة (ضعف الجوانح)، فقال عنها: "كلام موضوع في غير موضعه، وذكر الحواس الَّتي يضاف إليها الذَّوق في هذا الموضع أليَق، فأمَّا الجوانح، فلا معنى لها، وقوله: ضعفت، كلام ضعيف هاهنا"[2]، فنبَّه أنَّ ذكر (الحواس) هنا مع (الطعم) أليق، فظهر ما توقَّعه الدَّارس أنَّ ابنَ سنان كان يقصد بذلك الاستِعَارة غير الصَّحيحة وغير اللَّائقة بالموضع الَّذي جاءت فيه، وليته ألحقها بالاستِعَارة المذمومة، والقبيحة، والبعيدة.

وفي ظنِّ الباحث أنَّ ابنَ سنان قصد من هذه الاستِعَارة وحقيقتها أنها ليست استِعَارة صحيحة محمودة لائقة بالمقام، ومن الواضح لمن يُقلِّبُ هذه الصفحات الأخيرة من باب الاستِعَارة عند ابن سنان، يجد أنه نبرة قلمه تغيَّرت في حديثه عن هذه الشَّواهِد، فاستعرضها بالتّفنيد واستجلاء المراد منها، فعرض لكل شاهد بالتَّفْتِيش والتَّنْقيب، فبرزت ملكة النَّاقِد الفاحص للمسائل، والنَّظرة البلاغية المسْتَقِلَّة بالمصطلحات الَّتي تقوم وفق العلاقات المتشابهة وغير المتشابهة؛ لأنَّه ذكر هنا ألفاظًا ليست حقيقية ولا استِعَارة محمودة مختارة، فيصبح ابن سنان من أوائل الَّذين وضعوا

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٩).

(٢) المصدر السَّابق، (ص:١٣٩).

أيديهم على نُشوء المصطلحا،. هذا مع ما اجتمع له في المبحث من مسائل نقدية دقيقة؛ كالموازنة بين الشَّواهِد، والمعارك النَّقدية، والاقتدار على التَّكهُّن بالمصطلحات من باطن الشَّواهِد، حتى ولو لم يسمِّها، فليس من ضيق اللَّفظ عليه، ولكنَّها الرغبة في الإيجاز وعدم الوقوف كثيرًا على ما لا طائل وراءه، فالكتاب يجري خلف هدف واحد هو سرّ الفصاحة.

ثم ختم الاستِعَارة بعد هذه الشَّواهِد بتأكيد فكرته وأنها شائعة في الكلام، وما عليك إلاَّ القياس، فقال:"فعلى هذا النَّحو يكون وضع الألفاظ في غير موضعها على الوجه الَّذي لا يوافق الاستِعَارةوحقيقتها،فتأمَّله وقِس غيره عليه، فإنَّك تجده في الكلام كثيرًا"(١).

(١) المصدر السَّابق، (ص:١٣٩).

المطلب السَّادس: " رؤية ابن سنان الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

لعلَّ تعاطي الدَّارس منهج ابن سنان فيما مضى من مطالب، ومسائل، وما لديه من آراء، وردود، ونقاش، دلَّت على تعمُّق ابن سنان وبُعد غوره وفطنته؛ وذلك لتكوين رؤيته الفكرية في استعارات أبي تمَّام، واستشهادًا على مسائل الاستِعَارة الدقيقة، فبعد أن أفاض الدَّارس في المطالب السَّابقة، وما سطَّرته أنامل هذا العالم الهمام، يجدر الوقوف عليها لاستخلاص رؤيته من كل مطلب حتَّى يتحقَّق المراد.

ففي المطلب الأول ذكر شاهدًا لأبي تمَّام وابن نباته على سبيل الموازنة بينهما في لفظة(العين)، فرجَّح كفة استِعَارة ابن نباتة ووصفها بالمحمودة، واستِعَارة أبي تمَّام بالمذمومة، وقد جلَّى ابن سنان استِعَارة أبي تمَّام، وأنَّ سبب ذلك الذَّم بعد المستعار له من المستعار، وأنَّها بعيدة عن الحقيقة، واستخدم في ذلك الأسلوب العلمي في إقناع القارئ بذلك، فحلَّل، ثم حكم، ثم علَّل، وهذه طريقة عجيبة تفترق عن القرن الرَّابع الهجري بكل المقاييس.

أمَّا المطلب الثَّاني، فذكر شاهدًا لاستِعَارة مختارة؛ لأنَّ الاستِعَارة عنده إمَّا قريبة مختارة، أو بعيدة مطَّرحة، فالاستِعَارة في بيت أبي تمَّام تناسب قوي بين المستعار له والمستعار، وشبَّه واضح، وهذا الَّذي قصده بقوله: وهذا تشبيه ظاهر أي واضح.

ثم بيَّن في المطلب الثَّالث –وعلى عادة علماء القرن الرابع– شواهد أخادع الدَّهر الَّتي دُفنت عند ابن سنان، فكل مَن جاء بعده كعبد القَاهِر وغيره، لم يلتفتوا إليها إلاَّ شاهدًا واحدًا[1]؛ لدلالة معينة، وهي استعارات قبيحة غير مرغوب فيها، ونسب ابن سنان القبح إلى سوء توفيق أبي تمَّام، والأهمُّ من هذا كله أنّ الصراع العِلْمِي

(١) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٧).

احتدم بينه وبين القاضي الجرجاني في مسائل تخصّ شاهد أبي الطيّب واستشهاده ببيت أبي تمَّام (يا دهر قوِّم من أخدعيك)، والقاضي يريد التَّسامح في قبول شعر الشُّعْراء إذا أبعدوا الاستِعَارة، لكن ابن سنان لم يقبل تلك الأحاجيج، وقام بتفنيدها على هيئة سؤال وجواب، فقبَّح الاستِعَارة في كلا الشَّاهِدَيْن، ولقد طال نفسه في هذه المخاصمة، وهو حريّ بها لِعِلْمِهِ واتباعه الحق وعدم التَّقليد.

ثم ذكر شواهد الاستعارات القبيحة، وعلَّل ذلك برغبة أبي تمَّام في الصَّنْعَة، وأنَّه يأتي بالعجائب والغرائب، وفي هذا يتبيَّن أن مذهب ابن سنان حيال شروط الاستِعَارة كان شديدٌ جدًا.

ثم ذكر ابن سنان شاهدين أقام الباحث فيها مسألة الفرق بين الاستِعَارة والتَّشبيه المضمر الأداة، وحكى بعض أقوال أصحاب البيان، كعبد القَاهِر الَّذي اتَّكأ المتأخِّرون على آرائه في هذه المسألة.

وأمَّا المطلب الرَّابع، فقد أفرد الدَّارس له شاهدًا واحدًا، حوى في جوفه مسائل علمية، وردود ابن سنان على العُلماء؛ كأبي بكر الصُّولي، وأبي القاسم الآمِدِيّ، فصبَّ حُجَجه عليهم، وردَّ أقوالهم، وقام بالردّ عليهم أسوة بالقاضي الجرجاني، وفيها ما يشفي الغلة، غير أنَّه كان حاد الطَّبع، لا يحابي أحدًا، ولا يجامل في العِلم، وقسوته هذه هي شرارة العِلم، ثم قدَّم في آخر حديثه اعتذاره للعُلَماءِ والنُّقاد، وأنَّه لا يريد التَّنقُّصَ من الفضلاء، أو خلافهم لأجل الخلاف، وقد بُيِّن ذلك في المطلب.

وكان عمله في المطلب الأخير يفترق عن المطالب السَّابقة، فأتى بشواهد لأبي تمَّام أرجع استدلاله بها لألفاظ وُضِعت في غير موضعها على الوجه الَّذي لا يوافق الاستِعَارة وحقيقتها، فبعد التَّفْتِيش والتَّنْقيب خُيِّل للدارس أنه يريد الاستِعَارة غير الصّحيحة وغير اللَّائقة.

وقد دلَّل الدَّارس على صدق حدسه من كلام ابن سنان نفسه، ومن فحوى نقد الآمِدِيّ لبعض الشَّواهِد، فضمَّ هذا النَّقد على ذلك، فخرجت الفكرة وفي المطلب غاية المراد، وابن سنان في كل ذلك يذكر استِعَارة أبي تمَّام القبيحة، فيذكر بعدها شواهد شعراء غيره على الاستِعَارة الحسنة، فكانت هناك لفتة، فهو يذكر القبيح ثم يعقبه بالحسن ليُعطيك البديل.

وبعد هذه الرِّحلة مع إمام فذ، صحيح النَّقد، صائب الفكر، دقيق النظر، شديد التَّنْقيب، استنبط في كل ذلك المسائل، وقلَّب المصادر والمراجع، فغاص على الحقائق، وكشف عن الغوامض، لا أكون مبالغًا إذا قلت أنه خبير بمحاسن الشِّعْر ومساوئه، وقد كان شديد اللَّهجة على شعر أبي تمَّام بما عنده من متانة الحجَّة، وثاقب البرهان، فطبَّق شروط الاستِعَارة الَّتي رسمها في أول باب الاستِعَارة، فلم يخرج عنها قيد أنملة.

هكذا أحسبه، فرؤيته الفكرية تجاه استعارات أبي تمَّام كانت حادَّة الطَّبع مع ما استحسن منها، إلاَّ أنَّ حسنات الشَّاعر تغرق عنده في بحر سيئاته، هكذا رآها ابن سنان وهذا ما آل إليه الطَّلب والسَّعي وراء هذه الاستعارات، فاجتهد الدَّارس في بعضها، يحسب أنه يقترب من الصَّواب، -والله تعالى أعلم-.

المبحث السَّابع

" شواهد الاستِعَارة عند عبد القَاهِر الجرجاني"

- المطلب الأوَّل:"الاستِعَارة في أسْرَار البلاغة ودلائل الإعجاز".
- المطلب الثَّاني:"شاهد الاستِعَارة القريبة من الحقيقة".
- المطلب الثَّالث:"شاهد على مسألَتين للاستِعَارة"

- أولًا: أن إسقاط ذكر المشبَّه من شأن الاستِعَارة.
- ثانيًا: متى صلحت الاستِعَارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح.

- المطلب الرَّابع:"شواهد المبالغة والاستِعَارة والاقتران بشعر النَّابغة".
- المطلب الخامس: "شاهد ترشيح الاستِعَارة وتناسي التَّشبيه".
- المطلب السَّادس:"شاهدان على أنَّ حسن الاستِعَارة يكمن في نظمها".
- المطلب السَّابع: "رؤية عبد القَاهِر الفكرية في استعارات أبي تمَّام".

المطلب الأوَّل:"الاستِعَارة في أسْرَار البلاغة ودلائل الإعجاز"

اختار عبد القَاهِر الجرجاني علم البيان اسمًا للأجناس البيانية في كتابه " أسْرَار البلاغة"، وعُني كثيرًا بتقرير القواعد، حتَّى جاء السَّكَّاكي فرتَّب هذه الأبواب ترتيبًا صحيحًا، وفيه قال ابن خلدون في مقدَّمته: "ثم لم تزل مسائل الفنَّ تكمل شيئًا فشيئًا إلى أن محَّص السَّكَّاكي زبدته، وهذَّب مسائله، ورتَّب أبوابه ، وألَّف كتابه المسمَّى بـ"المفتاح" في النَّحْو، والتصريف والبيان..."(١).

ثم إنَّ الشَّيخ عبد القَاهِر نقل الدَّرس البياني والمجازي من ضيق بعض الأحكام المرتجلة على شواهد استعارات أبي تمَّام المحمودة والمرذولة، إلى سعة الأحكام المعلَّلة والمفسرّة، وإقامة المصطلحات والتَّقسيمات البيانية والتَّحليلات النَّقدية، وجلب لها الشَّواهِد على ذلك، فأضحت الشَّواهِد تخدم فكرته العظمى، فبدأ الشَّيخ كلامه عن الاستِعَارة في "أسْرَار البلاغة" في ثنايا حديثه عن الأصول الكبيرة وهي التَّشبيه والتَّمثيل والاستِعَارة(٢)، ثم راح يتحدَّث عن الحقيقة والمجاز؛ باعتبار أن الاستِعَارة من المجاز، وبيَّن أنَّ المجاز أعمُّ من الاستِعَارة، وأردف حديثه في الواجب في قضايا المراتب أن يبدأ بالعام قبل الخاص فالتَّشبيه كالأصل في الاستِعَارة وهي شبيه بالفرع له، فبدأ حديثه عن الاستِعَارة لموجب يراه حسنًا، فبعد معرفة الاستِعَارة وكشف حالها ، ثم عطف عنان الشرح بالفصليْن الآخريْن –التَّشبيه والتَّمثيل– ، ثم عرَّف الاستِعَارة فقال:"اعلم أنَّ"الاستِعَارة" في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللّغوي معروف تدلّ الشَّواهِد على أنَّه اختصّ به حين وُضع، ثم يستعمله الشَّاعر أو غير الشَّاعر في غير ذلك

(١) "مقدمة ابن خلدون" ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون،(ص:٣٥٧)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، د.ت.

(٢) يُنظر :"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٧)، بتصرُّف.

الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية "[1]، وهذا الَّذي استقر عليه البلاغيون في تعريف الاستِعَارة، فقسم الاستِعَارة إلى قسميْن:

أحدهما: أن يكون لنقله فائدة .

والثَّاني: أن لا يكون له فائدة،"[2]، فملخَّص كلام عبد القَاهِر أنَّ الاستِعَارة منها ما هو مفيد وهو الَّذي أطنب فيه البلاغيون وعنوا به، وأولوه اهتمَّاما كبيرًا؛ لأنه التعبير الَّذي ينقل المعنى، ويحلّق به في فضاء الإبداع والفن، فقال:" وأمَّا "المفيد"، فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض، لولا مكان تلك الاستِعَارة، لم يحصل لك"[3]. وأمَّا المعنى الثَّاني؛ وهو عديم الفائدة، فموجزه أنه للتوسع في أوضاع اللُّغة، فيستعملون الشفة للإنسان والمشفر للبعير، ولا معنى وراء ذلك إلاَّ أنك نقلت ذلك المسمَّى إلى غير صاحبه الحقيقي، وهذه الاستِعَارة الَّتي اقتضب عبد القَاهِر في معناها ولم يُولِها اهتمَّاما فائقًا، ، ثم إنَّ المفيدة يشترك فيها أجيال النَّاس وضرب أمثلة على ذلك .

ومهما يكن من أمر، فإنَّ عبد القَاهِر قد عوَّد قارئه إذا بدأ بابًا معينًا يثني عليه، فماذا قال عن الاستِعَارة المفيدة فقال:"اعلم أنَّ الاستِعَارة في الحقيقية هي هذا الضرب دون الأول، وهي أمدُّ ميدانًا، وأشدُّ افتنانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حسنًا وإحسانًا ...، ومن خصائصها الَّتي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللَّفظ، حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عِدَّة من الدُرَر، وتجني من الغصن أنواعًا من الثمر ...، فإنَّك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مُبينة، والمعاني الخفية بادية جلية..."[4]. نعم تلك كانت بعض

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٠).

(٢) المصدر نفسه، (ص:٣٠).

(٣) المصدر نفسه، (ص:٣٢-٣٣).

(٤) المصدر نفسه، (ص:٤٢-٤٣).

خصائص الاستِعَارة المفيدة الَّتي نقلت بعضها، وحسْب المتلقِّي أن يقف عند واحدة من هذه الَّتي ذكرها عبد القَاهِر، فيشرحها ويوضِّحها، فقمنٌ أنه سيخرج بالكثير والكثير من الدرر والثمر، وذلك لا يكون إلاَّ بالنظر والتأمُّل، ويوضِّح عبد القَاهِر أنَّ الاستِعَارة المفيدة لا تخلو أن تكون اسمًا أو فعلاً، قال:" فإذا كانت اسمًا،فإنه يقع مستعارًا على قسميْن: أحدهما:

أحدها: أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه، وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف، وذلك قولك:"رأيت أسدًا"[1]وأنت تعني "رجلاً شجاعًا"...، إنه عُني بالاسم وكُنِّي به عنه ونُقل عن مسمَّاه الأصلي فجُعل اسمًا له على سبيل الإعارة والمبالغة في التَّشبيه.

والثَّاني: أن يؤخَذ الاسم على حقيقته، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشَار إليه، فيقَال: هذا هو المراد بالاسم والَّذي أُستُعِير له، وجُعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبًا منابه، ومثاله قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت، وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يدًا..."[2]، والَّذي فهمت من كلام عبد القَاهِر أنَّ القسم الأول: استِعَارة تصريحية، والثَّاني استِعَارة مكنية.

وعلى الكلام السابق يأتي إلى الكلام الَّذي يدور عليه قطب الاستِعَارة الَّذي يعتمد على التَّشبيه، فلابدَّ من أن تُرى معنى الكلمة المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة كما بيَّنها عبد القَاهِر؛ كاستِعَارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرّعة، وانقضاض الكواكب للفرس والخيل في أرض المعركة إذا أسرّع

(١) كان الأولى بهذا المثال أن يقول :" رأيت أسداً يحمل سيفاً" وهذه من الاستدراكات الجميلة التي استدركها الدكتور محمد شادي على "الدلائل" وعلته في ذلك أن المثال يوهم بأنه أسد حقيقي.يُنظر:"شرح دلائل الإعجاز"، محمد شادي، (ص:٥٣٧)، دار اليقين، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م ، محمد إبراهيم شادي.

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٤٤-٤٥).

في حركته، وبيَّن عبد القَاهِر في موضع آخر ضربًا من الاستِعَارة القريبة من الحقيقة؛ كقولهم:" " أثرى فلانٌ من المجد " و" أفلس من المروءة "[1].

ثمَّ يأتي الشَّيخ بنوعين من الاستِعَارة، وذلك إذا اتخذ الشبه صفة موجودة في كل من المستعار له والمستعار منه على وجه الحقيقة كـ(رأيت قمراً)، أو كما قال عبد القَاهِر (رأيت شمسًا)، فتريد انسانًا يتهلَّل وجهه كالشَّمس، والفرق بين الضربيْن، كما قال عبد القَاهِر:"أنَّالاشتراك ههنا في صفة توجد في جنسيْن مختلفيْن؛ مثل أنَّ جنس الانسان غير جنس الشَّمس، وكذلك جنسه غير جنس الأسد.

ثم أورد الشَّيخ ضربًا ثالثًا من الاستِعَارة، هو أن"يكون الشَّبه مأخوذًا من الصُّور العقلية؛ وذلك كاستِعَارة "النور" للبيان والحجة الكاشفة عن الحق، المزيلة للشك النافية للريب، كما جاء في التنزيل من نحو قوله عز وجل: {وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ}[الأعراف:١٥٧]وكاستِعَارة، "الصراط" للدين في قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيم}[فاتحة الكتاب:٥]...؛ لأنَّ"النور" صفة من صفات الأجسام محسوسة ، والحجة كلام..."[2]، ثم عرض الشَّيخ عرضًا مبينًا مزية هذه الاستِعَارة، ومجليًا عنها الستار، فهذا الضرب تبلغ فيه الاستِعَارة غاية شرفها، ويتَّسع لها كيف شاءت المجال في تفنُّنها وتصرُّفها، ثم بين أساليب هذه الاستِعَارة، فالتقسيم له أصول ثلاثة:

أحدها: أن يؤخَذ الشَّبه من الأشياء المشاهدة والمدرَكة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة، كاستِعَارة النُّور للبيان .

الثَّاني: أن يؤخَذ الشَّبه من الأشياء المحسوسة لمثلها، إلاَّ أنَّ الشَّبه مع ذلك عقلي، كقوله—صلى الله عليه وسلم : ﴿إياكم وخضراء الدمن﴾[3]، وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن، وطيب الفرع مع خبث الأصل .

(١) المصدر السَّابق، (ص:٦٠).

(٢) المصدر نفسه، (ص:٦٥).

(٣) "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة"، محمد ناصر الدين

والأصل الثَّالث: أن يؤخَذ الشَّبه من المعقول للمعقول، وأَّول ذلك وأعمّه تشبيه الوجود من الشَّيء مرةً بالعدم، والعدم مرةً بالوجود، وأمَّا ما عداهما من الأوصاف، فيجيء فيها طريقان:

أحدها: أن يكون التَّشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة ؛ لخلوّها ممَّا هو ثمرتها والمقصود منها، فإذا وصفت جاهلاً بأنه (ميت) وجعلت الجهل كأنه موت، ففائدة الحياة (العِلم) فمتى عدمها الحي، فكأنه قد خرج عن حكم الحي.

الثَّاني: أن لا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم، ولكن على اعتبار صفة معقولة يُتصوَّر وجودها مع ضد ما استُعِيرت اسمه، فيوصَف الأمر بالشِّدة فتقول (فلان لقي الموت) يراد لقي الأمر الأشد الصعب الَّذي هو في كراهة النَّفس له كالموت، فالشَّيء إذا كان صعبًا مكروهًا صفة لا تنافي الحياة ولا يمنع وجودها معه، ما يمنع وجود الموت مع الحياة، وأطنب الشَّيخ بعد ذلك في تفصيل تلك الطريقة[1].

ثم عقد الشَّيخ فصلاً سمَّاه: (فصل في الفرق بين الاستِعَارة والتَّمثيل)، قال فيه:"الاستِعَارة يجب أن تفيد حكمًا زائدًا على المراد بالتَّمثيل، إذا لو كان مرادنا بالاستِعَارة هو المراد بالتَّمثيل، لوجب أن يصحّ إطلاقها في كل شيء يقَال فيه- إنه تمثيل ومثل...، فالتَّشبيه ليس هو "الاستِعَارة"، ولكن الاستِعَارة كانت من أجل التَّشبيه، وهو كالغرض فيها، وكالعلَّة والسبب في فعلها...، ولكنَّ التَّشبيه يحصل بالاستِعَارة على وجه خاص وهو المبالغة..."[2]، ومن شأن الاستِعَارة أنها تسقط ذكر المشبَّه وتدَّعي الاسم الموضوع للمشبَّه به؛ كقولك (رأيت أسدًا) وأنت تعني الرجل الشُّجاع، ويقع الاسم المستعار فاعلاً كقولك: (بدا لي أسدٌ) أو مفعولاً كقولك:

الألباني، (٦٩/١)، دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.

(١) يُنظر:"أسْرَار البلاغة"، (ص:٦٦-٨٠)، بتصرُّف.

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص: ٢٣٨-٢٤٠)، بتصرُّف .

(رأيت أسدًا) أو مجرورًا بحرف جر كقولك: (لا عار إن فرّ من أسد) أو مضافًا إليه كقولك: (يا ابن الليوث من آل عبس). وسيأتي حديث عن شاهد من شعر أبي تمَّام، في المطلب الثَّاني.

ثم ساق الشَّيخ جملة بيَّن فيها أنّه ليس كل مشبَّه به يجوز تسليط الاستِعَارة عليه، كقولك: (أبديت نورًا) تريد علمًا، فالاسم الَّذي يدخل عليه حرف التَّشبيه كقولك:(هو كالأسد) فالاستِعَارة تدخله، أمَّا الَّذي لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشَّبه فيه إلاَّ بعد ذكر الجمل الَّتي يعقد بها التَّمثيل، فإنَّ الاستِعَارة لا تدخله؛ لأنَّ وجه الشَّبه إذا كان غامضًا، لم يجُزْ أن تقتسرّ الاسم وتغصب عليه موضعه، وتنقله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشَّبه، ومثل عبد القَاهِر قول النَّابغة:

فإنَّــك كالَّليــل الَّــذي هــو مــدركي

فإن حذفت الصِّفة واقتصرت على ذكر الَّليل، فهذا محال، وإن لم تحذفها فطريق الاستِعَارة يؤدِّي إلى تعسُّف[1]، ثم ذكر بعد ذلك ما يصلح للاستِعَارة وما لا يصلح لها، والاستِعَارة والمبالغة وتفسيرهما.وسيأتي الحديث عنه في مبحث مستقلّ؛ لارتباطه بشاهد أبي تمَّام في المطلب الرَّابع.

ثم أتى بفرق آخر بين الاستِعَارة والتَّمثيل وهو"أن الشَّبه إذا كان موجودًا في الشَّيء على الانفراد، من غير أن يكون نتيجة بينه وبين شيء آخر، فالاسم مستعار لما أخذ له الشَّبه منه، كالنور للعلَّم، والظلمة للجهل، والشَّمس للوجه الجميل، أو الرجل النَّبيه الجليل. وإذا لم تمكُّن نسبة الشَّبه إلى الشَّيء على الانفراد، وكان مركبًا من حاله مع غيره، فليس الاسم بمستعار، ولكن مجموع الكلام مَثَل"[2]، جاء بهذا الكلام عندما عرض لجملة (أخذ القوس باريها).

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٤٢-٢٤٤)، بتصرُّف.

(٢) يُنظر : المصدر نفسه، (ص:٢٥٩-٢٦٠).

ثم كشف عبد القَاهِر عن المعاني التَّخييلية في فصل:(في الأخذ والسرّقة وما في ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتَّخييل)[1] ووسَّع القول فيها ، فقال:" واعلم أنَّ"الاستِعَارة" لا تدخل في قبيل "التَّخييل"؛ لأنَّ المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللَّفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبَّهٍ هناك، فلا يكون مخبرُه على خلاف خبره. وكيف يعرض الشكّ في أن لا مدخل للاستِعَارة في هذا الفن، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى، كقوله –عزَّ وجلَّ:{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}[مريم:٤]، ثم لا شبَّهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهرًا، وإنما المراد إثبات شبَّه ...، وجملة الحديث أنَّ الَّذي أريده بالتَّخييل ههنا، ما يثبت فيه الشَّاعر أمرًا هو غير ثابت أصلاً، ويدَّعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويُريها مالا ترى، فأمَّا الاستِعَارة، فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف..."[2]، واستشهد من شعر أبي تمَّام، وسيأتي الحديث عن مسألة فيه، هي تناسي التشبيه في المطلب الخامس.

وبعد صفحات وصفحات،ترى عبد القَاهِر يفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة، قال:"اعلم أنَّ الاسم إذا قُصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما، كان ذلك على ما مضى من الوجهين:

أحدهما: أن تُسقط ذكر المشبَّه من البين، حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته، وذلك أن تقول:"عنَّت لنا ظبية"، وأنت تريد امرأة...، والوجه الثَّاني: أن تذكر كل واحد من المشبَّه والمشبَّه به فتقول:"زيد أسد" و"هند بدر" ...، اعلم أن الوجه الَّذي يقتضيه القياس، وعليه يدلّ كلام القاضي في الوساطة، أن لا تطلق الاستِعَارة على نحو قولنا:"زيدأسد"،و"هند بدر"، ولكن تقول هو: تشبيه...،وإذا كان الأمر كذلك، وجب أن يُفصل بين القسميْن، فيسمَّى الأول: "استِعَارة" على الإطلاق، ويقَال في

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٦٣).

(٢) المصدر نفسه ، (ص:٢٧٣– ٢٧٥).

الثَّاني إنه: تشبيه"[1]، وهو مع كل ذلك يضرب الأمثلة،ثمَّ عرض لقضية حقيقة الاستِعَارة في اللُّغة والهيئة؛ليظهِر الفرق بينها وبين التَّشبيه، وفرَّق أيضًا بينها وبين التَّشبيه من طريق وضع الكلام، وخُلاصة كلامه في قوله:"أنَّ الاسم في قولك:"زيد أسد"، مقصود به إيقاع التَّشبيه في الحال وإيجابه، وأمَّا في قولك:"عنت لنا ظبية" و"سللت سيفًا على العدو"، فوُضع الاسم هكذا انتهازًا واقتضابًا على المقصود، وادِّعاء أنه من الجنس الَّذي وُضع له الاسم في أصل اللُّغة"[2].

وعند تجاوز هذه الصفحات المشرقة من كتابه العظيم،راح يفرِّق بين المجاز والاستِعَارة، ويقول:"..."المجاز" أعمّ من "الاستِعَارة"، وأنَّ الصحيح من القضية في ذلك:أنَّ كل استِعَارة مجاز، وليس كل مجاز استِعَارة"[3]، ثم يورد رأيًا للقاضي أبي حسن،فيجعل الاستِعَارة تقريب للتَّشبِيه، ويعدُّون الاستِعَارة في أقسام البديع، فيقولون: ومن البديع الاستِعَارة الَّتي من شأنها كذا...، وردَّ الشَّيخ عليهم بأنَّ ذلك بين الفساد[4]، ثم التفت الشَّيخ إلى إدخال أهل اللُّغة في الاستِعَارة، فابن دريد في الجمهرة ابتدأ بابًا سمَّاه(باب الاستعارات) وهي من الاستِعَارة الحقيقية.وأمَّا الاستِعَارة المقصورة على خلاف ما كان نقله نقل التَّشبيه للمبالغة فلا، قال عبد القَاهِر:"الصواب أن تقصر "الاستِعَارة" على ما نقله نقل التَّشبيه للمبالغة؛ لأن هذا نقل يطرد على حدّ واحد، وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة، فالتطفُّل به على غيره في الذكر، وتركه مغمورًا فيما بيَّن أشياء ليس في نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده، ضعف من الرأي وتقصير في النَّظر"[5]، ثم بيَّن بعد ذلك الاستِعَارة الصحيحة: ما لا يحسن دخول كلم التَّشبيه

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٢٠- ٣٢٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٣٢٧).
(٣) المصدر نفسه، (ص:٣٩٨).
(٤) المصدر نفسه، (ص:٣٩٩)، بتصرُّف.
(٥) المصدر نفسه، (ص:٤٠١).

عليه، وذلك إذا قوي الشَّبه بين الأصل والفرع؛ لأنَّه قال في التَّشبيه:"كلما كان مكان الشَّبه بين الشيئيْن أخفى وأغمض وأبعد من العرف، كان الإتيان بكلمة التَّشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال"[١]، ثم بيَّن عبد القَاهِر أنَّ المنقول من أجل التَّشبيه على المبالغة، أحقّ بالاستِعَارة من طريق المعنى[٢]، وما هو منقول لأجل التَّشبيه كاليد والنعمة فليس استِعَارة، بل مجاز المرسل.

وأمَّا الاستِعَارة في "دلائل الإعجاز"،فذكرها في فصل: (في اللَّفظ يطلق والمراد به غير ظاهره)، وتحدَّث عن ضربيْ الاستِعَارة،فقال:"الاستِعَارة أن تريد تشبيه الشَّيء بالشَّيء فتدع أن تفصح بالتَّشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبَّه به فتعيره المشبَّه وتجريه عليه[٣]، وضرب آخر من الاستِعَارة، وهو أن تجعل الشَّيءالشَّيء ليس له[٤]. وخلاصة القولأنَّ الاستِعَارة التصريحية هي أن تجعل الشَّيءالشَّيء ليس به، كجعل الرجل أسدًا وليس بأسد،والاستِعَارة المكنية هي أن جعل الشَّيءالشَّيء ليس له، كجعل الرياح لها يد وليس لها ذلك[٥].

ثم قال الشَّيخ بعد ذلك:"وأمَّا "التَّمثيل" الَّذي يكون مجازًالمجيئك به على حدّ الاستِعَارة"[٦]، ويقصد من ذلك الاستِعَارة التَّمثيلية،كقولك للرجل يتردَّد في الشَّيء بين بين فعله وتركه:" أراك تقدَّم رجلا وتؤخِّر أخرى...، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحو فيه نحو التَّمثيل"[٧]، يقصد بالتَّمثيل على حدّ التَّشبيه (الاستِعَارةالتَّمثيلية)، ثم ضرب أمثلة أمثلة على ذلك، وساق بعد أن بيَّن تعريف ضربيْ الاستِعَارة بيان مزية تلك

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٣٣).
(٢) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٤٠٢).
(٣) وهذه الاستعارة التصريحية عرفت فيما بعد.
(٤) وهذه الاستعارة المكنية عرفت فيما بعد.
(٥) يُنظر:"شرح دلائل الإعجاز"، (ص:١٢٤).
(٦) وهذه التي سمَّاها المتأخرون الاستعارة التمثيلية.
(٧) "دلائل الإعجاز"، (ص:٦٨-٦٩).

الاستعارات، فقال:"فليس تأثير الاستِعَارة إذن في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به"(١)، فالمزية تتركَّز إذن في إثبات المعنى لا المعنى ذاته، ثم علَّل المزية في الاستِعَارة، فقال:"وأمَّا "الاستِعَارة"، فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة، أنك إذا قلت:"رأيت أسدًا"، كنت قد تلطَّفت لما أردت إثباته له من فرط الشُّجاعة، حتى جعلتها كالشَّيء الَّذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الَّذي نُصب له دليل يقطع بوجوده..."(٢)، فإثبات المزيةوالمعنى بدليله في الاستِعَارة أمر مقصود.

وانطلق الشَّيخ يعلِّق إلى أنَّ التفاوت في الاستِعَارة يكون مرةً عامي مبتذل كقولك: رأيت أسدًا ، ومرةً خاصي نادر وهذا لا يقدر عليه إلاَّ الفحول، ولا يقوى عليه إلاَّ أفراد الرجال؛ كقول ابن الطثرية أو كثير:

وسالت بأعناق المطي الأباطح

ثم دلَّل الشَّيخ على أنَّ حسن الاستِعَارة يكمن في نظمها، فساق ثلاثة شواهد، فالشَّاهِد الثَّاني أحلى من الأول والثَّالث يطبق بالحسن على الأوليْن، ومن هؤلاء الشُّعْراء صاحب هذه الدِّراسة أبي تمَّام، وحسنالاستِعَارة يكمن في نظمها، وسيأتي الحديث في المطلب السَّادس.

وبعد مئات الصفحات جاء الشَّيخ ليثبت قوله أن الاستِعَارة وضروب المجاز على صلة بالنَّظم الَّذي يرفع من قيمة النصّ، وقد تدخل الاستِعَارة في الإعجاز، "فالشَّيخ يعتد بالاستِعَارة، ويثبت لها مكانًا في الإعجاز، لكنَّها ليست الأصل فيه، وإنما الأصل في الإعجاز هو النَّظم "(٣)، وكما هو معروف أن النَّظم نظم معاني وتنسيق دلالات، وموقف عبد القَاهِر من الاستِعَارة له ارتباط وثيق بالنَّظم، الَّذي جاء ليعالجه في كتابه "الدَّلائل"، فراح الشَّيخ بعد ذلك يفرد صفحات مشرقة لمزية

(١) المصدر السَّابق، (ص:٧١).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٧٢).
(٣) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٤٧٥).

الاستِعَارة، وأنَّ الاستِعَارة ليست نقلاً للألفاظ؛ لأن الاستِعَارة مبنية على المبالغة والادِّعاء الَّذي يتناسى معه التَّشبيه، ولهذا فهي أبلغ من الحقيقة، وأنَّ الترقِّي في المبالغة دليل على أنَّ الاستِعَارة للمعنى، ولهذا قال عبد القَاهِر:"ففي هذه الجملة بيان لمن عقل أن ليست "الاستِعَارة" نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنَّها ادِّعاء معنى الاسم لشيء"(١).

ثم عرض عبد القَاهِر لمناقشة الرُّماني والقاضي الجرجاني في تعريف الاستِعَارة بالنَّقل، فالاستِعَارة عند الرُّماني هي:"تعليق العبارة على غير ما وُضِعت له في أصل اللُّغة على سبيل النَّقل"(٢)، والاستِعَارة عند القاضي هي:"ما اكتفي فيه باسم المستعار عن الأصلي، ونقلت العبارة، فجعلت في مكان غيرها"(٣). ثم بدأ الشَّيخ يناقشهم في مسألة النَّقل، ووصفها بالخطأ، وإطلاقهم في الاستِعَارة أنها نقل للعبارة عما وُضِعت له، فلا يصحّ الأخذ به؛ لأنَّ الشَّيخ أراد أن تستعير معنى المشبَّه به أولاً قبل أن تستعير صورته، ليدخل المشبَّه في جنسه، فكأن المشبَّه هو الَّذي ينقل من معناه ويخرج من جنسه، كقوله تعالى على لسان النسوة {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}[يوسف:٣١]، فهن في "لحظة شرود منالذهول أخرجن يوسف—عليه السلام- من بشريته وأدخلنه في جنس الملائكة بهذه الاستِعَارة"(٤).

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ الاستِعَارة لها طابع مميز وخصوصية تتفرد بها؛ وأنها كلما أخفيتها في التَّشبيه زادت حسنًا وغرابة، ثم يتفرَّد بالموازنة، قال الشَّيخ:"وفي

(١) المرجع السَّابق، (ص: ٤٣٤).
(٢) "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، (ص:٨٥).
(٣) "الوساطة"، (ص:٤٥).
(٤) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٥١٣).

الاستِعَارة علمٌ كثير، ولطائف معانٍ، ودقائق وفروق"[1]، يقول الدُّكْتُور محمد شادي:"ومن الواضح أنَّ الموازنات هي المحكّ الرئيسي لبروز الخبرة النَّقدية"[2].

ويعود الشَّيخ عبد القَاهِر ثانية ليدلِّل ويبرهِن على الوثيقة القائمة بين المجاز والاستِعَارة، أنَّ المجاز أعمّ والاستِعَارة أخصّ؛ لأنَّها من المجاز،"ورغم أن الشَّيخ لايكفُّ عن ملاحقة هذا الخطأ، ويستدلّ على بطلانه بالدليل بعد الدليل وقد يكرِّر، إلاَّ أنه كلما عاد أتى بالجديد المفيد، والجديد هنا هو الفرق بين المجاز والاستِعَارة"[3]، هذا ما تيسرّ ذكره لمسائل الاستِعَارة في "أسْرَار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، -وبالله التوفيق-.

(١) "دلائل الإعجاز"، (ص:٤٥١).

(٢) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٥٢٦).

(٣) المرجع السَّابق، (ص:٥٣٧).

المطلب الثَّاني:"شاهد الاستِعَارة القريبة من الحقيقة"

وضَّح عبد القَاهِر في أحد فصول "أسْرَار البلاغة" أنَّ الاستِعَارة اعتمادها التَّشبيه أبدًا، وذكر ضروبًا وأقسامًا للاستِعَارة، كان غرضه التَّدرُّج من الضَّعف إلى القوة، فمن تلك الضروب أن يكون معنى الكلمة المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، ويكون أمرًا قريبًا منهما في جنسهما بلا شبَّهة؛ كقطع المسافات والمرور ويقع الاختلاف بالسرّعة، وذلك لا يوجِب اختلاف الجنس(١)، وذكر أنَّ لذلك الجنس مراتب وخصائص في الفضيلة والنَّقص والقوَّة والضَّعف، فقال:"أن يكون أولًا من ضروب الاستِعَارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلاَّ أنَّ لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنَّقص والقوَّة والضَّعف، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه"(٢)، ثم بدأ يأتي بالشَّواهِد على ذلك الضَّرب، منها شاهد أبي تمَّام هذا:

- **الشَّاهِد الثَّامن والخمسون بعد المئة(٣)، وقوله:**

وقد نثرتهُمْ روعةٌ ثمَّ أحدقوا به مثلما ألَّفتَ عِقدًا مُنظَّما(٤)

الاستِعَارة في هذا الشَّاهِد في قوله:"نثرتهم"، شبَّه تفرُّقهم من الفزعة والرَّوعة بالنَّثر للدَّنانير والحلي ونحوها، فحذف المشبَّه به (الدنانير والحلي) وأتى بلازم من لوازمه

(١) يُنظر :"أسْرَار البلاغة"، (ص:٦٣)، بتصرُّف.
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٥٥).
(٣) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٥٧).
(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٣٩/٣)، ومطلع القصيدة:
عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بهِمْ ولَعَلَّما وأنْ تعتبَ الأيامُ فيهمْ فربَّما
والبيت من البحر الطويل الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والعشرون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن حسان.

وهو (النثر) على هيئة الاستِعَارة المكنية، ثم إنَّ النَّظم في الأصل لجمع الجواهر، ويقَال به في سلوك البشر؛ كالطَّعن برمح يجمعه بضربة واحدة، حاول الشَّاعر هنا أن يصف النَّثر ويقصد به التفرُّق من تلك الرَّوعة وهي الفزعة والهيعة، فتحلَّقوا بـ(بشر) صاحب عدوه، فأصبحوا كالعقد والخرز المنظَّم، فلم يدعوا له منفذًا للهرب، والنَّثر عادة يكون للأجسام الصغيرة، كما يقول عبد القَاهِر، لكنَّه هنا وقع النَّثر من المقاتلين، واستشهد به عبد القَاهِر على الاستِعَارة القريبة من الحقيقة، وبدأ بالتَّحليل والتَّفنيد في روعة وبهاء كعادته وقرن شاهد أبي تمَّام بشاهد المتنبِّي؛ لاتحاد كلمة "نثرتهم"، فالتفت إلى اللَّفظة وموقعها دون الحكم على الشَّاعرين بالجودة والرَّداءة، فقال :"وكذلك قول أبي تمَّام:

وقد نثرتهُمْ روعةٌ ثمَّ أحدقوا ... به مثلما ألَّفتَ عِقدًا مُنظَّما

وقول المتنبي:

نثرتهم فوق الاحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم[1]

= استِعَارة؛ لأنَّ النثر في الأصل للأجسام الصغار؛ كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها؛ لأن لها هيئة مخصوصة في التفرق لا تأتى في الأجسام الكبار، ولأنَّ القصد"بالنثر"أن تُجمع أشياء في كفّ أو وعاء،ثم يقع فعل تتفرَّق معه دفعه واحدة، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك، لكنَّه لما اتَّفق في الحرب تساقُط المنهزمين على غير ترتيب ونظام، كما يكونفي الشَّيء المنثور، عبَّر عنه بالنثر،ونسب ذلك إلى الممدوح؛ إذ كان هو سبب ذلك الانتثار،فالتفرُّق الَّذي هو حقيقة"النثر"من حيث جنس المعنى وعمومه،موجود في المستعار له بلا شبَّهة"[2]، ثم التفت إلى لفظة (منظَّمًا) (منظَّمًا) عند أبي تمَّام، فذكر أنَّ النَّظم عادةً لجمع الجواهر حقيقة وفي السلوك مجازًا، وذلك عند اجتماع رجليْن عند حاذق مبدِع في رمح واحد، فيسمَّى بـ(النَّظم). وانتظم

(١) "ديوان"، أبي الطيّب المتنبي، (ص:٢٧٦).

(٢) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٥٧-٥٩).

عبد القَاهِر شاهديْ أبي تمَّام وأبي الطيّب برمح قلمه، فقال عن لفظة النَّظم:"ويبينه أنَّ النَّظم في الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها في السُّلوك، ثم لما حصل في الشخصيْن من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع في الطعن في رمح واحد ذلك الضرب من الجمع،عبر عنه"بالنَّظم"كقولهم:"انتظمهما برمحه" "[1].

(١) المصدر السَّابق، (ص:٥٧-٥٩).

المطلب الثَّالث: " شاهد على مسألَتين بلاغيتين "

لا يمكن تناول شاهد هذا المطلب ابتداءً، حتى يُمرّ بأمور بنى الشَّيخ فيها القواعد الَّتي ترتكز عليها الاستِعَارة، فقد عقد عبد القَاهِر في "الأسْرَار" فصلًا في (الفرق بين الاستِعَارة والتَّمثيل)، وأبان عن خصوصية كل مصطلح ببُعده الدِّلالي ومقاييسه الإجرائية حتى تُستكمل وظيفته، فتؤدِّي المعنى المراد، فعرَّف التَّمثيل وهو التَّشبيه المنتزع من عِدَّة أمور، والَّذي لا يحصل إلا جملة من الكلام أو أكثر، بعكس الاستِعَارة الَّتي هي نقل عن الأصل اُللغوي وإجراؤه على ما لم يوضع له لشبه بينهما[١]، ثم بيَّن أن التَّشبيه ليس هو الاستِعَارة، ولكن الاستِعَارة كانت من أجل التَّشبيه، فالتَّشبيه يحصل بالاستِعَارة على وجه المبالغة والاختصار والإيجاز، فالتَّمثيل تشبيه خاص، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيل[٢]، ثم بيَّن أنَّ من المسائل المقرَّرة إذا كان وجه الشَّبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوسات، تضمَّنت التَّشبيه، وإذا كان وجه الشَّبه عقليًا، جاز إطلاق التَّمثيل فيها؛ كضرب النّور مثلًا للقرآن، ثم بيَّن أنَّ المستعير ينقل اللَّفظ عن أصله في اللُّغة للتَّشبِيه والمبالغة والاختصار، أمَّا ضارب المثل يقصد إلى تقرير الشَّبه بين الشيئيْن[٣]، وبعد ذلك أوضح أنَّ اللَّفظة المستعارة تكون اسم جنس أو فعلًا فعلًا أو صفة، فإذا كانت اسمًا، احتمل فيه أن يكون للأصل أو للفرع، ويفصل في ذلك قرينة الحال؛ كـ"رأيت أسدًا"تطلق للسّبع وللشَّجاع، وفي الفعل تقع كـ"أنارت حجته"، وفي الصفة كـ"هذه حجة منيرة"[٤].

(١) يُنظر:المصدر السَّابق، (ص:٢٣٨)، ١٩٩٢م.بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، (ص:٢٣٩)،بتصرُّف.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٢٤٠)، بتصرُّف.

(٤) يُنظر: المصدر نفسه،(ص:٢٤٠)، بتصرُّف.

والشاهد على المسألة هو:

- **الشَّاهِد التَّاسع والخمسون بعد المئة [1]، كقوله:**

يـا ابـنَ الكَوَاكِـب مـن أئمَّـةِ هاشِـمٍ والـرَّجَّح الأحســابِ والأحــلامِ [2]

شبَّه الشَّاعر الخليفة الواثق بأنه من سلالة الكواكب المتألقة؛ أي الخلفاء، وحذف المشبَّه على سبيل الاستِعَارة التَّصريحية المجرَّدة، فالكواكب ليس لها أبناء، والشَّاعر يصف الواثق بأنَّه ابن الخلائف الَّذين يبرق نورهم ويضيء كالكواكب، فهم أبناء الأحساب والعقول الرَّاجحة، وهذا هو الجامع والصفة المشتركة بينهما، وبيَّن عبد القَاهِر أنَّ الاستِعَارة من شأنها إسقاط ذكر المشبَّه-المستعار له-:(الخلفاء)، وتطرحه وتدِّعي له الاسم الموضوع للمشبَّه به –المستعار-، وهنا (الكواكب) والقصد المبالغة، فتضع اللَّفظ ويخيّل أن الكواكب لها أبناء، فقد يقع الاسم المستعار فاعلًا ومفعولًا ومجرورًا بحرف الجر ومضافًا إليه، والشَّاهِد هنا وقع الاسم المستعار مضافًا إليه (الكواكب).

ثم بيَّن عبد القَاهِر بإيجاز تلك المسائل ليمهِّد مسألَتي الشَّاهِد، فقال:"وإذ قد ثبت هذا الأصل،فاعلم أنَّ ههنا أصلاً آخر يبنى عليه،وهو أنَّ الاستِعَارة وإن كانت تعتمد التَّشبيه والتَّمثيل، وكان التَّشبيه يقتضى شيئيْن مشبَّها ومشبَّها به،وكذلك التَّمثيل؛ لأنَّه كما عرفت تشبيه إلاَّ أنه عقلي"[3]، والمسألتان المتعلِّقتان بالشَّاهِد؛ هما:

أولًا/ أن إسقاط ذكر المشبَّه من شأن الاستِعَارة

رُبطت المسائل بعضها ببعض، وجاء الحديث عن مسألة الشَّاهِد الأولى والتَّصوُّر

(١) يُنظر: المصدر السابق، (ص:٢٤٢).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣/٢٠٩)، ومطلع القصيدة:

مـــا للـــدموعِ تـــرومُ كـــلَّ مـــرامِ والجفـــنُ ثاكـــلُ هجعـــةٍ ومنـــامِ !

من البحر الكامل والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخمسون، قالها يمدح الواثق، ويُهنِّئة بالخلافة، ويرثي المعتصم بالله.

(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٤٢).

القائم فيها؛ وهي في الأصل مسألة نحوية بلاغية؛ فالنّحوية مُختَّصة بالمضاف إليه، والبلاغية مُختصَّة بحذف المشبَّه، فالاستِعَارة من شأنها أن تُسقِط ذكر المشبَّه، وتدَّعي الاسم الموضوع للمشبَّه به؛ أي تصرِّح بالمشبَّه به كـ"رأيت أسدًا"، وهذه من إرهاصات نشأت (الاستِعَارة التَّصريحية) في الدَّرس البلاغي، ثمَّ بدأ عبد القَاهِر يفصِّل القول في غرضها عند نقلها إلى الاسم المشبَّه به لقصد المبالغة ويقوى أمر المشابهة وتشدُّده، ومسألة الاستِعَارة الَّتي ذكرها عبد القَاهِر مهَّدت بروز قرينة المشابهة هنا، وفي هذا المعنى قال عبد القَاهِر:"فإنَّ الاستِعَارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبَّه من البين وتطرحه، وتدَّعي له الاسم الموضوع للمشبَّه به، كما مضى من قولك:"رأيت أسدًا"، تريد رجلاً شجاعًا،= و"وردت بحرًا زاخرًا"، تريد رجلاً كثير الجود فائض الكفّ= و"أبديت نورًا"تريد علمًا وما شاكل ذلك.فالاسم الذى هو المشبَّه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى،وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبَّه به،لقصدك أن تبالغ، فتضع اللَّفظ بحيث يُخيَّل أنَّ معك نفس الأسد والبحر والنور؛ كي تقوِّي أمر المشابهة وتشدُّده"(١).

ثم بيَّن الشَّيخ أنَّ عند إسقاط المشبَّه، يكون المستعار كـ"البحر، الأسد، الشَّمس"أي المشبَّه به فاعلًا أو مفعولًا أو مجرورًا بحرف الجر أو مضافا إليه، فـ"الأسد"يوضع لأي شيء من هذه الوظائف النَّحوية كـ"بدا لي أسدٌ"فهذا فاعل، والمفعول كـ"رأيت أسدًا"، والمضاف إليه كشاهد أبي تمَّام هذا حيث يقول:

يا ابنَ الكَوَاكِب من أئمَّةِ هاشِمٍ والرَّجَّحِ الأحسابِ والأحلامِ

وبعد هذه الآلية الفريدة، يوضِّح عبد القَاهِر شرط الاستِعَارة؛ وهو: قربها، الَّذي اتَّكأ عليه البلاغيون والنُّقاد السَّابقون وهو أن"يكون الشَّبه بين الشَيئيْن ممَّا يقرب مأخذه ويسهل متناوله، ويكون في الحال دليل عليه، وفي العرف شاهد له،حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت"(٢)، وشرط قرب

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٤٢).

(٢) المصدر نفسه،(ص:٢٤٣).

المشبَّه من المشبَّه به هو الَّذي جعل البلاغيون والنُّقاد القدامى ينكرون ويرفضون تقبُّل استعارات أبي تمَّام البعيدة، ووصفوها بالقباحة، والشناعة، والهجانة، والرَّداءة ، والبعد عن الصّواب، وفي ظنّ الباحث أنَّ عبد القَاهِر قرَّر هذه المسألة ليتَّبع الأوائل في شرط القرب بين المشبَّه والمشبَّه به، فاستشهد ولم يذمّ الشَّاهِد لذاته، بل وظَّفه لخدمة مسألته هذه.

ثانيًا/ متى صلحت الاستِعَارة في شيء، فالمبالغة فيه أصلح

وأمَّا مسألة الشَّاهِد الأخرى، فهي: ما يصلح فيه التَّشبيه أن يُصرَف إلى الاستِعَارة وما لا يصلح، وأنَّ الاستِعَارة متى صلحت في شيء، فالمبالغة فيه أصلح، وأنَّ طريقها أوضح، واستشهد بشاهد أبي تمَّام المذكور، فقال:"ومتى صلحت الاستِعَارة في شيء،فالمبالغة فيه أصلح، وطريقها أوضح،ولسان الحال بها أفصح، أعني أنك إذا قلت:

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم

...فأجريت الاسم على المشبَّه إجراءه على أصله الَّذي وُضِع له وأدعيته له،كان قولك: (هم الكواكب) و(هم الليوث) أو هم (كواكب وليوث) أحرى أن تقوله،وأخفّ مؤونة على السَّامع في وقوع العِلم له به"[1]، والمبالغة عنده أن تحقَّق التشابه بين الشَّيئيْن، ونفي الاختلاف عنهما، فلا يمكن الفرق بينهما، وعلى ذلك يقولون:(هو هو) إذا تيَّقنوا وقوع الشَّبه بين المشبَّه به والمشبَّه، قال عبد القَاهِر:"صاروا إذا حقَّقوا التَّشبيه بين الشيئيْن يقولون: هو هو"[2].

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٥٠).

(٢) المصدر نفسه، (ص:٢٥٢).

وهذه النَّكتة والمزية البلاغية، يمزج الشَّيخ فيها أفكاره، ودقائق مسائله بنفس الشَّاهِد، وهكذا يكون تفاوت النَّظر بين البلاغيين والنُّقاد في تحرير مسائل شواهد أبي تمَّام، ويتحوَّل الشَّاهِد الواحد إلى عنصر فعَّال، يخدم الأفكار ويقرِّر القواعد.

المطلب الرَّابع: "شواهد المبالغة والاستِعَارة والاقتران بشعر النَّابغة"

وقف الشَّيخ عبد القَاهِر على مسألة "المبالغة" فتفرَّعت منها أجزاء يأخذ بعضها برقاب بعض، فالسِّلك متَّصل بينهم أشد الاتصال، فبدأ يذكر تفسير المبالغة، وأنها كقولك:(جعل الشَّيء ذاك)، فجعل المشبَّه بالشَّيء من عادته وشأنه أن ينتظر إلى الوصف الَّذي يجمع بين الشَّيئيْن، وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة، فيشبّهه بـ(الأسد) وليس له منه إلاَّ الشُّجاعة، أمَّا إذا قال:(هو الأسد)، فجعل شجاعته لا تنقص عن الأسد، وماعدا الشُّجاعة من صورته وصفته عيال وتبع لها، فقد جعله الأسد لا محالة، فأصبح قول:(هو هو) على معنييْن:

الأول: أن يكون للشَّيء اسمان، فإذا قلت:(هو أبو عبد الله)، عُرف أن لفظة (هو) القصد منها (أبو عبد الله).

والثَّاني: أن يكون التشابه بينهما بين الشيئيْن كامل بينهما، لا اختلاف ولا تفاوت بينهما، فيُقَال:(هو هو) فلا فرق، وهذا هو (التشابه التام)، فلم يُفرِّق بين شجاعة زيد وشجاعة الأسد، فيقول حينها: (هو هو)[1]، وهذا إيجاز كلامه -رحمه الله-.

وقد جِيء بهذه المقدَّمة للإتيان بشواهد من شعر أبي تمَّام تعلَّقت ببيت النَّابغة:

فإنَّك كالَّليل الَّذي هو مُدْرِكِي وإنْ خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسِعُ[2]

فالمبالغة في جعل صفة من صفات الَّليل كـ(الظلمة) يلبسها الممدوح كـ(الشُّجاعة)، ولقائل يقصد من تشبيهه بـ(الَّليل) شدة سُخطه عليه، فردَّ عليه عبد

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٥١-٢٥٢)، بتصرُّف.

(٢) "ديوان"، النابغة الذبياني، (ص:٥٩)، دار صادر، بيروت،١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.

القَاهِر بأنَّ التَّقدير صحيح ويحتمله المعنى، أمَّا المبالغة فلا؛ لأنَّ الصفات المذكورة لا تُقَال للممدوحين حتى تقترن بأضدادها من الأوصاف المحمودة،

كقول المتنبِّي:

حســـــن في وجـــــوه أعدائـــــه أقـبح مـن ضـيفه رأتـه السـوام[1]

فجعله حسن ثم قبيح في عيون أعدائه، وكما يقول المنجِّمون: يقع النحس مضغوطًا بين سعديْن، فيبطل فعله وينمحق أثره[2] ثم أتى بشاهديْ أبي تمَّام، وهما:

- **الشَّاهِد السّتون بعد المئة [3]، وقوله:**

وإذا مـــا أردت كنـــت رشـــاءً وإذا مـــا أردت كنـــت قليبًـــا[4]

سبق تحليل الشَّاهِد عند ابن رشيق في باب الاستِعَارة[5]، ووصف أبا تمَّام بأنَّه بأنَّه لم يحتشم، ووافق الشَّيخ عبدالقاهر ابن رشيق في ذلك وزاد بأنَّه يحسن ظاهر اللَّفظ، وأنَّ أبا تمَّام تهاون في إرادة المبالغة في التَّشبيه والاستِعَارة من ذكر صفات الممدوح المحمودة ثم المذمومة، فلم يفعل ذلك، بل بسط لسان القادح والمنكر لفضله، فلم يبالِ في مخاطبات الممدوحين، فجعل بعضهم حبلاً والآخر بئرًا، وهو تشبيه حسن ظاهر اللَّفظ، فأطلق الوصف بالذمّ كإطلاق الوصف بالمدح، فقال:"وقد عرفت ما جناه التهاوُن بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمَّام، حتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله، وأحضر حجة للمتعصِّب عليه. وذلك

(١) "ديوان"، المتنبي، (ص:١٢٥).

(٢) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٥١-٢٥٣).بتصرُّف.

(٣) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٥٤).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١/١٧١).

والقصيدة من البحر الخفيف ومطلعها:

مـــنْ ســـجايا الطُّلـــولِ ألاَّ تُجيبـــا فصـــوابٌ مِـــن مُقْلَـــةٍ أَنْ تَصـــوبَا

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الحادي والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري.

(٥) يُنظر:(ص:٣٠٥) من هذا البحث.

أنه لم يبالِ في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللَّفظ، واقتصر على صميم التَّشبيه، وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النَّبيه، كقوله:

وإذا مـــا أردت كنـــت رشـــاءً وإذا مـــا أردت كنـــت قليبًـــا

فصكَّ وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاءٌ وقليبٌ"[١].

- **الشَّاهِد الحادي والسّتون بعد المئة[٢]، وقوله:**

مـــا زال يهـــذي بالمكـــارم والعلَـــى[٣] حـــتى ظننَّـــا أنَّـــهُ محمـــومُ[٤]

شبَّه كرم وبذل الممدوح للمكارم والعلَّى بمَن يهذي، وكأن عليه الحمى على سبيل الاستِعَارة التصريحية، وهذا هو الطريق الَّذي سلكه أبو تمَّام أعني المبالغة في إثبات الكرم للممدوح، فذكر هذه المكارم بالطريقة المذمومة، وفي ذلك يقول:"ولم يحتشم أن قال:

مـــا زال يهـــذي بالمكـــارم والعلَّـــى حـــتى ظننَّـــا أنَّـــهُ محمـــومُ

فجعله يهذي وجعل عليه الحمى، وظنَّ أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له، وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره، حتى لا يصدر عنه غيرها، فلا ضير أن يتلقَّاه بمثل هذا الخطاب الجافي، والمدح المتنافي"[٥]، ثمَّ رجع ليشرح ما قصده من المبالغة المبالغة في بيت النَّابغة إذا كان تأويل (الَّليل) بشدة سخطه فقال: "فكذلك أنت هذه

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٥٣-٢٥٤).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٥٤).

(٣) وفي راوية: "بالمواهبِ دائبًا".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٢٩١/٣)، ومطلع القصيدة:

أسْـــقَى طُلُـــولَهُمُ أَجَـــشُّ هَـــزيمُ وغـــدتْ علـــيهمْ نضـــرةً ونعـــيمُ

الشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني والعشرون من البحر الكامل، قالها أبو تمَّام يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانة.

(٥) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٥٤).

قصتك وهذه قضيتك في اقتراحك علينا أن نسلك باللَّيل في البيت طريق المبالغة على تأويل السّخط"[1].

وانطلق الشَّيخ يناقش سائلًا يقترح تقديرًا آخر؛ وهو ما تُفيده الجملة الجارية في صلة(الَّذي)، فجعل الشَّيخ يجد له عذرًا من دليل أو غيره حتى يكون (اللَّيل) إدراكه له ساخطًا، فذكر أنَّ هذا الأمر مهما أردته لا يحصل لك إلاَّ بضرب من التعمُّق، والتَّطلُّب لشيء لم يقصده الشَّاعر، ثم وجد له مخرجًا آخر من محنته هذه، فبيَّن أنَّ التَّقدير الَّذي ينتصر في هذا المقام أن تجعل(النَّهار) بمنزلة(اللَّيل) في وصوله إلى كل مكان، فجعل التَّمثيل بـ(اللَّيل)؛ لأنَّه هرب منه حال سخطه.

ثم ذكر أنَّ من انتصاره بهذا الرأي قول الشَّاعر:

نعمة كالشَّمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

فقصد الشَّاعر من تشبيه النَّعمة بالشَّمس، كما قصد النَّابغة من تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان، واختار الشَّاعر التَّشبيه هنا بالصِّفة المحبوبة وما يحتاجه الغرض فحسنت عن غيرها.

ثم رجع الشَّيخ لعلَّة عدم التَّشبيه التَّمثيلي بـ(النَّهار) في بيت النَّابغة؛ لأنه كان بالنَّهار وهو مدبّر عنه، و(اللَّيل) مقبل عليه، فناسب هذا التَّقدير[2]، وعبد القَاهِر في كل ذلك يحلِّل وينقد الآراء الَّتي يذكرها الآخرون، ويستدرك القول في المسائل الَّتي لم يُكملها، فرجع إلى بيت الشَّاعر الَّذي شبَّه النّعمة بالشَّمس، وأخرج منه أغراضًا للتَّشبِيه، تدلّ على العموم؛ فهي مؤنسة للقلوب، ملبسة للعالم البهجة والبهاء، وهذا حاصل على سبيل الغرض، ففي تشبيه النعمة بالشَّمس تجريد التَّشبيه لهذا الوجه الَّذي هو تابع حتى يكون أصلًا مألوفًا معروفًا، فتقول:(نعمتك شمس طالعة)، فتجريد التَّشبيه لوصف الممدوح عند النَّابغة بالسّخط كقولك:(أنت في حال السّخط ليل وفي الرَّضا

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٥٤).

(٢) المصدر نفسه، (ص:٢٥٤-٢٥٦)، بتصرُّف.

نهار) مستكره ولم يحسن، والأولى عند الشَّيخ أن تقول:(النَّهار ليل على مَن تسخط عليه، واللَّيل نهار على مَن ترضى عنه).

ثم ذكر من الأمثلة الأولى بها في تجريد التَّشبيه، ووصف الممدوح بالسّخط، شاهد أبي تمَّام، هو:

- **الشَّاهِد الثَّاني والسّتون بعد المئة[١]، وقوله:**

أيامنـــــا مصـــــقولة أطرافهـــــا بـــك والليـــالي كلهـــا أســـحار[٢]

فالاستِعَارة في (الأيام مصقولة الأطراف)، عندما شبَّهها بالمرأة مصقولة الأطراف جمالًا وتكسرّا وتغنجًا، وهذا في سياق تجريده لوصف الممدوح بالسُخط، فاستحسن الشَّيخ هذه الاستِعَارة كما استحسنها علماء البلاغة والنَّقد قبله؛ وسبق تحليل الشَّاهِد والوقوف على أسْرَار الاستِعَارة فيه عند الآمِدِيّ[٣]، وأبي هلال[٤]، وابن وابن سنان[٥]، وهو من الشَّواهِد الحسنة الَّتي نالت على قبول الجميع.

وفي ختام حديث الشَّيخ عن شاهد النَّابغة، الَّذي حمل في بطنه وسياقاته مسائل وشواهد لأبي تمَّام المذكورة، وذكر أنَّ قول أحدهم:(أنت ليل) يريد: سخطك تُظلم به الدنيا عبارة ذمّ على الوصف العام. أمَّا الخاص والمعنى منها إلى القلب أسبق وهو المعنى الأخلق، فوصفه بالظلمة وسواد الجلد وتجهم الوجه، وقد أمر الشَّيخ من فهم هذا أن يعرفه حق المعرفة[٦]. والشَّيخ مع ذلك يُخفي مقاصده في دقائق مسائله،

---

(١) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٢٥٧).

(٢) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨١/٢)، ومطلع القصيدة:

لا أنـــتِ أنـــتِ ولا الـــديارُ ديـــارُ خـــفَّ الهـــوى وتولـــتِ الأوطـــارُ

وهي من البحر الكامل، والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والخمسون، قالها أبو تمَّام يمدح أبا سعيد.

(٣) يُنظر:(ص:٢٢٥) من هذا البحث.

(٤) يُنظر:(ص:٢٧٧) من هذا البحث.

(٥) يُنظر:(ص:٣٢٢) من هذا البحث.

(٦) يُنظر:"أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٢٥٧)،

فبدأ الحديث عن شاهد النَّابغة والمبالغة وتفسيرها فيه، وشاكل مع ذلك في إيضاح ما أراده من شواهد لأبي تمَّام، فأوجز فيها الكلام، ثم تراه يرجع لشاهد النَّابغة حتى أقفل المسألة بما ابتدأ به، كما هو الحال في منهج ابن سنان في باب الاستِعَارة[1]، وهذا لا يحسنه إلاَّ ضابط فنٍ أحكم الحدود، وأتمّ بيان التَّاليف، ومع ذلك قد قصَّر الدَّارس في التَّحليل.

(١) يُنظر: (ص:٣١٨) من هذا البحث.

المطلب الخامس: "شاهد ترشيح الاستِعَارة وتناسي التَّشبيه"

لعلَّ من مسائل الاستِعَارة المهمة في مبحث الشَّيخ عبد القَاهِر مسألة تقسيم الاستِعَارة لا باعتبار أحد أجزائها، ولا باعتبار الطرفين، ولا باعتبار الجامع، بل باعتبار ما يناسب ويلائم أحد طرفي الاستِعَارة؛ من مستعار ومستعار له، فكلُ منهما له أوصاف خاصَّة به، لا يمكن أن يتصف بها الآخر، فقولك:(رأيت بحرًا) فالمستعار(البحر)، له أوصاف تخصه من عمق، وتدافع أمواجه، وساحله، وكنوزه، ودرره، والمستعار له(العالم) تكون له أوصاف كذلك؛ ككثرة علمه، وعمق فقهه، وكنوز معارفه، وبهذا يُعرف أمر الاستِعَارة والملائم، وذيَّل عبد القَاهِر هذه المسألة على أنها نوع آخر من التَّخييل غير معلَّل، فما مضى من التَّخييل معلَّل، فقال:"وهذا نوع آخر من التَّخييل وهو يرجع إلى ما مضى من تناسى التَّشبيه وصرف النَّفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل، وهذا غير معلَّل"(١).

فالاستِعَارة تنقسم باعتبار الملائم إلى مرشَّحة، ومجرَّدة، ومطلقَة، فالمرشَّحة: هي الاستِعَارة الَّتي ذكر معها ما يلائم المشبَّه به، والتَّرشيح: التَّقوية، يُقال رشحت الصَّبي بالَّلبن إذا قويته، فهي قائمة على تناسي التَّشبيه، فعند إجراء الاستِعَارة وذكرت ما يلائم المشبَّه به فقد زادت قوة لتناسي المشبَّه، والمجردة: وهي الاستِعَارة الَّتي ذكر معها ما يلائم المشبَّه، وسُميت بذلك لأنها تجردت ممَّا يناسب المشبَّه به، وإلى مطلقة: وهي الَّتي لم يُذكر معها ما يلائم الطرفيْن، أو ذكر معها ما يلائمهما، وعلى كل حال، فـ"التَّرشيح أبلغ من التَّجريد؛ لاشتماله على تحقيق المبالغة، ولهذا كان مبناه على تناسي

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٠٢).

التَّشبيه"[1]، وعلى كل حال فليس على الاطلاق يكون الترشيح أبلغ، وإن قال بذلك بعض البلاغيين والنقاد، أمَّا الشَّاهد من شعر أبي تمَّام على هذه المسألة، هو:

- **الشَّاهِد الثَّالث والسّتون بعد المئة[2] وقوله:**

ويصعد حتى يظن[3]الجهول بأنَّ له حاجة[4]في السَّماء[5]

شبَّه ارتفاع منزلته وصعوده الحسي وما يفعله من بطولات كمَن يسمو وترتقي منزلته، فيقع في روع الجهول، وهو الَّذي يظنّ ذلك أنَّ له منزلًا يقيم في السَّماء، والتَّرشيح هنا "أنه يُوضَع الكلام في علو المنزلة وضعه في علوِّ المكان"[6]، الشَّاهِد استِعَارة محسوس بمعقول.

استشهد الشَّيخ به في سياق حديثه عن فصل (في تخييل بغير تعليل)، ويرجع إلى تناسي التَّشبيه وصرف النَّفس عن توهُّمه، وبيَّن الشَّيخ أن الشُّعْراء يستعيرون الصِّفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، فـ"تراهم كأنَّهم قد وجدوا تلك الصِّفة بعينها وأدركوها بأعينهم على حقيقتها، وكان حديث الاستِعَارة والقياس لم يجرِ منهم على بال، ولم يروْه ولا طيف خيال"[7]. ثم مثَّل هذه الاستِعَارة بـ(العلَّو) في شاهد أبي تمَّام، و(العلَّو) زيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسّلطان، وهو أمر عقلي

---

(١) "الإيضاح"، (١٠٣/٥).

(٢) يُنظر: "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٠٢).

(٣) وفي رواية الديوان بشرح التَّبْريزي :"لظن".

(٤) وفي رواية التَّبْريزي: "منزلًا" ويُروى: "حاجة في السماء".

(٥) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٤/٤)،ومطلع القصيدة:

نعاءِ إلى كلِّ حيٍّ نعاءِ فَتَى العَرَبِ احتَلَّ رَبْعَ الفَنَاءِ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والخمسون من البحر المتقارب، قالها أبو تمَّام يرثي خالد بن زيد الشيباني.

(٦) "الإيضاح"، (١٠٣/٥).

(٧) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٠٢).

معنوي، ثم جعلوا (العلو) من طريق المكان؛ أي أمرًا محسوسًا[١]، كما فعل الطَّائي في بيته، فالقصد من ذلك "أن ينسى التَّشبيه ويرفعه بجهده ويصمِّم على إنكاره وجحده بجعله صاعدًا في السَّماء من حيث المسافة الكائنة"[٢]. وهذا الشَّاهِد الَّذي ذكره الشَّيخ في مسألة تناسي التَّشبيه، قد" اقتبس المتأخِّرون هذا، وجعلوه في باب ترشيح الاستِعَارة والتَّشبيه"[٣].

وهذا فصل (الأخذ والسرّقة وانقسام المعاني إلى عقلي وتخييلي) في جوهر عمل الشِّعْر وصنعته، ووضعه عبد القَاهِر بين فصل (الفرق بين الاستِعَارة والتَّمثيل)، وفصل (الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة)، وقد كدَّ الباحث ذهنه ليحصل على مراد الشَّيخ عبد القَاهِر من هذا، فوقف عاجزًا عن تحليل ذلك الفعل إلاَّ بالوقوف على ما قاله الشَّيخ أبو موسى، فقد "دخل إليه، من هذا الباب نفسه؛ لأنَّه من التَّخييل ما هو امتداد لنفس التَّشبيه، أو لنفس الاستِعَارة، مثل "ويصعد حتى يظنّ الجهول بأن له حاجة في السَّماء"، فقد بنى التَّخييل فيه على استِعَارة الصُّعود الحسِّي للصعود المعنوي"[٤]، فأراد فأراد أن يذكر أن الوقوف على معاني الشِّعْر، وألفاظه، ومقاصده؛ تهدي إلى تشبيهات واستعارات، كما أنها تمثل بالشِّعْر الَّذي يحوي بعض أمثلة تلك الأصول، فناسب دخولهما فيه، -والله أعلم-.

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٠٢)، بتصرُّف.
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٣٠٢).
(٣) "مدخل إلى كتابي عبد القَاهِر"، (ص:١٩٢).
(٤) المرجع السَّابق، (ص:١٩٢).

المطلب السَّادس:"شاهدان على أن حسن الاستِعَارة يكمن في نظمها"

جعل عبد القَاهِر فصولًا قصيرة موجزة في (الكناية والاستِعَارة والتَّمثيل بالاستِعَارة) وسطًا بين فصل (تحقيق القول في البلاغة والفصاحة) وفصل (القول في "النَّظم" وتفسيره)في كتابه العظيم "دلائل الإعجاز"، فما قصْد الشَّيخ من ذلك؟ إذ مجي هذا الفصل وسطًا بين فصليْن عظيميْن، يتراءى للباحث بداهةً أنَّ الكناية والاستِعَارة والتَّمثيل من علم البيان، ومحلّهما في "أسْرَار البلاغة"، ممَّا يجعل استكناه غرض ضمها في "الدَّلائل" أمرًا مقلقلًا ومحيرًا، على أنَّ عبد القَاهِر لم تفُته هذه النُّكتة فسبر غورها، فهل كان الشَّيخ يؤلف لل"دلائل" ثم تنبه لهذا الفصول الَّتي لم يرفقها في "الأسْرَار"، فعمد أن يجعلها في "الدلائل"؟ فهذا لا يُعقل أبدًا؛ لأنه لو كان كذلك، فإنَّ "أسْرَار البلاغة" كتاب لعبد القَاهِر أيضًا، فكان من السّهل جدًا إرفاقه فيه، أم أنَّ الأمر خلاف ذلك؟ فالمزية كل المزية تُدرَك باستحضار الفصول واستجلاء ما فيها من خصوصيات حتى ترتبط بالبلاغة، والفصاحة، والنَّظم، ومكان النحو منه،فلعلَّ لهذه الأجناس البيانية ارتباط وثيق بالنَّظم، الَّذي جاء ليعالجه في كتابه الدلائل، فهذا موطن ربط الفكرة بالفكرة، والدليل بالدليل، والحجَّة بالحجَّة، في خيط واحد لا ينقطع ألبته.

ومهما يكن من أمر، فقد عقد عبد القَاهِر فصلًا أخيرًا من بطن فصول تفاوُت الكناية والاستِعَارة والتَّمثيل في كتابه "دلائل الإعجاز"، فوضَّح فيه الاستِعَارة وبدائعها وحسنها، والتفاوت الشديد بين أقسامها من جهة العموم، والخصوص، الَّتي عوَّل عليها المتأخِّرون خاصَّة السَّكَّاكي والخطيب، وبيَّن منها الخاصِّي، والنَّادر، والغريب، وكل تلك الأقسام تخيَّر لها الشَّيخ شواهد من عيون الشِّعْر، فقال في ذلك:"اعلم أنَّ

من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد. أفلا ترى أنك تجد في الاستِعَارة العامي المبتذَل ؛كقولنا: رأيت أسدًا، ووردت بحرًا، ولقيت بدرًا؟ =والخاصي النادر الَّذي لا تجده إلاَّ في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلاَّ أفراد الرجال؛ كقوله من الطويل: وسالت بأعناق المطي الأباطح "[1]، وبينا عبد القَاهِر يتخيَّر ويحلِّل ويسْتَشْهِدُ؛ أتى بشاهديْن لأبي تمَّام، هما:

- **الشَّاهِد الرَّابع والستون بعد المئة[2]، وقوله:**

لايَطمَعُ المِرْءُ أَنْ يَجْتَابَ جُنَّتَهُ[3] بالقَوْلِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسرّا له العمَلُ[4]

موضع الاستِعَارة في قوله: (يَكُنْ جِسرّا له العمَلُ)، ففي كلمة (جسرّ) استِعَارة محسوس وهو: (الجسرّ) بمعقول وهو: (السَّبب والطريقة والوسيلة)، وهي استِعَارة تصريحية، حذف المشبَّه من طريق، ووسيلة، وسُنَن يسير عليها، وصرَّح بالمشبَّه به (الجسرّ)، وهذا الشَّاهِد قُطع عن سياقه العام، فالسيِّاق حرب وكرّ وفرّ، والصوارم هي الَّتي تتكلَّم فقط في تلك السَّاحة.

- **الشَّاهِد الخامس والسّتون بعد المئة[5]، وقوله:**

بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ العُظْمى[6] فَلَمْ تَرَهَا تُنالُ إلاَّ على جِسرّ من التَّعَب [7]

---

(١) "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٤).

(٢) يُنظر: المصدر السَّابق، (ص:٧٨).

(٣) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي:"غَمْرَتَه"ويُروى"أن يجتاز غَمْرَتَه".

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٦/٣)،ومطلع القصيدة:

فَحْواكَ عَيْنٌ على نَجْوَاكَ يامَذِلُ حَتَّامَ لاَيَقْضَى قَوْلُكَ الخَطِلُ ! ؟

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثالث والثلاثون من البحر البسيط، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله.

(٥) يُنظر: "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٨).

(٦) وفي رواية الديوان عند التَّبْريزي:"الكُبرى".

(٧) "ديوان"، أبي تمَّام، (٧٣/١)، ومطلع القصيدة:

وموضع الاستِعَارة في قوله: (على جِسرّ من التَّعَب) استِعَارة محسوس بمعقول، وهي استِعَارة تصريحية كذلك، فشبَّه الكَّادح خلف الهدف العظيم والأسَّمى لا يسير له إلاَّ على طريق من الإعياء والتَّعب والنَّصب، فحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به (الجسرّ)، وهو يقصد الطريق والسبيل، وعبد القَاهِر قال في موازنة دقيقة احتملت الإيجاز في سطر واحد، حيث قال:"فترى لها في الثَّاني حُسنًا لا تراه في الأوَّل"(١).

وعند التأمُّل في معنى استِعَارة الشَّاهِديْن، والموازنة بينهما، فالشَّاهِد الأوَّل: المرء لا يأمل أن يجتاز هذه المعركة، وشدة الحرب بالقول، والكلام، إلاَّ إذا كانت شجاعة أعماله وسيلته وطريقته، والشَّاهِد الثَّاني: أنَّ الرَّاحة الكبرى والعظمى، وهو يقصد الجنَّة–وقد تبيَّن هذا الكلام من سياق البيت الَّذي قبله، عندما دعا للخليفة بالجزاء الحسن– فجعل طلب الرَّاحة الكبرى وأنها لا تُنَال إلاَّ على طريق التَّعب.

ساق الشَّيخ هذيْن الشَّاهِديْن للاستشهاد بسرّ الاستِعَارة وبدائعها في سياق موضع اللَّفظة المستعارة، إذا استعيرت في عِدَّة مواضع، كان لبعضها ملاحة لا تجدها في الباقي، وعدَّها عبد القَاهِر من قبيل الموازنة بين شاهديْن في توظيف اللَّفظ والمعنى، وهي "دليل على أنَّ حسن الاستِعَارة في نظمها"(٢)، فاللَّفظة المستعارة تتفاوت التَّفاوت الشديد عندما تنتقل من موضع إلى موضع آخر، ففي شاهديْ أبي تمَّام أورد عبد القَاهِر لفظة (الجسرّ)، ممَّا أثارت حسنًا في الثَّاني لا يُرى في الأول مع حسنه. قال عبد القَاهِر:"ومن سرّ هذا الباب أنك ترى اللَّفظة المستعارة قد استُعِيرت في عِدَّة

السَّيْفُ أَصدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِي حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثامن والستون من البحر البسيط، قالها أبو تمَّام يمدح المعتصم بالله، أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ويذكر حريق عَمّورية وفتحها.

(١) "دلائل الإعجاز"،(ص:٧٨).

(٢) "شرح دلائل عجاز"، (ص:١٣٧).

مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة الجسرّ في قول أبي تمَّام... فترى لها في الثَّاني حسنًا لا تراه في الأول"(١).

فوصف عبد القَاهِر الشَّاهِد الثَّاني بالحسن الَّذي لا يُرى في الأول، ولعلَّه يشير إلى ما بعد لفظة الجسرّ، ففي لفظة الشَّاهِد الأول: (جسرّ له العمل) وفي الثَّاني قال: (جسرّ من التَّعب)، فلفظتا (العمل) و(التَّعب) هما موطنا المزية الَّتي تُدرك.

وقد ربَّى عبد القَاهِر مَن يقرأ كتبه على التَّدقيق، والتَّحليل، والكشف، والتَّمحيص، وترك للقارئ استخلاص الفرق الَّذي يصل إلى الحكم بجودة الثَّاني على الأوَّل، وعلى كل حال، فالعمل بشكل عام لا يقتضي التعب، فقد يعمل المرء قليلًا دون تعب وإعياء ونصب، فيحصل على مراده، أمَّا في الثَّاني فالتَّعب نتيجة العمل الدَّؤوب والنَّصب الَّذي لم يفتر صاحبه ليلًا ونهارًا؛ ليحصل على مراده وراحة باله، وقد يكون النَّظم في الشَّاهِد الأول يفتقد السَّلاسة بسبب تقديم خبر كان والمجرور على اسمها من أجل ألاَّ تنكسرّ القافية فأصبح البيت عسيرًا، بخلاف المرونة والسلاسة في نظم الشَّاهِد الثَّاني(٢) مع استخدامه أسلوب القصر في ذلك، وهنا لفتة؛ فالبيتان من أبيات مدح فيها المعتصم بقصيدتيْن مختلفتيْن؛ غير أنَّ الثَّانية قصيدة فتح عمورية الَّتي طارت شُهرتها الأفاق، فلا يُستغرب خروج الابن الصالح من بطن الأم الصالحة.

ثم أورد عبد القَاهِر شاهدًا لربيعة الرقي عقب شاهدي الطَّائي في نفس الشَّأن، يذكر لفظة (الجسرّ)، وبيَّن أنَّ فيها لطفًا وخلابةً وحسنًا، حيث قال:"ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي، من البسيط:

قولي: نعم، ونعم إن قلتواجبة قالت: عسى، وعسى جسرّ إلىنعم

(١) "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٨).

(٢) يُنظر: "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:١٣٨)، بتصرُّف.

فترى لها لطفًا وخلابةً وحسنًا ليس الفضل فيه بقليل"[١].

ولفظة (الجسرّ) في بيت الرقي دخلت عليها قوله: (إلى نعم)؛ أي طريق إلى القبول والرَّضى، حتى إنَّ عبد القَاهِر عندما حكم على شاهد الرقي، ذكر أنَّ فيه لطف وخلابة وحسنًا، ووصفه بأوصاف تناسب مقام الغزل؛ لأن فيه العواطف والمشاعر الَّتي تختلج النُّفوس المتيَّمة دِقَّة ولطافة وحسن سبكٍ، وعدَّه في المرتبة الأولى حسنًا ولطفًا، ثم شاهديْ أبي تمَّام بالعكس في التَّرتيب، فالثَّاني أجود من الأوَّل. وقد شرح الشَّيخ محمود شاكر الخلابة عند الرّقي فقال:"الخلابة أنْ تخلب المرأة قلب الرَّجل بألطف القول وأخلبه، فتأخذه وتسلبه وتذهب به وهو هنا مجاز"[٢]. وقد وافق الدُّكْتُور محمد شادي عبد القَاهِر في تفضَّيل شاهد الرّقي على شاهديْ الطَّائي، فقال:"في البيت الثَّالث لطف وخلابة وحسن، تتفوَّق به عن مثيلاتها في السابقين لما فيها من طرافة وسلاسة وتمكُّن وتفاؤُل وإيجاز؛ لأنه وقعت بين أدوات تقوم مقام الجمل (عسى ونعم)"[٣].

بيَّن الشَّيخ في "الأسْرَار" فصلًا (في الفرق بين التَّشبيه والاستِعَارة)؛ وما تجوز تسميته استِعَارة وما لا يجوز، وما يكون المشبَّه مذكورًا أو مقدَّرًا، وتحديد أدوات التَّشبيه وحسن دخولها أو لا يحسن، وأنَّ المشبَّه إن كان مذكورًا أو مقدرًا، وكان المشبَّه به خبرًا كخبر (كان) أو (إنّ)، والمفعول الثَّاني لباب (علمت)، فالأظهر أن يطلق عليه تشبيهًا لا استِعَارة، لأنَّ الاسم في هذه المواضع جاء لإثبات معناه، وإن أدخلت النفي على كلامك، تعلَّق النفي بمعناه، ثم وضَّح أنَّ ما كان يقبل أدوات التَّشبيه، كأن يكون المشبَّه به معرفة كان تشبيهًا لا استِعَارة فيه، وإن لم يحسن دخولها عليه كانت استِعَارة، وإن تغيَّرت صورة الكلام لدخول الأدوات عليه، كان إطلاق الاستِعَارة عليه هو

(١) "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٨، ٧٩).
(٢) حاشية "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٩).
(٣) "شرح دلائل عجاز"، (ص:١٣٨).

الأولى، وأخيرًا؛ إن امتنعت الأدوات في الدخول عليه كان استِعَارة، ولم يطلق عليه اسم التَّشبيه(١)، وعلى كل حال، فالشَّواهِد الثَّلاثة إطلاق الاستِعَارة فيها أظهر من التَّشبيه؛ لامتناع دخول الأداة إلاَّ بتغيير صورة الكلام، وعلى هذا يكون الباحث مرجِّحًا قول عبد القَاهِر بالاستِعَارة في هذه الشَّواهِد.

ثم بيَّن أنَّ المزيَّة في الكناية، والاستِعَارة، والتَّمثيل، ليست في ظاهر اللَّفظ وليست بكثرة الرَّماد والجود ولا بأي مبالغة في وصفه بالكرم، بل تأكيد وقوع الجود، وإثباته بالدَّليل، أو بصورته التقريرية المثبتة، فقال:"اعلم أنَّ سبيلك أولاً أن تعلم أنْ ليست المزية الَّتي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة الَّتي تدَّعي لها في أنفس المعاني الَّتي يقصد المتكلِّم إليها بخبره، ولكنَّها في طريق إثباته لها وتقريره إياها"(٢).

وعلة المزية تكمن في إثبات الصَّنْعَة مصحوبة بإثبات دليلها(٣)؛ لأن الشَّيخ عبد القَاهِر يؤسِّس علمًا، فلا بدَّ له أن يذكر تعريفه، ومزيته، وعلته، ثم عقد فصلًا للنظر في التفاوت بين ألوان البيان وما هي الفضيلة الَّتي تجري في مسارها، فقال:"اعلم أنَّ من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها وأن تتفاوت التَّفاوُت الشَّديد"(٤).

والمتأمِّل يرى اهتمَّام عبد القَاهِر لإبراز فضيلة وخصوصية هذه الأجناس البيانية ومنها الكناية، فقد كانت "عينه عليها وهو يتتبَّع مستقرها في معاني النَّظم وأبرز الجهات الَّتي تعرض فيها المزية-في الأقطاب الَّتي تنجذب إليها المعاني وهي الكناية والاستِعَارة والتَّمثيل"(٥). فمن هذه الأجناس البيانية الَّتي فصَّل فيها القول: الاستِعَارة،

(١) يُنظر: "أسْرَار البلاغة"، (ص:٣٢٦-٣٣٣)، بتصرُّف.
(٢) المصدر السَّابق، (ص:٧١).
(٣) يُنظر: المصدر نفسه، (ص:٧٢)، بتصرُّف.
(٤) المصدر السَّابق، (ص:٧٤).
(٥) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:١٣١).

فأكَّد أنَّ الخصوصية فيها عائدة من جهة النَّظم، وهذا السَّبب الَّذي جعل عبد القَاهِر يضع مثل هذه الفصول البيانية في "دلائل الإعجاز" وحقُّها أن تضم إلى "أسْرَار البلاغة"، وبعد مئات الصفحات، جاء الشَّيخ ليحدِّث قارئه عن الكناية عن نسبة وقياسها على الكناية عن صفة، "ولهذا يمكننا أن نؤكِّد أنه من المباحث الَّتي أضافها – رحمه الله–"(١).

وقد وصف الشَّيخ عبد القَاهِر هذا الفصل بأوصاف ودقائق يعجز عنه البلغاء والفصحاء والخطباء، فقال: "هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنَّا نراهم كما يصنعون في نفس الصِّفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتَّعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصِّفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك، بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعرًا شاعرًا، وسحرًا ساحرًا، وبلاغة لا يكمل لها إلاَّالشَّاعرالمفلق، والخطيب المصقع"(٢)، وسيأتي الحديث عنها في الفصل الثَّالث.

(١) "التَّصوير البياني"،(ص:٤٠٣).

(٢) "دلائل الإعجاز"، (ص:٣٠٦).

المطلب السَّابع:"رؤية عبد القَاهِر الفكرية في استعارات أبي تمَّام"

إنَّ المتأمِّل لرؤية مَن بنى علم المعاني والبيان، وقبض على أزمَّة البلاغة والنَّقد يجد أنه صاحب فكر عميق في التَّاليف، يصعب سبر غوره، ويقضُّ مضجع السَّاعي وراءه دفعة واحدة، فلا بدَّ من المعاناة والاجتهاد والطَّلب، وتفتيق حجاب المسائل وراء كل فقرة عناها، وهو في كل ذلك مطَّرد النِّظام، لا يقول برأي ثم يخالفه أو يناقضه؛ لأنه محيِّرٌ للعقول، وفي نفس الوقت يبلغ بكلامه كنه القلوب.

ثم إنه استعرض الاستِعَارة في كتابيه العظيميْن القديريْن ووفَّاها حقها، واستشهد على قضاياها ومسائلها من القرآن، والحديث، والشِّعْر، وكان ممَّن استشهد من شعرهم؛ أبي تمَّام الطَّائي، لكنَّه لم يكن مثل البلاغيين والنُّقاد السابقين، فقد كانوا يسردون الشَّواهِد ويطلقون بعض الأحكام دون دليل، أو علِّة أو برهان، أمَّا هو، فقد جعل الشَّواهِد تدلُّ على بعض مسائل الاستِعَارة، وقد يفتِّق من رحم الشَّاهِد الواحد عِدَّة مسائل بلاغية، وأمَّا نقده لتلك الشَّواهِد، فقد قام بمهمات النَّقد؛ وهي:"مهمة التَّفسير ومهمة الحكم"(١)، وفي المطالب تفصيل يمكن استخلاص مذهب الشَّيخ في استِعَارة أبي تمَّام إزاء تلك الشَّواهِد على النَّحو التَّالي:

ففي المطلب الأوَّل: قُرنت الدِّراسة بين (الدَّلائل) و(الأسرار) فجُمعت مسائل الاستعارة فيهما، وكان عمله في (الأسرار) يختلف عن (الدَّلائل)، فالتَّقاسيم والمصطلحات والتَّفريعات كانت في (الأسرار)، وأما (الدلائل) فباحث عن حسن الاستِعَارة ومزيتها الكامن في نظمها، وتتفاوت اللَّفظة المستعارة التفاوت الشَّديد عندما تنتقل من موضع إلى موضع آخر.

(١) "النقد الأدبي"، (ص:١٩٣).

ففي المطلب الثاني:استشهد على الاستِعَارة القريبة من الحقيقة، وربط الشَّاهِدبالنَّظم الَّذي في الأصل يؤتَى به لجمع الجواهر، وبيَّن أنَّ من أقسام الاستِعَارة أن معنى الكلمة المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، وقد قرن شاهد أبي تمَّام بشاهد المتنبّي وحلَّلهما وسكت عن الحكم عليهما.

وفي المطلب الثَّاني: أتى بشاهد على أنَّ مسألتين؛ فالاستِعَارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبَّه وتدَّعي الاسم الموضوع للمشبَّه به، ووضح شرط الاستِعَارة وأنَّه في القرب، وهذا المطلب بنى المسائل بعضها من بعض في قدرة على التَّاليف المنطقي، فكان هذا المطلب جامعًا مانعًا، ثمَّ ذكر مسألة أُخرى دلَّت على نفس الشَّاهِد؛ هي أنَّ هناك ما يصلح فيه التَّشبيه أن يُصرَف إلى الاستِعَارة ومنه ما لا يصلح، وأنَّ الاستِعَارة متى صلحت في شيء، فالمبالغة فيه أصلح، وهاتان النكتتان البلاغيتان أُفرِزتا من رحم شاهد واحد دون تكلُّف منه، بل هو مذهب ربط المسائل.

وفي المطلب الرَّابع: جاء بشواهد تدلُّ على المبالغة في التَّشبيه والاستِعَارة، فذكر تفسير المبالغة واستشهد له بيتًا للنَّابغة، ثم قرن معه شاهدًا من شعر أبي تمَّام، وقام بتوضيح ما أراده منها، فأوجز فيها الكلام، ثم تراه يرجع لشاهد النَّابغة وهو بين هذا وذاك يحلِّل، وينقد حتَّى أقفل باب المسألة، وفي إقران الشَّيخ شعر الطَّائي بشعر شاعر جاهلي مثل النَّابغة، يلحظ الدَّارس ارتفاع شأن شاهد استِعَارة الطَّائي عند الشَّيخ في مثل هذه المسائل، وخصوصية بيانه، فالامتزاج والاقتران بينهما يدلاَّن على وحدة روافد أصول البيان.

وأمّا المطلب الخامس حظي بنصيب أوفر من شواهد أبي تمَّام في مسائل التَّشبيه في الفصل الأوَّل، ثم مسألة ترشيح الاستِعَارة في الفصل الثَّاني، ووصف عبد القَاهِر هذا الفصل بدِقَّة الصَّنْعَة في المعاني التَّخيلية — مفتن المذاهب – أو " الأقيسة الشِّعْرية الَّتي

يسوقها الشُّعْراء ويحدثون بها ضربًا من الإقناع الأدبي"[1]، ثم ذكر شاهدًا على مسألة ترشيح الاستِعَارة وتناسي التَّشبيه، وجعله في سياق فصل (تخييل بغير تعليل) ويرجع إلى تناسي التَّشبيه، واستشهد به البلاغيون المتأخرون على الاستِعَارة المرشَّحة، ولا شكَّ أنَّ التَّرشيح أقوى أنواع الاستِعَارة، فالاستشهاد بشعر الطَّائي على مثلها يؤصِّل ذوق الطَّائي من جهة، ومن جهة أخرى؛ فالشَّيخ عبد القَاهِر يهتم بطاقة اللُّغة الخيالية عند أبي تمَّام، ويكشف عمق شاعريته، ومدى فاعليتها في بناء النَّص البياني، وإبراز الجانب الجمالي.

وفي المطلب السَّادس: انتقلت الدِّراسة إلى كتاب "دلائل الإعجاز"، واستشهد الشَّيخ بشاهديْن يدلاَّن على أن حسن الاستِعَارة يكمن في نظمها، وتتفاوت اللَّفظة المستعارة التفاوت الشَّديد عندما تنتقل من موضع إلى موضع آخر، فأورد عبد القَاهِر لفظة (الجسرّ) في الشَّاهِدين، فأثارت حسنًا في الثَّاني لا ترى في الأول مع حسنه وبديعه، وعبد القَاهِر كعادته يوازن بين شعر الشُّعْراء، لكنَّه هنا قد وازن بين شاهديْن من نفس قول الشَّاعر كما تجلَّى في هذا المطلب، ولا شكَّ أنَّ "هذهطريقةرائعةفيإظهاروجهالجمال"[2]، وهذه لا يحسنها إلاَّ أكابر أهل العِلم والنَّقد.

وقد أوضح الشَّيخ أبو موسى أنَّ عبد القَاهِر قد كلف بشعر البُحْتَري، وأنَّه أشعر النَّاس بعد الجاهليين، فقال: "وكان عبد القَاهِر ذا كلف خاص بشعر البُحْتَري، ويراه أشعر النَّاس بعد الجاهليين، ولا ترى البُحْتَري في كتاب أكثر إشراقًا ممَّا تراه في كتاب أسْرَار البلاغة، حتى في كتاب الموازنة، وأرى أنَّ عبد القَاهِر استخرج من شعره فنونًا بلاغيةً "[3].

(١) "التصوير البياني"، (ص:١٧٩).

(٢) "مجلة جامعة أمالقرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها –منهج التعامل مع الشَّاهِد البلاغي–"،(ج:١٨/٥١٣،ع:٣٠).

(٣) "مدخل إلى كتابي عبد القَاهِر"،(ص:١٨٥–١٨٦).

وفي ظنِّ الدَّارس أنَّ شواهد أبي تمَّام بعد هذه الإطلالة العميقة في فصل الاستِعَارة يقتسم هذا الحظ الأوفر مع قبيله وشريكه البُحْتَري، حتى لو كان في شعره "ما يملأ لفظه المسامع، ويردّ على السمع منه قعاقع، فلا تَرُعكَ شماخة مبناه، وانظر إلى ما في سكناه من معناه،... وكذلك إذا سمعت ألفاظًا مستعملة، وكلمات مبتذلة، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها"(١)، غير أنَّ سلطان عمود الشِّعْر قد طغى على الحسّ الجرجاني، فبسط كليته عليه، وقاعِدَّة فخامة الشِّعْر عنده أنَّ "أجود الشِّعْر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلمُ بذلك أنه قد أفرغ إفراغًا واحدًا، وسُبِك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"(٢). ولا ريب أنَّ الشَّواهِد من شعر أبي تمَّام دلَّت على بعض مسائل الاستِعَارة، كما مرَّ في المطالب السَّابقة، حتى غدت لبنة مندوحة، يتناقلها البلاغيون المتأخِّرون ويسْتَشْهِدُون بها، وعلى هذا الأساس، أصدر الشَّيخ عبد القَاهِر حكمًا في آخر فصل المعاني التَّخيلية؛ أنَّ مَن تبع شعر وطريقة أبي تمَّام يلحقه الضَّيم؛ لأنَّه شاعر صنعة وليس طبع، وهذه أحد الرَّؤى والأحكام الَّتي أطلقها الشَّيخ على شعر الطَّائي، فقال: "ومن هذه الجهة يلحق الضيم كثيرًا من شأنه وطريقه طريق أبي تمَّام، ولم يكن من المطبوعين"(٣).

ومع ذلك كلّه؛ فقد قدَّم الشَّيخ مباحث وفصول في الاستِعَارة، واستشهد لها من خيار شعر الطَّائي لتقرير الصُّور البيانية، والاستشهاد على مذهبه في بعض المسائل؛ لأنه القائل: "الشِّعْر صناعةٌ وضَرْب من النَّسج وجنسٌ من التَّصوير"(٤)، فأدخل بعضها

(١) "رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء"، لابن شرف القيرواني، (ص:٢٧)، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ=١٩٨٣م.

(٢) "البيان والتبيين"، لأبي عمرو بن بحر الجاحظ، (٦٧/١)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ=١٩٨٤م.

(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:٣٠١).

(٤) "الحيوان"، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (١٣٢/٣)، تحقيق:عبد السلام محمد

في رحم بعض، وأرجع العلَّل والأسباب في تلك المفاصل والمسائل مستشهدًا عليها من شعره.

وقد يكون ذلك الشَّاهِد بوابة بعض فصول الشَّيخ الَّتي ارتكز عليها، وعدَّها تلازمًا من اللَّوازم الثَّابتة على الاستِعَارة بأنواعها التَّفصيلية، فأكثر منها، وسبكها سبكًا واحدًا حتى استقرت القاعِدَّة، وتكوَّنت الأوتاد البلاغية والنَّقدية، فخرجت على هيئة المذهب البياني بلازم الشَّاهِد الطَّائي، فطريقة الشَّيخ في تأصيل المسائل العِلْمِية تسلك نمطًا موحَّدًا، فعلمه كالموج يردف أوله بآخره، وآخره بأوله في تؤدة، ومنطقية بيانية، فهو صاحب القول المشهور:"فإن المعانيَ الشَّريفة /اللَّطيفة لا بُدَّ فيها من بناء ثانٍ على أوّل، وردٍّ تالٍ إلى سابق"(١). وكل هذه الحقائق البيانية والمعاني تمَّت بنظرة ارتباط المسألة بالشَّاهِد قرنًا بقرن، وعادة الشَّيخ في تفريع المسائل أنَّه يلائم بين أطرافها، ويجاري فِقَره إلى غرض واحد، فأجابت عنها المطالب بالتَّفصيل الدَّقيق.

هارون دار الجيل، لبنان، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص: ١٤٤).

الفصل الثَّالث

"شواهد الكناية عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"

- **المبحث الأوَّل:"شاهد المُمَاثلة المعيبة عند العسكري".**
- **المبحث الثَّاني:"شواهد التَّمْثِيل عند ابن سنان".**
- **المبحث الثَّالث:"شاهد الكناية عن نسبة عند عبد القَاهِر".**

تَوطِئَة:

حظيت الكناية عناية فائقة عند أهل اللُّغة، والأصول، والتَّفسير، ووردت في القرآن الكريم والحديث الشَّريف، وعامة الشِّعْر الجاهلي، والإسلامي، وكانت إشارات وأقوال من الشُّعَراء فتطوَّرت دلالاتها اللُّغوية حتى أمسك بزمامها البلاغيون والنُّقاد، فجعلوا لها مصطلحات يدلُّ على ذلك الأسلوب الخارج عن هيئة التَّشبيه والمجاز بأنواعه، فأصبحت قسيمتهما الثَّالثة في البيان، وقبل الشُّروع في شواهد علماء البلاغة والنَّقد من شعر أبي تمَّام، لا بدَّ أنْ يشير الدَّارس بإيجاز إلى تعريف مصطلح الكناية عند اللُّغويين والبلاغيين والنُّقاد.

فالكناية عند اللُّغويين كالخليل بن أحمد(ت:١٧٠هـ) يقولون:"كَنَى فلانٌ يُكْنِي عن كذا وعن اسمِ كذا إذا تَكَلَّم بغَيره ممّا يُسْتَدَلُّ به عليه نحو الجِماع والغائط والرَّفَث ونحوه"[١]، وقال ابن منظور (ت:٧١١هـ):"والكناية أَن تتكلَّم بشيء وتريد غيره وكَنَى عن الأَمر بغيره يَكني كِناية يعني إِذا تكلَّم بغيره ممَّا يُستدلّ عليه نحو الرفث والغائطونحوه"[٢]، فبهذا يتَّضح أنَّ الكناية عند العرب لغة تعني: "عدول لفظ إلى آخر دال عليه وليست شيئًا آخر"[٣]، هذه جملة تعريفات الكناية عند أهل اللُّغة.

أمَّا الكناية عند البلاغيين والنُّقاد، فقد تعدَّدت مصطلحاتها من قرن إلى قرن، فابن المعتز عندما انتهى من ذكر ألوان البديع الخمسة عرض لمحاسن الكلام والشِّعْر، وجعل القسم التَّاسع منها: التعريض والكناية، فقال: "ونحن الآن نذكر بعض محاسن الشِّعْر...،ومنها التَّعريض والكناية"[٤]، ثم سرد بعض شواهد التَّعريض والكناية،

---

(١) "العين"، الخليل بن أحمد، (ص:٨٥٦)، مادة: (كنى)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة جديدة فنية مصححة ومرتبة وفقًا للترتيب الألفبائي، د ت.

(٢) "لسان العرب"،(١٢٤/١٣)، مادة (كنى).

(٣) "الكناية"، محمد جابر فياض، (ص:١٠)، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩=١٩٨٩م.

(٤) "البديع"، (ص:١١٥-١١٦).

ويُلحَظ أنَّه لا يفرق بينهما، فلم يقلْ هذا تعريض وهذه كناية، ولم يتعرَّض لها بالتَّعريف. ثم جاء قدامة بن جعفر(ت:٣٣٧هـ)، فتناول الكناية بمصطلح مختلف سماه:(الإرداف)، وجعله من أنواع ائتلاف اللَّفظ والمعنى، والحقُّ أنَّ كل مَن جاء بعده أصبح عالة عليه، خاصَّة أبي هلال وابن سنان، أمَّا عبد القَاهِر، فقد أخذ عنه نوع من أنواع الكناية، لكنَّه انطلق ليُحدِث نوعًا آخر سيأتي الحديث عنه في مطلبه، فإذا كان كذلك، فإنَّ قدامة وعبد القَاهِر عليهما المعوَّل في هذا الشَّأن، فقد عرَّف قدامة (الإرداف) فقال:"ومن أنواع ائتلاف اللَّفظ والمعنى الإرداف:وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللَّفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلَّ على التابع، أبان عن المتبوع، بمنزلة قول ابن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وإنما أراد هذا الشَّاعر أن يصف طول الجيّد، فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيّد، وهو بعد مهوى القرط"[١]، ثم ذكر تحته شواهد تدلّ على الكناية عن صفة فقط، فـ"كان قدامة يقظًا في سوق أساليب الإرداف، فلم يذكر في شواهد هذا الباب ما ليس منه، وكانت شواهده كلها من باب الكناية عن الصِّفة"[٢]، وله مصطلحان آخران عدَّهما من (الكناية) وهما (التَّمثيل أو المماثلة) و(التَّتبيع)،كما نقله أبو هلال وابن رشيق وابن سنان. وكان قدامة دقيق في شواهد المماثلة أو التَّمثيل عند بعضهم، فـ"إذا ما انتقل إلى المماثلة، رأيته يسوق شواهدها في دِقَّة أيضًا"[٣]، على عكس الَّذين نقلوا عنه، فخلطوا الشَّواهِد بين المصطلحات وسيأتي ذكرهم.

(١) "نقد الشعر"، (ص:١٥٥-١٥٦).
(٢) "التَّصوير البياني"، (ص:٣٧٧).
(٣) المرجع السَّابق، (ص:٣٧٨).

ومصطلح (الكناية) له مدلوله اللُّغوي البياني، ثم أصبح فيما بعد مصطلحًا منطقيًا أصوليًّا عند البلاغيين المتأخِّرين، ووصف الشَّيخ أبو موسى تلاحُم القرون من قدامة إلى الخطيب في الحركة الفكرية، فيقول: "تعريف قدامة وتعريف الخطيب يمثِّلان جناحيْن يضمَّان أربعة قرون كانت الحركة الفكرية في كثير من جوانبها، وخاصَّة هذا الجانب الَّذي نبغ فيه عبد القَاهِر؛ كالموج الهادر لا تثبت فيه إلا الآراء القوية"(١). فبهذا تتَّضح آراء قدامة التَّأثرية فيمن بعده في مصطلح (الكناية)؛كأبي هلال، الَّذي نقل عن قدامة مصطلحات الكناية، واستشهد من شعر الطَّائي، وسيأتي الحديث عنه في المطلب الأول -إن شاء الله-.

ثم جاء ابن رشيق وعدَّ جميع أبواب البيان وخاصَّة الكناية داخلة تحت المجاز،كما بُيِّن في الفصل الأول(٢)، فالكناية من محاسن الكلام، وفيها يقول: "فصار التَّشبيه، والاستِعَارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز"(٣)، وقال أيضًا:"وأمَّا كون التَّشبيه داخلًا تحت المجاز...، وكذلك الكناية في مثل قوله —عزّ وجلَّ- إخبارًا عن عيسى ومريم -عليهما السلام-{كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ}، كناية عمَّا يكون عنه من حاجة..."(٤)، وأيَّده على إدخال الكناية في المجاز الدُّكتور أحمد مطلوب، فقال: "ونرى أن الكناية مجاز؛ لأن اللَّفظ فيها لا يدلُّ على المعنى المقصود حقيقة، وهي ألصق من التَّشبيه بالمجاز"(٥)، ثم عقد بابًا بعد باب (التَّشبيه) سمَّاه:(الإشارة) وأطال فيه، وأدخل تحته أنواعًا كثيرة؛ كالتَّفخيم، والادعاء، والتَّعريض، والتَّلويح، والرَّمز، واللَّغز، والتَّعمية، والحذف، والتَّورية عند العرب كناية، والكُنية من الإشارة، ثم إنَّ

(١) المرجع السَّابق، (ص:٣٧٩).
(٢) يُنظر: (ص:١١٧) من هذا البحث.
(٣) "العُمْدَةُ"، (٤٣٠/١).
(٤) المصدر السَّابق، (٤٣٤/١).
(٥) "فنون بلاغية"، أحمد مطلوب، (١٧١-١٧٢)، دار البحوث العليمة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.

تعريف الإشارة عنده لا يخرج عن تعريف قدامة السَّابق؛ أي إيجاز قائم على اللَّمح والإيماء، ثم ذكر بابًا سماه:(التَّتبيع)[1]. وبهذا الأمر فإنّ تعدُّد مصطلح الكناية عند ابن رشيق يأخذ أشكالًا مختلفة، وهو في كل نوع يدلِّل عليها بشواهد يقوم بتفسيرها وتبيينها. وأمَّا مسألة:(التَّمثيل) عند ابن رشيق فقد عدَّها من ضروب الاستِعَارة بل هي استِعَارة تمثيلية، كما اتَّفق مع عبد القَاهِر في ذلك، لكنَّه في تعريفه لها حدَّها بما حدَّ قدامة المماثلة، وأنَّ "التَّمثيل وهو المماثلة عند بعضهم، وذلك أنْ تمثّل شيئًا بشيء فيه إشارة"[2]، ولقد شكره البلاغيون والنُّقاد على ما قام به، واتَّكأوا على تفصيلاته وتحديداته، إلاَّ أنَّه لم يسْتَشْهِد في باب الكناية من شعر أبي تمَّام.

ثم جاء ابن سنان وتبع قدامة وأبا هلال في الحديث عن (الإرداف، والتَّتبيع، والتَّمثيل أو المماثلة)، وعدَّها من نعوت البلاغة والفصاحة، واستشهد لها من شعر أبي تمَّام، وسيأتي الحديث عنه في المطلب الثَّاني.

ثم جاء دور إمام البلاغيين والنُّقاد الشَّيخ عبد القَاهِر الجرجاني فقد عقد فصلًا في "دلائل الإعجاز" سمَّاه:(في اللَّفظ يطلق والمراد به غيره)، واستشهد له من شعر أبي تمَّام، وسيكون محور حديثه وتفصيله وتحليله في المطلب الثَّالث.

(١) يُنظر: "العُمْدَةُ"، (١/٤٩٦-٥٢٨).

(٢) المصدر السَّابق، (١/٤٥٠).

المبحث الأوَّل

"شاهد المماثلة المعيبة عند العسكري"

عندما يأتي الحديث عن الكناية عند أبي هلال العسكري في كتابه الموسوم بـ"الصناعتيْن" تتألَّق الألفاظ والمعاني؛ لتحوي أربعة فصول تحت الباب التَّاسع في شرح البديع، فمن تلك الفصول:-الفصل السَّابع: في الإشارة، والفصل الثَّامن: في الإرداف، والفصل التَّاسع: في المماثلة، والفصل الثَّاني عشر: في الكناية والتَّعريض.

والَّذي تُعنى به الدِّراسة؛ الفصل التَّاسع: (في المماثلة)؛ لاشتماله على شاهد من شعر أبي تمَّام، وقبل الولوج لمقصده من المماثلة وعلى مَن اعتمد في ذلك، وغيرها من المسائل، أودُّ الوقوف سرّيعًا على مراده من الفصول الأخرى؛ لأنها داخلة في ثنايا عرضه للتَّمثيل.

ففي الفصل السَّابع: (في الإشارة)، وهي عنده كتعريف قدامة[١]، فقال:"أن يكون اللَّفظ القليل مشارًا به إلى معانٍ كثيرة، بإيماء إليها ولمحة تدلّ عليها؛ وذلك كقوله تعالى:{إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}[النجم:١٦]، وقول النَّاس:لو رأيت عليّا بين الصَّفيْن؛ فيه حذف وإشارة إلى معانٍ كثيرة.وأخبرنا أبو أحمد..."[٢]، فهنا أمرٌ يتَّضح بجلاء أنَّ أبا هلال ينقل عن قدامة[٣] في أغلب أحواله، وعن خاله أبي أحمد.

وفي الفصل الثَّامن عرَّف الإرداف، فقال: "أن يريد المتكلمِّ الدلالة على معنى، فيترك اللَّفظ الدالّ عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابعٌ له، فيجعله عبارة عن المعنى الَّذي أراده"[٤]، وهو كتعريف قدامة[٥]، وذكر أنَّ من الإرداف قوله تعالى:{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ}[البقرة:١٧٩]، وهي لا تدخل فيه لاختلاف الدِّلالة، وبيَّن ذلك الشَّيخ أبو موسى:" وهي لا تدخل في باب الإرداف، وقد ذكر أنَّ الحياة

(١) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٢).
(٢) "الصِّناعتين"، (ص:٣١٥).
(٣) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٢).
(٤) "الصِّناعتين"، (ص:٣١٧).
(٥) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٥-١٥٦).

ردف القصاص الَّذي يتكافون به عن القتل، ...فدلالة الكلام دلالة مباشرة، وليست من هذا الباب"[(١)]، ولا أدري ما الَّذي دفعه في نهاية الباب، فقال: "وقد أدخل بعض مَن صنّف في هذا أمثلة باب الإرداف في باب المماثلة، وأمثلة باب المماثلة في باب الإرداف، فأفسد البابيْن جميعًا، فلخَّصت ذلك وميزّته وجعلت كلاًّ في موضعه، وفيه دِقَّة وإشكال"[(٢)]، فأغلب الشَّواهِد ذكرها قدامة في البابيْن، وقد وقفت على عبارة لطيفة لـمَّح فيها الشَّيخ أبو موسى، ولم يصرِّح بتناقض أمثلته في البابيْن فقال: "ومن الطريف أنَّ أبا هلال ينصُّ على أنَّ من صنَّفوا في هذا العِلم أدخلوا أمثلة باب الإرداف في باب المماثلة، وأمثلة باب المماثلة في باب الإرداف فأفسدوا البابيْن جميعًا وأنَّه – رحمه الله– لخَّص ذلك وميَّزه، وجعل كلًا في موضعه، وأنَّ ذلك من المسائل الدَّقيقة المشكلة، هكذا قال –رحمه الله– وأثابه"[(٣)]، وهذا من أدب الشَّيخ مع علمائنا القدامى.

ولما جاء إلى الفصل الثَّاني عشر:(الكناية والتعريض)، عرَّفهما بقوله: "وهو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرِّح، على حسب ما عملوا باللّحن والتّورية عن الشيء..."[(٤)].

وقد قال الدُّكْتُور محمد فياض: "ولقد خلط الكناية بالتعريض خلطًا لا يكاد القارئ يتبيَّن ما يراه العسكري كنايةً وما يراه تعريضًا"[(٥)]، ويتَّضح أخذه عن خاله في هذا الباب، وفي باب (الإشارة)جليًا كما قال: "وأخبرنا أبو أحمد...،ما أخبرنا أبو أحمد"[(٦)]، وممَّن يؤكِّد أخذه من رسالة خاله في صناعة الشِّعْر الدُّكْتُور شوقي ضيف،

(١) "التّصوير البياني"، (ص:٣٧٧).
(٢) "الصِّناعتين"، (ص:٣١٩).
(٣) "التَّصوير البياني"، (ص:٣٧٧–٣٧٨).
(٤) "الصِّناعتين"، (ص:٣٣٤).
(٥) "الكناية"،(ص:٤٢).
(٦) "الصِّناعتين"، (ص:،٣١٥,٣٣٥).

الَّذي زعم أنَّه أخذ أغلب مصطلحات الكناية عن خاله، فقال: "ويظهر أنَّ أبا هلال جلب هذه المصطلحات السبعة[١]من رسالة خاله أبي أحمد في صناعة الشِّعْر، فإننا نجد نجد الباقلاني يذكرها جميعًا–على هدي تلك الرسالة– ما عدا جمع المؤتلف والمختلف، وذكر في بعضها صراحة أنه ينقل عن أبي أحمد، ممَّا يدلّ على أنَّ أبا هلال نقلها جميعًا عن خاله، وقد ردَّد اسمه مرارًا في كتابه"[٢].

والفصل التَّاسع جعله: في المماثلة، واستشهد من شعر أبي تمَّام عليها، وهي عند أبي هلال تعني:"أن يريد المتكلَّم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر، إلاَّ أنه ينبئ إذا أورده عن المعنى الَّذي أراده؛ كقولهم: فلان نقى الثوب، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب، وإنما استُعمِل فيه تمثيلًا"[٣]، تمثيلًا"[٣]، وهذا تعريف قدامة للتَّمثيل[٤]، فبهذا يتَّضح أنَّ ابنَ رشيق لما قال عن عن التَّمثيل هو المماثلة عند بعضهم[٥]، يقصد أبا هلال وخاله أبي أحمد، وبنظرة على على الشَّواهِد، فأغلبها احتضنها الحاتمي في باب الكناية ولم يسمِّها المماثلة[٦]، ونقل ونقل العسكري من شواهد قدامة وصرَّح باسمه، لكنَّ العسكري تفرَّد بشواهد كان من أبرزها شاهد لأبي تمَّام عدَّه ممَّا عِيب عليه في باب المماثلة، وقد أتى في هذا الباب بشواهد اعتبرها من التَّمثيل؛ وهي من (الإرداف)، ففي الشَّاهِد الثَّاني في قول النابغة:

رقاقُ النِّعالِ، طيبٌ حجزاتهمْ يُحَيَّوْنَ بالريحانِ يومَ السَّبَاسِبِ[٧]

(١) المصطلحات السَّبعة هي: التمثيل، والتذييل، والاستطراد... .

(٢) "البلاغة تطور وتاريخ"، (ص:١٤٣).

(٣) "الصِّناعتين"، (ص:٣٢٠).

(٤) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٨).

(٥) "العُمْدَةُ"، (٤٥٠/١).

(٦) يُنظر: "حلية المحاضرة"، (١١/١)، تحقيق د. جعفر الكتاني، دار الثقافة، بيروت، بيروت، ١٩٧٩م.

(٧) "ديوان"، النّابغة الذبياني، (ص:٣).

فهذا من باب الإرداف، فأين التَّمثيل، وعناه الشَّيخ أبو موسى في ذلك بقوله: "ثمَّ إنه ذكر في باب المماثلة شواهد من باب الإرداف، ولا تصحّ أن تكون من باب المماثلة"(١)، ففِعله هذا حجَّة على قوله السابق في نهاية باب الإرداف، وكذلك في قولهم:(فلان نقي الثوب) من الإرداف، قال الدُّكْتُور محمد فيَّاض: "ولا أدري كيف وضع في المماثلة قولهم:فلان نقي الثوب"(٢)،فهذه صور تداخُل أمثلة المماثلة مع أمثلة الإرداف.

الشَّاهِد السَّادس والسّتون بعد المائة(٣)، قول أبي تمَّام:

أنـــتَ دلـــوٌ وذو السَّـــماح أبـــو موســـى قليـــبٌ وأنـــت دلـــوُ القليـــبِ
أيهـــا الـــدّلو لا عـــدمُتك دلـــوًا مـــن جيـــاد الـــدِّلاءِ صـــلب الصّـــلِيبِ(٤)

جعل الممدوح دلوًا للقليب، وأبا موسى قليبًا، وهذا التَّمثيل وهذه الإشارة تدلّ على فيض وكرم الممدوح وكثرة عطائه؛ لأنَّه أفضل الأنساب الرَّفيعة القدر، فهي لا تُعرف الكرم للنَّاس إلاَّ لأصالة عرقها وطيب الصُّلب الَّذي انحدرت منه تلك النّطف، فالتَّمثيل واضح في الدَّلو وجودته وعراقته يخرج الماء العذب الزّلال من القليب (البئر)، فهو تمثيل لتشبيهات عِدَّة وهو يقصد الكناية عن صفة الدّلو، وعاب أبو هلال الكناية في هذ الشَّاهِد، فقال:"وممَّا عِيب من هذا الباب قول أبي تمَّام..."(٥).

وهنا مسألة يجب الوقوف عليها، فعندما عرَّف عبد القَاهِر التَّشبيه التَّمثيلي، عرض أمرًا أراد أن يبيِّنه لكي لا يختلط بغيره، فهو لا يرى فرقًا بين التَّمثيل والمماثلة والمثل، فكلها عنده شيءٌ واحد، وإذا تبيَّن ذلك، فقد أنكر على أبي أحمد العسكري خال أبي هلال العسكري توهُّمه وجعل المماثلة تسمية غير التَّمثيل، والمثل عند قول يزيد

(١) "التّصوير البياني"، (ص:٣٧٧).
(٢) "الكناية"، (ص:٤٢)،
(٣) يُنظر:"الصِّناعتين"، (ص:٣٢٣).
(٤) هذا البيت ليس في دواوين أبي تمَّام المختلفة.
(٥) "الصِّناعتين"، (ص:٣٢٠).

بن الوليد لمروان بن محمد: أراد تقدَّم رجلًا وتؤخِّر أُخرى، فأنَّكر عبد القَاهِر جعل هذه المماثلة من صور الكناية الَّتي عدَّها أبو أحمد العسكري وأبو هلال من أنواعها، فقال: "وذكر أبو أحمدالعسكري أنَّ هذا النَّحو من الكلام يسمى (المماثلة) وهذه التسميه توهَّم أنه شيء غير المراد بـ(المثل) و(التَّمثيل) وليس الأمر كذلك، كيف وأنت تقول:(مثلك مثل من يقدَّم رجلا ويؤخر أُخرى)؟...، وما أشبَّه ذلك ممَّا تجيء فيه بمشبَّه به ظاهر تقع هذه الأفعال في صفة اسمه أو صفته"(١)، ويعدّ الشَّيخ هذا الضرب من صنوف الاستِعَارة، وهي فيما عُرفت بعد ذلك عند البلاغيين المتأخِّرين بالاستِعَارة التَّمثيلية أو التَّمثيل على سبيل الاستِعَارة وقد يُسمى التَّمثيل مطلقًا(٢)، فقال الشَّيخ في قوله –عزَّ وجلَّ–: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَالسَّمَاء}[يونس:٢٤]:"فاحفظ هذا الأصل، فإنَّك تحتاج إليه وخصوصا في الاستِعَارة"(٣)، يقصد الاستِعَارة التَّمثيلية.

فبهذا يتَّضح أنَّ أبا هلال وخاله يوسعان معنى المماثلة لتشمل بعض صور الكناية، فأبو أحمد "يوسِّع معناها لتشمل بعض صور الكناية المعروفة باسم الكناية عن صفة، ونجد أبا هلال يتَّسع بها نفس الاتساع"(٤)، فالمماثلة إذن من صور الكناية، وكذلك التَّمثيل عند القدامى وابن سنان كما سيأتي، أما ابن رشيق وعبد القَاهِر والمتأخِّرون جعلوها من قبيل الاستِعَارة التَّمثيلية، وعلى ذلك استقرَّت وأفردت بباب مستقل، سُمِّي: المجاز المركَّب.

ومع تلك المآخذ الَّتي سُجِّلت على أبي هلال، فقد "استقصى في كتابه صور البيان والبديع الَّتي سجَّلها النُّقاد وأصحاب البلاغة حتى عصره. وهذا–بدون ريب–

(١) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١١٣).
(٢) "الإيضاح"، (١١٣/٥).
(٣) "أسْرَارُ البلاغة"، (ص:١١٤).
(٤) "البلاغة تطور وتاريخ"، (ص:١٤٣).

يرفع من عمله، وقد عُني فيه بإكثاره من الأمثلة، كما عُني في أحوال كثيرة بتحليل أطراف منها تحليلًا يدلّ على رهافة حسّه وصفاء ذوقه ونقائه"[1].

(١) المرجع السَّابق، (ص:١٤٦).

المبحث الثَّاني

" شواهد التَّمثيل
عند ابن سنان"

من مرتكزات وأصول التَّاليف عند ابن سنان وضع الألفاظ موضعها اللَّائق من حقيقة أو مجاز، ويندرِج تحتها مسائل تتعلَّق بالصِّحة من وضع الألفاظ وخلاف ذلك، فقد ذكر أنواعًا كثيرة من ألوان البديع والبيان، تدخل تحت ما سمَّاه وضع الألفاظ موضعها اللائِّق بها، فقال ابن سنان في ثنايا حديثه عن الألفاظ المستعملة في الجدّ والهزل: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عمَّا يجب أنْ يكنَّى عنه في الموضع الَّذي لا يحسن فيه التَّصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، وإنما قلنا في الموضع الَّذي لا يحسن فيه التصريح؛ لأنَّ مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالاً"(١)، وهو يشير أنَّ هذا الاستعمال من الكناية، لكنَّ إدخال الكناية تحت جنس الألفاظ المستعملة في الذَّم بألفاظ المدح وعكسها عرفت عند البلاغيين المتأخِّرين من أقسام المحسِّنات المعنوية، وهي:(تأكيد المدح بما يشبَّه الذم، وتأكيد الذمّ بما يشبَّه المدح)، والصحيح "أن لا يعبِّر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذمّ ولا في الذمّ بالألفاظ المعروفة للمدح وتُسَاق في الجدّ ألفاظه، ويدخل في ذلك حسن الكناية في الموضع الَّذي لا يحسن فيه التَّصريح"(٢)، فبهذا يتَّضح عدم استقرار مصطلح الكناية عند ابن سنان في علم البيان، فـ "لا تزال تفتقر إلى ضبط أدقّ"(٣)، وابن سنان بذلك ينصرف عن مصطلح الكناية ويردُّه تحت جنس بديعي، فأين المصطلح الدَّال على الكناية عنده إذن؟ فجوابه يكون في الإرداف والتَّتبيع.

فمن صور الكناية عنده "الإرداف" و"التَّتبيع" ويجعلها من نعوت البلاغة الفصاحة، فيقول: "ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تُرَاد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللَّفظ الخاص الموضوع له في اللُّغة، بل يؤتَى بلفظ يتبع ذلك المعنضرورة،

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:١٥٧).
(٢) "البلاغة تطوُّر وتاريخ"، (ص:١٥٤).
(٣) المرجع السَّابق، (ص:١٥٨-١٥٩).

فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يسمىالإردافوالتتبيع؛ لأنه يؤتَى فيه بلفظ هو ردف اللَّفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه، والأصل في حسن هذا أنه يقع فيه من المبالغة في الوصف ما لا يكون في نفس اللَّفظ المخصوص بذلك المعنى، ومثال قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم "[1]

وهو بمثل ما عرَّف قدامة[2]، وأبو هلال[3]، وابن رشيق[4]التَّتبيع، والشَّواهِد نفسها والشَّواهِد نفسها تنتقل من كتاب إلى كتاب، غير أنَّ لكل عالم شواهد تخصُّه وتميِّزه عن الآخر، وكلها تصبّ في معين الكناية.ويُعد مصطلح (المماثلة) عند ابن سنان من الكناية،ويسمَّيه: (التَّمثيل)، ووافق قدامة[5]في مصطلح (التَّمثيل)، وعدَّه ابن سنان من من نعوت الفصاحة البلاغة، فقال:"ومن نعوت الفصاحة والبلاغة أن يُرَاد معنى فيوضّح بألفاظ تدلّ على معنى آخر، وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود، وسبب حسن هذا مع ما يكون فيه من الإيجاز أنَّ تمثيل المعنى يوضِّحه ويخرجه إلى الحسّ والمشاهدة، وهذه فائدة التَّمثيل في جميع العلَّوم؛ لأنَّ المثال لا بدَّ من أنْ يكون أظهر من الممثل، فالغرض بإيراده إيضاح المعنى وبيانه، ومن هذا الفن قول الرماح بن ميادة:

ألم تك في يمنى يديك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالكا"[6]

ولـمَّا انتهى من ذكر الألفاظ على الانفراد والاشتراك، أراد أن يذكر الكلام على المعاني مفردةً من الألفاظ حقيقة البلاغة والفصاحة، فمن "الأوصاف الَّتي تطلب من هذه المعاني هي الصحة والكمال والمبالغة والتحرُّز ممَّا يوجِب الطعن والاستدلال

(١) "سرّ الفصاحة"، (ص:٢١٩).
(٢) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٥-١٥٦).
(٣) يُنظر: "الصِّناعتين"، (ص:٣١٧).
(٤) يُنظر:"العُمْدَةُ"، (٥١٧/١).
(٥) يُنظر: "نقد الشعر"، (ص:١٥٨).
(٦) "سرّ الفصاحة"، (ص:٢٢٢).

بالتَّمثيل والتَّعليل وغيرهما"[١]، واستشهدللاستدلال بالتَّمثيل بثلاثة شواهد من شعر أبي أبي تمَّام:

- **الشَّاهِد السَّابع والسّتون بعد المئة[٢]، وقوله:**

أخْرَجْتُمُوهُ بِكُرْهٍ مِنْ سجيته[٣] والنارُ قد تنتضى من ناضرِ السلمِ[٤]

- **الشَّاهِد الثَّامن والسّتون بعد المئة [٥]، وقوله:**

وإِذَا أَرادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضيلَةٍ طويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ

لَوْلاَ اشتعَالُ النَّارِ ، فيما جَاوَرَتْ ما كَانَ يُعْرَفُ طيبُ عَرْف العُودِ[٦]

- **الشَّاهِد التَّاسع والسّتون بعد المئة[٧]، وقوله:**

وكنّا نُرجَّيهِ على السّخط[٨]والرضَا وأَنْفُ الفَتَى مِنْ وَجهِهِ وهْوَ أَجْدَعُ[٩]

وقد ذكر ابن سنان الشَّاهِديْن الأوليْن في حديثه عن الاستِعَارة[١٠]، وها هو هو يذكرهما امتدادًا لصور التَّمثيل، فالتشابه بين كلامه واضح الصِّلة ببعضه ببعض، فقال عن التَّمثيل: "أنْ يراد معنى فيوضِّح بألفاظ تدلّ على معنى آخر...فالغرض بإيراده إيضاح المعنى وبيانه"[١١]، وفي الاستدلال بالتَّمثيل قال:" فأن يزيد في الكلام

---

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٢٤).

(٢) يُنظر: المصدر نفسه،(ص:٢٦٣).

(٣) وفي رواية الديوان بشرح التَّبْريزي: "شَجِيَّتِه"

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (١٨٩/٣).

(٥) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:٢٦٤).

(٦) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٩٧/١).

(٧) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:٢٦٤).

(٨) وفي رواية الديوان بشرح التَّبْريزي:" ونَحْنُ نُزَجِّيهِ على الكُرْهِ".

(٩) "ديوان"، أبي تمَّام، (٣٢٤/٢)، ومطلع القصيدة:

أما إنه لولا الخليطُ المودعُ وربعٌ عفا منه مصيفٌ ومربعُ

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الخامس عشر من البحر الطويل، قالها يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري.

(١٠) يُنظر: "سرّ الفصاحة"، (ص:١٣٧).

(١١) المصدر السَّابق، (ص:٢٢٢).

معنى يدلّ على صحته بذكر مثال له"[1]، فالأول لإيضاح المعنى وبيانه، والثَّاني زيادة معنى يدلّ عليه، فالإيضاح والزيادة فضلة زائدة عن المعنى لا عمدة في الكلام، وهذا يتَّضح من الشَّواهِد، ففي قول الطَّائي:

أخْرَجْتُمُوهُ بِكُرْهٍ مِنْ سجيته والنارُ قد تنتضى من ناضرِ السلمِ

دلّ بتمثيله أن خرج من خُلقه المعتاد بتمثيل النَّار وإيقادها من السلم وهو نوع من الشَّجر الجيّد، وهي كناية في هذا التَّمثيل لبيان المعنى وكشف اللثَّام عنه وفي قوله:

وإِذَا أَرادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضيلَةٍ طويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ

لَوْلاَ اشتعَالُ النَّارِ ، فيما جَاوَرَتْ ما كَانَ يُعْرَفُ طيبُ عَرْف العُودِ

مثَّل انتشار الخصال الحميدة من فم الحاسد، بعرف العود عند الاشتعال، وهي كناية وزيادة تمثيل للمعنى الأول بالثَّاني.

وفي قوله:

وكنّا نُرجِّيهِ على السّخط والرضَا وأَنْفُ الفَتَى مِنْ وَجهِهِ وهْوَ أَجْدَعُ

فمثَّل مَن يصبر على الشَّيب الَّذي ذكره الشَّاعر في البيت الَّذي قبله ساخطًا أم راضيًا كمثل الأنف الأجدع في الوجه، فهذا المثال أظهر المعنى وزاد حين جعل له مثالًا معروفًا ومشاهدًا بذكر الأنف المقطوع في وجه المرء.

وعلى كل حال، قد استقرَّت هذه الشَّواهِد الثَّلاثة عند البلاغيين والنُّقاد من قبيل شواهد التَّشبيه الضِّمني، واستشهد عبد القَاهِر ببعضهاعلى تأثير التَّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني[2]، وهو يضاعف قوى النَّفس ويحرِّكها[3]، وفي هذا النَّوع يقول الشَّيخ الشَّيخ أبو موسى: "وهذا النوع من التَّشبيه الَّذي يكون فيه المشبَّه به متبوعًا بأمثال

(١) المصدر السَّابق، (ص:٢٦٣).

(٢) يُنظر: "أسْرَارُ البلاغة"،(ص:١١٥)، ويُنظر: (ص:١٣٣) من هذا البحث.

(٣) الإيضاح"، (٣/٢٠٥-٢٠٧).

هذه الأحوال والأوصاف الَّتي تصف صورة متكاملة الملامح محدَّدة السمات، يأتي في ضرب آخر من ضروب التَّشبيه الَّذي يسميه البلاغيون التَّشبيه الضمني..."[1].

فالاستدلال والاحتجاج بالتَّمثيل تابع للتَّمثيل الَّذي يراه ابن سنان صورة من صور الكناية المعروفة، وأنه من نعوت الفصاحة والبلاغة، فهو يتحدَّث عن التَّمثيل في الألفاظ على الانفراد والاشتراك، وهنا يتحدَّث عن المعاني مفردة من الألفاظ، وكل ذلك مما يُحقِّقُ البلاغة والفصاحة لديه.

وهنا لفتة أريد أن أبيِّنها أن تعريف (الاستدلال بالتَّمثيل) الَّذي أورده ابن سنان هو الَّذي عرَّفه البلاغيون المتأخِّرون فيما بعد بـ(التذييل)، وهو "تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد وهو ضربان ضرب لا يخرج مخرج المثل...، وضرب يخرج مخرج المثل..."[2]، وهذا محض اجتهاد من الدَّارس، فبهذا يتَّضح أنَّ المباحث البلاغية في القرن الرَّابع والخامس بكل أنواعها من معان، وبيان، وبديع، لم تتَّضح رؤيتها قبل عبد القَاهِر، وافتقرت إلى مَن يضبط النّظائر المتشابكة في حدود دقيقة، فقد حقَّق الشَّيخ نقلة نوعية في الدَّرس البلاغي والنَّقدي، استحقَّ عليها لقب شيخ البلاغيين والنُّقاد، والورقات القادمة تتحدَّث عنه وما أتى به في خدمة الكناية.

(١) "التَّصوير البياني"،(ص:٩٠).

(٢) "بغية الإيضاح"،(ص:٣٥٢-٣٥٣).

المبحث الثَّالث

"شاهد الكناية عن نسبة عند عبد القَاهِر"

تقدَّم الحديث عن تعدّد مصطلحات الكناية من إشارة، وإرداف، وتتبيع، وتمثيل، وغيرها، ذكرها قدامة وسار عليها من جاء بعده وأضاف عليه، غير أنَّ تلك الكنايات تصبّ في نوع واحد من أنواع الكناية، هو (الكناية عن صفة)، قال الشَّيخ أبو موسى عن قدامة:" كانت شواهده كلها من باب الكناية عن صفة"(١)، ثم بيَّن أنَّ عبد القَاهِر بحث عن أمرٍ آخر في جوانب الأساليب الدّالة على الكناية، فخرج بأمرٍ لم يُسبَق إليه، وهو الكناية عن نسبة، وشاهد أبي تمَّام في هذا المبحث من هذا القبيل، فقال الشَّيخ أبو موسى: "ولم أجدْ في الكتب الَّتي سبقت عبد القَاهِر دراسة تشير إشارة تفتح القول في هذا الضرب، ولهذا يمكننا أن نؤكِّد أنه من المباحث الَّتي أضافها –رحمه الله–. وكأنه لما أحسَّ أنَّ قدامة أجمل الكناية عن الصفة، حاول أن يبحث عن شيء آخر في جوانب هذا الأسلوب؛ ليكشفه ويبسط القول فيه، فأصاب الكناية عن النسبة، وجعلها في دراسته عديلًا للكناية عن الصفة من حيث أثرها وقيمتها في بلاغة العبارة، ومن حيث إنها صور تقترب وتبتعد"(٢).

أمَّا تعريف الكناية عند عبد القَاهِر، فقد وضعه في فصلٍ، سماه: فصل (اللَّفظ يُطلق والمراد به غيره) فقال: "والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلِّم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللَّفظ الموضوع له في اللُّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومِئ به إليه،ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد" يريدون طويل القامة...، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنًى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنَّهم توصَّلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان..."(٣).

(١) "التصوير البياني"، (ص:٣٧٧).
(٢) المرجع السَّابق، (ص:٤٠٣).
(٣) "دلائل الإعجاز"، (ص:٦٦)،

فعبد القَاهِر يذكر معنيَيْن مرتبة في الوجود، فالمفهوم من المعنى الأول (في كثير الرّماد) هو المعنى المباشر، ويفهم منه المعنى الثَّاني وهو الجود[١]، ولم يزد عبد القَاهِر في هذا الفصل على أن عرَّف الكناية، وقرن معها الاستِعَارة والتَّمثيل إذا جاء على حدِّ الاستِعَارة، ثم جاء الفصل الَّذي يليه وأفصح عن المزيَّة لكل هذه الأنواع، وارتفاع شأن الكناية عن الإفصاح وأبلغ، أمَّا التعريض: فالكناية أوضح في النَّفس من التصريح، والمجاز أبلغ من الحقيقة، وحكى الإجماع في ذلك فقال: "قد أجمع الجميع على أنَّ"الكناية" أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنَّ للاستِعَارة مزيةً وفضلاً، وأنَّ المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة"[٢].

ثم بيَّن أنَّ المزيَّة في الكناية، والاستِعَارة، والتَّمثيل، ليست في ظاهر اللَّفظ، وليست بكثرة الرَّماد والجود، ولا بأي مبالغة في وصفه بالكرم بل، تأكيد وقوع الجود، وإثباته بالدَّليل، أو بصورته التقريرية المثبتة، فقال:"اعلم أنَّ سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية الَّتي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة الَّتي تدَّعي لها في أنفس المعاني الَّتي يقصد المتكلِّم إليها بخبره، ولكنَّها في طريق إثباته لها وتقريره إياها"[٣]، وعلَّة المزية تكمن في إثبات الصَّنْعَة مصحوبة بإثبات دليلها[٤]. لأنَّ الشَّيخ عبد القَاهِر يؤسِّس علمًا، فلا بدَّ له أن يذكر تعريفه، ومزيته، وعلته، ثم عقد فصلًا للنَّظر في التَّفاوُت بين ألوان البيان وما هي الفضيلة الَّتي تجري في مسارها، فقال:"اعلم أنَّ من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها وأن تتفاوت التفاوُت الشديد"[٥]. والمتأمِّل يرى اهتمَّام عبد القَاهِر لإبراز فضيلة وخصوصية هذه الأجناس

(١) يُنظر :"شرح دلائل الإعجاز"، (ص:١٢٢)، بتصرف.
(٢) "دلائل الإعجاز"، (ص:٧٠)،
(٣) المصدر السَّابق، (ص:٧١).
(٤) المصدر نفسه، (ص:٧٢)، بتصرف.
(٥) المصدر نفسه، (ص:٧٤).

البيانية ومنها الكناية، فقد كانت "عينه عليها وهو يتتبَّع مستقرَّها في معاني النَّظم وأبرز الجهات الَّتي تعرض فيها المزية–في الأقطاب الَّتي تنجذب إليها المعاني؛ وهي الكناية والاستِعَارة والتَّمثيل"(١). فمن هذه الأجناس البيانية الَّتي فصَّل فيها القول؛ الكناية، فأكَّد أنَّ الخصوصية فيها عائدة من جهة النَّظم، وهذا السَّبب الَّذي جعل عبد القَاهِر يضع مثل هذه الفصول البيانية في "دلائل الإعجاز"، وحقُّها أن تضمّ إلى "أسْرَار البلاغة"، وبعد مئات الصفحات، جاء الشَّيخ ليحدِّث قارئه عن الكناية عن نسبة، وقياسها على الكناية عن صفة، "ولهذا يمكننا أن نؤكِّد أنه من المباحث الَّتي أضافها – رحمه الله–"(٢). وقد وصف الشَّيخ عبد القَاهِر هذا الفصل بأوصاف ودقائق يعجز عنه البلغاء والفصحاء والخطباء، فقال: "هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنَّا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب. وإذا فعلوا ذلك، بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعرًا شاعرًا، وسحرًا ساحرًا، وبلاغة لا يكمل لها إلاَّ الشاعر المفلق، والخطيب المصقع"(٣)،

ثم بيَّن أنَّ قدامة ومَن جاء بعده كانت شواهدهم كناية عن صفة، وأتى من نفس الصفة، فأخرج نوعًا آخر هو (الكناية عن النسبة)، عبَّر عنه بإثبات الصِّفة الَّذي منه تنقدح شرارة الخصائص، ويكون الشِّعْر أشبَّه بالسِّحر، فكيف يكون ذلك؟

هذا ما يُحدِثه إثبات الصِّفة في النَّفس، ثم جاء بأنواع وأجناس "الكناية" من تعريض، وكناية، ورمز، وإشارة، وأراد أن يوظِّفها مع الكناية عن نسبة في قالب متَّحد غير مصرَّح بها فيكون لها فضل ومزية ما لا يدركه الصريح المباشر، عند ذلك قال:"وكما أنَّ الصفة إذا لم تأتك مصرَّحًا بذكرها، مكشوفًا عن وجهها، ولكن مدلولاً

(١) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:١٣١).
(٢) "التَّصوير البياني"،(ص:٤٠٣).
(٣) "دلائل الإعجاز"،(ص:٣٠٦).

عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصِّفة للشَّيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السَّامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية، والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرَّونق، ما لا يقلّ قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه"[(١)]، ففسرّ قوله هذا بأنَّ الشِّعْراء والبلغاء إذا أرادوا إثبات صفة شريفة تتلبس بصاحبها لا يلصقونها به جهرة بل بطريقة خفيَّة، فجعلوا المكان الَّذي ينتشر فيه جود الممدوح نسبة له، فقال:" وتفسير هذه الجملة وشرحها: أنَّهم يرومون وصف الرجل ومدحه، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك، ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليهويتلبَّس به، ويتوصَّلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات،لا من الجهة الظاهرة المعروفة، بل من طريق يخفى، ومسلك يدق؟ ومثاله قول زياد الأعجم:

إن الســـماحة والمـــروءة والنَّـــدى في قبة ضربت على ابن الحشرج"[(٢)]

ثم أفاض الشَّيخ في تحليل شاهد زياد، وبات يذكره حتى أغلق هذا الفصل، فقد عدل الشاعر من الكناية والتَّلويح، فجعل كونها في القبة كونها فيه، و"هكذا يقرِّب الشَّيخ الكناية الَّتي لم تكن معلومة في بيئته بقياسها على كناية كانت معلومة هي الكناية عن الصفة الَّتي تعدَّدت فيها الوسائط"[(٣)]. والواسطة والوسائط قد تخفى في في بعض صور الكناية، فلا تدرَك إلاَّ بالرّويَّة، والتَّحليل الدّقيق، ثم أتى الشَّيخ بصور مختلفة للكناية عن نسبة متناسبة بمعنى واحد، كما هو الحال في الكناية عن صفة، وجاء بالشَّواهِد ليدلِّل على فكرته، فيُخلص "من هذا إلى تعدُّد وجوه الشبَّه بين الكناية عن نسبة والكناية عن صفة: في الصَّنْعَة، وفي زيادة الخفاء عند تعدُّد الوسائط في الثَّانية، وفي تعدُّد الصُّور المكنَّى بها مع اتِّفاق المكنَّى عنه، سواء كانت الصُّور المكنَّى

(١) المصدر السَّابق، (ص:٣٠٦).
(٢) المصدر نفسه، (ص:٣٠٦).
(٣) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٣٩٧).

بها المتعدِّدة متقاربة مناسبة أم مختلفة اختلافًا ما، فـ"كلبك آنس بالزائرين" ألصق بـ"يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلًا يكلمه..."، و"جبان الكلب" ألصق بـ"زجرت كلابي"، وإن كان المعنى المكنَّى عنه في الجميع واحدًا، وهذه من النظرات النَّقدية في الدَّرس البلاغي، والَّتي أهملها المتأخِّرون"[(١)]. فهذه الصُّور متألِّقة فيما بينها، ثم يأتي بصور لمعنى واحد ولكنَّها غير متناسبة، ثم بيَّن الشَّيخ عبد القَاهِر أنَّ الكناية عن نسبة وما فيها من تلك المسائل الَّتي طرحها ليس"لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصوره وطرقه ومسالكه حدّ ونهاية"[(٢)]، حتى أتى إلى شاهد هذا المطلب من شعر أبي أبي تمَّام:

- **الشَّاهِد السَّبعون بعد المئة [(٣)]، وقول أبي تمَّام:**

أَبَيْنَ فمَا يَزُرْنَ سِوَى كَرِيمٍ وحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أَبَا سَعِيْدٍ[(٤)]

هذا الشَّاهِد كناية عن نسبة الكرم والجود إلى أبي سعيد، فالفعل (أبين) عائد إلى (القلائص) وهي(الإبل) في سيرها وتشميرها، ومنه قلصت الإبل تقليصًا، إذ استمرت في مضيِّها[(٥)]، وذلك في البيت الَّذي قبله حيث يصف تشوقهنَّ لهذا الكريم:

الكريم:

(١) المرجع السَّابق، (ص:٣٩٩).

(٢) "دلائل الإعجاز"، (ص:٣١٣).

(٣) المصدر السَّابق، (ص:٣١٣).

(٤) "ديوان"، أبي تمَّام، (٦٣٧/٤)، ومطلع القصيدة:

حَمَتْهُ فاحتمى طَعْمَ الهُجُودِ غَدَاة رَمَتْهُ بالطَّرْفِ الصَّيُودِ[(٤)]

والشَّاهِد البلاغي هو البيت الثاني عشر من البحر الوافر، قالها أبو تمَّام يمدح آل عبد العزيز.

(٥) يُنظر: "لسان العرب"، (١٧٦/١٢)، مادة: قلص.

قَلائِـــصُ شَـــوْقُهنَّ يَزيـــدُ شَـــوْقًا ويَمْـــنعنَ الرُّقَـــادَ مِـــنَ الرُّقُـــودِ
إذا بُعِثَـــتْ علـــى أَمَـــلٍ بَعيـــدٍ فقَـدْ أدْنَـتْ مِـنَ الأَمَـلِ البَعِيـدِ[1]

فهـنَّ يقـرِّبن الأمـر البعيـد ويـأتين الوفـود إلاَّ علـى هـذا الكـريم، والكنايـة هنـا فيهـا"دعوى مقرونـة بالـدليل، فالـدعوى هـي إثبـات الكـرم للمـدوح"[2]؛ لأنهـنَّ رفضـن الوفادة إلاَّ عليه، وأسلوب القصر من (ما النافية وسوى العاملة عمل إلا) والاستثناء في الشَّاهِد يفيـد الاختصـاص والحصـر، فصـفة الكـرم ثابتـة ومقصـورة ومختصـة للموصـوف وليس لغيره؟، وهـذا الَّذي جعل الشَّيخ عبد القَاهِر ينفي بلوغ شاهد آخر مبلِّغ بيت أبي تمَّام في اللطف والندرة، ووازن بينهما، فجعل الكناية عن نسبة في هذا الشَّاهِد من لطيفه ونـادره، وإن كـان مثله في الكناية عـن نسبة، فقـال: "ومـن لطيـف ذلـك ونـادره قول أبي تمَّام:

أَبَـــيْنَ فمَـــا يَـــزُرْنَ سِـــوَى كَـــرِيمٍ وحَسْـــبُكَ أَنْ يَـــزُرْنَ أَبَـــا سَـــعِيْدٍ

ومثله، وإن لم يبلغ مبلغه، قول الآخر، من الوافر:

مـــتى تخلـــو تمـــيم مـــن كـــريم ومســـلمة بـــن عمـــرو مـــن تمـــيم"[3]

فما اللَّطافة وما الندرة في بيت الطَّائي؟ وما وجه تفوُّق كنايته على الشَّاهِد الآخر؟ وما ذاك إلاَّ "لأنَّ المكنَّى عنه في قول الآخر يكاد يكون مكشوفًا، إنه يعني أنَّ تميمًا لا تخلو من كريم، ومسلَّمة من تميم، فهذا دليل على أنه كريم، ثم إنه يفتقر إلى ما نجده في بيت أبي تمَّام من تشخيص الإبل؛ فهي تعقل وتدرك وتزور، ثم إنها لا تزور إلاَّ كريمًا، وهل هناك أدلّ على هذا من أنهنَّ يزرن أبا سعيد"[4].

(١) "ديوان"، أبي تمَّام، (٤/٦٣٦-٦٣٧).
(٢) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٤٠٣).
(٣) "دلائل الإعجاز"، (ص:٣١٣).
(٤) "شرح دلائل الإعجاز"، (ص:٤٠٣).

فبهذا الشَّاهِد أنهى الشَّيخ مسألة الكناية عن نسبة، وأنسج التَّاليف البلاغي والنَّقدي من الخفي ديباجته إلى الجليّ منها، فخلع عليها زخرفها ومعاطف رونقها، وقسَّم الأقسام، وفرَّع المسائل، وأخرج من رحم الشَّاهِد مسائل في إحكام واتصال للسلك، ساعيًا لقطف نتاج النَّظم وهو الإعجاز، فأتى بألوان البيان بين فصول وأبواب اللَّفظ والنَّظم؛ ليجعل الخصوصية والأبلغية في الكناية، راجعة لمعان النَّظم، فبرزت الفضيلة في ذلك، وأخذ المتأخِّرون بقسمة السَّكَّاكي في كل أنواع الكناية، دالة عن صفة أو موصوف أو نسبة، وعُدَّ الشاهد دالًا على الإيماء، والإشارة، مناسبًا لحالها عند المتأخِّرين(١).

(١) يُنظر:"مِفْتاح العلُّوم"، السَّكَّاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (ص:٥٢١-٥٢٢)، المكتبة العِلْمِية، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ =٢٠٠١م. ويُنظر: "الإيضاح"، (١٧٧/٥).

الخاتمة

وبعد مسيرة هذه الدِّراسة الَّتي تعاملتْ مع شواهدِ البلاغيين والنُّقادِ من منهلِ شعرِ أحدِ الشُّعْراءِ الَّذين كثُر حولهم النَّقد، وتشعّبتْ حولهم الأقاويل والآراء والمذاهب، حاول الباحثُ –قدر المستطاع– أنْ يقفَ على بعضِ ما جاء من أسفارٍ بلاغيةٍ نقديةٍ خلال عِدَّة قرون كان محورها شعر أبي تمَّام، ازدهرت بوجود أئمّة أجلَّاء في البلاغة والنَّقد الأدبي، فكان من أهمِّ النَّتائجِ الَّتي توصَّلت إليها الدِّراسة، أُجملها على هيئة نقاط رئيسة:

ففي الفصل الأوَّل، الَّذي عنوانه: **"شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند البلاغيين والنُّقاد من شعر أبي تمَّام"**، خَلُصت الدِّراسة إلى عِدَّةِ نتائج منها:

١- كشفتْ الدِّراسةُ أنَّ الآمدي أطلقَ على بعضِ تشبيهاتِ أبي تمَّام بأنَّها مقلوبة، وهو لا يعني التَّشبيه المقلوب عند المتأخِّرين، بل الانتقال من حال إلى حال، وهذا من إرهاصات نشوء هذا المصطلح، وقد وصف الآمِدِيّ تشبيهات أبي تمَّام في مجملها بالجيِّدة الحسنة الصَّحيحة البالغة الجودة، وأنَّها تتكافؤ مع تشبيهات البُحْتري إلى حد ما... .

٢- وصفَ ابُن رشيق تعاطيه لتشبيهاتِ أبي تمَّام بأنَّه قاض عدل، أو فقيه ورع؛ لأنَّه يضع اللَّفظةَ موضعَها، ويُعطي المعنَى حقَّه، ثم يؤكِّد الدَّارسُ مذهبَ ابنَ رشيقٍإدخال التَّشبيه والتَّمثيل في المجاز بالتَّطبيق على شواهِد التَّشبيه والاسْتعارة من شعرِ أبي تمَّام.

٣- اعتبرتْ الدِّراسةُ أنَّ عبد القَاهِر جعل في شاعرية أبي تمَّام الأنموذج اللَّائق لبعض تقريراته الَّتي سار لترسيخها وبناء البيان، وحشد تلك الشَّواهد فأقام عليها مذهبه الَّذي نبذ فكرة المدح والذَّم لتشبيهاته إجمالًا كما عند المتقدِّمين، وتجاوزها إلى أنَّ تشبيهاته تدلُّ على غرض ومسألة بلاغية، فبيَّن ذلك عمليًا،كما أنَّه استشهد من شعره على بعض المسائل الدَّقيقة ولم يستشهد بغيره، فمن تلك المسائل؛ مسألة التَّمثيل وتأثيره،

الَّذي خرج من رحمه عند المتأخِّرين: التَّشبيه الضّمني، مع تأكِّيد الشَّيخ عبد القَاهِر على وجود التَّعقيد والتَّكلّف في شعره المفْسِد للتَّركيب النَّحْوي.

٤- مزج الشَّيخُ عبدُ القاهر في مسائِل المعاني التَّخْيلية بين شواهد التَّشبيه والاستعارة من شعر أبي تمَّام؛ لغرض الإقناع الشِّعْري، وأنَّه مفْتَن المذاهب، فبلغ الطَّائي مرتبة عالية.

وأمَّا الفصل الثَّاني، الَّذي عنوانه: **"شواهد الاستِعَارة عند البلاغيين والنُّقاد من شِعرِ أبي تمَّام"**، فخلُصت الدِّراسة إلى عِدَّة نتائج منها:

١- يوافق ابنُ المعتز اللُّغويين وكذلكالآمِدِيّ في اسْتِكراه بعض اسْتِعَارات أبي تمَّام خاصَّة المكنية، لأنَّها لم توافق استعارات العرب، وجعلوها مما عيب من الشِّعر والكلام.

٢- أثبت الدَّارسُ أنَّ القاضي الجرجاني فَضَّلَ شواهد استعارات أبي تمَّام الحسنة على السّيِّئة، وأشاد بها، كما ربط قبول بعض الاستعارات الرَّديئة عند أبي تمَّام جسرًا لقبول بعض الاستعارات الرَّديئة عند أبي الطيِّب المتنبّي.

٣- كشفت الدِّراسةُتأييد وقبول واستحسان ابن رشيق رأي ابنَ وكيع في شاهدِالاسْتِعارةِ البعيدةِ الواضحةِ لأبي تمَّام غيرِ المتكلّفةِ، خلافًا لبقيةِ العلماءِ، وهذا رأيٌ غريبٌ، كما وقف ابن رشيق موقفًا وسطًا بين استحسان واستقباحاستعارات الطَّائي.

٤- بيَّنتِ الدِّراسةُ أنَّ شواهدَاستعاراتَ الدَّهرِ دُفنت عند ابنِ سنانٍ الخفاجي، وأنَّ مذهبه تجاه شروط قبول شواهداسْتِعارة أبي تمَّام ضيِّقٌ جدًا، وقد تفرَّد بشواهد من شعر أبي تمَّام واستدل بها لألفاظ ليست اسْتعارة ولا حقيقة، وهذه مِن آراءه المنفردة به، كما أدخل شواهد التَّشبيه الضّمني مع شواهد الاسْتِعارة، ومع هذا وذاك أحدثت بعض شواهد الطَّائي معارك نقدية أقامها ابنُ سنان مع جلَّة من العلماء.

٥- كشف الدَّارس أنَّ الشَّيخ يُخرج من بعض شَّواهد شعر أبي تمَّام مسْالَّتين للاستعارة فأكثر، وقرن بيتا للنَّابغة ببيت للطَّائي؛ دالَّين على المبالغة في الاستعارة،

وهـذا يرفـع مـن قيمـة شـعر أبي تمَّـام، وجعـل شـاهد الاسـتعارة مـن شـعر أبي تمَّـام في "الدَّلائل" مرتبط بالنَّظم، وبيَّن الشَّيخ رأيه في شعر أبي تمَّام بأنَّه ليس من المطْبُوعِين، ويلحقـه الضَّـيم، وهـذا الـرَّأي يجتمـع مـع رأيـه في الفصـل الأوَّلفيـأتي بشـعر مصْـنوع متَكلَّف.

أما الفصل الثَّالث، الَّذي عنوانه: **"شَواهد الكناية عند البلاغيين والنُّقاد من شِعرِ أبي تمَّام"**، فخلُصت الدِّراسة إلى عِدَّة نتائج منها:

١- بيَّنتْ الدِّراسة أنَّ ابن سنان استشهد من شعر أبي تمَّام للتَّمثيل الَّذي عنده من أنواع الكناية، بشواهدَ تدلّ على التَّشبيه الضِّمني عند المتأخَّرين.

٢- أثبتتْ الدِّراسة أنَّ الشَّيخ عبد القاهر عندما جعل الكناية في "الدَّلائل"، واستشهد لها من شعر أبي تمَّام؛ أراد أنْ يلفت النَّظر إلى أنَّ مزية الأجناس البيانية ومنها الكناية راجعةٌ للنَّظم على وجه الخصوص، فبرزت فضيلة ارتباط شاهِد الكناية عن نسبة من شِعْر أبي تمَّام بالنَّظم، وهذا يرفع من قيمة الشَّاهد والمستشْهد له.

ولم يفت الدَّارس أنَّ العَلاقة بين المذهب البلاغي والنَّقدي مع المسألة البيانية كانـت مرتبطـة بشـعر أبي تمَّـام، فتولَّـدت منهـا مسـائل فرعيـة، تأخـذ برقـاب بعـض، فالشَّـاهِد فضـفاض بالمعـاني، كشـف مـن وراء الألفـاظ مسـائل دقيقـة في التَّشـبيه والاستِعَارة والكناية.

وكانت من الأمور الضَّرورية في هذه الدِّراسة الوقوف دائمًا بإزاء عقد الموازنات بين شواهد منشعر أبي تمَّام وبين غيره من الشُّعْراء في عِدَّة مسائل مقصودة بالدِّراسة؛ ذلك أنَّ الشَّيءَ بالشَّيءِ يُذكَر، وأنَّ الموازنة والمقارنة من شأنها أنْ تُضفي على البحث ثراءً، وتخدم العمل النَّقدي من خلالِ إبرازِ المحاسنِ والمساوئ... .

وقد تحقَّق من تلكَ الموازناتِ في لبناتِ هذه الدِّراسةِ أُطروحات ومذاهب وآراء لأولئك العُلماءِ، فبرزتْ المعاركُ النَّقدية المتولِّدة من رحم شعر الطَّائي، بخلاف شعر الشُّعْراء

الآخرين، مما عزَّز مكانة الشَّاهِد ثباتًا، وموقف العالم استشهادًا، فخرجت المسألة البيانية ثابتة الأصول، متغيرة الفروع والتَّقسيم، مع اختلاف الأزمنة المتناولة لها.

ومن خلال تلك القرون المتعاقبة اتَّحدت آراءُ ومذاهبُ العُلماءِ الأجلَّاء تجاه أغلب الشَّواهِدِ تقبلًا ورفضًا، وهذا الاتِّفاق محضُ العدالةِ والإنصافِ، القائمِ على وحدةِ الأنموذجِ الشِّعْري، فراحَ شعرُ البيانِ عندَ أبي تمَّامٍ بائنَ المعالِمِ في الصُّورِ والأخيلةِ... .

وبين هذا وذاك، فإنَّه مِن الطبَعي أنْ يؤَكِّدَ الباحثُ أنَّ ما كان مِن ترجيحاته إنَّما كان يحكُمها ما استطاع من استشفافهِ خلال سبر أغوار استشهادات البلاغيين والنُّقاد تجاه الصُّور البيانية الممثّلة في الشَّاهِدِ محلِّ الدَّرسِ والتَّحليلِ... .

هذا، وإنَّ الباحثَ ليقرّرُ في النِّهايةِأنَّ أبا تمَّامٍ أثرى البلاغةَ والنَّقدَ بلوحاتٍ مضيئةٍ، واستفاد البلاغيون والنُّقادُ من شعرِهِ على اختلافِ المشاربِ، فأصبحَ مثالًا لتقعيد مسائل البيان في التَّشبيهِ، والاستِعَارةِ، والكنايةِ، على الرَّغم ممّا وسمه بعضُ النُّقادِ الأماجد في بعضِ المواطنِ الَّتي رأوْا فيها مآخذ عليه؛ فهو -بلا ريبٍ- علامةٌ في سجلِّ الأدب العربي النَّابض، استفاد منه مَنْ لحقوه، فكان مدرسةً في أسلوبِه وفكرِهِ وتصْويراتِه... .

هذا، ويبقى أنْ أذكرَ أنَّ ما كانَ من توفيقٍ في تناولي للدِّراسة، فمن الله وحده، الَّذي له الحمدُ والمنَّةُ، وما كان من خطأٍ أو سهوٍ أو نسيانٍ-وهو الحاصل-، فمن نفسي والشَّيطان، وأعوذُ باللهِ من ذلكَ...وأسألُ المولى -جلَّتْ قدرتُه- أنْ ينفعَ بعملي هذا كلَّ مَن تقعُ عيناهُ على أوراقِ بحثي...واللهُ وليُ الصالحين.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع

(١) "الإبداع والفكر في شعر الطَّائيين"، لوحيد كبابة، جامعة حلب، سوريا، طبعة ١٤٢١هـ.

(٢) "الإتقان في علوم القرآن"، جلال الدين السِّيوطي، طبعة مصطفى الحلبي وأولاده، الطَّبعة الثَّالثة، ١٩٥١م.

(٣) "الإتقان في علوم القرآن جلال الدِّين السيوطي"، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العِلْمِية، بيروت، دط، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

(٤) "الإعجاز البلاغي– دراسة تحليلية لتراث أهل العِلم–"، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

(٥) "الأغاني"، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار صادر و بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

(٦) "الاقتراح في علم أصول النحو" جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد صبحي فرات، (الطبعة بدون)، مطبعة كلية الآداب، استطنبول، ١٣٩٥هـ=١٩٧٥م.

(٧) "الإيضاح في علوم البلاغة"، للخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة، دار الجيل، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة.

(٨) " ابن المعتز وتراثه في الأدب والنَّقد والبيان"، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطَّبعة الثَّانية، ١٤١١ هـ=١٩٩١م،

(٩) "أبو تمَّام بين أشعاره وحماسته"، محمد بركاتي حمدي، منشورات مؤسسة الخافقين ومكتبتها دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

(١٠) "أبو تمَّام بين ناقديه قديمًا وحديثًا "، عبد الله بن حمد المحارب، مكتبة الخانجي، القاهرة الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

(١١) "أبو تمَّام وقضية التجديد في الشِّعْر"، عبده بدوي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دط، ١٩٨٥م.

(١٢) "أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنَّقدية"، بدوي طبانه، بيروت، دار الثقافة، الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.

(١٣) "أحاديث في تاريخ البلاغة وفي بعض قضاياها"، عبد الكريم محمدالأسعد، دار العلَّوم، الرياض، دط، ١٩٨٥م.

(١٤) "أخبار أبي تمَّام"، أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق: محمد عبده عزام، الطَّبعة دار الآفاق ببيروت، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٠هـ.

(١٥) "أساس البلاغة"، جار الله أبي القاسم الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ =٢٠٠١م.

(١٦) "أسْرَار البلاغة"، عبد القَاهِر الجرجاني، محمود شاكر، مكتبة المدني، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ =١٩٩٢م.

(١٧) "أسس النَّقد الأدبي عند العرب"، أحمد أحمد بدوي "، دار النهضة مصر، ١٩٩٦م.

(١٨) " أصول البحث العِلْمِي ومناهجه"، لأحمد بدر، وكالة المطبوعات، الكويت، الطَّبعة السابعة، ١٩٨٤م.

(١٩) "إعجاز القرآن"، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دط، ١٩٤٥م.

(٢٠) "أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد"، للشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٣٨٧هـ.

(٢١) "إنباه الرواة على أنباه النحاة"، جمال الدين القفطي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦م.

(٢٢) "البحث الأدبي"، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، دط، ١٩٧٢م.

(٢٣) "البحث البلاغي والنَّقدي عند ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة"، محمد سليمان الصيقل، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

(٢٤) "البديع"، لأبي العباس عبد الله بن المعتز، شرح وعلق عليه: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٦هـ = ١٩٤٥م.

(٢٥) "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

(٢٦) "البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع"، فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، الطَّبعة التاسعة، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

(٢٧) "البلاغة تطور وتاريخ"، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطَّبعة الثامنة ١٩٩١م.

(٢٨) "البلاغة المُفْترى عليها بين الأصالة والتبعية"، فضل حسن عباس، دار النفائس، عمان، الطَّبعة الأولى، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

(٢٩) "بلاغة أرسطو بين العرب واليونان"، إبراهيم سلامة مخيمر، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٥٢م.

(٣٠) "البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها"، أمين الخولي، دار غريب، القاهرة، د ط، ١٤٢٧هـ.

(٣١) "البيان والتبيين"، لأبي عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ=١٩٨٤م.

(٣٢) "التَّحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور،مؤسسة التاريخ العربي، بيروت–لبنان–الطَّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ =٢٠٠٠م.

(٣٣) "التَّذييل والتَّكميل في شرح كتاب التسهيل"، لأبي حيان الأندلسي، حقَّقه: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

(٣٤) "التَّصوير البياني"، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة، الطَّبعة السادسة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

(٣٥) "تاج العروس"، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت.

(٣٦) "تاريخ بغداد"، للخطيب البغدادي، دار الكتب العِلْمِية، بيروت ١٩٩٧م.

(٣٧) "تاريخ النَّقد الأدبي عند العرب نقد الشِّعْر من القرن الثَّاني حتى القرن الثامن الهجري"، إحسان عبَّاس، دار الشروق، الطَّبعة العربية الأولى الإصدار الثَّالث، ٢٠٠١م.

(٣٨) "تفسير القرآن العظيم"، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير،تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثَّاني، الطَّبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

(٣٩) "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، الرُّماني، الخطابي، الجرجاني، حقَّقه وعليق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطَّبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.

(٤٠) "الحركة النَّقدية حول مذهب أبي تمَّام"، محمود الربداوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، دت.

(٤١) "حلية المحاضرة"، تحقيق د. جعفر الكتاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

(٤٢) "الحيوان"،لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق:عبد السلام محمد هارونـدار الجيل، لبنان، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.

(٤٣) "الخصومات البلاغية والنَّقدية في صنعة أبي تمَّام"، عبد الفتاح لاشين، النَّاشِر: دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت.

(٤٤) "دراسات بلاغية"، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٦م.

(٤٥) "دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القَاهِر في التَّشبيه والتَّمثيل – التَّقديم والتَّأخير"، عبد الهادي العدل، دار الفكر الحديث للطبع والنشر، ١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩م.

(٤٦) "دلائل الإعجاز"، عبد القَاهِر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، النَّاشِر: مكتبة الخانجي القاهرة، الطَّبعة الخامسة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

(٤٧) "ديوان"، أبي تمَّام، بشرح الخطيب التَّبْريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، الطَّبعة الخامسة.

(٤٨) "ديوان"، أبي الطيّب المتنبي، دار صادر، بيروت، دط، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

(٤٩) "ديوان"، بشار بن برد، درا صادر، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

(٥٠) "ديوان"، ذي الرُّمة، دار صادر، لبنان، الطَّبعة ألأولى، ١٤٢٠= ١٩٩٩م.

(٥١) "ديوان"، طُفيل الغنوي، المكتبة العِلْمِية، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

(٥٢) "ديوان"، النَّابغة الذبياني، دار صادر، بيروت،١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.

(٥٣) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، لابن بسام، تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطَّبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٥٤) "الذَّوق الأدبي وتطوره عند النُّقاد العرب"، نجوى صابر، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الطَّبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

(٥٥) "رسائل الانتقاد في نقد الشِّعْر والشُّعَراء"، لابن شرف القيرواني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ=١٩٨٣م.

(٥٦) "سرّ الفصاحة"، لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، اعتنى به وخرَّج شعره وعمل فهارسه: داود غطاشة الشوابكة، دار الفكر، عمان، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

(٥٧) "سرّ الفصاحة"، لابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، بدون طبعة.

(٥٨) "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة"، محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، الطَّبعة الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.

(٥٩) "سنن التِّرمذي"، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: محمد بشار عواد معروف، النَّاشِر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، ١٩٩٨م.

(٦٠) "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، لابن العماد عبد الحي بن أحمد العُكرِي الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، النَّاشِر:دار بن كثير، دمشق، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

(٦١) "شرح دلائل الإعجاز"، محمد شادي، دار اليقين، الطَّبعة الأولى، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

(٦٢) "شرح ديوان الحماسة"، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التَّأليف والترجمة والنَّشر، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م.

(٦٣) "شرح الصُّولي لديوان أبي تمَّام"، تحقيق: خلف رشيد نعمان، طبعتها وزارة الإعلام العراقية، الطَّبعة الأولى، ١٩٨٢م.

(٦٤) "شرح المعلَّقات العشر وأخبار شعرائها"، لأحمد الأمين الشنقيطي، دار إحياء التراث العربي، حقَّقه وأتم شرحه: فاتن محمد خليل اللبون، بيروت–لبنان، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.

(٦٥) "الشِّعْر والشِّعْراء"، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ=

(٦٦) "الشَّواهد الشِّعرية في كتاب أسرار البلاغة–توثيق وتحليل بلاغي–"، عايد سليم الحربي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية اللغة العربية، د ط ، ١٤١٥هـ.

(٦٧) الشَّواهِد الشِّعْرية في كتاب دلائل الإعجاز"، نجاح أحمد الظهار، (٥١/١)، مؤسسة فؤاد بعينو، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

(٦٨) "الصِّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية"، إسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت – لبنان، الطَّبعة الثَّانية، ١٣٩٩هـ =١٩٧٩م.

(٦٩) "صحيح البخاري"، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، النَّاشِر: دار ابن كثير، بيروت الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

(٧٠) "الصِّناعتين – الكتابة والشِّعْر –" لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، الطَّبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

(٧١) "طبقات فحول الشُّعْراء"، محمد بن سلام الجُمحي، شرح محمود شاكر، طبعة دار المدني بجدة.

(٧٢) "الطِّراز"، للإمام يحيى بن حمزة العلَّوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

(٧٣) "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، بهاء الدين أبي حامد أحمد السُبكي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العِلْمِية، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ =٢٠٠١م.

(٧٤) "العمدة في صناعة الشِّعْر ونقده"، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، حقَّقه: النبوي عبد الواحد شعلان، النَّاشِر: مكتبة الخانجي القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

(٧٥) "العين"، الخليل بن أحمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة جديدة فنية مصححة ومرتبة وفقًا للترتيب الألفبائي، د ت.

(٧٦) "الكناية"، محمد جابر فياض، دار المنارة، جدة، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٩=١٩٨٩م.

(٧٧) "لباب البيان"، محمد حسن شرشر، دار الطباعة المحمدية بدرب الأتراك بالأزهر، مصر، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م.

(٧٨) "لسان العرب"، جمال الدِّين ابن منظور، طبعة جديدة محقَّقة دار صادر، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة، ٢٠٠٤م.

(٧٩) "الفنُّ ومذاهبه في الشِّعْر العربي"، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطَّبعة الثَّالثة عشر.

(٨٠) "فنُّ الاستِعَارة"، أحمد الصَّاوي، النَّاشِر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، دط، دت.

(٨١) "فنون بلاغية"، أحمد مطلوب، دار البحوث العلَّيمة، الكويت، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.

(٨٢) "الفهرست"، لا بن النَّديم أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، تحقيق: رضا تجدَّد ابن علي المازندراني، دار المسيرة، طهران، الطَّبعة الثَّالثة، ١٩٨٨م.

(٨٣) "القاضي الجرجاني"، محمود السمرة، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٦٦م.

(٨٤) "القاموس المحيط"، للفيروز آبادي، مراجعة محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، د.ط ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

(٨٥) "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

(٨٦) "المثل السَّائِر في أدب الكاتب والشَّاعر"، ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، الطَّبعة ١٤١٦هـ =١٩٩٥م.

(٨٧) "المحصول في شرح الفصول" لابن إياز البغدادي، دار عمار، الأردن، الطَّبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(٨٨) "مدخل إلى كتابي عبد القَاهِر الجرجاني"، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

(٨٩) "المطول شرح تلخيص المفتاح"، سعد الدين التفتازاني، صححه وعلق عليه أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

(٩٠) "معاهد التَّنصيص"، لعبد الرحيم العباسي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط عالم الكتب ببيروت ١٣٦٧هـ.

(٩١) "معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، ياقوت الحموي، دار الفكر، دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

(٩٢) "معجم المصطلحات البلاغية" أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العِلْمِي العراقي، ١٤٠٣هـ.

(٩٣) "مِفْتاح العلَّوم"، السَّكَّاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العِلْمِية، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ =٢٠٠١م.

(٩٤) "مفهوم الأدبية في التراث النَّقدي"، توفيق الزايدي، دار سرّاس للنشر، ١٩٨٤م.

(٩٥) "مقدَّمة ابن خلدون"، عبد الرحمن بن محمد بن محمدابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة، دت.

(٩٦) "مناهج النَّقد الأدبي بين النَّظرية والتَّطبيق"، ديفيد ديتشس، ترجمة: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧ م.

(٩٧) "مِنْهاج البلغاء وسرّاج الأدباء"، أبي الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة، ١٩٨٦م.

(٩٨) "الموازنة"، لأبي القاسم الآمِدِيّ، تحقيق: السيد أحمد الصقر، دار المعارف المصرية، الطَّبعة الرابعة، د ت.

(٩٩) "الموازنة" لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، دراسة وتحقيق: عبد الله حمد محارب، النَّاشِر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

(١٠٠) "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح"، ابن يعقوب المغربي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل المكتبة العِلْمِية، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

(١٠١) "موقف الشريف المرتضي من الآمِدِيّ في كتابه الموازنة"، دخيل الله بن محمد الصحفي، مكتبة الفرقان، مكة المكرمة، دط، ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م.

(١٠٢) "نظرية النَّظم عند عبد القَاهِر"، حاتم الضامن، سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد، دط، ١٩٧٩.

(١٠٣) "النَّقد الأدبي حول أبي تمَّام والبُحْتَري في القرن الرابع الهجري"، محمد علي أبو حمدة، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٦٩م.

(١٠٤) "النَّقد الأدبي"، أحمد بن أمين، لجنة التَّاليف والنشر والترجمة، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٥٧م.

(١٠٥) "النَّقد التَّطبيقي عند العرب في القرنين الرابع والخامس الهجريين"، أحمد محمد نتُّوف، دار النوادر، دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م.

(١٠٦) "النَّقد المَنْهَجِي عند العرب"، محمد مندور، مؤسسة نهضة مصر للنشر و التوزيع، سنة ٢٠٠٣م.

(١٠٧) "نقد الشِّعْر"، لأبي الفرج قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، النَّاشِر: مكتبة الخانجي، الطَّبعة الثَّالثة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

(١٠٨) "نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيف"، محمود شاكر، النَّاشِر: مطبعة المدني بالقاهرة، الطَّبعة الأول ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

(١٠٩) "وجه الشِّعْر قراءة في مآخذ النُّقاد على معاني أبي تمَّام"، عبد الله بن صالح الوشمي، مكتبة الرشد، الطَّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

(١١٠) "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية بيروت، الطَّبعة الأولى،١٤٢٧هـ =٢٠٠٦م.

(١١١) "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، أبي العباس أحمد ابن خلكان، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م.

ثانيًا: المجلات والدوريات

(١١٢) "مجلة جامعة أمالقرى لعلَّوم الشريعة واللُّغةالعربية وآدابها – منهج التعامل مع الشَّاهِد البلاغي-"،عويض بن حمودالعطوي، (العدد٣٠)،جمادىالأولى١٤٢٥هـ.

(١١٣) "مجلة الفكر العربي – الشَّاهِد الشِّعْري في البلاغة العربية- نموذج المتنبي"، مصطفى الجوزو، (العدد:٤٦)، عام١٩٨٧م.

فهرس تحليلي لمحتوى الرسالة

الملخص.....

المقدمة **١**

التَّمهيد **٢٠**

أهمية الشَّاهِد الشِّعْري عند البلاغيين والنُّقاد **٢١**

قيمة شواهد أبي تمَّام الَّتي دفعت البلاغيين والنُّقاد للاستشهاد بها .. **٢٦**

الفصل الأول

شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند البلاغيين والنقُّاد من شعر أبي تمَّام

شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند الحسن بن بشر الآمدي ٣٧

تشبيه جود الجواد بالسحاب والغيث والأنواء ٣٩

تشبيه جود الجواد بالبحر.....٥٤

تشبيه الأبطال بالسِّباع.....٦١

رؤية الآمدي الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام ٦٤

شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند أبي هلال العسكري ٧٢

شاهد على تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر ٧٣

شاهد على التشبيه البعيد وبروده ٨٠

رؤية أبي هلال الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام ٨٤

شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند ابن رشيق القيرواني ٨٨

شواهد التشبيه والقضايا المتعلقة به ٩١

رؤية ابن رشيق الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام ١٠٥

شواهد التَّشبيه والتَّمثيل عند عبد القاهر الجرجاني ١١٠

شاهدا تنزيل الوجود منزلة هي أدون من العدم ١١١

شواهد التَّمثيل وأسباب تأثيره في النفس، والمعاني التي يجيء التَّمثيل في عقبها١١٧

أولًا: أسباب تأثير التَّمثيل في النفس.....١١٧

ثانيًا: وقوع التَّشبيه أو التَّمثيل الغريب واللطيف بين الطرفين المتباعدين المتنافرين..... ١٢٧
ثالثًا: مجيء التمثيل بأشياء عدة من الشيء الواحد. ١٣٢
رابعًا: أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يُجدي عليك..... ١٣٥
فرق بين التشبيه والاستعارة، وما يجوز فيه إسقاط ذكر المشبه ١٤٤
شواهد مسائل المعاني التخيلية ١٤٨
أولا : شاهد القسم التخيلي وأنه مفتن المذاهب ١٥٠
ثانيًا: شواهد التخييل الشبيه بالحقيقة ١٥١
ثالثًا : شاهد تأول الصفة من غير علة يضعها الشاعر ويختلقها ١٥٥
رابعًا : شاهد حسن التعليل التخيلي الشبيه بالسحر. ١٥٦
خامسًا : شاهد أن للمعنى والفعل علة من علة أخرى ١٥٨
سادسًا : شاهد إفصاح التشبيه وادعاء الحقيقة في المجاز..... ١٥٩
رؤية عبد القاهر الفكرية في تشبيهات أبي تمَّام ١٦٢

الفصل الثاني

شواهد الاستعارة عند البلاغيين والنقاد من شعر أبي تمَّام

شواهد الاستعارة عند عبد الله بن المعتز..... ١٦٩
شواهد الاستعارة ١٧٠
رؤية ابن المعتز الفكرية في استعارات أبي تمَّام ١٨٢
شواهد الاستعارة عند الحسن بن بشر الآمدي ١٨٤
شواهد مرذول ألفاظ أبي تمام وقبيح استعاراته ورديئها وفاسدها..... ١٨٥
أولًا: شواهد أخادع الدهر..... ١٨٧
ثانيًا: شواهد أخرى مرذولة ١٩٤
ثالثًا: استعارة العرب وتمحيص الشواهد الدهرية عند أبي تمام ٢٠٩
رابعًا: شواهد استعارات الطائي البعيدة والفاسدة والقبيحة..... ٢١٤
شواهد استعارات في غاية الحسن..... ٢٢٤
رؤية الآمدي الفكرية في استعارات أبي تمام ٢٣١

شواهد الاستعارة عند القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ٢٣٤
شواهد الاستعارة الحسنة ٢٣٥
شواهد الاستعارة التي تُصدئ القلب وتعميه ٢٤٥
الفرق بين التشبيه والاستعارة عند القاضي الجرجاني على ضوء شواهد الطَّائي ٢٥١
رؤية القاضي الجرجاني الفكرية في استعارات أبي تمَّام ٢٥٦
شواهد الاستعارة عند أبي هلال العسكري ٢٥٩
شواهد الاستعارة الحسنة والمصيبة ٢٦٤
شواهد الاستعارة الرديئة ٢٧٨
رؤية أبي هلال الفكرية في استعارات أبي تمَّام ٢٩٠
شواهد الاستعارة عند ابن رشيق القيرواني ٢٩٢
شاهد الاستعارة البعيدة غير المتكلفة والمعقدة ٢٩٥
شواهد الاستعارة السيئة والبشعة" ٢٩٨
شاهد الاستعارة المليحة البديعة ٣٠٤
شاهد الاستعارة القريبة المتمكنة ٣٠٦
شاهد المثل السائر ٣٠٩
رؤية ابن رشيق الفكرية في استعارات أبي تمَّام ٣١٢
شواهد الاستعارة عند ابن سنان الخفاجي ٣١٥
موازنة استعارة(العين) بين ابن نباتة وأبي تمَّام ٣٢٠
شاهد الاستعارة المختارة ٣٢٢
شواهد الاستعارات القبيحة والبعيدة ٣٢٤
أولًا : شواهد استعارات أخادع الدَّهر ٣٢٤
ثانيًا : شواهد أخرى لاستعارات قبيحة وبعيدة ٣٣٠
ثالثًا : شواهد تشبيه مضمر الأداة أدخلها ابن سنان في باب الاستعارة .. ٣٣٣
شاهد لاتسقني ماء الملام ٣٤٠
شواهد لألفاظ وضعت في غير موضعها ليس على وجه الاستعارة ولا الحقيقة ٣٤٩

رؤية ابن سنان الفكرية في استعارات أبي تمَّام ٣٥٥
شواهد الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني ٣٥٨
الاستعارة في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ٣٥٩
شاهد الاستعارة القريبة من الحقيقة ٣٧١
شاهد على مسألتين بلاغيتين ٣٧٤
أولًا: أن إسقاط ذكر المشبه من شأن الاستعارة ٣٧٤
ثانيًا: متى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح ٣٧٧
شواهد المبالغة والاستعارة والاقتران بشعر النابغة ٣٧٩
شاهد ترشيح الاستعارة وتناسي التشبيه ٣٨٥
شاهدان على أن حسن الاستعارة يكمن في نظمها ٣٨٨
رؤية عبد القاهر الفكرية في استعارات أبي تمَّام ٣٩٥

الفصل الثالث

شواهد الكناية عند البلاغيين والنقاد من شعر أبي تمَّام

شاهد المماثلة المعيبة عند العسكري ٤٠٥
شواهد التمثيل عند ابن سنان ٤١٢
شاهد الكناية عن نسبة عند عبد القاهر ٤١٨
الخاتمة ٤٢٦
ثبت المصادر والمراجع ٤٣١
فهرس تحليلي لمحتوى الرسالة ٤٤٠